شرح مقامات الحريري

لأبي العبّاس أحمد بن عبد المؤمن القيسي الشريشي

تحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء الخامس



١٤١٣هـ ١٩٩٢م

شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة العصرية للطباعة والنشر

الدار النموذجية المطبعة العصرية

بيروت - ص.ب ٨٣٥٥ - تلكس SCS ٢٠٤٢٧ LE

صيدا - ص.ب ٢٢١ - تلكس LE ٢٩١٩٨

بسم الله الرحمن الرحيم

المقامة الحادية والأربعون وهى التِّنِّيسيّة

حدَّث الحارث بن همَّام قال : أَطَعْتُ دَوَاعِي التَّصَابِي ، فى غُلَوَاءِ شَبَابِي ؛ فَلَمْ أَزَلْ زِيراً لِلْغِيد ، وأُذُناً لِلْأَغَارِيدِ ؛ إِلى أَنْ وَافَى النَّذِير ، وَوَلَّى الْعَيْشُ النَّضِير ؛ فقرمْتُ إِلَى رُشْدِ الانتباه ، وَنَدِمْتُ عَلَى ما فرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ . ثم أَخَذْتُ فِي كَسْحِ الْهَنَاتِ بالْحَسَنَاتِ ، وَتَلَافِي الْهَفَوَاتِ قَبْلَ الْفَوَاتِ ؛ فَمِلْتُ عَنْ مُغَادَاةِ الْغَادَاتِ ، إِلَى مُلَاقَاةِ التُّقَاةِ ، وَعَنْ مُقَانَاةِ الْقَيْنَاتِ ، إِلَى مُدَانَاةِ أَهْلِ الدِّيَانَاتِ ، وَآلَيْتُ أَلَّا أَصْحَبَ إِلَّا مَنْ نَزَعَ عَنِ الْغَيّ ، وَفَاءَ مَنْشَرُهُ إِلى الطَّيّ . وَإِنْ أَلْفَيْتُ مَنْ هُوَ خَلِيعُ الرَّسَنِ ، مَدِيدُ الوسَنِ ، أَنأَيتُ دَارِى عَنْ دَارِهِ ، وفرَرْتُ عَنْ عَرِّهِ وَعَارِهِ .

* * *

أطلعتُ دواعىَ التَّصابِي ، يقال : أطعت كذا ، وطعت له ، أى انقدت . والمطيع : المنقاد ، والتَّصابى: التّظاهر بالصِّبا و التشاغل به. ودواعيه : ما يدعوه إليه ، وغُلَوَاء الشباب : أوله وسرعته ، أراد : مِلْت إلى اللهو واللعب فى أوّل

شبابى ، فلمّا أتى الشيبُ أحببت الرجوعَ إلى الخير . زيراً : كثير الزيارة . والغِيد : جمع غَيْداء ، وهى الّلينة العنُق والمفاصل من النِّعمة . أذنًا للأغاريد ، أى كثير الاستماع للغِناء ، وفلان أذُن ، إذا كان يستمع من كلّ قائل ، ويقبل منه . وافى : أتى ، والنَّذير : الشيب ، لأنه منذر الإنسان بتمام العمر ، أى يُعلمه . وَلّى : رجع وزال . النَّضِير : الناعم ، يريد زَمَن الشَّباب .

ونؤخِّر ذكر الشيب ، فإنه يؤدّى إلى تغيير شرح المقامة ، ونتكلم هنا على ذهاب الشّباب .

[البكاء والأسف على ذهاب الشباب]

قال أبو عمرو بن العلاء : ما بكَتِ العربُ شيئاً ما بَكَتِ الشباب ، وما بلغتْ به ما يستحقّه .

الأصمعىّ : من أحسن ألفاظ الشعر المراثى والبكاء على الشباب ، قال ابنُ عباس رضى الله عنهما : الدنيا العافية ، والشباب الصحة .

ومن ألفاظ أهل العصر : الشَّباب باكُورة الحياة ، وروائح الجنة فى الشباب . أطيب العيش أوائله ؛ كما أنّ أطيب الثمار بواكرها .

قال الصولىّ : قد أكثر فى ذكر الشّباب القدماء وأهل الإسلام . وأجمع الحُذّاق بالشعر وتمييز الكلام وألفاظه ؛ أنه لم يُقَلْ فيه أحسنُ من قول منصور النَّمَرِىّ ، ووقع الإجماع عليه ، فما ضرّ تأخّره ، وهو :

مَا تَنقَضِى عَبرةٌ منِّى ولا جَزَعُ ... إذا ذكرت شباباً ليس يَرْتَجِعُ[1]

(١) الأغانى ١٣ : ١٤٥ ، أمالى المرتضى ٢ : ٦٠٦ ، حماسة ابن الشجرى ٢٣٩

بانَ الشبابُ وفاتَتْني مسرَّتُهُ   صروفُ دهرٍ وأيامٌ لهـا خُدَعُ
ما كنتُ أوفِي شبابى كُنْهَ غِرَّتِهِ   حتَّى انقَضَى فإذا الدّنيا له تبَعُ
إن كنتِ لم تَطْعَمِى ثُكْلَ الشَّباب ولمْ   تَشْجَىْ بغصَّتِه فالعـذر لا يقعُ
أبْكِي شَبَاباً سُلبناه وكان ولاَ   توفِي بقيمَتِه الدّنيـا ولا تَسَعُ
ماواجة الشَّيْبُ من عينٍ وإن رَمَقَتْ   إلّا لهـا نبوةٌ عنه ومُرْتَدعُ

وقال أبو نواس :

كانَ الشَّبَابُ مطيَّـةَ الجَهْلِ   ومحسِّنَ الضَّحِكاتِ وَالْهَزْلِ[(١)]
كان الجمالَ إذا ارْتَدَيْتُ به[(٢)]   وخرجتُ أخْطِرُ صيِّتَ النعـل
كان البليغَ إذا نَطقْتُ به   وأصاخت الآذان للمُمْلِي
كان المشفَّـعَ فى مآربه   عنـد الحِسَان ومُدْرِك التَّبْل[(٣)]
والْبَاعثى والنّاس قد رَقَدُوا[(٤)]   حتى أكون خليفةَ البَعْـلِ[(٥)]

وقال جحظة :

واهاً لأيّام الشبـا   بِ وما لَبِسْنَ من الزخارفْ
وزَوالهِنّ بمَا عرفـت من المنا كِرِ والمعارف
أيام ذكرك فى دوا   وين الصِّبا صَدْرَ الصحائف

---

(١) ديوانه ٣١١ ، أمالى المرتضى ٢ : ٦٠٧
(٢) المرتضى : « كان الجميل » .
(٣) التبل : الثأر ، وفى ط : « النبل » تحريف .
(٤) الديوان وأمالى المرتضى : « هجعوا » .
(٥) بعده فى الديوان والمرتضى :

والآمِرِى حَتَّى إذا عَزمَتْ   نفسى أعَانَ علىَّ بالْفِعْـلِ
فالآن صِرْتُ إلى مقارَبةٍ   وحَطَطْتُ عَنْ ظَهرِ الصِّبا رَحْلِي

وقال ابن أبى حارثة :

وَلَّى الشَّبَابُ فَخَلِّى العينَ تَنْهَمِلُ ... فقدُ الشَّبابِ بفقْد الرُّوحِ مُتَّصِلُ[(١)]

لا تكذبنَّ فما الدّنيا بأجمعها ... من الشَّبابِ بيومٍ واحدٍ بدلُ

وقال آخر :

شيئان لو بكت الدِّمَاءَ عليهما ... عيناى حتى تؤذِنا بذَهَاب

لم أبلغ المعشارَ من حَقَّيْهِمَا : ... فقدُ الشَّباب وفُرْقة الأحباب

أعرابى :

يا طيبَ أيّامِ الشَّبَابِ وعَصْرِهِ ... لو يُسْتَعَارُ جَدِيدُه فيعارُ[(٢)]

ما كان أقصرَ ليلَه ونهارَه ... وكذاك أيامُ السُّرورِ قِصارُ

وقال ابن عبد ربه :

قالوا شَبَابُكَ قد مَضَتْ أيَّامُهُ ... بالعيشِ قلْتُ وَقَدْ مَضَتْ أيامى[(٣)]

لله أية نعمة كان الصِّبا ... لو أنها وُصِلَتْ بطُول دَوامِ

حَسَرَ الشَّبابُ قناعَه عن رأسه ... وصحا العواذلُ بعد طُولِ مَلَامِ

فكأنّ ذاك العَيْشَ ظِلُّ غَمامةٍ ... وكأنَّ ذاك اللَّهْوَ طول مَنَامِ[(٤)]

وقال أيضاً :

صِبائى كَيْفَ صِرْتَ إلى نَفَادِ ... وبُدِّلْتَ البياضَ من السَّوادِ[(٥)]

---

(١) اللآلى لأبى عبيد البكرى ٣٣٧ ، حماسة ابن الشجرى ٢٣٩ ، معانى العسكرى ٢ : ١٥٢ ، ونسبة الأبيات فيها الى محمد بن حازم ، وانظر أيضا العقد ٣ : ٤٦

(٢) العقد ٣ : ٤٧ ، بنسبته الى اعرابى أيضا .

(٣) العقد ٣ : ٤٧

(٤) العقد : « طيف منام » .

(٥) العقد ٣ : ٤٨ ، وفيه : « شبابى كيف صرت » .

فما أبقى الحوادثُ منك إلا كما أبقت من القَمَرِ الدّآدى[١]
فراقُك عرّف الأحزانَ قلبي وفرّق بين عيني والرُّقاد
زمانٌ كان فيه الرُّشدُ غيًّا وكان الغيّ فيه من الرّشاد
يقبِّلني بدَلٍّ مِنْ قَتُولٍ[٢] ويُسعِدُني بوصلٍ من سُعَادِ
وأجنُبُه فيعطيني قِيادًا وَيَجنُبُني فأعطِيه قيادِي

قال الفرزدق :

إنَّ الملامةَ مثل ما بَكَرتْ بهـا من تحت ليلتِهـا عليك نَوَارُ[٣]
قالت : وكيف يميل مثلُك للصِّبا[٤] وعليك من سِمَةِ الحليم عِذَارُ
والشَّيْبُ ينهضُ فى الشَّباب كأنَّه ليلٌ يصيح بجانبيْه نَهارُ
إنّ الشباب لرابح مبتاعُه[٥] والشَّيْب ليس لبائعيه تِجارُ

قال إسحاق الموصليّ : قال لى المعتصم : لقد فَضَحك الشيب فى عارضَيْك ، فقلت : نعم يا سيّدى ، وبكيت ثم قلت :

تولّى شبابُك إلا قليـلاَ وحلَّ المشيب فصْبراً جَميـلاَ[٦]
كَفَى حَزَنًا بفراق الصِّبا وإن أصبَح الشَّيْب منه بديلا
فلمّا رأى الغانيات المشيـبَ أغضين دونىَ طَرْفاً كَحِيلاَ[٧]
سأنْدُب عَهْدَ انقضاء الصِّبا وأبكى الشَّبَاب بكاءً طويلا

(١) الدآدى : ثلاث ليال من آخر الشهر قبل ليالى المحاق .
(٢) العقد : « قبول » .
(٣) ديوانه ٤٦٧
(٤) الديوان : « وتقول كيف » .
(٥) الديوان : « لرابح من باعه » .
(٦) الخبر والشعر فى الأغانى ٥ : ٦٩ (ساسى) .
(٧) الأغانى : « أغضين دونك » .

وغنيتها . فبكى المعتصم ، وقال : لو قدرتُ على ردِّ شبابك لفعلتُ ولو بشَطْرِ مُلْكى ؛ فلم يكن لكلامه عندى جواب إلاّ أنْ قبّلتُ البساط بين يديه .

وأبْكَى بيتٍ وَرَد فى فقد الشباب قول أبى الغُصْنِ الأسدىّ :

أتأمُلُ رَجْعَةَ الدُّنيا سفاهاً ... وقد صار الشَّباب إلى ذهابِ

فليْتَ الباكياتِ بكلِّ أرضٍ ... جُمِعْنَ لنا فنُحْنَ على الشَّباب

وقال سَلامة بن جندل ، وهو جاهلىّ :

أوْدَى الشَّباب حميداً ذُو التَّعاجيبِ ... أوْدَى وذلِك شأوٌ غَيْرُ مطلوبِ[1]

ولَّى حثيثاً وهـذا الشَّيْبُ يطلبه ... لو كان يدركه رَكْضُ اليَعاقِيبِ[2]

أوْدى الشَّباب الّذى مجدٌ عواقبُه ... فيـه نَلَذُّ ولا لذّاتِ للشيبِ

وقال سَلاَمة أيضاً :

يا خَدُّ أمْسَى سوادُ الرأس خالَطَه ... شَيْبُ القَذال اختلاطَ الصَّفْوِبالكَدَرِ[3]

يا خَدّ أمست لُبانات الصبا ذهبتْ ... فلستَ منها على عَيْنٍ ولا أثرِ

كان الشباب لحاجاتٍ وكنّ له ... فقد فرغتُ إلى حاجاتىَ الأُخَرِ

وأنشد أبو العيناء :

ما فى يدىّ من الصِّبا ... إلاّ الصَّبابةُ والأسَفْ

جاء الشبـاب فما أقا ... م ولا ألَمّ ولا وَقَفْ

كان الشَّبَابُ كزائرٍ ... ملّ الزيارة وانصرفْ

والباب لا يُحْصَى كثرة .

---

(١) مطلع المفضلية ٢٢ ص ١١٩ . وأودى : هلك : ذو التعاجيب : كثير العجب .

(٢) اليعاقيب : جمع يعقوب ، وهو ذكر الحجل ، خصه لسرعته .

(٣) الأبيات لابن مقبل ، ديوانه ٧٣ ، ٧٤ ، وفيه : « يا حر » .

قوله : قرِمت لكذا ، أى اشتدّت شهوتى إليه ، وأصله شدّةُ الشهوة إلى اللحم . والرُّشْد والرَّشَد واحـد . فرّطت : ضيّعت ، وفرّط فى الشىء : قدّم فيه التقصير والعجز ، وهو من قولهم : فَرَطَ الفارطُ فى طلب الماء ، أى تقدّم القومَ إليه . وقرئ : ﴿ يا حَسْرَتنَا على مَافَرَطْنَا فِيها ﴾[1] ، بتخفيف الراء ، ومثله : ﴿ ياحسرتا على ما فَرَطت فى جَنْبِ الله ﴾[2] ومعنى القراءتين التقصير فى جَنْب الله ، أى فى حقه ، وقيل : فى أمر الله ، وقيل فى طاعته .

ابن الأعرابىّ : فى قرب الله . الفراء : الجَنْب : القرب ، والجَنْب معظم الشىء وأكثره ، ومنه : هذا قليل فى جَنْب مودّتك . الزّجاج : أى على ما فرّطت فى الطريق الذى هو طريق الله الّذى دعانى إليه .

وكَسْع الهَنَات ، أى طرْد القبائح والقاذورات ، والهَنَات ، كناية عن الفواحش والأفعال القبيحة ، مأخوذ من الْهَنِ ، وهو الفرْج ، وكَسْعُها : دَفْعها وإزالتها ، والكَسْع أن تضرب بيدك على دُبُر الشىء ، وكَسَعْتُهم بالسيف ، إذا اتَّبعْتَ أدبارهم ، فكأنه أزال القبائح عن نفسه ثم أتبعها بالدَّفع والضَّرْب ؛ حتى نفاها بحسناته ، والكَسْع أيضاً : أن تضرِب الشىءَ بصَدْر قدمك وقد كَسَعْتُه . الأصمعىّ : الكسع : سرعة المرّ ، وكسعته بكذا : جعلتُه تابعاً له .

تلافِى: تَدَارُك . الْهَفَوات: السّقطات والزّلاّت ، وقد هفا الرَّجُلُ ، إذا فعل المنكر وما يُكْرَه. الفوات : الموت . مغاداة : مباكرة ، وقد غاداه: أتاه بالغدوّ ، والغَادات : النَّواعم من النساء ، الواحدة غادة ، والتقاة : الخائفون ،

---

(١) سورة الأنعام ٣١
(٢) سورة الزمر ٥٦

الواحد تقيّ ، وقوله تعالى : ﴿ إلّا أنْ تتّقُوا منهم تُقَاةً ﴾[١] ، يجوز أن يكون الأتقياء ، ويجوز أن يكون مصدراً ، وهو أجود القولين : تقيتُه، واتّقيتُه تُـتَّقَى وتَقِيّةً وتُقًا وتِقاء ، أى حذرته ، والاسم التقوى . مقاناة : مخالطة وملازمة ، وهى مفاعلة من القَيْنة ، وهى الجارية المغنّية، والجمع قَيْنات . مداناة : مقاربة . ديانات ، هى من الدِّين ، أراد بها الطاعة . آلَيْت : حلفت. نزع : زال وكفّ . الغيّ : الضلال . فاء : رجع . مَنشْره : انتشاره فى الصِّبا واللهو . ألفيت : وجدت. خليع الرَّسَن : مسيّب فى المعاصى ، لا يكفُّه عن إتيانها عقل ولا دين ، وخَلَعْتُ رَسَنَ الدَّابة : تركْتُها ترعى حيث شاءت سائبة ، ومثله خَالِع العِذَار ، وخلع عِذاره ، أصلُه فى الدَّابّة إذا خُلِع عِذارُها فسُيِّبت ، فإن انفلَتَ رسنُهَا الذى تمسكها به ففرّت ، قيل : جرّت رسنَها ، وفلان يجرّ رسنه ، وبابه فى الاستعارة أنه مسيَّب فى الشهوات مجاهر بها . مديد الوَسن : طويل النَّوم ، أى فارغ البال من ذكرٍ أو صلاة بالليل أو قراءة . أنأيت : أبعدت . عرّه : جربه ودائه ، يريد أنه حَلَف ألاّ يصاحب إلاّ مَنْ كَفّ عن الصِّبا واللهو والنساء ، ومتى وجد أهل اللهو والغزل فرّعنهم وتركهم ، وقال الألبيرىّ فأحسن :

مَنْ حاد عن نهج الهدى فأضَلَّ قصْدَ سبيلِهِ
فتوقّ خَلّتَه فدِينُ المرء دِينُ خليلِهِ

وله أيضاً

ألاَ خَبَرٌ بمنتزَح النَّواحِي أطير إليه مقصوصَ الجناحِ[٢]

---

(١) سورة آل عمران ٢٨

(٢) من قصيدة له فى ديوانه ٨٤

وأسأله وألطفه عَسَاه   سَيَأسُو ما بدِينِيَ من جراحِ
ويجلُو ما دَجَى من ليل جَهْلى   بنور هُدًى كمنبلج الصَّباحِ
فأبصق فى محيَّا أم دَفْرٍ   وأهجرُها وأدفعها براحِى
وأصحُو من حُميَّاها وأسلُو   عفافاً عن جآذرها المِلاَحِ
وأصرفُ همَّتى بالكفِّ عنها   إلى دار السَّعادة والنَّجاح

* * *

فلمَّا أَلْقَتْنِي الْغُرْبَةُ بِتِنِّيس، وَأَحَلَّتْنِي مَسْجِدَهَا الأَنِيس، رَأَيْتُ ذَا حَلْقَةٍ مُلْتَحِمَة، وَنَظَّارَةٍ مُزْدَحِمَةٍ؛ وَهُوَ يَقُولُ بِجَأْشٍ مَكِينٍ، وَلِسَانٍ مُبِينٍ: مِسْكِينٌ ابْنُ آدَمَ وَأَىُّ مِسْكِينٍ! رَكَنَ مِن الدُّنْيَا إِلَى غَيْرِ رَكِينٍ، وَاسْتَعْصَمَ مِنْهَا بِغَيْرِ مَكِينٍ، وَذُبِحَ مِنْ حُبِّهَا بِغَيْرِ سِكِّينٍ، يَكْلَفُ بِهَا لِغَبَاوَتِهِ، وَيَكْلَبُ عَلَيْهَا لِشَقَاوَتِهِ، وَيَعْتَدُّ فِيهَا لِمُفَاخَرَتِهِ، وَلَا يَتَزَوَّدُ مِنْهَا لآخِرَتِهِ.

أُقْسِمُ بِمَنْ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ، وَنَوَّرَ الْقَمَرَيْنِ، وَرَفَعَ قَدْرَ الْحَجَرَيْنِ: لَوْ عَقَلَ ابْنُ آدَمَ، لَمَا نَادَمَ، وَلَوْ فَكَّرَ فِيمَا قَدَّمَ، لَبَكَى الدَّم، وَلَوْ ذَكَرَ الْمُكَافَآت، لاسْتَدْرَكَ مَا فَاتَ. وَلَوْ نَظَرَ فِي الْمَآل، لَحَسَّنَ قُبْحَ الأَعْمَال.

يَا عَجَباً كُلَّ الْعَجَبِ، لِمَنْ يَقْتَحِمُ ذَاتَ اللَّهَب، فِي اكْتِنَازِ الذَّهَبِ،

وَخَزْنِ النَّشَب ، لِذَوِى النَّسَب . ثمّ من الْبِدْعِ الْعَجيب ، أَنْ يَعِظَكَ وَخطُ الْمَشِيب ، وَتؤْذِنَ شَمْسُكَ بِالْمَغِيبِ ، وَلَسْتَ تَرَى أَنْ تُنِيب ، وَتهذِّبَ الْمَعِيب .

* * *

[ذكر تنّيس]

تِنّيس بلدة كبيرة ، وهى جزيرة أحدقت بها بحيرة يتَّصل بها النيل ، فتعذب عند زيادته ستة أشهر ، وتملح ستّة أشهر ، ويتَّصل بها خليج دمياط ، وخليجها ينقسم على شرقيها غربيّها ، ويلتقيان فى البحيرة ، فيسيرون بسفنهم من دمياط إلى تِنِّيس؛ دخولهم لها وخروجهم بريح واحدة محكَمة. وأهل تِنِّيس ذوو يسار ،وأكثرهم حاكة . وثياب الشروب التى تُصْنَع بها وبدمياط لا يُصْنَع مثلها فى الدنيا ، وليس فى الدّنيا طراز كَتَّان يبلغ الثوب منها دون أن يعين بذهب مائة دينار ، غير طراز تِنّيس ودمياط ، ويكتفى ثوبها بقصّارة يوم واحد فى البحيرة فيبيضّ . قال الْيَعْقوبى : مدينة تِنِّيس يحيط بها البحر الأعظم الملح ولها بحيرة يأتى ماؤها من النِّيل ، وهى مدينة قديمة بها تُعمل الثياب الرفيعة الصِّفاق والعَصْب والبُرود والوشْى ، وبها مَرْسىَ المراكب الواردة من الشام والمغرب .

قوله : ملتحمة ، أى منضمة ملتصقة . ذا حلقة : يريد واعظا قد حلّقه النـاس والنَّظّارة : النَّاظرون إليه . جَاشَ : تنفّس . مكين : شديد . مبين : مفصح . أىّ مسكين : ترحّم عليه لكثرة مسكنته وتعجّب منه . رَكَن :

سكن ولجأ . ركين شديد : قوىّ يُركَن إليه ، ورجل ركين ، أى وَقورٌ بيِّن الركانة ، والرَّكين الثابت . مكين : عزيزله مكانة ، أى منزلة رفيعة . ذُبح من حبِّها بغير سكين ، إشارة لعذابه فيها ومحنته ، لأنّ السِّكين تذبح المذبوح من ساعته ، ومَنْ يُذبح بحجَر أو عُود أو غير ذلك ، فهو فى تعذيب .

أبو موسى: قال النبى صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أحبّ دنياه أضرّ بآخرته ، ومن أحبَّ آخرته أضر بدنياه ، فآثر مايَبْقى على مايفْنى » .

وقال سفيان بن عيينة : ويلَكُمْ ياعلماء السوء ، لاتكونوا كالمنخُل يخرُج منه الدقيق الطيب فيمرّ ويمسك النُّخالة ، فكذلك أنتم تُخرِجون الحكمة من أفواهكم ، ويبقَى الغِلّ فى صدوركم ، ويحكم ! إنّ الذى يخوض النهّر لابدّ أن يصيب ثوبَه الماء وإن جَهَد ألاّ يصيبه ، كذلك مَنْ يحبّ الدنيا لاينجو من الخطايا .

يَكْلَف ، أى يولع بها ويشتدّ حبُّه فيها . غباوته : جهله . يكلَب : يشتدّ حرصه ، وكَلِب على الشيء : ألحّ فى طلبه ، وأصله من الكَلَب وهو السُعر فى الكلاب . يعتدّ : يستعدّ . مرَج : خلَط ، وقيل : أرسلهما وخلاّهما كما تسرح الدابّة فى مرعاها . والقمرين : الشمس والقمر ، غلَّب لفظ القمر لخفّته بالتذكير وإن كانت الشمس أنْوَر ، وهى أصْلُ لنور القمر ، ولهذا قال المتنبى :

وَمَا التَّأْنيثُ لاسم الشمس عيْبٌ ولا التَّذْكير فخرٌ للهلال[1]

أراد أنّ الشمس أنور وأضوأ ، فما يضرّ ها تأنيث اسمها ، ومايبفع الهلال تذكيرُ اسمه ، وهو ناقص عنها ، فاخفّة لفظ القمر غُلِّب ، كما قالوا : العمران

---

(١) ديوانه ٣ : ١٨

لأبى بكر وعمر ، وأبو بكر أفضل من عُمر باتّفاقٍ من أهل السنَّة ، فغلّب لفظ عمر لخفّته بإفراده وقلة حروفه .

[مما قيل فى القمر]

ومما يحُسن موقعه مع قوله : ونَوّر القمرين ؛ أنّ أعرابيًّا أضلَّ الطريق فمات جزَعًا ، وأيقين بالهلاك ، فلما طلع القمر اهتدَى ، ووجد الطريق، فرفع إليه رأسَه ليشكره ، فقال له : والله ما أدرى ما أقول لك ، ولا ما أقول فيك ! أقول : رفعك الله ، فالله قدْ رفعك ، أم أقولُ : نَوَّرك الله ، فالله قد نَوَّرك ، أم أقول : حسّنك الله ، فالله قد حسَّنك ، ولكن مابقيَ إلاّ الدعاء أنْ يُنْسِيء الله فى أجلك ، وأن يجعلنى من السوء فداءك .

وضَلَّتْ ناقة لأعرابيّ فى ليلة مظلمة ، فأكثر فى طلبها ، فلم يجدها ، فلما طلع القمر وانبسط نوره وجدَها إلى جانبه ببعض الأوْدية ، وقد كان اجتاز بموضعها مِراراً فلم يرها لشدّة الظلام ، فرفع رأسه إلى القمرِ ، وقال :

ماذا أقوال وقولى فيك ذو خطرٍ وقد كفيتَنِيَ التَّفْصيل والجملا
إن قلت لازلت مرفوعاً فأنت كذا أو قلت زَانك ربِّى ، فهو قد فَعلاَ

ومما قيل فى ذمّه : عربد بعض المجّان على القمر ، فقال : والله إنك لتفتّت الكتَّان ، وتُغيِّر الألوان ، وتصفِّر الأسنان ، وتخثّر الأبدان ، وتسدّد الآذان ، وتفضح السّكران ، وتظهر الكتمان وتقلق الصبيان ، وتبيض الأرْجُوان ، وتلحس الزعفران ، وتهزل الحيتان ، وتمحق الأدمغة بالنقصان .

وقال ابن المعتز يذمه :

يا سارق الأنوارِ من شَمْسِ الضُّحَى يامُنْشكلِى طيبَ السكرى ومنغصِى(١)

---

(١) ديوانه ٢ : ١٣٢

أمّا ضيـاء الشمس فيك فناقصٌ[١]   وأرى حرارة نارها لم تنقصِ[٢]
لم يظفـــرِ التّشبيه فيك بطائلٍ   متسلّخ لوناً كلـــون الأبرص

قوله : الحجرين ، أى الذهب والفضة . وقيل الحجَر الأسود ومقام إبراهيم عليه السلام . نادم : صاحب ، والنَّدِيم الصاحب على الخمر . المكافآت : المجازاة . المـآل : المرجع . ذات اللهب : صاحبة النار ، يعنى جهنّم . يقتحم : يترامى فيها ، وهذا من قول رسول الله صلى الله عايه وسلم : « إنّى لآخذ بِحُجَزِكم عن النار ، وأنتم تقتحمون فيهـا ، كما تقتحم الفراش والجنادب » .

الخَزْن : الجمع . البِدْع : الحدث لم يكن ثم كان ، وقد ابتدعت الشىء : أحدثته ، وسقت الناس إلى فعله . وَخَط : اختلط ، وقدَ وَخَط الشيب الشَّعر ، إذا خالطه وفشَا فيه . وتؤذن : تعلم . شمسك بالمغيب : نفسك بالذهاب . تنيب : ترجع وتتوب . تهـــذب : تخلّصه من العيب . والمعيب : الـكثير العيب . يرشد : يهدى ويدلّ الطريق .

[مما قيل فى الدنيا]

ونذكر هنا شيئاً مما قيـل فى الدّنيا موافقةً للحريرىّ ، ثم نعود إلى ذكر الشيب :

ومن خُطبة قَطَرِىّ بن الفُجاءة فى ذم الدنيا :

ألستم فى مساكن مَنْ كان أطولَ منكم أعماراً ، وأعدّ عَدِيداً ، وأوضح آثاراً ، وأكثر جنوداً ، وأعدّ عتاداً ، وأطولَ عماداً ؛ تعبَّدُوا للدّنيا أىّ تعبُّد ،

---

(١) الديوان : « ضياء الشمس منك » .
(٢) الديوان : « حرارتها بها » .

وآثروها أيّ إيثار ، وظعنوا عنها بالكُرْه والصَّغار ، فهل بلَغكم أنّ الدنيا أسمحتْ لهم نفساً ، وأغنت عنهم بِحيلة ، بل أرهقتهم بالحوادث ، وضَعْضَعتهم بالنوائب ، ودهمتهْم بالمصائب ، أرأيْتُم مكرها بمن دان لها وآثرها ، وأخلد إليها ، يقول الله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وزِينَتَهَا ﴾[1] إلى قوله : ﴿ وبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[1] .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي هريرة رضي الله عنه : « ألاَ أُريك الدنيا جمعاء بما فيها ؟ قال : قلت : بلى ، فأخذ بيدى ، وأتى وادياً من أودية المدينة ، فإذا مَزْبَلَة فيها رءوس الناس وعَذِرات وخِرَق ، فقال : يا أبا هريرة ، هذه الرءوس كانت تحرِص حرصكم ، وتأمُل أملكم ، ثم هي اليوم عظام ، ثُمّ غداً رماد ، وهذه العَذِرات ألوان أطعمتهم اكتسبوها من حيث اكتسبوها فقذفوها فى بطونهم ، فأصبحت والنَّاس يتحامُونها ، والريح تصفقها ، وهذه عظام دوابّهم التي كانوا بها ينتجعُون أطراف البلاد ، فمن كان باكياً على الدنيا فليبك » . فما بَرِحْنَا ، حتى اشتدّ بكاؤنا .

مرّ أبو عثمان الدّباغ ، برجلٍ على كنيف ، فقال له : إلى هذا انتهت دنيا القوم .. وقال الشاعر :

ولقد سألتُ الدارَ عن أخبارهمْ ... فتبسَّمتْ عَجَباً ولم تُبْدِى

حتى مررتُ على الكَنِيف فقال لى ... أموالُهم ونوالُهُمْ عِنْدى

ويُروى أنّ عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام مرّ بجمجمة فضربها برجله ، وقال : تكلّمِي بإذن الله ، فقالت : يا رُوحَ الله ، أنا مَلِكٌ زمن كذا ، فبينما أنا جالس فى مُلْكِي ، علىّ تاجى ، وحولى حَشَمِي وجنودى على سريرى ،

(١) سورة هود ١٥ ، ١٦

إذ بَدَا لى مَلك الموت وظهر ، فزال عنىّ كلّ عضوٍ من موضعه ، ثم خرجَتْ إليه نفسى .

ولبعض الزّهاد :

دُنيـــا تُخَادِعُنِى كأنّى لَسْتُ أعرِفُ حالهَا
مَدّت إلىّ يمينَهـــا فقطعتُهـــا ، وشِمالهَا
منـع الإلهُ حرامَها وأنا اجْتَنَبْتُ حَلاَلَها
ورأيتهـــا مُحْتَاجَةً فوهبتُ جُمْلَتَهـا لهَا

ولبعضهم :

هَبِ الدُّنيـا تساقُ إلَيْـكَ عفواً أَلَيْس مصيرُ ذاكَ إلى انتقالِ
وما دُنْيَاكَ إلاّ مثـــلُ فىءٍ أظلّكَ ثمّ آذَنَ بالزّوالِ

أبو العتاهية :

يا مَنْ ترفَّع بالدُّنيا وزينتِهـــا ليس التّرفُّع رَفْعَ الطِّينِ بالطِّينِ
إذا أرَدْتَ شريفَ القوم كُلّهِمِ فانْظُرْ إلى مَلِكٍ فى زِىِّ مِسْكِين
أرى أناساً بأدنى الدِّين قد قَنَعُوا ولا أراهم رضُوا فى العيش بالدُّون
فاسْتغْنِ بالله عن دنيا الملوك كما اسْـتَغْنَى المـلوكُ بدنياهمْ عن الدِّين

وقال التّهامىّ :

حُكْمُ المنيّـةِ فى البريّة جارِى ما هَــذه الدُّنيـا بدارِ قَرارِ[1]
بَيْنَا يُرَى الإنسانُ فيها مخبِراً حتى يُرَى خبراً من الأَخبـار
طُبِعتْ على كدرٍ وأنت تريدها صَفْواً من الأقذار والأكْدَارِ
ومكلّف الأيّام ضِـدّ طباعِها متطلِّبٌ فى المـاء جَـذْوَة نَارِ

---

(١) ديوانه ٤٧

وقال أبو حاتم: إنّما بيني وبين الملوك واحدة ؛ أمّا أمسِ فلا يجدون لذته ، وأنا وإيَّاهم في غد على وجَل ، وإنما هو اليوم ، فما عسى أن يكون اليوم ! أخذه أبو العتاهية فقال :

حَتّى متى نحن في الأيّام نحسَبُها   وإنما نحنُ فيها بين يَوْمَين[1]
يومٌ تولّى ويومٌ نحنُ نأمُلُه   لعلَّه أجلبُ الأيام للحيْنِ

ولحاتم :

ما الدّهر إلا اليومُ أو أمسِ أو غدُ   كذا الدّهر فيما بيننَا يترددُ
يردّ علينا ليلةً بعْدَ يومها   فلا عمرُنا يَبْقَى ولا الدّهر يَنفَدُ

وللفقيه الباجي:

إذا كُنتُ أعلم علماً يقيناً   بأنّ جميع حياتي كساعَهْ
فلِمْ لا أكون ضنيناً بها   وأجعلُها في صلاحٍ وطاعَهْ!

وله أيضاً :

تبلَّغْ من الدُّنيا بأيْسَرِ زادِ   فإنك عنها راحلٌ لمَعادِ
وغُضّ عن الدّنيا وزخرف أهلها   جفونَكَ واكحُلْهَا بطيب سهادِ
وجَاهدْ عن اللّذات نفسَك جاهداً   فإنَّ جهاد النَّفس خيرُ جِهَادِ
وما هي إلا دارُ لهوٍ وفتنةٍ   وإنّ قصارى أهلها لِنفَادِ

وقال آخر :

وما أهلُ الحياة لنا بأهْلٍ   ولا دارُ الفَنَاء لنَا بدارِ
وما أموالُنا إلاّ عَوارٍ   سيأخذها المعيرُ من المُعَارِ

---

(١) ديوانه ٢٧٢

ولأبي العتاهية :

قطعتُ منكِ حبائل الآمالِ وحططتُ عن ظهر المطيّ رِحالي
ووجدتُ بَرْد اليأس بين جوانحي فأرحتُ من حَطّي ومِنْ ترْحالي
فالآن يا دُنيا عرَفتُكِ فاذهبي يا دارَ كلّ تنقُّل وزوالِ
والآن صار لىَ الزمان مؤدّباً فغدا وراحَ علىّ بالأمثالِ
يأيُّها البَطَلُ الّذى هو من غدٍ فى قبره متفرّق الأوْصالِ
حِيَلُ ابن آدمَ فى الأمورِ كثيرةٌ والموت يقطع حِيلَةَ المحتالِ

وللقاضي أبى حفص بن عمران :

أيها المغترُّ بالزّمَنِ فى هواه خالع الرّسَنِ
حبّك الدنيا وزينتها فتنة عَمّتْك بالفِتَنِ
ظَلْتَ والحالاتُ شاهدةٌ عاكفاً منها على وَثَنِ
فاهجرنْها إنّ زينتَها زينةٌ شانت ولم تزنِ
خدعتْك إنهاَ قُبحتْ باطناً فى ظاهرٍ حَسَنِ
واسْلُ عن حرصٍ وعن طَمعٍ أملا يردى وعنِ وعَنِ
ولتقدّم ما تُسرّ به قبل طول البثّ والحزَنِ
فكأنّ أُخْراك ما برِحتْ وكأنّ دنياك لم تَكُنِ

* * *

ثمّ اندفع يُنْشِدُ ، إنشادَ مَنْ يُرْشِد :

يَا وَيْحَ مَنْ أَنْذَرَهُ شَيْبُهُ وَهُوَ عَلَى غَيِّ الصِّبَا مُنْكَمِشْ
يَعْشُو إِلَى نَارِ الْهَوى بَعْدَمَا أَصْبَحَ مِنْ ضُعْفِ الْقُوَى يَرْتَعِشْ
وَيَمْتَطِى اللَّهْوَ وَيَعْتَدُّهُ أَوْ طَأْمَا يَفْتَرِشُ الْمُفْتَرِشْ

لَمْ يَهَبِ الشَّيْبَ الذى ما رَأى نجـومَهُ ذُو اللُّبِّ إِلَّا دُهِشْ

وَلَا انْتَهى عَمَّا مَا نَهَاهُ النُّهَى عَنْهُ وَلَا بَالَى بِعِرْضٍ خُـدِشْ

فَذَاكَ إِنْ مَاتَ فَسُحْقاً له وَإِنْ يَعِشْ عُـدَّ كَأَنْ لم يَعِشْ

لَا خَيْرَ فى محيا امرئٍ نَشْرُهُ كَنَشْرِ مَيْتٍ بَعْدَ عَشْرٍ نُبِشْ

* * *

قوله : يا ويح من أنذره شيبه ، ويح كلمة ترحم ؛ أنذره : أبلغه وحذّره . غَىّ : ضلال . منكمش : مسرع إليه ملازم له ، وقد كَمَشَ الرّجُل وانكمش فى أمره : استمرَّ ومَضَى فيه مسرعاً .

ومن قولهم فى الشيب

فى هذا المعنى ما قال أكثم بن صيفىّ : الشيب عنوان الموت

وقال العتابىّ : الشَّيْبُ نذيرُ الموت .

وقال النُّميرىُّ : هو عِنْوان الكِبَر .

قيس بن عاصم : هُو خِطام المنيّةُ .

محمود الوراق : الشّيْب إِحْدى الميتتين .

المعتز بن سايمان : الشيب موت الشَّعْر ، وموت الشّعر عِلّةٌ لموت البشَر .

أعرابىّ : كنت أنكر السوداء ، فياخير مبدول ويا شرَّ بدَلٍ ! أَخـذه حبيب فقال :

شابَ رأسى وما رأيتُ مشيب الرّأسِ إلاَّ مِنْ فَضْلِ شَيْبِ الفُؤادِ[1]

(١) ديوانه ٧٥

وكذاك الرءوس من كلّ بؤسٍ[١] ونعيمٍ طلائــــعُ الأجْسَادِ
طال إنكارىَ البياضَ وإنْ عُمِّـــرتُ شيئاً أنكرتُ لون السَّوَادِ[٢]
زارنى شخصُه بطلعــة ضَيْمٍ عَمَّرَتْ مجلسِى من العُـــوَّادِ

قيـل للنبى صلى الله عليه وسلم : عجَّل عليك الشيب يا رسول الله ، فقال : « شيَّبتنى هود وأخواتها » .

وقيل لعبد الملك: عَجَّل عليك الشيب يا أميرَ المؤمنين ، فقال شيَّبنى ارتقاء المنار وتوقُّع اللحن .

وقيل لشاعر : عَجَّل عليك الشيب، فقال : كيف لا ،وأنا أعصِرُ قلبى فى عملٍ لا يُرْجَى ثوابه ، ولا يؤمن عقابه .

وقال محمود الوراق رحمه الله :

بَكَيْتُ لقُرْبِ الأَجَــلْ وَبَعْــد فواتِ الْأَمَـــلْ[٣]
ووافـــدِ شَيْبٍ طـرَا بعَقْبِ شبابٍ رَحَـــلْ
شبابٌ كأَنْ لم يكُنْ وشيبٌ كأَنْ لم يَزَلْ

وقال حبيب :

غَــدَا الشَّيبُ مُخْتَطًّا بفوديَّ خُطَّةً
طريقُ الرَّدَى منها إلىالنَّفْس مَهْيَع[٤]

---

(١) الديوان : « وكذاك القلوب » .
(٢) بعده فى الديوان :

نالَ رأسِى من ثُغْرةِ الهَمِّ داءٌ لم ينَلْه من ثُغْرةِ الميلادِ

(٣) العقد ٣ : ٤٢
(٤) ديوانه ١٩٠

هو الزَّوْرُ يُجْـفَى والمُعاشِرُ يُجْتَوَى ... وذُو الإلف يُقْلَى والجديد يرقَّعُ
له مَنْظَرٌ فى العين أبيضُ ناصعٌ ... ولـكنَّه فى القلبِ أسودُ أسفعُ
وَنحْنُ نُرَجِّيه على السخط والرضا[1] ... وَأَنْفُ الفتى من وجْهِهِ وهو أجْدَعُ

وقال ابن عبد ربه :

شَبَابُ المرء تُنْفِدُه اللَّيـالِى ... وإنْ كانت تَصِيرُ إلى نفَادِ[2]
فأسْوَدُه يعود إلى بيـاضٍ ... وأبيضُه يعودُ إلى سَـوَاد

أخذ هـذا من قول المستوغِر بن ربيعة حين دخل على معاوية ، وهو ابن ثلثمائة سنة ، فقال : كيف تجدك يامستوغر ؟ قال: أجدنى قد لاَن منِّى ما كنت أحبّ أَن يشتدّ ، وابيضَّ منِّى ما كنت أحبُّ أَن يسودّ .

وقال ابن عبد ربه :

أطـلالُ لهوِكَ قد أقوتْ مغانيها ... لم يبقَ من رَسْمِها إلا أثَافيها[3]
هذِى المفارق قد قامت شواهدُها ... على فنائك والدُّنيا تُزَكِّيهـا
للموت سفتَجَةٌ فيهـــا معنونة ... لم يبق للموت إلا أَنْ يسحِّيها[4]

* * *

قوله : يعشو ، أى ينظر ببصر ضعيف . يمتطى : يركب . يعتدّه : يحسبه . المفترش : المضطجع على الفراش ، يريد أنه يركب اللّهو فيلتذّه ويجده وطيئاً . يَهَب : يخَفّ . اللّب : العقل : دُهِش : تحيّر . النُّهى : جمع نُهْية ، وهى العقل ينهَى عن القبيح ، وينتهى به إلى حسن الرأى فى الأمور ، ويقال : نهاه عن ذلك نُهاه ، أى عقله .

(١) الديوان : « على الكره والرضا » .
(٢) العقد ٣ : ٤٤
(٣) العقد ٣ : ٤٤
(٤) يقال : سحى القرطاس ، اذا أخذ منه سحاءة ، والسحاءة : ما يقشر عنه .

وأنشد أبو طاهر السِّلَفِيّ ، قال : أنشدنى القاضى أبو محمد بن الحسن بن نصر بن مرهف النّهاوندىّ ، قال : أنشدنى الأديب المدنىّ لنفسه فى نفسه :

لِى عَلَى النَّاسِ فضلُ نظمٍ ونثرٍ   مَنْ أَبَاهُ هجوتُه وَأَبَاهُ

وإذا ما أتى صفعتُ قفــاهُ   وقفَا مَنْ أعانه وَقَفَــاهُ

رحم الله من أراد مُحَــالاً   فنهــاهُ عن المحال نُهَاهُ

قوله : خُـدِش ، أى ذمّ وسُبَّ ، وأصل الخدْش الأثر فى الجِـلْد ، ثم اتُّسع فيـه ، فَجُعِل للعِرْض . سحقا : بعــدا ، والنَّشْرُ : الرِّيح ؛ طيِّبة كانت أو خبيثة . نُبِش : أُخْرِج ، وكل مدفون أخرجتَه فقد نبشتَه . وأخذ هــذا البيت من قول ابن المعتز :

تبحَّثْتُ عن آثاره فكأنَّمَا   نبشت عليه بعـد ثالثةِ الدَّفْنِ

وله :

أُثنِى عليك بمثـل ريحك ميِّتاً   فى عقبِ يوم تزفُّك الأعوادُ

وأخذ هذا وهذا من قول عمر بن عبدالعزيز : لو رأيتَنى بعد ثالثة ! وتقدّم فى الحادية عشرة .

* * *

وَحَبَّذَا مَنْ عِرْضُه طَيِّبٌ   يَرُوقُ حُسْناً مِثْلَ بُرْدٍ رُقِشْ

فَقُلْ لِمَنْ قَدْ شَاكَهُ ذَنبُه :   هَلَكْتَ يامِسْكِينُ أَوْ تَنْتَقِشْ

فَأَخلِصِ التَّوبَةَ تَطْمِسْ بِهَا   مِنَ الْخَطَايَا السُّودِ مَا قَدْ نُقِشْ

وَعَاشِرِ النَّــاسَ بِخُلْقٍ رِضاً   وَدَارِ مَنْ طَاشَ وَمَنْ لم يَطِشْ

وَرِشْ جناح الْحُرِّ إن حَصَّهُ   زَمَانُهُ ، لَا كَانَ مَنْ لم يَرِشْ

وَأَنْجِدِ المَــوْتُور ظَالِماً فَإِنْ عَجَزْتَ عَنْ إِنْجَادِهِ فَاسْتَجِشْ
وَانعَشْ إِذَا نَادَاكَ ذو كَبْوَةٍ عَسَاكَ فِي الْحَشْرِ بِهِ تَنْتَعِشْ
وَهَاكَ كَأسَ النُّصْحِ فَاشربْ وَجُدْ بِفَضْلَةِ الكَأسِ عَلَى مَنْ عَطِشْ

* * *

يروق : يُعجِب : بُرْد : ثوب . رُقِش : رقِم وَزُيِّن ، تقول : رقشتُ يدَ المرأة بالحِنَّاء والحائطَ بالأصباغ والقرطاسَ بالمِداد ، وشبه هذا شاكه ذنبُه ، يقال : شاكه يشُوكه ، إذا دخل فيه شَوْكة ، قال الشاعر :

لا تنقُشَنّ برجلِ غيرِك شَوْكةً فتَقِي برجلِك رجْلَ من قدْ شاكَها

فشاكها ، أَدْخَل فيها الشوك ، وشاكَتْه الشوكة : دخلت فيه ، وشُكْتُه أنا ، إذا أدخلتَ الشوكة فى جسمه ، فإنْ أصابك الشَّوك قلت : شاكنى الشَّوْك يشوكُنِى شَوْكاً . وانتقشت حقِّى من فلان ، إذا استخرجتَه ولم تترك منه شيئاً .

وقال صلّى الله عليه وسلم : « وإن شيك فلا انتقش » ، فشِيك أصابه الشوك ومعناه إذا وقع فى شرٍّ فلا يخلص منه .

تَنْتَقِش : تخرج الشَّوْكة وتبحث عليها ، وأوْ بمعنى إلاَّ . والمناقشة : البحث والاستقصاء ، ومنه مناقشة الحساب ، وبذلك سمى المِنْقاش ، وقال ابنُ الرومىّ :

إذا رُمْتُ بالمنقاشِ نَتْفَ أشاهِبى أتيح لهــا من بينهنّ الأباهمُ
يُرَاوِغ منقاشِى نجومَ مسايحى وهنَّ بعينى طالعاتٌ نَوَاجِمُ

تطْمِس : تمحو . ونقش : كتب ، والنَّقش يستعمل فى مثــل الخشب والحائط والصَّخْر ، والنَّقْش : الفتح والتأثير فى نفس المنقوش . وقال الألبيرىّ فى معنى هذا البيت :

مَنْ لَيْسَ يسعى فى الخلاص لنفسِه كانت سعايتــه عليها ، لا لَهَــا[1]

(١) ديوانه ٩١

إنّ الذنوب بتوبةٍ تُمْحَى كَمَا يمحُو سجودُ السَّهْوِ غفلةَ مَنْ سها

قوله : عاشر ، أى صاحبْ . دارِ : عامِلْه بما يحبّ ، وَامْشِ على غَرضِه . طاش : خَفّ عقْلُهُ ، ورجل طَيَّاشٌ غير مقتصد فى قوله ، وهو مِنْ طاش السهم ، إذا لم يصب ووقع على غير قَصْد ، ومثله قول أعرابيٍّ لبنيه : عاشرُوا النَّاسَ مُعَاشرةً إذا غبتم حنُّوا إليكم ، وإن متُّمْ بكَوْا عليكم ؛ وهذا من قول الشاعر :

وأكرِمْ كريماً إن أتاكَ لحاجةٍ لفاقَتِه إنَّ العصاةَ ترُوحُ

وقال الأضبط بن قريع :

لا تهين الفقيرَ عَلَّكَ أنْ تَرْكَعَ يوماً والدّهر قد رَفعَهْ[1]

رش الجناح : اكسه الريش ، والمعنى أصلِح حال الحرّ إذا افتقر . حَصّه : نتفه . أنجِد : قوّ وأعِنْ ، والموتور : المظلوم الَّذى قتِل له أخ أو ولد أو نسيب . اسْتَجِشْ : اجمع جيشاً ، والمعنى : إذا لم تقدر على إعانة مظلوم ، فتوسَّط لمن يُعينه . انعش : ارفع . كبوة : سَقْطة وعثرة . تنتعش : ترتفع وتقوم من عَثْرتِكَ . هاكَ : خذ ، والمعنى خذ كأس النصيحة فاشربْهَا فإذا رويتَ فاسْقِ غيرك . ولا يقال كأس إلاّ إذا كان فيها شراب .

* * *

قال : فلمَّا فرَغَ من مُبْكِياتِهِ ، وَقَضَى إنشادَ أبياتِهِ ، نَهَضَ صَبِيٌّ قَدْ شَدَنَ ، وَأَعْرَى الْبَدَنَ ، وَقَالَ : يا ذَوِى الْحَصَاة ، وَالْإنْصَاتِ إِلَى الْوَصَاةِ ، قَدْ وَعَيْتُم الْإِنْشَاد ، وَفقِهْتُم الإرشاد ، فَمَنْ نَوَى مِنْكُمْ أَنْ يَقْبَلَ ، وَيُصْلِحَ الْمُسْتَقْبَلَ ، فَلْيُبِنْ بِبِرّى عن نِيَّتِهِ ، وَلَا يَعْدِلْ

---

(١) الشعر والشعراء ٣٨٣ ، وهو من أبيات الشواهد ، على أن نون التوكيد الخفيفة تحذف لالتقاء الساكنين والأصل : « لا تهينن » .

عَنِّي بعطيَّتِه ؛ فوالذي يَعلم الأسرار ، ويغفِرُ الإِصْرَار ؛ إنَّ سِرِّي لَكما تَرَوْنَ ، وإنَّ وَجْهِي لَيَسْتَوْجِبُ الصَّوْن ؛ فَأَعينُونِي رُزِقْتم العَوْنَ .

قال : فأَخَذَ الشَّيْخُ فيما يَعْطِفُ عَلَيْهِ الْقُلُوبَ ؛ ويُسَنِّي لَهُ الْمطلُوب ؛ حَتَّى أَنْبَطَ حَفْرُهُ ، وَاعْشَوْشَبَ قَفْرُهُ . فَلَمَّا أَنْ تَرَعَ الْكِيسُ ؛ انْصَلَتَ يَمِيسُ ، وَيَحْمَدُ تَنِّيس ، ولم يَحْلُ لِلشَّيْخِ المُقَام ، بَعْدَمَا انْصَاعَ الغلام . فَاسْتَرْفَعَ الْأَيْدِي بالدُّعاءِ ، ثُمَّ نَحَا نَحْوَ الانْكِفَاء .

* * *

قوله : قضى ، أي أتمّ . نهض : قام وتقدّم . شَدَن : اشتدّ وقوِيَ ، وأصله في الظَّبي والصبيّ ، تقول : شَدَن الظبيُ ، إذا اشتدّ وترعرع ، وكذلك الصبيّ قال عمر بن أبي ربيعة :

إذْ تستَبِيك بمصقولٍ عوارضُه ومقلتَيْ جُؤْذَرٍ لم يَعْدُ أنْ شَدَنا[1]

أراد أنّه ترعرع للمشي وَالرَّعْي . أعْرَى البدن : تركه عُرْيانا . ذوي الحَصَاة : أهل العقول : والإنصات : السكوت وحسن الاستماع . والوَصَاة ، بمعنى الوصيّة كالتقاة بمعنى التقيّة ، وأصلها « وقيّة » قُلبت الواو تاء والياء ألفاً ، والواو إذا انضمّت في أول الكلمة كنتَ بالخيار ، إن شئت تركتَها ، وإن شئتَ قلبْتَها ، ولهذا تُركت في الوَصاة . وقيل الوَصَاة بفتح الواو في الوصيَّة ، وبضمّها جمع واصٍ كراعٍ ورُعاة ، وعيتم : حفظتم . فقهتم : فهمتم : الإرشاد : الهداية : أي قد فهمتم ما دُللتم عليه من الخيْرِ فافعلوا . نوى : قَصَد وأضمر ، وهو من النيّة ، وأراد بالمستقبل ، ما يستقبلُه من أفعاله . فلْيُبِن : فليفصح ويبيّن . ببرِّي : بإكرامي . عن نيّته : عن قصده وصِدْق باطنه . يعْدِلْ : يَمِلْ .

---

(١) ديوانه ٣٠٧

الإصرار : الإقامة على الذنب ، سرّى لكما ترون ، أى هو ظاهر لكم غير مستتر : الصَّوْن : الحوْطه فيما يعطف عليه القلوب ، يريد أنه أخذ فى كلام تحنّ به للصبىّ قلوب الناس . يسنّى : يسّهل ويُيَسّر . أنبط : أخرج الماء . القَفْر : مالا نبات فيه . اعشوشب تغطّى بالعشب ، يريد أنه استغنى بعد الفقر ، وضرب بأنْبَط وَاعشوشب المثل . ترَع : امتلأ ، والكِيس : وعاء الدراهم . انصَلت : تسلّل وخرج بسهولة . يميس : يتمايل ويتبختر . انصاع : ذهب مسرعاً وانفتل راجعاً . استرفع : طلب رفعها . نحانحو الانكفاء ، أى قصد قَصْد الانصراف .

* * *

قال الرّاوِى : فارْتَحْتُ إِلَى أَنْ أُعْجُمَهُ ، وَأُحُلَّ مُتَرْجَمَهُ ، فتبعتُه وهو يَشْتَدُّ فى سَمْتِهِ ، ولا يفتُقُ رَتْقَ صَمْتِهِ ؛ فلمَّا أَمِنَ الْمُفَاجِى ، وَأَمْكَنَ التناجِى ، لَفتَ جيدَه إِلَىَّ ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمَ الْبَشَاشَةِ عَلَىّ ، ثم قال : أراقَكَ ذَكَاءُ ذَاكَ الشُّوَيْدِنِ ؟ فقلْتُ : إِى والمؤمِنِ الْمُهَيْمِنِ ؛ قَالَ :إِنَّهُ فتَى السَّرُوجِىّ ، وَمُخرِجِ الدُّرِّ مِنَ اللُّجِّىّ . فقلت : إِنَّكَ لشَجَرَةُ ثَمَرَتِهِ ، وشُوَاظَ شَرَرَتِهِ . فصدَّق كهَانتى ، وَاسْتَحْسَنَ إبانَتِى . ثمَّ قال : هَلْ لَكَ فى ابْتِدَارِ الْبَيْتِ ؛ لِنَتنَازَعَ كَأْسَ الْكُمَيْت ؟ فقلت له : وَيْحَكَ ! ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ . فافتَرَّ افترارَ مُتَضَاحِك ، وَمَرَّ غير مماحِك . ثُمَّ بَدَا لَهُ أَنْ تراجَعَ إِلَىَّ ، وقال : احْفَظْهَا عَنِّى وَعَلَىّ :

اصْرِف بِصِرْفِ الرَّاحِ عَنْكَ الأسَى   ورَوِّحِ القلْبَ ولا تَكْتَئِبْ

وَقُلْ لِمَنْ لامَك فيما بِهِ   تَدْفَعُ عَنْك الهمَّ : قَدْكَ اتّئِبْ

قوله : ارتحت ، أى اشتهيت وطربت . أعجُمه : أَخْبُره . مترجَمه : ملتبسه يشتد : يجرى . سمته : طريقه . يفتق رتق : يشقّ غلق . صمته : مبهم أمره والفتْق : الخرْق ، والرّتْق : الإغلاق ، وهو ضـــدّه ،وذلك أن يضمّ المتخرّق بعضَه إلى بعض : التّناجِى : التّحادث . لفت جيده : عطف عنقه . البشاشة : الخِفّة وإبداءالسرور. أراقك؟ : أأعجبك؟ ذكاء: حِذْق ، والذّكاء: توقّد الذهن. الشُّوَيدِن: تصغير شادن، وأراد ابنَه. والمؤمن المهيمن، هو الله تعالى،والإيمان: التصديق . وقال أبو بكر بن العربى : البارئ تعالى مؤمن بتصديقه لنفسه بقوله ، وذلك حقيقتُه ، قال الله تعالى :﴿شَهِدَاللهُ أنه لا إله إلاّ هُوَ﴾، أو بتصديقه لرسله بإظهارِ المعجزة ، أولأوليائه بإظهار الـكرامة ، وهما مجازان . والمهيمن : الرقيب الحافظ .

الـكسائىّ : المهيمن : الشهيد . أبو عبيدة : الرقيب ، وقد هَيْمَن هيمنة . ابن الأنبارى : القائم على خلقه ، قال الشاعر :

ألا إنّ خير الناس بعـد نبِّيهمْ مُهيمنُه التّالِيهِ فى العُرْف والنُّـكْرِ

أى القائم على الناس بعده ، وأصله «مؤيمن» فأبدلوا من الهمزة هاء كما قالوا : أَرَقْت وهَرَقْت . وفى مثل مدح هذا الغلام بالذكاء قال الفضل بن جعفر:

فإن خَلَّفَتْهُ السنّ فالعقل بالغٌ به رتبـةَ الـكهْلِ المرشّحِ للمجْدِ
فقد كان يحيى أوتىَ الحـكم قبلَه صبيًّا وعيسى كلم النّاس فى المهدِ

وقال البحترىّ :

لا تنظرنَّ إلى العبّاس من صِغَرٍ
فى السنّ وانظر إلى المجد الّذى شادَا[1]

إنّ النّجوم نجومُ الجوّ أحقرُها فى العين أكثرُها فى الجوّ إصعادَا

---

(١) ديوانه ٦١٠ . وفيه : « لا تنظرن الى الفيــاض » ، والأصح ما فى الديوان ، و القصيدة فى مدح على بن محمد بن الفياض .

[ذكر نوادر الولدان]

ولمّا ذكر لهذا الصبيّ من فصاحة اللسان وبراعة البيان ما ذكر، وجب علينا أن نذكر من نوادر الولدان فصلاً كافياً يؤنس بما ذكر، لئلا نخلّ بما شرطناه، فقد تروى للولدان نوادر، ربما عجزت عنها الكهول ذوو البصائر.

حكى الخطّابيّ أنه قدم على عمر بن عبد العزيز وفدٌ فيهم شاب، فتحوّس للكلام، فقال عمر: كبِّرو أكبِرُوا، أى ليتكلَّم الكبراء منكم، فقال: الغلام يا أميرَ المؤمنين، لو كان [الأمر] بالسنِّ لكان فى المسلمين من هو أسنُّ منك.

قال عمر: صدقت! تكلّم.

فتحوّس: فتهيّأ للكلام.

وفى رواية: قدم وفد الحجاز على عمر فقدَّموا غلاماً منهم للكلام، فقال عمر: مهلاً، ليتكلَّم مَنْ هو أسنُّ منك، فقال الغلام: مهلاً يا أمير المؤمنين، إنَّما المرء بأصغريه: قلبه ولسانه، فإذا منح الله العبد لساناً لافظاً وقلباً حافظاً فقد أجاد له الحِلْية. قال: تكلَّم، قال: نحن وفود الشكر، لا وفود المرزئة[1]، لم تُقدِمْنَا إليك رغبة ولا رهبة، لأنّا أمِنّا فى زمانك ماخفنا، وأدركنا ما طلبنا.

ودخل محمد بن عبد الملك بن صالح على المأمون حين قُبضت ضياعهم وهو غلام صغير، فقال: السّلام عليك يا أميرَ المؤمنين، محمد بن عبد الملك، سليلُ نعمتك وابن دولتك، وغصنٌ من أغصان دوحتك؛ أفتأذن لى فى الكلام؟ قال: نعم. فحمِد الله تعالى وصلّى على نبيه، ثم قال: أمتعنا الله بحياطة ديننا ودنيانا،

(١) رزأه: أصاب منه خيرا.

ورعاية أقصانا وأدنانا ، ببقائك يا أميرَ المؤمنين ، ونسأله أن يزيد فى عمرك من أعمارنا ، وفى أثرك من آثارنا ، ويقيَك الأذى بأسماعنا وأبصارنا ، هذا مقام العائذ بظلِّك ، الهارب إلى كَنَفك وفضلك ، الفقير إلى رحمتك وعدلك . ثم سأل حوائجه فقضاها .

وقَحطَتِ البادية أيام هشام بن عبد الملك ؛ فوفد عليه رءوس القبائل فجلس لهم ، وفيهم صبىٌّ ، ابن أربع عشرة سنة ، يسمَّى درواس بن حبيب ، فى رأسه ذؤابة ، وعليه بُرْدة يمانية . فاستصغره هشام وقال لحاجبه : مايشاء أحدٌ أن يصل إلينا إلا وصل ، حتى الصبيان ! فقال درواس : يا أميرَ المؤمنين ، إنّ دخولى لم يُخلَّ بك ولا انتقصك ، ولكنّه شرّفنى ، وإن هؤلاء قدِمُوا لأمرٍ فهابوك دونه ، وإن الكلام نشر ، والسكوت طىّ لا يُعرَف إلا بنشره ؛ فأعجبه كلامه ، وقال : انشرْ لا أمّ لك ! فقال : إنا أصابتْنا سنون ثلاثة ، فسنة أكلت اللحم ، وسنة أذابت الشحم ، وسنة أنْقَتْ[1] العظم ، وفى أيديكم فضول أموالٍ ، فإن كانت لله عز وجل ففرِّقوها على عباده ، وإن كانتْ لهم فلا تحتبسوها عنهم ، وإن كانتْ لكم فتصدّقوا بها عليهم ؛ فإن الله يجزى المتصدّقين ، ولا يضيع أجر المحسنين ؛ وإنّ الوالىَ من الرعيّة كالروح من الجسد ، لا حياة له إلا به .

فقال هشام : ما ترك الغلام فى واحدة من الثلاث عذراً ، وأمر بمائة ألف دينار ففُرِّقَتْ فى أهل البادية ، وأمر له بمائة ألف درهم : فقال : اردُدْها فى جائزة العرب ، فما لى حاجة فى خاصّة نفسى دون عامّة المسلمين .

أحمد بن يحيى : حدّثنى السدرىّ أن نُميراً غزت حَنيفة فغنمتْ ، وتبعتْهم حنيفة فهزموهم ، وردُّوا غنائمهم ، فلقيتُ غلاماً منهم ، فقلت : كيف صنع قومك؟ فقال: تبعوهم والله، وقد أحقبوا كل جُماليّة خَيْفانة ، فما زالوا يخصفون

---

(١) أنقت العظم : أخرجت النقى منه . والنقى : مخ العظم .

أخفاف المطىّ بحوافر الخيل حتى لحقوهم بعد ثالثة . فجعلوا المرّان أرشيةَ الموت ، فاستقَوْا بها أرواحَهم .

وهـذا كلام فصيح كثير الاستعارة . أحقبوا : أُردِفوا بموضع الحقيبة ، والُجمَالية المرأة الجميلة : وخصف : خرز ، وتشبيه المرّان — وهى الأرماح — بالأرشية وهى الحبال حَسَن.

وجلس خالد القسرىّ يوماً للشعراء على الفرات ، فأنشدوه وأخـذوا الجوائز وانصرفوا ، ولم يبق إلاَّ غلام ، فقـال خالد : يا غلام ، أشاعر أنت ؟ قال : لا ولـكنى مُتَعلِّم ، وقد قلتُ شيئاً ، قال : هات ، فأنشأ يقول :

ألا هَلْ تَرى مَوْجَ الفُرَاتِ كأَنَّه جِبـال سُرورٍ قد أتينَكَ عوّما

وما ذاكَ من عاداته غـيْرَ أنه رأى شيمةً من جارِه فتعلَّما

وكان بقَى على البساطَ فَضْلة مال ، فقال له خالد : اطوِ البساط بما عليـه ، فأخذه الغلام بما عليه .

ورأى بعضُ الملوكِ غلاماً يسوق حماراً ، وهو يعنُف عليه ، فقال : ارفُق يا غلام ، فقال : أيها الملك ، فى الرفق مضرّة عليه ، قال : وما مضرّتُه ؟ قال : يطول طريقه ، ويشتدّ جوعه ، وفى العنف عليه إحسانٌ إليـــه ، يخفّ حمـله ، ويطول أكله . فأعجِب به ، وقال : قد أمرت لك بألف درهم ، قال : رزقٌ مقدور ، وواهب مأجور . قال : وقد أمرت بإثبات اسمك فى حَشَمِى ، قال : كُفِيتُ مئونة ، ورزقت بهامعونة ، قال : لولا صغرك لاستوزرتُك ، قال : لم يعدم الفضل من رزِق العقل ، قال : أفتصلح لذلك ؟ قال : إنما يكون الحمد أو الذمّ بعد التجربة ، ولا يعرف الإنسان نفسَه حتى يبلُوَها ، فاستوزره فوجده ذا رأى صائبٍ .

دخل الفرزدق — وهو غلام يافع — على سعيد بن العاص ، وقد أنشد أشعاراً والحطيئة حاضر فأنشده :

ترى الغرّ الجحاجح من قُرَيشٍ إذا ما الأمرُ فى الحدثان عالاَ[(١)]
قياماً ينظرون إلى سـعيدٍ كأنهُمُ يَرَوْن به اهِلالا

فقال الحطيئة : هذا والله الشعر ، لا ما تعلّل به نفسك هذا اليوم ، يا غلام أدركتَ مَنْ قبلَك ، وسبقت مَنْ بعدَك ، وإن طال عمرك لتبرُزَنّ ، ثم قال له : هل أنجدَتْ أُمُّكَ يا غلام ، قال : لا بل أنجد أبى ، فوجده لقِناً حاضر الجواب فأعجبَه .

وكان للفرزدق نديم يسمى زياداً الأقطع ، فأتى بابه ، فخرجتْ له بُنَيَّة له صغيرة اسمها مكية ، فقال لها : ابنة مَنْ أنتِ ؟ قالت : ابنة الفرزدق ، قال : فما بالك حبشيَّة ؟ قالت : فما بال يدك مقطوعة؟ قال : قُطعت فى حرب الحرورية ، قالت : بل قطعت فى اللصوصية ، فقال : عليك وعلى أبيك لعنة الله ، ثم أخبر الفرزدق بالخبر ، فقال : أشهد أنها ابنتى حقاً ، ثم قال :

سامٍ إذا ما كنت مَخْمِيَّهْ[(٢)] بدارمىٍّ أُمُّـه ضَبِّيَّهْ[(٣)]
* صَمَحْمَحٍ مثل أبى مكّيَّهْ[(٤)] *

وقرعَ بابَ عدىّ بن الرقاع جماعة من الشعراء ، فخرجتْ إليهم بُنَيَّة له صغيرة فقالت : ما تريدون من أبى ؟ فقالوا : جئنا لنُهاجيَه ، فقالت :

تجمّعتُمْ من كلّ أوْبٍ ووجهةٍ على واحدٍ لازلْتُمْ قِرْنَ واحدِ[(٥)]

---

(١) ديوانه ٦١٨ . عال : أثقل ، وفى الديوان : « آلا »
(٢) ديوانه ٨٨٥ ، وفيه : « شاهد » ، بدل : « سام » .
(٣) « صفية » وما أثبته من الديوان .
(٤) الصمحمح : الشديد الخلق والألواح .
(٥) الخبر والشعر فى الأغانى ٩ : ٣١٠

فأفحمتهم ، ورجعوا بأخزى حالة .

وقال معاوية لعمرو بن سعيد وهو صغير : إلى مَنْ أوصى بك أبوك ؟ فقال : إنّ أبى أوصى إلىّ ولم يوصِ بى . أخذه بعضهم فقال :

وكنتُ النجيب لدى ناجِلِى   فأوصى إلىّ ولم يوصِ بِى

قال يحيى بن يزيد : استنشدتُ غلاماً فأنشدنى أرجوزة ، فقلت : لمن هذه ؟ فقال : لى . فزجرته فأنشأ يقول :

إنى وإنْ كنتُ صغير السِّنِّ   وكان فى العين نُبُوٌّ عنِّى

فإنّ شيطانِى أميرُ الجِنِّ   يذهب بى فى القول كلّ فنّ

الأصمعىّ رحمه الله : قال وقف علىّ غلام بحَمَى ضريّة ، ما ظننتُه يجمع بين كلمتين ، فقلت له : ما اسمك ؟ قال : حُرَيقيص ، فقلت له : ما كفى أهلَك أن سَمَّوْكَ حرقوصاً حتى صغروا اسمك ! فقال : إن السِّقْط ليحرِق الحرَجة ، فعجبت من جوابه ، فقلت : أتنشد شيئاً من أشعار قومك ؟ قال : نعم أنشد لمرّارنا :

سكَنُوا شُبَيْثاً والأحَصَّ فأصبحتْ   نزلتْ منازلَهم بنو ذُبْيَانِ

وإذا يقال أتيتُمُ لم يَبْرَحُوا   حتى تقيم الخيلُ سوق طِعَانِ

وإذا فلان مات عن أكرومةٍ   رقعوا معاوزَ فقدِهِ لفلانِ

قال : فكادت الأرض تسوخ لحسن إنشاده وجودة الشعر ، فحدّثت الرشيد الحديث فقال : وددتُ يا أصمعىّ لو رأيتُ هذا الغلام ، فكنت أُبلِغُه أعلى المراتب[1] . فهذا الغلام سُمِّيَ بحقير مصغّر ، وهو فى معناه جليل معظّم .

ويُنظر إلى هذا من باب الضدّ ما حدّث أبو العباس عن الرياشىّ عن الأصمعىّ ، قال : مرّ بنا أعرابىّ ، وهو ينشد ابناً له ، فقلت له : صِفْه ، فقال : دعيرى ، فقلنا : لم نره ، فلم نلبث أن جاء بجُعَلٍ على عنقه ، فقلنا له : لو سألتَ عن هذا لأرشدناك ، ما زال هذا اليوم بين أيدينا .

---

(1) الخبر فى أمالى القالى ١ : ٦٦.

الأصمعيّ : قيل لأبي المِخَشّ : أَما كان لك ابن ؟ فقال : المِخشّ ، قيل : وما كان المِخَشّ ؟ قال : أشدقَ خُرْطمانيًا ، إذا تكلّم سال لعابهُ، كأنما ينظر من فلسين ، وكأنّ ترقوته بُوان أو خالفة[1] ، وكأن مشاش منكبيه كِركرة جمل ؛ فقأ الله عينيّ هاتين إن كنت رأيتُ أحسنَ منه قبله أو بعده ، وأنشد :

نعم ضجيع الفتى إذا بَرَدَ الليل سُحيراً وقَرْقَفَ الصَّرِدُ
زيّنها الله فى الفؤاد كما زُيِّن فى عين والدٍ ولدُ

وقال أبو المِخَشّ : كانت لى ابنة تجلس معى على المائدة فتُبرِز كفًا كأنها طَلْعة ، فى ذراع كأنّها جمارة ، فلا تقع عينها على أكلة نفيسة إلّا خصَّتْنى بها ، فزوَّجتُها ، وصار يجلس معى على المائدة ابن لى ، فيبرز كفًا كأنّها الكرنافة ، فى ذراع كأنها سُباطة ، فلا تقع عينى على أكلة نفيسة إلا سبقتْ يدُه إليها قبلى .

ـ المخشّ : الذى ينخشّ فى القوم ، يدخل معهم وهم يأكلون ، وأراد بمثل الفَلْسَيْن عَوَر عينيه . وقيل حُفرتهما . خُرْطمانيًا : طويل الأنف ، وسيلان اللعاب يدلّ على قوة النفس . البُوان : عمود فى مقدّم البيت ، والكرنافة : طرف الكَرَب العريض المتّصل بالنخلة كأنها كتف ـ

اليزيديّ : أوّلُ ما ظَهر من نجابة المأمون وسَداده أنى كنت أؤدّبه فوجّهت إليه يوماً ليخرج ، فأبطأ ، فقلت لسعيد الجوهريّ وهو فى حُجْرة : إن هذا الفتى قد اشتغل بالبَطالة ، فقال سعيد : قوِّمه بالأدب ، فلما خرج ضربتُه ثلاث دِرَرٍ ، فإنه لَيبكِى إذا بجعفر بن يحيى قد استأذَنَ عليه ، فوثب إلى فراشه مسرعاً ، وهو يمسح عينيه ، فجلس ثم قال : ليدخلْ ، فدخل ، فقمت من المجلس وخشيتُ أن يشكوَنى إلى جعفر ، فألقى منه ما أكره ، فأقبل عليه بوجهٍ طَلْق وحادثَهُ وضاحَكه ، فلماهمّ بالحركة قال : ياغلام ، دابّته ، ورجعت . فقال : ما حَمَلَك أن

(١) الخالفة : عمود من أعمدة البيت .

قمت عنا ! فقلت : خفت أن تشكوني إليه فيوبّخني ، فقال : إنا لله يا أبا محمد ! ما كنت أطلِع الرشيد على هذا، فكيف أطلع جعفراً على أني أحتاج إلى أدب ! يغفر الله لك . فكنت أهابه بعد ذلك .

وشُكِي إلى معلم عبد الرحمن بن حسان بصبيان ، فضربهم حتى انتهى إلى عبد الرحمن ، فهدّده فقال :

اللهُ يعـــلم أنّي كنتُ معتزلاً في دار حسّان أصطاد اليعاسيبا

فتركه . وبلغ حسان ، فضمّه إليـــه وقال : أنت والله ابني حقّاً فِداك أبي وأمي !

ودخل عليه يوماً يبكي من لسْعة زنبور ، فقال له : ما يبكيك ؟ فقال : لسعني طائر كأنه ملتفٌّ في بُرْدَيْ حَبَرَة ، فقال : قلتَ والله يا بُنَيّ الشعر .

وجاءت سكينة بنت الحسين أُمّها الرباب وهي تبكي ، فقالت : ما لك ؟ فقالت: مَرَّتْ بي طُويرة فلسعتْني بأبيرة.

ويروى : مرّت بي دُبَيرة ، تصغير دَبْرَة وهي النحلة .

* * *

قوله : اللجيّ : البحر .شُواظ : لهب النار . والكِهانة : بالكسر: حرفة الكاهن ، وبالفَتح فعل الكاهن ، وهو المصدر ، والكاهن : المخبِر بالغيب .

وافترّ : تبسّم . متضاحك : مستعمل الضحك . مُمَاحك : لجوج ، أي مشى غير غاضب .

احفظها عني ، أي حَصّلها وعِهَا . وعليّ ، أي اكتمها واسترها ، وقامت الواو مقام تكرير الفعل . اصرف : أزل ونَحِّ . صِرْف الراح : خالص الخمر . الأسى : الحزن . تكتئب : تهتم وتحزن . قَدْكَ: حسبك .اتئب : ارتجع وكفَّ .

وقيل: معناه استَخْيِ، يقال منه: وأبَ واتّـأب، أى خزِىَ واستحيا والأبة والمؤبة: الخزْى والحياء والانقباض، وأوْأبه واستآبه: ردّه بخزى وعار، والتاء فيها مبدلة من واو، فأصل اتّـأب اوْتأب فأبدلت الواو تاء وأدغمت فى التاء بعدها، وهى من وَأب الحافر يَئِب وَأْباً إذا انضم. وحافرٌ وَأْب، أى خفيف، والتؤبة مأخوذة من أتأب: وقال حبيب:

قَدْكَ اتّئِبْ أربيت فى الغُلَوا ... كم تعــذلون وأنتمُ شجوى

فهذا يبيّن لك موقعها فى المقامة.

وعلى قوله تعالى: ﴿أتأمُرُونَ النَّاسَ بالبرِّ وتَنْسَوْنَ أنفُسَكُمْ﴾[1]، قال: أنس: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مررت برجالٍ ليلة أُسْرِىَ بى، تُقْرَضُ شفاههم وألسنتهم بمقاريضَ من نار، فقلت: مَنْ هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الخطباء من أمّتك الذين يأمرون الناس بالبرِّ وينسوْن أنفسهم».

أبو أمامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنّ الذين يأمرون الناس بالبرِّ وينسَوْن أنفسهم يجُرُون قصَبَهُم فى نار جهنم، فيقال لهم: مَنْ أنتم؟ فيقولون: نحن الّذين كنا نأمر بالبر وننسى أنفسنا».

قال أبو العتاهية فى منصور بن عمار وكأنّه يخاطب واعظ المقامة:

ياواعظَ النّاس قد أصبحت متّهماً ... إذ عبْت منهم أموراً كُنْتَ تأتيها
كالملبِس الثوبَ من عُرْيٍ وعورتُه ... للنّــــاس باديةٌ ما إن يُواريها
وأعظمُ الأمر بعد الشِّرك تعلمُه ... فى كلِّ نفسٍ عماها عن مساويها
عِرْفانُها بعيوبِ الناس تبصرُها ... منهم ولا تبصر العَيْبَ الّذِى فِيها

---

(1) سورة البقرة ٤٤.

ومن لزوميات المعرى :

رُوَيْدَكَ قد خُدِعْتَ وأنت كهلٌ بصاحب حيلةٍ يعظ النِّساء[١]

يحرّم فيكمُ الصهباء صُبْحًا ويشربها على عمْدٍ مساء[٢]

يقول لكم : غدوتُ بلا كِساء وفى لذّاتها رَهَنَ الكِساءَ

إذا فعل الفتى ما عنه يَنْهَى فمن جهتين لا جهةٍ أساءَ

[من الخمريات]

ونذكر هنا من الأبيات الخمريات ما يأتى على معنى البيتين اللذين أنشد ،

قال الحسن :

ما مثل هذا اليوم فى حسنِهِ عطّل من لهوٍ ولاَ ضَيّعَا[٣]

هل لك أن تغدُو على قهوةٍ تُسرِع فى المرء إذا أسرَعَا

ما وجَدَ النّاس ولا جرّبوا للهمّ شيئاً مثلها مُدْفِعَا

وله أيضاً :

حَلَبْتُ لأصحابى بها دِرَّةَ الصِّبا بصفراء من ماء الكروم شَمُولِ[٤]

إذ ما أتَتْ دونَ اللّهاة من الفَتَى دعا همَّه من صدره برحيلِ

وله :

دع ذا فديتُك واشربْهَا معتّقةً صفراء تعبق بين الماء والزَّبَدِ[٥]

---

(١) اللزوميات ٥١

(٢) بعده فى اللزوميات :

تحسّاهَا فمِنْ مَزْجٍ وصِرْفٍ يَعُلُّ كأنّمَا وَرَدَ الحِسَاءَ

(٣) ديوانه ٣٠٣ ، وفيه : « لم أر مثل اليوم فى حسنه » .

(٤) ديوانه ٣١٠ وفيه : « بصهباء » .

(٥) ديوانه ٢٢٧ ، وفيه :

* صفراء تفرق بين الروح والجسد *

من كفٍّ مختصر الزِّنّار معتدلٍ كغصنِ بانٍ تثنَّى غيرَ ذى أوَدِ[١]
لو كان لومُك نصحاً كنت أقبَلُه لكنّ لومَك محمولٌ على الحسَدِ

وقال الصابى :

كَوْكَبُ الإصباح لاحَا طالعاً والدِّيك صَاحَا[٢]
فاسْقِنيهِا قهوةً تأ سُو مِنْ الهمّ جِراحَا
ذاتَ نشرٍ كنسيم الرّوْض غِبَّ القَطْر فاحَا
يا غلامى ما أرى فيك ولا فيها جُنَاحَا

وله من أبيات يصف فيها مجلس شراب :

كأنّ الكُئُوس بأيدى السُّقاةِ سيوفٌ لها بالدِّماء احمرارُ[٣]
كأن تَشَكّابِها فى الزُّجاج حريق لها من حُبَابٍ شرارُ
فلمَّا برزن إلى الهمّ فيه ولِى بالسُّرور عليه اقتدارُ
جرى الضربُ مختلفاً بيننَا فمات وعِشْتُ وقد نِيَل ثارُ

وقال أبو بكر البلوى :

ومدامٍ كست الكأ س من النّور وِشاحَا
ظَهَرَتْ فى جُنْحِ ليلٍ فكأنّ الفجر لاحَا
لم يكن وقتَ صباحٍ فحسِبْنَاهُ صَبَاحَا

وقال أبو بكر الخالدىّ :

ما عُذْرُنا فى تركنَا الأعنَابا سقط النَّدى وصفَا الهواءُ وَطابَا[٤]
فأدِمْ لذاذة عيشِنَا بمُدَامَةٍ زادتْ عَلَى هَرَمِ الزَّمَانِ شَبَابَا

---

(١) فى الديوان

من كفّ مضطمر الزِّنّادِ معتدلٍ كأن غصن بانٍ غير ذى أودِ

(٢) اليتيمة ٢ : ٢٣٦

(٣) اليتيمة ٢ : ٢٣٧

(٤) ديوانه ١١٦

سَفَرَتْ وغاب حَبابُها من لَحْظِهَا ... فعَلاَ محاسِنَها فصارَ نِقَابَا

ولابن المعتزّ :

ونارٍ قدحْناها سِراعاً بسُخْرَةٍ ... متى ما يُرَقْ ماءٌ عليهـا توقَّدْ

يجولُ حَباب المـاء فى جَنَباتِهـا ... كما جال دمعٌ فوق خدٍّ مُوَرَّدْ

* * *

ثم قال : أما أنا فسأنطلِق ، إلى حيث أصطبِح وأغْتَبِقُ ؛ وإذا كنتَ لا تَصْحَب ، وَلاَ تُلاَئِمُ مَنْ يَطْرَب ؛ فَلَسْتَ لِي برفيق ، وَلاَ طَرِيقكَ لِي بِطَرِيق ؛ فَخَلِّ سَبيلِي وَنَـكِّب ، ولا تنقِّرْ عَنِّى ولا تنقِّب ؛ ثم وَلَّى مُدْبِراً ولَمْ يُعَقِّبْ .

قال الحارث همام : فالْتَهَبَتْ وَجْدَ عند انطلاقِهِ ، وَوَدِدْتُ لَوْ لَمْ أُلاَقِهِ .

* * *

قوله : أصطبح ، أشرب صَبُوحاً وهو شُرْب الغُـدُوّ . وأغتبق : أشرب غَبوقاً ، وهو شُرْب العَشىِّ . تلائم : توافِق . نـكِّب : تنحَّ عن طريقى واجعله لجهة منكِبك . تنقّر وتنقّب : تبحث وتفتش ، وقد نقَّرتُ عن الأمر إذا طلبتَ علم باطنه ونقَّبت عنه ، إذا بحثت عليـه بفطْنَتك حتى تستخرج سرّه ، وفلان نقّاب ، أى فطِن ذَكِىٌّ يحدِّث بالغائب ، والتَّنقيب فى البلاد : تطلُّع أحوالِ أهلها وتجريب أمورهم . وَلّى : أدبر ، وترك طريقه الذى كان يستقبله . يُعقِّب : ينظر . والوجْد : الحزن . والتهبتْ . اشتعلت . ودِدْتُ : تمنَّيت .

ومما قيل فى ترك الوداع :

صدَّنى عن حـلاوة التَّشييعِ ... اجتنـابى مَرارَة التَّودِيعِ

لا يفِى أُنسُ ذَا بوحشة هذا ... فرأيت الصَّوابَ تركَ الجميعِ

المقامة الثانية والأربعون وهي النجرانية

حكى الحارث بن همام قال: تَرَامَتْ بي مَرَامِي النَّوَى، وَمَسَارِي الْهَوَى؛ إلى أَنْ صِرْتُ ابْنَ كلِّ تُرْبة، وأخا كلِّ غُرْبة؛ إلا أنِّي لم أكن أقطع وادياً، ولا أَشْهَدُ نادِياً؛ إلاَّ لاقتباسِ الأدب المُسْلِي عن الأشجان، المُغلِي قيمةَ الإنسان؛ حتى عُرِفَتْ لي هذه الشِّنشِنة، وتناقلتْهَا عَنِّي الألسِنة، وصارَتْ أَعْلَقَ بِي مِنَ الْهَوَى ببنِي عُذْرَة، والشجاعَةِ بآل صُفْرَة.

* * *

ترامت بي: رمتْنِي هذه إلى هذه وهذه إلى هذه. والمرامي: المواضع التي ترميه. والمساري: مواضع السُّرَى، وهو سير اللَّيل، وهو جمع مَرْمَى ومَسْرَى، ويكون المَرْمَى والمسْرَى مصدرين. والنَّوى: الغربة والبُعْد عن الأهل، أراد أنّ البلاد والجهات ترميه بلدة إلى بلدة، وجهة إلى جهة، فهو أبداً في الجوَلان. وابن كلّ تربة، أي ينسَب لكل بلدة لكثرة ما يظهر فيها. نادياً: مجلساً. الاقتباس: الاكتساب. المُسْلِي: المذهب للهمّ، وتسلّيت عن الهمّ: نسيته. والأشجان: الأحزان، وقد تقدم شرح هذه المعاني وتكرّر. الشِّنْشِنَة: الطبيعية. أعلق: ألصق.

[ذكر بني عذرة ونوادرهم وأشعارهم]

وبنو عُذْرة: قبيلة معروفة من قبائل العرب، وهم أولاد عُذْرة بن سعد بن هُذَيْم بن زيد بن ليث بن سُويد بن أسلم بن الحافِ بن قضاعة.

الفنجديهيّ: عُذْرة قبيلة من العرب، يستلذّون مرارةَ العشْق مثل الضربِ،

جُبلت المحبّة فى طينتهم ، وجُنيَت المودّة من لينتهم، وصار الهوى وصفَهم الذى لا ينفك ، ورهائن قلوبهم من حرارات الشوق لا تُفَكّ ، استأرهم العشق أسراً، واستأصلهم الحب قهراً وقسراً؛ فمنهم من يموت من أُوام غرامه، ومنهم مَنْ يموت بهُيَام سَقامه .

ومن مشاهيرهم جَميل بن عبد الله بن مَعْمَر العُذْرىّ صاحب بثينة بنت عبد الله العُذْرِيّة ، وعروة بن حزام صاحب عفراء بنت مالك العذريّين .

وقال : سعيد بن عتبة الهمْدانىّ : قلت لأعرابىٍّ : ممن أنت؟ قال : من قومٍ إذا عشقوا ماتوا ، قلت : عُذْرِىّ ؟ قال : عُذْرىّ وربّ الكعبة ، قلت: ومِمّ ذاك ؟ قال : لأنّ فى نسائنا صَباحة ، وفى فِتْيَاننا عفّة .

وسئل أعرابىّ منهم فقيل له : ما حدّ الحب عندكم؟ فقال : أعينٌ تَتَلاحظ وألسن تتلافظ ، وعِدَات تتَقضَّى ، وإشارات تدل على السخط والرّضا . قيل له : فالمباضعة ؟ قال : ذلك طلب الولد ، الحبّ إذا نُكِح فسد .

سفيان بن زياد : قلت لامرأة من عُذْرة ـ ورأيت بها هوًى غالباً حتى خفت عليها الموت : ما بال العِشْق يقتلكم معاشرَ عَذرة من بين أحياء العرب؟ قالت : فينا جمال وتعفُّف ، فالجمال يحملنا على العفاف به ، والعفاف يورثنا رقّة القلب ، والعشق يفنى آجالنا ، وإنا نرى محاجِرَ لا ترونَها .

أبو عمر بن العلاء: حدَّثنى رجل من تميم، قال : خرجت فى طلب ضالّة لى ، فبينما أنا أدور فى أرض بنى عُذْرة أنشدُها، إذَا ببيت منعزل عن البيوت، وفى كِسْرِه شابٌّ مغمًى عليه، وعند رأسه عجوز بها بقيّة جمال، ساهمة تنظر إليه، فسلَّمت عليها ، فردَّت السلام ، فسألتُها عن ضالّتى فلم تعلم بها ، فقلت: مَنْ هذا الفتى ؟ فقالت: ابنى، فهل لك فى أجرٍ لا مؤنة فيه؟ فقلت: والله إنى أحِبُّ الأجر وإن رُزِئت ، فقالت : إن ابنى هذا يَهْوَى ابنة عمٍّ له، علقها وهما صغيران، فلما

كَبِرت خطَبها غيرُه ، فأخذه شبيه الجنون، فخطبها إلى أبيها ،فمنعه وزوّجها غيرَه ، فنحل جسمُه واصفرّ لونه، وذهب عقله ، فلما كان منذ خمس زُفّتْ إلى زوجها، فهو كما ترى مغمًى عليه ، لا يأكل ولا يشرب ، فلو نزلتَ إليه فوعظْته ! قال : فنزلت إليه فلم أدَعْ موعظة إلا وعظتُه بها، حتى قلت له: إنهنّ الغوانى صاحبات يوسف ، الناقضات العهد ، وقد قال فيهن كثيّر :

هل وصْلُ عَزّة إلا وصلُ غانيةٍ في وصل غانية مِنْ وَصْلِها خَلَفُ(١)

قال : فرفع رأسه محمرَّة عيناه كالمغضَب ، وهو يقول : لست ككثّير ، إن كثيّراً رجل مائق ، وأنا وامق ، ولكنى كأخى تميم حيث يقول :

ألا لا يضرّ الحبّ مَنْ كان صابراً ولكنّ ما اجتاب الفؤادَ يَضِيرُ
ألا قاتلَ الله الهوَى كيف قادنِى كما قيد مغلولُ اليدين أســــيرُ

فقلت له : فإنه قد جاء عن نبينا صلّى الله عليه وسلم أنه قال : « من أصيب منكم بمصيبة فليذكر مصابه بى » . فأنشأ يقول :

ألاما للمَليحةِ لم تَعُدْنِى أبُخْلٌ بالمليحة أم صدودُ !
مرضتُ فعادَنِى أهلى جميعاً فمالك لم تُرَىْ فيمن يعود !
فقدتُك بينَهم فبكيت شوقاً وفقد الإلف يا أملِى شديدُ
وما استبطأت غيرك فاعلميه وحولى من ذوى رحِمى عَديدُ
ولو كنتِ المريض لكنتُ أسعَى إليكِ وما يهدّدُنى الوعيدُ

ثم شَهق شهقة ، وخفت خفته ، فداخلنى أمرٌ ماداخلنى مثله قطّ ، والعجوز تبكى ، فلما رأتْ ما حلّ بى قالت : يافتى ، لاترُعْ ؛ مات والله ولدى بأجلِه ، واستراح من تَباريحه وغُصَصِه ، فهل لك فى استكمال الصَّنيعة ؟ قلت : قولى.

---

(١) ملحق ديوانه ٥٠٥ .

ماأحببتِ ،قالت: تأتى البيوت فتنعاه إليهم، ليعاونونى على رَمْسِه،فإنى وحيدة ، فركبتُ فرسِى ، وأتيت البيوت ، رافعاً صوتى بنعيه ، فلم ألبث أن خَرجتْ لى جارية ، أجملُ مارأيت من النساء ، ناشرةٌ شعرها ، حديثة عهد بعُرس ، تقول : بفِيك الحجر المصمَت! مَنْ تَنْعَى ؟ قلت: أنعَى فلاناً ، قالت: أو قد مات !قلت: إى والله قد مات . قالت : فهل سمعتَ له قولا ؟ قلت : اللهمَّ شعراً ، قالت : وما هو ؟ فأنشدتها أبياته ، فاستعبرت وأنشأت تقول :

عَدَانِى أن أزورَكَ يا مُرادى ... معاشرُ كلُّهُمْ واشٍ حسودُ
أشاعوا ماعلمتَ من الدَّواهى ... وعابونا وما فيهمْ رشــيدُ
فأمَّا إذ ثويتَ اليومَ لَحْداً ... وكلُّ الناس دورهمُ لحودُ
فلا طابت لىَ الدنيا فُوَاقاً[1] ... ولا لهمُ ولا أثْرَى الْعَدِيدُ

ثم شهقت شهقة ، فوقعت مغشيًّا عليهــا ، وخرجت النساء من البيوت فاضطربتْ ساعة ، وماتت .

فوالله ما برحتُ حتى دفنتُهما جميعاً[2] .

هشام بن عروة : أذن معاوية للنَّاس يوماً فكان فيمن دخل عليه فتًى من بنى عُذْرة ، فقام بين السِّماطين وأنشأ يقول :

أتيتكَ لَمَّا ضاق فى الأرض مسلكى ... وأنكرتُ مِمَّا قد أُصِبتُ به عَقْلِى
ففرِّج كلاكَ الله عـــنِّى فإنَّنى ... لقيت الذى لم يلقَهُ أحــدٌ قَبْلِى
وخذ لى هداكَ الله حَقِّى من الذى ... رمانى بسهمٍ كان أهونُهُ قتلِى
وكنت أرجِّى عــدْلَهُ إذ أتيتُــه ... فأكثر تَرْدادى مع الحَبْس والكَبْلِ
فطلَّقتُها من جُهْدِ ما قد أصابنى ... فهل ذا أميرَ المؤمنين من العدْلِ!

(١) الفواق : الوقت بين الحلبتين .

(٢) الخبر والشعر فى كتاب ذم الهوى لابن الجوزى ٥٠٤ ـ ٥٠٦

فقال له معاوية : ادنُ باركَ الله عليك ، ما خطبك ؟ قال : أطال الله بقاء أمير المؤمنين ، إنى رجل من بنى عُذْرة ، تزوّجتُ ابنة عمّ لى . وكانت لى صِرْمَةٌ[1] من الإبل وشُويهات ، فأنفقت ذلك عليها ، فلما أصابتْنى نائبات الزمان وحادثات الدهر رغب عنّى أبوها ـ وكانت جاريةً منها الحياء والكرَم ، فكرهتْ مخالفة أبيها ـ فأتيت عاملك عبد الرحمن بن أم الحكم فذكرتُ ذلك له . وبلَغه جمالُها ، فأعطى أباها عشرة آلاف درهم وتزوّجها ، وأخذنى فحبسنى ، وضيَّق علىّ ، فلمَّا أصابنى مسُّ الحديد وألم العذاب طلَّقتُها ، وقد أتيتك يا أميرَ المؤمنين ، وأنت غياث المحروب ، ومعيد المسلوب ، فهل من فَرَج ؟ ثم بكى وهو يقول :

فى القلب مِنّىَ نارُ ... والنّار فيها شرارُ

وفى فؤادىَ جمرٌ ... والجمر فيه احمرارُ

والجسم منّى نحيلٌ ... واللّون فيه اصفرارُ

والعين تبكِى بِشَجْوٍ ... فدمعها مِدْرَارُ

والُحبّ داء عسيرٌ ... فيه الطبيب يَحَارُ

حملتُ منه عظيماً ... فما عليه اصطبارُ

فليس ليلَى ليلاً ... ولا نهارِى نَهَارُ

فرّق معاوية له ؛ وكتب إلى ابن أم الحكم كتاباً غليظاً وفى آخره :

ركبتَ أمراً عظيماً لست أعرفُه ... أستغفرُ الله من جَوْرِ امرئٍ زانِ

قد كنتَ تُشْبِه صوفيًّا له كتب ... من الفرائض أو آيات فرقانِ

حتى آتانى الفتى العذرىّ منتحِباً ... يشكو إلىّ بحقٍّ غيرِ بُهْتَانِ

أُعطِى الإله عهوداً لا أخيس بها ... أولا فبرّئت من دينى وأيْمَانى

(١) الصرمة : الجماعة من الابل ما بين العشرين والثلاثين .

إن أنت راجعتني فيما كتبتُ به ... لأجعلنَّك لحماً بين عِقبانِ
طلِّق سعاد وفارقْهـا بمجتمعٍ ... وأشهِدْ على ذاك نَصْراً وابنَ ظَبْيانِ
فما سمعتُ كما حُدِّثتُ من عَجَبٍ ... ولا فعالك حقًّا فعل إنسانِ

فلما ورد الكتاب على ابن أم الحكم، تنفّس الصُّعَداء، وقال: وددت لو أن أمير المؤمنين خلَّى بيني وبينها سنة، ثم عرض عليّ السيف، وجعل يُؤامر نفسه في طلاقها فلم يقدِرْ، فلما أزعجه الوفد طلَّقها ثم قال: يا سعاد اخْرُجي، فخرجت شَكِلَةً غَنِجَةً ذات هيئة وجمال، فلمّا رآها الوفد قالوا: ما تصلُح هذه إلا لأمير المؤمنين لا لأعرابيٍّ، وكتب الجواب:

لا تحنثنّ أميرَ المؤمنين فقد ... أُوفِي بعهدك في رفق وإحسانِ
فما ركبتُ حراماً حين أعجبني ... فكيف سُمِّيتُ باسم الخائن الزاني!
فسوف تأتيكَ شمسٌ لا خفاءَ بها ... أبهى البرية من أنْسٍ ومِنْ جانِ
حوْراء يقصر عنها الوصف إذ وُصِفَتْ ... أقول ذلك في سرٍّ وإعلانِ

فلما وردتْ على معاوية، قال: إن كانت أعطِيتْ حسن النغمة مع هذه الصفة، فهي أكملُ البريّة، فاستنطقها، فإذا هي أحسنُ الناس كلاماً، وأكملهم شكلاً ودلاً، فقال: يا أعرابيّ، هل من سُلُوٍّ عنها بأفضل الرغبة؟ قال: نعم، إذا فرّقت بين رأسِي وجَسدِي، ثم أنشأ يقول:

لا تجعَلَنّي والأمثال تُضْرَب بِي ... كالمستجير من الرَّمْضَاء بالنار
اردد سعادَ على حَيْرانَ مكتئبٍ ... يُمْسِي ويصبح في همٍّ وتَذْكارِ
قد شَفَّه قلقٌ ما مثـله قلقٌ ... وأُسعِرَ القلبُ منه أيَّ إسعارِ
والله والله لا أنسى محبّتَهـا ... حتى أغيَّب في رَمْسٍ وأحجار

كيف السلوُّ وقد هام الفؤاد بها وأصبح القلب عنها غَير صَبّارِ

فغضب معاوية غضباً شديداً ، ثم قال لها : اختارى مَنْ شئت ، أنا أو ابن أم الحكم أو الأعرابىّ ؟ فأنشأت تقول :

هــذا وإن أصبح فى أطْمَارِ أو كان فى بعضٍ من الْيَسَار
أكبرُ عندى من أبى وجارِى وصاحبِ الدِّرهم والدينـار
* أخشى إذا غدَرْتُ حرَّ النارِ *

فقال له معاوية : خذها لا باركَ الله لك فيها ، فأخذها وأنشأ يقول :

خَلُّوا عن الطّريق للأعرابى ألم ترقّوا وَيْحَكُمُ لما بى !

فضحك معاوية وأمر له بعشرة آلاف درهم ، وأدخِلتْ لبعض قصوره حتى انقضتْ عِدَّتُها من ابن أمّ الحكم ، ثم دفعها للأعرابىّ[1] .

وقال بعضهم : كنت سائراً فى بلاد عُـذْرة فولجتُ بعضَ أوديتهم وإذا شابٌّ حسنُ الوجه ، بيده زمام ناقة ، عليها هودجٌ مسجَّف[2] ، به جارية ، ومن وراء الناقة خمس قلائص[3] ، وقد رفع عقيرته ينشد ويقول :

ته كيف شئتَ وسِرْ على مهـلٍ كلُّ الجمـال عليك يا جَمَلُ
علىَّ أنك لا ترى كلَلاً ما دام فوقك هــذه الكلَلُ

فسلّمتُ عليه ،فردَّ، وسألته وسألنى وتناشدنا، واتصل الأنس بيننا، وسرنا غير قليل ، فرأى قانصاً فى أحبولته ظبىٌ، فلما رآه يضطرب فى الأحبولة أجْهش بالبكاء ، وأنشأ يقول :

وذكَّرنى مَنْ لا أبوحُ بحبِّـه محاجرَ ظبىٍ فى حُبـالةِ قانِص

---

(١) الخبر والشعر فى كتاب نهاية الأرب ٢ : ١٥٦ — ١٥٩

(٢) الهودج : مركب للنساء . ومسجف ، عليه سبحان وهو الستر *

(٣) القلوص من الابل : الشابة

فقلتُ وجَفنُ العين يجرى بِعَبْرَةٍ ... ولحظى إلى عينيـه لحظةُ شاخِصِ
ألا أيُّهذا القانص الظبيَ خَــلِّه ... وخذ عِوَضاً منـه جيادَ قلائِصِى
خفِ اللهَ لا تحبسْه إنّ شبيهَــه ... حياتى قد أرعِدَتْ منه فرائِصِى

فقال القانص : الله إن فعلت ؟قال : الله ، فأرسل الظبى ، واستاق القلائص.

وحدّث رجل من بنى عذرة قال : كان فينا فتًى ظريف غزل ، كثيراً ما يتحدّث إلى النساء ، فهوِىَ جاريةً من الحىّ ، فراسلها فأظهرتْ له جفوة ، فوقع مضنًى مُدنفاً وظهر أمره ، وتبيَّنَ دَنفُه ، ولم يزل النساء من أهلها وأهله يكلِّمْنَها فيه،حتى أجابت ، فسارت إليه عائدةً ومسلِّمة، فلما نظر إليها تحدّرت عيناه بالدموع ، وأنشأ يقول :

أريتُكِ إن مرّت عليك جنازتى ... تروح بهـا أيدٍ طوالٌ وتسرعُ
أما تَتْبَعينَ النَّعش حتى تسلِّمى ... على رمس مَيْتٍ بالحفيرةُ يودعُ!

فبكت رحمة ، وقالت : والله ما ظننت أنّ الأمر بلغ بك هـذا ، فوالله لأساعدنَّكَ ولأداوِمنّ على وصالك ، فهملتْ عيناه بالدموع ، وأنشأ يقول :

دَنَتْ وظِلالُ الموت بينى وبينَهـا ... وَمنَّتْ بوصلٍ حيث لا ينفع الوَصْلُ

ثم شهِق شهقة فخرجت نفسه ، قال : فوقعت عليه تلثُمه ، ثم رجعت عنـه مغشيًّا عليها ، فما مكثت بعده إلاّ أياماً حتى ماتت[1].

قال حماد الراوية : انصرفت من جنازة لبعض السّكاسك ، فإذا بصبىٍّ من عُذْرة ظريف ، حَسَن الوجة ، صَغِير السّنِّ ، موصوف بقول الشعر ، فوقْفنا فسلَّمنا ، فقام إعظاماً لنـا ، فقلت : أنشدنا شيئاً ، فكأنه استحيا ، فقلت له : لابدَّ ، فأنشدَنا :

هـل من الحبِّ مجيرٌ ... من ملاحٍ يعتـدُونَا

---

(١) ذم الهوى ٥٠٦ ـ ٥١٠

قد شكَوْنا بخضوعٍ عَذْلَ قوم يعذِلُونا
فى جوًى نلقاه ممَّنْ لا يبالِى ما لقينا
وبكَيْنا بدموعٍ أغرقت منّا الجفونا

قال حماد : فكدت أرقص طرباً وقلت : فداؤك عمُّك ! وجلسنا إليه تعجُّباً من رقته وجماله وفصاحته ، فأنشدنا :

ولقد أرسلتُ دمعِى شاهداً ثم صيَّرت إليها المشتكَى
فتولَّت ، ثم قالت شغلى كلُّ مَنْ شاء تبكى ! فبكَى

قال حماد : قلت له : فديتك ، تحبُّ هذه الجارية ؟ قال : يا عمّ ، والحبُّ عيب! إن كان عيباً تركته . ثم قال : ياعمّ إذا قرأت أو بلغَنى أحاديثُ قومى مثلُ عروة وجميل ، أفلا أشتهى أن أكون واحداً منهم ! فانصرفنا عنه متعجبين .

[ذكر آل أبى صفرة]

قوله : والشجاعة بآل أبى صفرة،أبو صفرة هو ظالم بن سراقة بن كندىّ ابن عمرو بن عدى ، ويتّصل بعمْرو مزيقيا ، ثم بأزددبا ، وأزددبا ما بين عُمان والبحرين ، وكانوا أسلموا ثم ارتدُّوا فى خلافة أبى بكر ، فبعث إليهم أبو بكر عِكْرمة بن أبى جهل ، فقاتلَهم وسبىَ ذراريَّهم وبعث بهم إلى أبى بكر ، وأبو صُفْرة غلام ، فحبسهم أبو بكر ، فلما تُوُفىَ أطلقهم عمر ، فنزل أبو صُفْرة البصرة ، فشرُف بها .

وروى بعضُهم أنَّ أبا صُفْرة طلب من عمر أن يولِّيَه عملاً ،فسأله عن اسمه فقال : ظالم بن سرّاق ، فقال : تظلم أنت ويسرق أبوك ! ولم يولّه عملاً تطيُّراً باسمه .

والمهلَّبيّة تزعم أنَّ أبا صُفْرة قدم على النبىِّ صلى الله عليه وسلم،وعليه حُلّةٌ

صفراء يسحبها خلفه ذراعين . وله طول ومنظر وفصاحة ، فأعْجَب النبيَّ صلى الله عليه وسلم مارأى من جماله وخُلُقه، فقال له : مَنْ أنت ؟ قال: أنا قاطع بن سارق ابن ظالم بن عمرو بن شهاب بن مرة بن الهلقام بن الجلندى بن المستكبر بن الجلندى، الذى كان يأخذ كل سفينة غَصْباً ، فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : « أنت أبو صُفْرة ، ودع عنك ظالماً وسارقاً » ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسوله حقًّا ، إنَّ لى لثمانية عشر ذكراً ، ورزِقت بآخرهم بنتاً سميتُها صُفْرة .

وأما أولاد أبى صُفْرة ، فكانوا كُتَّاباً شجعاناً أبطالاً حماةً، منهم أبو سعيد المهلَّب. وذكروا أنَّ أبا صُفْرة وفَدَ على عمر رضى الله عنه ومعه عشرة من ولده - والمهلَّب أصغرهم - فتوسَّمهم عمر ، ثم قال: هذا سيِّد ولدك المهلَّب ، والمهلَّب هو صاحب حروب الأزارقة ، وولاَّه عبد الملك خراسان بعد الأزارقة سنة تسع وسبعين ، ومات سنة ثلاث وثمانين ، واستخلف يزيدَ ابنه عليها ، فأقرّه عبدُ الملك عليها سنتين أو ثلاثاً . وغزا يزيدُ جرجان فى خلافة سليمان بن عبدالملك سنة سبع وتسعين، فى ثلاثين ألف مقاتل، فقاتلهم أشهراً ، ثم صالحهم على أن يُعطوا خمسمائة ألف درهم كلَّ عام ، يؤدونها إليه ، ثم غزا سنة ثمان وتسعين طَبَرِستان ، فصالحهم على سبعمائة ألف درهم وأربعمائةِ وقْر زعفران وأربعمائة رجل مع كلِّ رجل بُرْنس وطيلسان وخاتم فضة ، وسَرَقة حرير وكسوة ، فقبل ذلك وانصرف عنهم . ثم غدر أهل جُرْجان بمن خلَّف عليهم من المسلمين فقتلوهم ؛ فلما فرغ من طَبَرِستان سار إليهم ، فقاتلهم شهراً ، ثم نزلوا على حكمه ، فقتَل مقاتِلتَهم ، وسبى ذراريَّهم وصلبهم فرسخين ، وقاد منهم اثنى عشر ألفاً إلى وادى جرجان ، فقتلهم وأجرى الماء فى الوادى على الدّم ، وعليه أرحاء بدمائهم تطحن ، واختبز وأكل ، وكان قد حلف على ذلك .

الأصمعيّ : قبض[١] الحجاج على يزيد ، وأخذه بسوء العذاب ، فسأله أن يخفّف عنه العذاب على أن يعطيَه كلّ يوم مائة ألف درهم ، فكان دأبَه أنه إذا أدّاها تركه، وإلاّ عذّبه إلى الليل، فجمع يوماً مائة ألف درهم، يشترى بها عذابه، فدخل عليه الأخطل فأنشده :

أبا خالدٍ بادت خراسانُ بعدكمْ ... وقال ذَوُو الحاجات أين يزيد[٢] ؟

فما سُقِيَ المَرْوان بعدك قَطْرةً ... ولا اخضرّ بالمَرْوَين بعدك عُودُ

وما لسرير بعد ملكك بهجةٌ ... ولا لجواد بعد جودك جودُ

فأعطاه المائة الألف . فبلغ ذلك الحجاج ، فدعا به ، وقال : يا مروزىّ ، أكل هذا الكرَم وأنت بهذه الحالة؟ قد وهبتُ لك عذاب اليوم وما بعده[٣] .

ابن عبد الحكم : أخبرنا الشافعىّ قال : طَعن يزيدُ بن المهلَّب رجلاً من الخوارج ، فصرعه فوثب الخارجىُّ بالسيف ، وهو يقول :

وإنّا لقومٌ لا نعوِّد خيلَنا ... إذا ما التقينا أن تحيد وتنفِرَا

ونُنكِرُ يوم الروع ألوانَ خيلنا ... من الدم حتى نَحسِبَ الوَرْدَ أشقرا

وليس بمعروف لنا أن نردَّها ... صحاحاً ولا مستنكَرٍ أن تُعقَّرا

قال يزيد : فكرهت أن أقتُلَ مثلَه ، فانصرفت عنه . وقتِل يزيد يوم الجمعة لاثنتى عشرة خلت من صفر سنة اثنتين ومائة ، وهو ابن سبع وأربعين سنة .

---

(١) القصة والأبيات فى ابن خلكان ٢ : ٢٦٥

(٢) قال ابن خلكان : قوله : « فلا مطر المروان ... ولا أخضر بالمروين » هما تثنية مرو ، واحدهما مرو الشاهجان ، وهى العظمى ، والاخرى مرو الروذ ، وهى الصغرى ، وكلتاهما مدينتان مشهورتان بخراسان .

(٣) قال ابن خلكان : قلت هكذا ذكر ابن عساكر ، والمشهور أن صاحب هذه الواقعة وهذه الأبيات هو الفرزدق ، ثم انى رأيت هذه الأبيات فى ديوان زياد الأعجم ، والله أعلم بالصواب .

وقيل للمهلَّب: بم نلتَ ما نلتَ؟ قال: بطاعة الحزْم، وعصيان الهوى.

وقيل لأبى إسحاق الهمْدانىّ: لم رويتَ عن المهلَّب؟ قال: لأنى لم أر أميراً أبْيَنَ منه تقيَّة ولا أشجع منه، ولا أبعد ممَّا يكره، ولا أقرب مما يحبّ.

ومرَّ المهلّب بقوم فعظَّموه وسوَّدوه، فقال رجل: أَلِهذا الأعور تسوّدون! والله لو خرج إلى السوق ما زادت قيمته على ألفى درهم، فسمعه المهلَّب، فقال لبعض مَنْ معه: أتعرف الرجل؟ قال: نعم، فلما انتهى إلى مجلسه أرسل إليه بألفى درهم. فقال له: لو زدتَنا فى القيمة لزدناك فى العطيَّة، فخجل الرجل، وعرف منزلته.

وللمهلَّب وبنيه وإخوته فى حروب الأزارقة مشاهد ما شوهدت قطُّ فى جاهلية ولا إسلام.

وقتَل المهلَّب وأولاده وإخوته ومَنْ معه من الأزارقة فى ليلة واحدة أربعة آلاف وثمانمائة، وانهزم بقيَّتُهم مع قَطَرِىٍّ، فنفاهم إلى أقاصى البلاد حتى قُتِل قَطَرِىٌّ ومَنْ معه.

وسئل المهلب عن ابنيه: أيُّهما أشجع أيزيد أم حبيب؟ فقال: إن الولد ربَّما سبق رأىُ أبيه فيه، وقَطَرِىٌّ قد مارسهما، فسلوه عنهما. فلمَّا كان من الغد واصطفُّوا للقتال صاح رجل: يا أبا نعامة[1]، فقال: أفرجوا له، ثم قال: قد سمعتَ فقل؛ فقال: إنَّا سألنا الأميرَ عن ابنيه يزيد وحبيب: أيُّهما أشجع، فقال: سلُوا أبا نعامة، فقال: على الخبير سقطتَ، أمَّا صاحب الكرِّ والفرِّ والإقدام والإحجام، وصحَّة التدبير ومبارزة الكمىِّ المدجَّج فالآخرون يزيد، وأمَّا إذا التقت غياطيل الليل، وخفتت الأصوات إلاّ الغماغم، وقَرِع الحديد بالحديد فالخيار حبيب.

---

(١) أبو نعامة كنية قطرى.

ـ الغَيْطَلَة التباس الظلام ، وخفتت:سكنت . والغمغمة : أصوات الأبطال في القتال ـ

وسأل الحجاج كعب بن مَعْدانَ الأشقريّ[١] حين وفد عليه بالفتح ، فقال له : أخبرني عن بني المهلَّب ، فقال : المغيرة فارسهم وسيدهم ، وكفى بيزيد فارساً وشجاعاً ،وجوادهم وسخيُّهم قبيصة ،وما يستحي الشُّجاع أن يفرَّ من مُدْرِك، وعبد الملك سمٌّ ناقع ، وحبيب موت ذُعاف ، ومحمد ليث غاب . وكفاك بالمفضَّل نَجْدة . فقال : كيف كانوا في البأس ؟ قال حماة السَّرْح نهاراً ، فإذا أَلْيَلُوا ففرسان البَيات . قال : فأيُّهم كان أنجد ، قال: كانوا كالحلْقة المفرغة لا يُدْرَى أين طرفها .

وحين وفَد المهلَّب على الحجاج أجلسه إلى جانبه ، وأظهر إكرامه ، وقال : يا أهلَ العراق ، أنتم عبيد المهلب ، ثم قال له : أنت والله كما قال لَقِيط الإياديُّ :

وقلِّدوا أمركمْ لله دَرُّكمُ رَحْبَ الذِّراع بأمرِ الحرب مُضْطَلِعا[٢]
لا مترَفًا إن رخا في الأمر ساعده[٣] ولا إذا عضّ مكروهٌ به خَشَعا
ما زال يحلُب هذا الدهرَ أشطُرَه يكون متَّبِعاً طَوراً ومتَّبَعا
حتَّى استمرّتْ على شَزْرٍ مرارَتُه[٤] مستحكم الرأى لا قحْماً ولا ضَرَعا

فقام رجل وقال : أصلح الله الأمير ! والله لكأنِّي أسمع الساعة قَطَريًّا يقول للمهلَّب كما قال لقيط الإياديُّ ... وأنشد الأبيات ، فامتلأ الحجاج سروراً .

وقال له الحجاج : اذكر لي الذين أبلَوْا وصف لي بلاءهم ، فقدَّم بنيه ،وقال :

---

(١) ط : « الأشعرى » بالعين ، تحريف .

(٢) مختارات ابن الشجرى ٥ .

(٣) ابن الشجرى : « ان رخاء العيش ساعده » .

(٤) ابن الشجرى : « مريرته » .

والله لو تقدَّمهم أحد فى البلاء لقدَّمْتُه عليهم ، ولولا أن أظلمهم لأخَّرْتُهم.
فقال له الحجاج : نعم إنهم لسيوفٌ من سيوف الله تعالى فى الأرض .

وقال يوماً عبد الملك للشعراء : تشبِّهونني مرة بالأسد الأبخر ، والجبل الأوعر ، والبحر الأجاج وبالصقر والباز ، ألا قلتم كما قال كعب الأشقرىّ فى المهلب وبَنِيه :

براكَ الله حين براك بحراً — وفجّر منك أنهاراً غِزارَا
بنوكَ السَّابقون إلى المعالى — إذا ما أعظم النَّاسُ الفَخارَا
كأنهُم نجومٌ حول بدرٍ — دَجوجيٍّ تكمَّل واسْتدَارَا
ملوكٌ ينزلون بكلِّ ثغرٍ — إذا ما الهام يوم الرَّوْع طَارَا
رزانٌ فى الأمور ترى عليهمْ — من الشيخ الشمائِل والنِّجارَا
نجوم يُهتدى بهمُ إذا ما — أخو الغمرات فى الظلماء حارَا

وفى ديوان الحماسة :

آلُ المهلَّب قومٌ خُوِّلوا شرفاً — ما ناله عربىٌّ لا ولا كادَا[1]
لو قيل للمجد حِدْ عنهم وخلِّهمُ — بما احتكمتَ من الدُّنيا لما حَادَا
إنّ المكارم أرواح يكون لها — آلُ المهلَّب دُونَ الناس أجْسَادَا

ولبعضهم :

إذا كان المهلَّب من ورائى — هَدَا لَيْلِى وقرَّ له فؤادى
ولم أخش الدنيَّة من أناس — ولو صالوا بقوّة قوم عادِ

وتُوُفِّىَ المهلب بفنجَديّه بصحراء راغول سنة ثلاث وثمانين ؛ فبعد أربعمائة وثلاثين من وفاته ، رأى بعضُ علماء فنجديّه فى المنام كأنَّ المهلَّب يقول : الله

---

(٢) ديوان الحماسة ـ بشرح المرزوقى ص ١٧٨٧

الله ، الحقنى قَبْلَ أن يأخذنى روذمرو - وهو نهر عظيم يُعْـبَر عليه بالسفن - وانقلنى إلى بعض مقابر المسلمين ، وأنا مدفون على شاطىء هـذا النهر الـكبير فى الموضع الفلانى ، وقد حفر الماء تحت قبرى ، وقرب أن يأخـذَنى ، فلما أصبح الرجل أخـذ جماعةً من أصحابه معهم المساحى والفئوس فمضَوْا إلى ذلك الموضع ، وحفروا حتى وصلوا إلى قالبه فـكشفوا التراب عنه ، فـكانت عظامه ما بليتْ بَعْد ، فدفنوه بمقبرة مذونة .

قال الفنجديهى : وهى محلتنا ؛ وسمعتُ معنى هـذه الحـكاية من والدى رحمه الله .

* * *

فلمــاَّ ألقيتُ الجِرَانَ بِنَجْرَان ، واصطفيتُ بها الْخُلاَّنَ والجيرانَ ، تخذتُ أنديتَهاَ مُعْتَمَرِى ، ومَوْسِمَ فُـكَاهَتِى وَسَمَرِى ؛ فـكنتُ أَتَعَهَّدُها صَبَاحَ مَسَاء ، وأَظْهِرُ فيها على ما سَرَّ وسـاء ؛ فبينما أنا فى نادٍ مَحْشُودٍ ، وَمَحْفِلٍ مَشْهُودٍ ؛ إِذْ جَثَم لَدينا هِمٌّ ، عليه هِـــدْم ؛ تَحَيَّا تحِيَّةَ مَلِق ، بلِسَانٍ ذَلِق ؛ ثم قال: يا بُدورَ المحافل، ويُحُورَ النَّوَافِل ، قَدْ بَيَّنَ الصُّبْحُ لِذِى عَيْنَيْن ، وناب العيانُ مَنابَ عَدْلَيْنِ ، فماذا تَرَوْنَ ، فيما تَرَوْنَ ؟ أَتُحْسِنُونَ الْعَوْنَ ، أم تَنْأَوْنَ إِذْ تُدْعَوْنَ ! فقالوا : تالله لَقَدْ غِظْتَ ، ورُمْتَ أنْ تُنْبِطَ فغِضْتَ .

* * *

قوله : بنَجْران : بلد من كُوَر نجد مماَّ يَلِى بلاد اليمن ، سُمِّيتْ بنجران ابن زيد بن سبأ . اصطفيْت : اختـرت . الْخُلاَّن : الأصحاب . تخذت ، بمعنى اتَّخـذت . أنديتها : مجالسها ومجتمع أهلها . مُعْتَمَرِى : موضـع

زيارتى ، واعتمرت الموضع : قصدته وزرته . مَوْسم : عيد . فكاهتى : ممازحتى . سَمَرى : حديثى بالليل . أتعهّدُها : أتفقّدُها صباح مساء : اسمان مركّبان جُعِلا كخمسة عشر ، وأراد يزورُها فى الصباح والمساء . نادمحشود : مجلس مجموع الأهل ، ومثله المحفل المشهود . جَثَم : برك . هِمّ : شيخ هَرِم ، قد أذهبَ الكِبَرُ قُوَّتَه ولحمه ، وتقول : هَمَمْتُ الشَّحم : أذبته ، ومنه قولهم : هذا الأمر لا يَهِمُّنى ، بفتح الياء وكسر الهاء ، أى لا يذيبنى ، ومن قال بضمّ الياء فمعناه لا يقلقنى . هِدْم : ثوب خَلَق كأنَّهُ هدمه البِلَى . مَلِق : متلطّف فى كلامه . ذَلِق : حديد . النَّوافل : العطايا . بيّنَ الصبح لذى عينين ، مثَل ، ويريد أنَّ الليل يتساوى فى ظلمته الأعمى والصحيح ، فإذا ظهر ضوء الصبح أبصر الأشياء مَنْ له بصر ، وقيل معنى بَيّن الصبح ، أى تَبيَّن ، والعِيان : المشاهدة ، وعاينته : شاهدته ، أى أنتم ممَّن لا يخفى عليكم حالى ، يريد أنَّ المعاينة تغنى عن الشهود العدول . فماذا ترون : فما رأيُكم ؟ وهى من رؤية القلب . فيما تَرَوْن ، أى فيما تنظرون وتبصرون ، وهو من رؤية البصر . وقال الفنجَدِيهى فى شرحه : فما ترون ؟ أى فما تظنُّون فيما تَرَوْن ؟ أى فيما تبصرون . تنأوْن : تبعدون . غظت ، من الغيظ ، أى لقد حرَّكْتَ غيظاً . رُمْتَ أن تُنْبِط :أردت أن تخرج ماء . غِضْتَ . غيّبتَه وجفّفته ، والغَيْض نقيض الفَيْض ، وغاض الماء: ذهب فى الأرض .

* * *

فناشدَهُمُ اللهَ عَمَّا ذَا صَدَّهُمْ ؛ حَتَّى اسْتَوْجَبَ رَدَّهم ؛ فقالوا : كُنَّا نتناضَلُ بالألْغاز ؛ كَمَا يُتَنَاضَلُ يَوْمَ البِرَاز ؛ فما تمالكَ أنْ شَعَّثَ مِنَ المَنْضُولِ ، وَأَلْحَقَ هَذَا الفَضْلَ بِنَمَطِ الْفُضُولِ .

فَلَسَنَتْهُ لُسُنُ الْقَوْم ، ووخزوهُ بأَسِنَّةِ اللَّوْم ، وأخذ هو يتَنَصَّلُ

من هَفَوَاتِهِ ، ويتندَّمُ عَلَى فَوْهَتِهِ ، وهُمْ مُضِبُّونَ على مؤاخذتِهِ ؛ وَمُلَبُّونَ دَاعِيَ مُنابذتِهِ ، إلى أن قال لهم : ياقوم ؛ إن الاحتمالَ مِنْ كَرَمِ الطَّبْعِ ، فَعَدُّوا عَنِ اللَّذعِ والْقَذْعِ ، ثُمَّ هَلُمَّ إلى أن نُلْغِزَ ، ونحكِّمَ المبرِّز .

* * *

ناشدهم : حَلَّفهم . صَدَّهم : صرفهم وأزالهم . نَتَنَاضل : نترامى . البراز : القتال : والألغاز : جمع لُغْز ، وهو الكلام المعمَّى ، وألغز ، إذا عمَّى كلامه فلم يُفهم ما يقصده ، وأصلُه من اللُّغز وهو الحجر الملوِيُّ : ما تمالك : ما أبطأ ولا مَلك نفسه .

شَعَّثَ : غَبَّرَ ، ويُروى « شَعَّبَ » . من المنضول ، أى نقصه وفرَّقه ، والمنضول : المرمىّ ، أى قبَّح فعلَهم ومراماتِهم . الفنجديهىّ : شعَّثَ الدهرُ ماله ، أى أخذه ، والمنضول : المغلوب فى النِّضال ، والمعنى فما صَبَرَ عن تشعِيث همِّ المغلوب ونصرِه وتخليصه عمَّا أُرْتِج عليه من اللُّغز ، ويقال : شَعَّثَ منه ، أى عابه وتنقَّصه ، وكأنه عاب المنضول كيف أُرْتِجَ عليه شيء سهل ! وهذا تفسير حسن ، إلاَّ أنّ مساق كلام الحريرى أدلُّ على التفسير الأوَّل .

نَمَط : نوع . لَسَنَهُ : أخذه بلسانه . لُسْن القوم : فصحاؤهم . وخَزُوه : طعنوه . يتنصَّل: يتبرَّأ ويعتذر . هَفْوته : سقطته . فوْهته : كلمته الَّتى فاه بها ، أى نطق . مُضِبُّون : مقيمون ملتزمون ، وأضبَّ على الشيء: لازمه . مُؤاخذته : إنشاب الشرِّ معه ، وتواخذ الرجلان : أخذ كلُّ واحد منهما صاحبَه بضرب أو شتم . مُلبّون : مجيبون . منابذته : متاركته ومهاجرته ، وقد نبذتُ الشيء؛ إذا رميتَه من يدك . الاحتمال : الصبر على الجفاء . عَدُّوا : انصرفوا وتنحَّوْا . اللذع : إحراق القلب باللوم والعتب . والقَذْع : السَّبّ . نُلْغِز : نعمِّى الكلام ونُلبِّسه على السامع . المبرِّز : الغالب .

* * *

فسَكن عِنْدَ ذلك توقُّدُهُمْ ، وانحلّتْ عُقَدُهُمْ ، ورَضُوا بمَا بِهَا شرط عَلَيْهِمْ ولَهُمْ ، واقترحوا أن يكونَ أَوَّلَهُمْ ، فأمسك رَيْثَمَا يُعْقَدُ شِسْعٌ ، أو يُشَدُّ نِسْعٌ ، ثم قال: اسمعوا وُقِيتُمُ الطَّيْش ، ومُلِّيتُمُ الْعَيْش ، وأنشدَ مُلْغِزاً فى مِرْوحَةِ الخيش :

وجاريةٍ فى سَيْرِها مُشْمَعِلّةٍ ... وَلكِنْ عَلَى إِثْرِ الْمَسيرِ قُفُولُهَا

لَهَا سائقٌ مِنْ جِنْسِهاَ يَسْتَحِثُّهاَ ... عَلَى أَنَّهُ فى الاحْتِثاثِ رَسِيلُهاَ

تُرَى فى أوانِ القيْظِ تَنْطُفُ بالنَّدى ... وَيَبْدُو إذا وَلَّى الْمَصِيفُ قُحُولُهَا

* * *

ريث ، أى بُطْء . شِسْع :شراكة النعل. أنس عن النبىصلى الله عليه وسلم أنه قال : « لن ينقطع شِسْع أحدكم إلا من ذنبٍ عليه ، فليستغفر الله وليرجع فإنها مصيبة عرضت عليه» . والنِّسع: شراكة مضفورة علىهيئة النعال ، ويشدّ بها الرَّحْل وغيره .

وُقيتم : كفيتم . الطيش : خفة العقل . مُلِّيتم : طُوّل لكم. الخيش . ثياب خشنة من الكتان ، وهذه المروحة تستعمل ببلاد العراق تكون شِبْه الشراع للسفينة ، وتعلّق من سقف البيت ، يشدُّ فيها حبل ويُدار بهامشيها ، وتُبَلّ بالماء وترشّ بماء الورد ، فإذا أراد الرجل فى القائلة أو الليل أن ينام جَذَبها بحبْلها ، فتذهب بطول البيت وتجىء ؛ فيهبّ على الرجل منها نسيم طيِّب الريح بارد فيذهب عنه أذى الحرّ ويستطيب به النوم وهى فوقه ذاهبة وجائية ، ولذلك سَمَّاها جارية . ومُشْمِعِلّة: سريعة الذهاب.قفولها : رجوعها . والسائق : الشريط الذى يسوقها إذا جُذبت به . يستحثّها : يستعجلها ، ومن جِنْسها ، أى هو من كَتَّان مثلها أومن قِنَّب . والاحتِثاث : التَّعجيل . رَسِيلُها ، أى مرسلها ، ويرسَل معها لزاوية البيت ويرجع معها ، والرَّسِيل : الفرسُ يرسَل مع آخر

في السباق . أوان القيظ : وقت الصيف . تَنْطُف : تقطر ، ونطُف الماء: سال وقطر ، والندى : الرشّ الضعيف . وقُحُولها : يبسها . ولّى : أدبر ، وإذا ولّى الحرُّ لم يُحْتَجْ إليها ، فلا تُرَشُّ ولا تستعمل فتيبس . وللسريّ الموصليّ فيها :

ومبثوثة في كلِّ غربٍ ومشرقٍ لهـــا أمّهاتٌ بالعراق بواطنُ[(1)]
يحرِّك أنفاسَ الرِّياح حراكُها كأنَّ نسيم الروض فيهنَّ كامنُ

وله أيضاً :

وخيش كما انجرّت ذيولُ غلائلٍ مصندلة يختال فيها الكواعبُ[(2)]
وقد أطاعتْ فيها الشمال وانثنتْ مُقَيَّدَةً عن جانبيها الجوانبُ[(3)]

ومّما يكْتب على مروحة الكفِّ :

أنا في الكفِّ لطيفَهْ مسكني قصرُ الخليفَهْ
أنا لا أصلح إلا لظريفٍ أو ظريفَهْ
أو وصيفٍ حسنِ القدِّ شبيهٍ بالوصيفَهْ

وفيها أيضاً :

إنني أجلبُ الرِّيَا ح وبي يدفع الخجلْ
وحجاب إذا الحبيـــبُ ثنى الرَّأس للقُبَلْ

* * *

ثُمَّ قال : وَهَاكُمْ يا أولِي الْفَضْلِ ، وَمَراكزَ الْعقْلِ ، وأَنْشَدَ مُلْغِزاً في حابول النَّخْلِ :

---

(١) لم أجدهما في ديوانه .
(٢) ديوانه ٦١
(٣) الديوان « الجنائب » .

وَمُنْتَسِبٍ إلى أُمٍّ تنشَّأ أَصْـلُهُ مِنْهَا
يُعَانِقُهَا وقد كانَتْ نفتْهُ بُرْهـةً عَنْهَا
بهِ يَتَوَصَّلُ الجانِى ولا يُلْحَى ولا يُنْهَى

* * *

قوله : هاكم ، أى خذوا . مراكز العقل : مواضعه ومحالّه ، كأنَّ العقل رُكِّزَ فيهم . والحابول : حبل يُصْعَد به على النخل يُعْمَل من ليفها ، وهو حبل يُعْقَد حَلْقة ، ويدخل فيها الرجل ويدرِّجه على النَّخلة شيئاً شيئاً عند طلوعه حتى يصير بأعلاها ، وحبل النخل ليس فيه شيء من الملاسة ولا فى النخلة ذلك ، فله بها استمساك ، ولذلك جعله معانقاً لها ، لأنه استدار بها ، وقيل له : حابول لأنه لا يُستعمل إلا للصُّعود على النخيل ، فَرْقاً بينه وبين الحبْل المستعمل لكلِّ شيء ، ولمّا كان يُصْنع من ليف النخل ، جعل النَّخلة أمه . برهة : زماناً . والجانى : الذى يجنى الثَّمَر ، ألغز به وأوهم أنه الذى يجنى جناية . يُلْحَى : يلام ويسبّ .

* * *

ثم قال : ودُونكُمُ الخفيَّةَ العَلَم ، المعتكرةَ الظُّلَم ، وأنشد مُلْغِزًا فى القلم :

ومأمومٍ بهِ عُرِفَ الإمامُ كما باهت بِصُحْبَتِه الـكرامُ
لَهُ إِذْ يَرْتَوِى طيشانُ صادٍ ويَسْكُنُ حينَ يعروه الْأُوَامُ
ويُذْرِى حِينَ يُسْتَسْعَى دُمُوعاً يَرُقْنَ كَمَا يروق الإبتسامُ

* * *

قوله : العَلَم ، أى الرَّقْم فى الثوب ، فأراد أنها خفيَّة فى اللغز ، فعلمها الذى تُعْرَف به خَفِىَ . والمعتكرة : الشّديدة السواد . ومأموم : برأسه آمة ،

أى شجّة ، يريد الشقّ برأسه ، والإمام : أمير المؤمنين ، وجعله معروفاً بالقلم ، لأنّ القلم يبدِى أسرار الملك وأخباره فى كتبه . وقيل : الإمام الكتاب ، من قوله تعالى: ﴿يومَ نَدْعُو كلّ أناسٍ بإمامِهِمْ﴾(١)، أى بكتابهم ، وقيل بنبيّهم ، ولا يمتنع أن يريد بالمأموم المتَّبِع ، وإمامه . الذِّهن الذى يملى عليه ، أو يد الكاتب به ، وقيل : سَمَّاه مأموماً ، لأنه يؤم القرطاس ، أى يقصده ويتبعه والإمام كتاب الله سبحانه وتعالى لأنه يُتَّبَع ويؤتّم به ، ويُقتدى بما فيه . باهَتْ : افتخرت. والكرام : الكتبة لقوله تعالى: ﴿بأيدى سَفَرَةٍ* كرامٍ بَرَرَةٍ﴾(٢) ولا مرتبة أشرف من مرتبتهم بعد الإمرة ، ولذلك قال الصابى :

وقد علم السُّلطان أنِّى لسانهُ ... وكاتبه الكافِى السِّديد الموفَّقُ(٣)

أوازِرُه فيما عَرَا وأمدُّه ... برأيٍ يُرِيه الشَّمسَ واللّيلُ أغْسَقُ

فيمناى يمناه ولفظِى لَفْظُه ... وعينى له عينٌ بها الدَّهرَ يَرْمُقُ

طَيَشَان صاد ، أى جوَلان عاطش ، وطاش : خفَّ . يعْرُوه : يقصده . والأوامُ : العطش، يريد أنّ القلم إذا ارتوى بالمداد أسرع فى الكتابة وإذا جفَّ توقف وأمسك . يَرُقْنَ : يُعجِبْن .

ونظر المأمون إلى جارية تكتب ، فقال :

وزادَتْ لدينا حُظْوَةً حين أطرقتْ ... وفى إصْبَعَيْها أسمرُ اللون أهْيَفُ

أصمُّ سميع ساكنٌ متحرِّك ... ينَالُ جسيماتِ العلا وهو أعجَفُ

وقال العَلَوىّ :

إذا ما التقينا وانتضينا صَوَارِماً ... يكاد يصمُّ السامعين صَرِيرُها

تَسَاقط فى القرطاس منها بدائعٌ ... كمثل اللآلى نظمُها ونثيرُها

---

(١) سورة الاسراء ٧١

(٢) سورة عبس ١٦ ، ١٧

(٣) يتيمة الدهر ٢ : ٢٤٧

ثُمَّ قَالَ : وَعَلَيْكُمْ بالْوَاضِحَةِ الدَّلِيل ، الفاضحة ما قيل ، وأنشد مِلغزًا فى المِيل :

وما ناكِحٌ أُخْتَيْنِ جَهْرًا وَخُفْيةً	وَلَيْسَ عَلَيْهِ فى النِّكاحِ سَبيلُ
مَتَى يَغْشَ هَذِى يَغْشَ فى الحالِ هذه	وإن مال بَعْلٌ لم تَجِدْه يَمِيلُ
يَزِيدهما عِنْدَ المشيبِ تَعَهُّدًا	وبِرًّا وهذا فى البعول قليلُ

* * *

قوله: الواضحة ، أى البيّنة . الفاضحة ، أى المبدية لعيب ماقيل قبلها من اللغز . والمِيل : المِرْود . والأختين : العينين . ليس عليه سبيل ، معأنّ الجمع بين الأختين لا يجوز . يَغْشَ : يدخل لهما . مالَ : عدل وزال عنها . والبَعْل : الزوج . تعهُّداً : تفقّداً . برًّا : إكراماً . يريد أنَّ الأبصار عند الكبَر يضعف نظرها فتحتاج إلى الكحل . وقيل : عبَّر بالمشيب عن مَرَهِ العين وهو فسادُها من ترك الكحل .

* * *

ثمَّ قال : وهذه يا أولى الألباب ، معيار الآداب ، وأنشد ملغِزًا فى الدُّولاب :

وجافٍ وهو موصولٌ	وَصولٌ لَيْسَ بالجافى
غريق بارز فاعْجَبْ	له من راسبٍ طافى
يَسُحُّ دُمُوعَ مهضومٍ	ويهضِم هَضْمَ مِتْلافِ
وتُخْشَى مِنْهُ حِدَّتُه	ولكِنْ قلبُهُ صافى

* * *

أولى الألباب ، أى أهل العقول . معيار : مقياس يعبَّر به ، وتقول: عايرت المكاييلَ ، إذا قستَ بعضها ببعض ، وساويتَ بينها . والدُّولاب : الناعورة . والجافى: الثقيل، يريد أنَّ الدولاب جافٍ فى نفسه وخلقته، وليس بجافٍ لسرعة حركته ودَوَرانه . وموصول : ليس من عُودٍ واحد . وَصُول ، يعنى للرياض بمائه ولهـذه المنفعة صُنِـع . قوله : ليس بالجافى ، يعنى إذا فارق المـاء عاد إليه لا يجفوه ، والجفاء يكون فى الخلقة والخُلق ، يقال : رجـل جافى الخلْقة ، أى غليظ ، وجافى الخُلق إذا كان كزًّا غليظ العشرة ،وجفا الشيء يجفو جفاء: لم يلزم مكانه ، وجفا جنبُه عن الفراش : لم يطمئنّ ، ويَجْفوه ، ضـدّ يصله ، جَفوة : مرة واحدة ، وجفاء مصدر عام ، ورجل وَصولٌ : كثير الوصْل .

وقال الرُّصافى فى هذا المعنى فأحسن :

وذى حنينٍ يكاد شـوقاً يختلِسُ الأنفس اخْتلاَسَاَ[1]
إذا غـــدا للرياض جاراً قال له المحْلُ : لا مِسَاسَاَ
يبتسِمُ الرَّوضُ حين يَبْـكِى بأعــينٍ ما رأيْنَ باسَاَ
من كلِّ جفنٍ يسـلُّ سيفاً صارَ له غِمْــده رئاسَاَ

ولأبى الفضل بن الأعلم فى قواديس الساقية :

ونُسَّـــكٍ كعبتهم حفرة مَنْ فارق الحفرة يبكيهـــا
حتى إذا ما أنفدُوا دَمْعَهُمْ خرُّوا على رءوسهم فيهـــا

وقال أعرابى فى ساقية :

باتت تحنُّ وما بهـا وَجْدِى وأحنُّ مشتاقاً إلى نَجْدِ
فدموعها تحيَا الرِّياضُ بهـا ودموع عينى أحرقت خدِّى

قوله : غريق بارز ، يريد أن بعضه يَغْرَق فى الماء وبعضه يبرز منه ، وهو

(١) ديوانه ١٠٢

معنى راسب طافى ، لأنك تقول : رسبَ الشىء فى المـاء ، إذا هبط فى قعره وسَفُل فيه ، وطفا ، إذا ارتفع على وجه الماء . يسحّ : يصبّ . مهضوم ويهضم : ينقص . متلاف : مبذِّر للمال ، يريد كثرة أخذه للماء وإراقته له . حدَّته : سرعة جريه ، لأنه إن نشب بأحدٍ فى جريه أهلكه . وقلبه صافى ، لأنه ليس من الحيوان فيعتقد شرًّا إن أحرج . ولابن سعد الخير البلنسىّ فى دولاب :

لله دُولابٌ يفيـض بسلسلٍ ... فى روضـةٍ قد أينعَتْ أفنَانَا(١)

قد طارحتْه بهـا الحمائم شجْوَها ... فيجيبها ويراجـع الألحانَا

وكأنه دنِفٌ يدور بمعهـدٍ ... يبكى ويسأل فيه عمَّن بانَا

ضاقت مجارِى دمعه عن جفنِه ... فتفتَّحت أضلاعُـه أجْفانَا

ولبعض أصحابنا :

وقدَّة الحسن فى محاسنِها ... للعين قيْـدٌ وللحجا شَرَكُ

تَبْـكِى فتبدِى حنين ذى نسُـكٍ ... بعـد التَّصابى وما بهـا نُسُك

إذا بكت فى الرِّياض من طرب ... بَدَا بوجـهِ الأزاهر الضَّحِكُ

كأنَّ ما انهلَّ من مدامعها ... رجومُ شُهْبٍ يُقِلُّهـا فَلَكُ

* * *

قال: فلمَّا رَشَقَ، بالخَمْس الَّتى نَسَقَ، قال: يا قوم تدَبَّرُوا هذه الخمس، واعْقِدُوا عليها الخَمْسَ، ثُمَّ رَأْيَكُمْ وَضَمَّ الذَّيل، أو الازْدِيادَ من هَذَا الكَيْل.

قال : فاسْتَفَزَّتِ القَوْمَ شَهْوَةُ الزِّيادة ، على ما أُشْرِبوا من البلادة ، فقالوا : إنَّ وقوفَنَا دُونَ حَدِّكَ ، ليُفْحِمُنَا عن استيراء زَنْدِك ، واسْتِشْفَاف فِرِنْدِكَ ، فإن أتممت عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِك ؛ فاهْتزَّ اهْتِزَازَ مَنْ فَلَجَ سَهْمُه ، وانخزلَ خَصْمُهُ .

(١) نفح الطيب ٣ : ٦٠٢

قوله : رَشَق ، أى رمى ، مأخوذ من رَشْق السهام ، يقال : رَشَقتُ رشقاً ، أى رَمَيْتُ ، والرِّشْق بالكسر : اسم للسهام ، وهو اسمٌ للهَدَفِ الَّذِى يرمونه . نَسَق : تابع واحداً بعد واحد ، وكلُّ شىء تبع بعضه بعضاً على السواء فهو نَسَق . ضَمّ الذيل : التشمير . الفنجديهى : ضمّ الذيل كناية عن الاكتفاء بهذه الأحاجى الخمس ، والسكوت عن طلب الزيادة ، يريد بالازدياد من الكيل ، أن يزيدهم من حسن الأحاجى .

واستفزّتهم : استدعتهم واستخفّتهم ، الزّجّاج فى قوله تعالى : ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهم بصوتِكَ﴾(١) أى استدعه لتستخفّ به إلى إجابتك، واستفزّه : ختله حتى ألقاه فى مهلكة . أُشْرِبوا : سُقُوا ودُوخلوا وخولطوا ، وكلّ لون خالط لوناً آخر فقد أُشرِبَه .

والْبَلَادَة : التَّحيّر فى الأمر ، والبليد المتحيِّر : الذى لا يدرى أين يتوجّه ، الأصمعىّ : البليد : الذى يضرب بإحدى بلدتيه على الأخرى من الغمّ عند المصيبة . والبَلْدَة هى الرَّاحة ، يقال : تبلّد الرجل ، إذا تحيَّر وضرب بإحدى يديه على الأخرى ، يريد أنَّ البلادَةَ مَشَتْ فيهم وأُشرِبتهم .

* * *

ثُمَّ افتتح النُّطْقَ بالْبَسْمَلَةِ ، وأنشد مُلْغِزًا فى المزمَّلة :

ومسرورةٍ مغمومةٍ طولَ دهرِها ... وما تَدْرِى ما السرور ولا الغَمُّ

تُقَرَّبُ أحياناً لأجل جَنينِهَا ... وَكَمْ ولدٍ لولاه طُلِّقَتِ الأُمُّ

وتُبْعَدُ أحياناً وما حالَ عَهْدُهَا ... وإبْعادُ مَنْ لم يَسْتَحِلْ عَهْدُهُ ظُلْمُ

(١) سورة الاسراء ٦٤

إذا قَصُرَ اللَّيــــلُ اسْتُلِذَّ وصالهـا
وإن طالَ فالإعراضُ عن وَصْلِهَا نُعْمُ
لهَـا مَلْبَسٌ بادٍ أَنيـــقٌ مُبَطَّنٌ
بِمَا يُزْدَرَى لَكِنْ لمَا يُزْدرَى الْحُكْمُ

* * *

قوله : المزمَّلة ، أى الملفَّفة ، وقد زُمِّلت ، إذا لفِّفتْ ، وهى آنية يُبرّد فيها الماء ، شبه الخابية ، تستعمل بأرض العراق وتوضع عليها لفائف ثياب خشنة ، وتُغَشَّى بجلد أو ثوب مزيَّن ، حسنٍ لنظر العين ، ومن تحته تلك الأغشية الخشنة التى لها السرّ والحكم فى تبريد الماء . ومَسْرورة ، أى محمولة على سرير ، وهم يجعلون تحتها مِرْفعاً من عود أو حديد ، تَرْتَفِع به عن الأرض فهو سريرها ، وكذلك رأيتُ خوابىَ الماء بسجِلْماسة ، كلها على أسرّة عود . وقيل مسرورة : مغمومة مغطاة ، وسرير الكمأة : ما غطاها من التراب . والغم : ضِدّ السرور . جنينها : ولدها ، أراد به الماء . وحال : تغيَّر . عهدها : التقاؤها وقربها . غُنْم : غنيمة . أنيق : مُعْجِب . يزدرى : يحتقر ، وأراد بالحكم معنى تبريد الماء ، وأراد أن ما بدا منها للناظر فهو غشاء حين يعجب مَنْ رَآهُ ، وهو قد بطِّن بلفائفَ غِلاَظٍ مستحقرة ، ولها معنى تبريد الماء ، وقال السرىّ الموصلىّ فى المزمّلة :

وحافظة ماء الحيـــاة لفتيةٍ حياتهم أن تُسْتَلذَّ المشارب[1]
تسربُلُها أجْفَى اللبــاس وإنَّمـا يليق بهـا أفوافُه والسباسب[2]
على جسدٍ مثـل الزَّبَرْجَد لم يزل يشاكلـه فى لونه ويناسب
إذا استودعت حُرَّ اللجين سبائـكاً تصوَّب فى أحشائهـا وهو ذائب[3]

(١) ديوانه ٦١
(٢) الديوان : « السبائب » .
(٣) الديوان : « يصوب من أجسامها » .

فهذه القطعة وقطعة المقامة تدلّ على تفسيرنا ، وبه كان يفسر شيخنا ابن جهور رحمه الله ، حدّثنا بذلك شيخنا أبو بكر بن أزهر عنه . وأما الفنجديهى ففسر المزمّلة بتفسير غير مرضيّ ، وذلك أنه قال: المزمَّلة موضع يغطَّى ؛ ويحشى تِبْناً ، ويوضع فى وسط التّبن وعاء فى القيظ يُبقى الماء بارداً ، ويترك ثقبه فى وسط الموضع لدخول الجرة فيها ، ولهذا قال : «مسرورة» أى مقطوعة السرّة ، وهو من سُرَّ الصبى ، إذا قطعت القابلة سُرَّته .

* * *

ثُمَّ كَشَرَ عن أنيابه الصُّفْر ، وأنْشَدَ مُلْغِزًا فى الظُّفْر :

وَمَرْهُوبِ الشَّبَاَ نامٍ ... وما يرعى ولا يَشْرَبْ

يُرَى فى الْعَشْرِ دون النَّحْـــرِ فاسْمَعْ وصْفَه واعْجَبَ

* * *

كَشَر : كشف . أنيابه : أضراسه . الصُّفْر ، يريد أنه لا يتعهدها بالسُّواك ، فلذلك اصفرَّت وتلك الصفرة تسمى الْقَلَح ، وقد قال فى السادسة والعشرين : «بحسن مُلَحِهِ وقبح قَلَحِهِ» . مرهوب:مخوف . الشَّبَا:الحدّ . نامٍ :زائد ،والظفر إذا تُرِكَ بغير تقليم طال . وما يرعى ، يريد أن نمو الخلْق وزيادته إنما هو بما يتغذى به من الأكل والشرب ، وهذا يكبر ويزيد من غير غذاء . والعَشْر فى الظاهر: عَشْر ذى الحجة . والنّحر : يوم النحر أى يوم العيد ، فأراد أن هذا المرهوب الشَّبا إنما يظهر فى العَشْر خاصَّة ، فإذا جاء يوم العيد وطول السنة بعده لم يظهر ، وإنما يعنى بالعَشْر الأصابع . والنَّحر : العنُق ، أى أنّ الأظفار خُلِقت فى الأصابع لا فى العنق ، أو يريد أن الظفر يرى فى الأصابع العشر فى عشر النَّحر من ذى الحجة .

* * *

ثُمَّ تخازرَ الْعِفْرِيت ، وأنْشَدَ مُلْغِزًا فى طاقةِ الْكِبْرِيت :

وَمَا مَحْقُورَةٌ تُدْنَى وتُقْصَى ... وما مِنْهَا إذا فكَّرتَ بُدٌّ

لهَا رأسانِ مُشْتبِهان جدًّا ... وَكُلٌّ مِنْهُمَا لأخيـه ضِدُّ
تُعَذَّب إن هُمَا خُضِبا وتُلْغَى ... إذا عَدِما الخِضَابُ وَلاَ تُعَدُّ

* * *

قوله : تخازر ، أى نظر بمؤْخر عينيه مستقلا لذلك ، وهو نظر المحتقر لمن ينظر المنكر عليه . والعفريت: الشيطان المؤذى ، وهو الرئيس من الجن ، والكبريت،معروف فارسيّ معرّبٌ . وطاقاته:قضبانه التى تجعل شيئاً على شىء وهو الوقود الذى يشعَل به المصباح . تُقْصَى : تبعد . جدًّا ، أى كثيراً ، ويريد بالرأسَيْن طرفى قضيب الوقيداللذين ينغمسان فى الكبريت،وجعلهما ضدَّين لأن هذا فى طرف وهذا فى طرف ، فقد تباعدا وضدّ الشىء بعيد عنه ، وجعلهما متشبهين ؛ لأن شكل الطرفين وهما الرأسان شكل واحد . وخُضِبا : غمسا فى الكبريت . وتُلْغَى : تهجَر وتترك ، وقال ابن رشيق :

إنْ كنتَ تنكر ما منك ابتليتُ به ... فإنَّ بُرْءَ سقامى عزَّ مطلبُهُ[1]
أشِرْ بعودٍ من الكبريت نحو فمى ... وانظر إلى زفراتى كيف تُلْهِبُه

* * *

ثُمَّ تخمَّطَ تخمُّطَ القَرْمِ ، وأنْشَدَ مُلْغِزًا فى حَلَب الكَرْم :

وما شىء إذَا فَسَدَا ... تحوَّل غَيُّهُ رَشَدَا
وإن هو راق أوصافاً ... أثَارَ الشَّرَّ حَيْثُ بدا
زَكِىُّ العِرْقِ وَالِدُهُ ... ولكِنْ بِئْسَ ما ولَدَا

* * *

قوله : تخمَّط ، أى تكبّر وتهيّأ للقول ، وأصل التَّخَمُّط للقرم ، وهو فحل الإبل ، وتخمَّط : تهيّأ للهدير وأخذ فى الصِّياح والهجوم على الإبل . وحَلَب الكَرْم ، أراد الخمر ، لأنها تحْلَب من العنب . والحلَب: اللبن المحلوب ، يقول:

---

(١) نقله ابن رشيق فى النتف ٧ ، ٨

الخمر إذا فسدت صارت خلا ، فحلّ استعمالها، فقد صارغيُّها وهو فسادها رشداً ، أى صلاحاً ، وقال أبو بكر بن الْقَبطُرْنة فى خمرٍ له فسدت فصارت خلاًّ :

أبا حسنٍ إنى فجعتُ بصاحبٍ   أنيس يسلِّى الهمّ عنـــد احتلالِهِ
غدتْ بنت بِسطام بن قيس بدَنّهـــا   وأمست كجسم الشَّنْفَرَى بَعْدَ خالِهِ

قوله : «غدت بنت بِسطام بن قيس »،أى صهباء ،لأن بسطام بن قيس يكنى أبا الصهباء . وقوله : « وأمست كجسم الشنفرى » ، أى خَلاًّ ، لأنه يريد قول الشَّنْفَرَى[1] :

* إنّ جسمى من بعد خالِىَ خَلٌّ *

أى مختلّ .

وقال آخر فى ذلك :

حَسِبْتُها بنتَ بسطامٍ لها أرجٌ   ثم افتضضت ختاماً من أبى سَلَمَهْ

عرّض بأبى سلمة الْخَلاَّل .

ومن التعريض المركّب على هذا المعنى قول الشاعر :

شربتُ مـداماً تسرّ التريفَا   فأصبحت تجرّع خـــلا ثقيفاً[2]
وصرت حجازاً جديب المحَـلِّ   وقد كنت للطالب الخِصْب رِيفَا

وقال آخر :

يا عُقاراً صار خــلاًّ   ومـــلاذاً للبعوضِ
سِرْ فما لى فيك حظٌّ   كان ذا قبل الحموضِ
ما أبالى بعد أكل الزّبد من طَرْح المخيضِ

قوله : راق أوصافاً ، أى حسنت أوصافه وحسنُها أن توصف بالرّقة والصفاء والحمرة والقِدَم وقوة الفعل ،يقول : فإذا كانت أوصافه معجبة أوْقَد الشر حيثما

(١) اللسان ــ خلل ، وصدره :

* فاسْقِنيَها يا سواد بن عمرٍو *

(٢) ط : « بت » .

حضر فإذا فسدت أوصافه صلح . زكىّ العِرْق : كريم الأصل ، والزكاء: النماء والزيادة، أى كثير الفضل والخير، وأراد أنها شجرة مباركة يكون منها العنب والزبيب والرّبّ ، ولكنها تلد ولد سوء ، وهو الخمر ، وأخذ هذا المعنى من قول الشاعر :

فإن فخرتَ بآباءهمْ شرفٌ قلنا صَدَقْتَ،ولكن بئس ما ولدُوا

أو يريد لذّة العنب .

* * *

ثُمَّ اعْتَضَدَ عَصَا التَّسْيَار ، وأَنْشَدَ مُلْغِزًا فى الطَّيَّار :

وذِى طَيْشَةٍ شِقُّهُ مائلُ وما عابَهُ بِهِـمَا عاقِلُ

يُرَى أبدًا فوق عِلِّيَّةٍ كما يَعْتَلِى الملِكُ العادِلُ

تساوَى لَدَيْهِ الحصا والنُّضارُ وَمَا يَسْتوِى الحقُّ والباطِلُ

وأَعْجَبُ أوصافه إنْ نَظَرْتَ كما يَنْظُرُ الكيِّسُ الفاضِلُ

تَرَاضَى الخصومُ به حاكماً وَقَدْ عَرَفوا أنَّهُ مائلُ

* * *

قوله : اعْتَضَد ، جعلها تحتَ عَضُدِه . التَّسْيار : السَّير . والطَّيَّار : ميزان معروف عندهم ، يرجِّحه أيسر شىء ؛ فلِخفَّته سُمِّىَ الطيّار. وقيل : الطَّيّار . ميزان الدراهم المعروف عندهم بالقارسطون . الفنجديهى : الطيّار : لسان الميزان .

طَيْشَةٍ خفة . شِقُّه : نصفه وجانبه ، فيريد بالظاهر : وذى حمق وخفة أصابه خَدَر وفالج ، فيبس جنبه فمال على الجانب الصحيح ، ومع ذلك لا يُرَى أبداً إلا فى مكان مرتفع عالياً كما يفْعَل الملك ، والحجارة والذهب عنده سواء . والنُّضار : الذهب ، ثم قال : وإذا نظرت إليه نظر كَيِّسٍ حاذق رأيت فى وصفه عجباً حين كان الناس يتراضوْن بحكمه مع معرفتهم بأنه ناقص الخلْقة، لا يعدل فى

حكمه إنما هو ميّال مع أحد الخصمين . والعلّية : اليد التى يمسك عليها الميزان .

[بعض الألغاز]

وقال أبو نواس يلغز :

واسم عليه جُنَنٌ للصبا وضمَّه للوصف دوَّارُ
فضحتُ عنه سرَّ كتمانه وكان من شأنىَ إظهارُ
يُحذَف أول مبتدأ لاسمه ثم يكون الوصف إضمار
فذاك عل فى لعلّ وفى قولك فى حارث : يا حار
فهو بحذف ذا وترخيم ذا أح لمن تلذعه النار

الاسم راحة ، يحذف أوّل حرف وآخر حرف ، ويبقى أح ، وهو من لذعته النار .

وقال آخر :

ويلى من الحبِّ وويلاَهُ مُلِّكَ قلبى وتناساه
مَنْ ثالث العنبر بعضُ اسمه ورابع العنبر أولاَهُ
وقوله عند سؤالى له : ما فى اسمه والحافظ الله ؟

الاسم رعبلان . وأنشد ابن إسحاق النحوىّ :

حلف الحبيب علىَّ لاسميتُه فكنّيته وأطعتُ خوف تغاضبِهِ
ظبى إذا ما زارنى حلَّ اسمُه قلبى وذاك من عجيب عجائبِهِ
ويكون إن رخّمته وجزمته وقلبته ما تشتهى من صاحبه
ويكون بعد الجزم إن فكرت فى التَّصْحيف مقلوباً أشدُّ معايبِهِ

الاسم فرجة . وأشـــدّ معايبه فرج ، وهو ما يشتهى من صاحبه ، إذا حذفت الهاء .

وقال ابن شرف :

ما آكلٌ يعطَى على أكلةٍ إعطاءَ إقلالٍ وإكثار[(١)]
لُقْمَتُه قيمتها وحدَها من غير خلفٍ ألفُ دينار

هو فرج المرأة .

وله فى المرآة :

ما يقول الشيخ فى شى ء تراه ويراكا[(٢)]
ثم لا تلقاه إلا حين لا يلقى سواكا

وله أيضاً فى الإبرة :

ضئيلة الجسم لها فعل متين السَّبَب[(٣)]
حافرُها فى رأسها وعينها فى الذَّنَبِ

ولغيره فى الميزان :

وقاضٍ قد قضى فى الأرض عدلٌ له كفٌّ وليس له بَنَانُ
رأيتُ الناسَ قد قَبِلوا قَضَاهُ ولا نطقٌ لديه ولا بَيَانُ

وقال العلوىّ الأصبهانى يلغز فى النَّسر الواقع :

وركب ثلاث كالأثافى تعاوَرُوا دُجَا الليل حتى أو مضَتْ سِنَةُ الفجر
إذا اجتمعوا سمَّيتَهم باسم واحدٍ وإن فرِّقوا لم يُعرَفوا آخرَ الدَّهرِ

(١) يقله فى النتف ١٠١
(٢) النتف ١٠٦
(٣) النتف ٩٢

وأنشد الحاتمى فى الخفاش وهو طائر الليل :

أَرَى عُلَماء النَّاسِ لا يعرفوننى ... وقد ذهبوا لِلْعِلْمِ فى كلِّ مَذْهَبِ
بجلدةِ إنسان وصورة طائرٍ ... وأظفار يَرْبوعٍ وأنياب ثعلبِ

وأنشد فى الطائر وظله :

عجبت لطائرٍ فى الحوم طارًا ... وكانا واحداً فاثنين صارا
فهذا طائر فى الجوّ يهوِى ... وذا مستأنس لَزِمَ الْقَرَارا

وأنشدوا فى مصراع الباب :

عجبتُ لمحرُومَيْنِ من كلِّ لَذَّةٍ ... يبيتان طولَ اللَّيْلِ يعْتَنِقَانِ
إذا أمسيا كانا على الناس مرصداً ... وعند طلوع الشمس يفترقانِ

وأنشدوا :

فما مَيْتٌ أحْيَابه الله مَيْتاً ... ليخبر قوماً أُنذِرُوا ببيانِ
وعجفاء قد قامتْ لتُنْذِرَ قومها ... وأهل قُرَاها رهبة الحدَثان

الميت الأوّل بقرة بنى إسرائيل ، والميت الثانى الذى ضرب ببعضها . والعجفاء نملة سليمان عليه السلام .

والألغاز أكثر من أن يأتىَ عليها الحصر .

* * *

قال : فظلّتِ الأفكارُ تهيمُ فى أوْدِيةِ الأوهام ، وتجول جَوَلاَنَ المستهام ، إلى أن طال الأمَد، وحَصْحَصَ الكَمَد . فلمَّا رَآهُمْ يَزْنِدُون وَلاَسناَ ، ويَقْضُون النَّهَارَ بالمُنَى ، قال : يا قوم ؛ إلام تَنْظُرون ، وحتَّامَ تُنْظَرُونَ ! أَلَمْ يأنِ لكم استِخْرَاجُ الخَبِيّ ، أو استِسْلاَمُ الْغبِيّ ! فقالوا : تاللهِ لَقَدْ أعْوَصْتَ ، ونَصَبْتَ الشَّرَكَ فقنصْتَ ؛ فتحَكَّمْ كَيْفَ

شِيت ، وحُزِ الْغُنْمَ والصِّيت ، فَفَرِضَ عن كُلِّ مُعمًّى فَرْضاً ، واسْتَخْلَصَهُ مِنْهُ نَضًّا . ثم فتح الأَقْفالَ ، ووسم الأَغْفَال ، وحَاوَلَ الإِجْفَالَ . فاعْتَلَقَ مِدْرَهُ الْقَوْم،وقال له : لا لُبْسةَ بَعْدَ اليوم . فاسْتَنْسِبْ قَبْلَ الانْطِلاَق ؛ وهَبْهَا مُتْعَةَ المطلاق ، فأَطْرَقَ إطراقَ مُريب، ثم أنشد والدَّمْعُ مُجيب .

* * *

قوله : تهيم أى تتحيّر والهائم : الذى يركَبُ رأسه ويمشى على غير هداية . الأوهام : جمع وَهْم وهو ماتتوهمه وتتصوره فى نظر مسألة مشكلة ، إما خطأ وإما صواباً ، وأراد أن أفكارهم كانت تتحيَّر فى نظر ألغازه ولا تهتدى . تَجُول : تتصرَّف . المُستهام : العاشق الذى ذهب به الحبُّ كلَّ مذهب . حصحص : تبيَّن. الكمد : الحزن والهمّ . يَزْنِدُون ولا سَنَا : يقدحون الزَّند ، ولا يظهر لهم ضوء ، أى تضرب أذهانهم الألغاز ، فترجع بلا فَهْم . ويقضون : يقطعون يومهم بأمانىٍّ لا محصول لها .

[من أقوالهم فى الأمانى]

قال علىٌّ بن أبى طالب رضى الله عنه : إيَّاكَ والمنى فإنها بضائع النَّوْكَى ، وتثبِّط عن الآخرة والأولى ، وأشرف الغنى ترك المُنى .

علىّ بن عبيدة الزنجانِى : الأمانىُّ مخايل الجهل .

وقال غيره : الأمانىُّ تخدعك وعند الحقائق تَدَعُك .

وفى ضدّه : أفلاطون : التمنى حلم المستيقظ وسلوة المحروم .

غيره : الأمل رفيق مؤنس إنْ لم يبلِّغْك فقد ألهاك .

قيل لأعرابىٍّ : ما أمتع لذات الدنيا ؟ قال : ممازحة الحبيب ، ومحادثة الصديق ، وأمانىُّ تقطع بها أيامك . وأنشد الثعالبىّ:

ولا تكن عبدَ المنى فالمُنَى رءوس أموالِ المفاليسِ

وقال مسلم بن الوليد :

وأكثر أفعال الغوانى إساءة وأكثر ما تلقى الأمانى كواذبا[١]

وأنشد أبو تمام فى ضدِّه :

مُنًى إن تكنْ حقًّا تكن أحسنَ المنى وإلا فقد عشنا بها زمناً رغْدا

أمانىّ من لَيْلَى حِسَاناً كأنما سقتنى بها ليلى على ظمأ بَرْدَا

ابن المعتزّ يصف ساقياً :

فظـلَّ يناجينى بقلب طرفه بأطْيَبَ من نجوى الأمانى وألْطفَا

غيره :

عَلِّلينى بموعـدٍ وامْطُلِى ماحييتِ بهْ

ودعينى أفوز مِنْـــكِ بنجوى تطلُّبِهْ

فعسَى يعْثُر الزَّما ن بخطّى فينتبهْ

قوله : تُنْظَرون ، أى تؤخَّرون . يأنِ : يحِن ويقرُب . الخبىّ ، أى المخبوء المستور ، يريد ما خَبّأ لهم فى الشعر من اللّغز . استسلام : انقياد . الغبىّ ، أى الجاهل بالشيء . أغوَصْت : أتيت بعويص وهو الصّعب . الشَّرَك : آلة يُصاد بها . قَنَصْتُ : صِدْت . الغُنْم : الغنيمة والجائزة . الصِّيت : الذِّكر الحسَن . يُنشر فى الناس ويَشيع . فَرْض : قِسْط . وأوجب : وألزم . والفرض : العطية . واستخلصه : جعله خالصاً . نضًّا : حاضراً . فتح الأقفال ، أى حلّ ألفاظ الألغاز وإلباسها وكأنّها لتعميتها كأنّ عليها أقفالاً ، فحلّها بتفسير . والأغْفال : جمع غُفْل ، وهو الشيء المهمل ليس له علامة يعرف بها . وَسَمَها : جعل لها علامة . حاولَ الإجفال ، أراد الفِرار، وأجفل القوم : انهزموا . ومِدْرَه القوم : لسانهم وفصيحهم المتكلّم عنهم ، وأصل المدره المِدْفَاع، وقد دَرَهْتُه ، إذا دفعته : لُبْسة : شبهة ،وقد التبس الأمر إذا أشكل ، ومُتْعة الطلاق ، أن يهب الرجل لامرأته

(١) ديوانه : ٣٠٥

شيئاً من ماله إذا طلّقها يسلّيها بذلك عن فراقه لها ، وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : أكثر المتعة خادم ، وأقلها ثلاثون درهماً ، وقيل: أكثرها خادم وأوسطها ثوب وأقلها ماله ثمن. وهبْها : احْسِبْها، يقول : احسب انتسابك لنا مُتْعَةً وتسليةً لفراقك عنا . أطرق : أمال رأسه وسكت . مُريب : صاحب ريبة . والدّمع مجيب ، يريد أن إنشاده دعا دمعه فأجابه وقد قال أبو الطيب :

* أجاب دَمْعِي وما الداعى سِوَى طَلَلِ[1] *

يريد أنه لمّا وقف على الطلل وهو أثرُ دارِ أحبابه هيّجه لهم فبكى ،فالطلل لمّا دعاه للتذكّر أجابه بدموعه .

* * *

سَروجُ مَطْلَعُ شمسى ورَبْعُ لَهْوِى وَأُنْسِي

لَـكِنْ حُرِمْتُ نعيمى بِهَا ولَذَّةَ نَفْسِي

واعْتَضْتُ عنها اغترابًا أَمَرَّ يَوْمِي وَأَمْسِي

مَالِي مَقَــرٌّ بِأَرْضٍ ولا قرارٌ لِعَنْسِي

يوماً بِنَجْــدٍ ويوماً بالشَّأمِ أُضْحِي وَأُمْسِي

أُزجِي الزمانَ بقوتٍ مُنَغَّصٍ مُسْتَخَسٍّ

ولا أبِيتُ وعنــدِي فَلْسٌ،ومَنْ لِي بِفَلْسِ!

ومن يَعِشْ مِثْلَ عَيْشِي باع الحيــاةَ بِبَخْسِ

ثُمَّ إنَّه اخْتَبَنَ خُلَاصة النَّضّ ، ونَدَرضاربًا فى الأرضِ،فناشَدْناه أن يَعُود ، وأسْنَيْنَا له الوعود ؛ فلا وأبيك مَا رَجَع ، ولا الترغيبُ له نَجَع .

* * *

(١) ديوانه ٤ : ٧٤ ، وبقيته

* دَعَا فلبَّاهُ قَبْلَ الرَّكْبِ والإبلِ *

قوله : مَطْلع شمسى ، يريد أن سَروج هى بلده التى نشأ فيها . ربع : منزل . اعْتَضْت : استبدلت . أمرّ : جَعَلهُ مُرًّا . مَقَرّ : إقامة . قرار : سكون وإقامة عَنْسى : ناقتى الوثيقة . نَجْد : ما ارتفع من الأرض ،وأنجد : أتى نجدا . والشأم : أَخذ من اليد الشؤمى . أُزْجى : أسوق . منغّص : مكدّر ، ويقال: نغَّص علينا فلان ، أى قطع علينا ما كنا نحبّ الاستكثار منه ، وكلّ مَنْ قطع شيئاً يحبّ الازدياد منه فهو منغّص . مُسْتَخَسّ : مستهجَن . بَخْس : نقصان .

اخَتبن : جعله فى خُبْنته : وهو طرف ثوبه ، والُخْبنة كالُحجْزة للإزرار ، والُخلاصة : ما خلص له منه وصفا . وندر : سبق ، وذهب يضرب فى الأرض إذا سار فيها ،وأصل نَدَرَ ، خرج وطار، مثل النّواة إذا طارت من تحت المرضِخ وشبهها . فناشدناه : حلّفناه . يعود : يرجع . أَسْنَيْنَا : عَظَّمنا وجعلناها سنيَّة أى رفيعة . والوعود : جمع وَعْد ، وهو ما وعدوه به من المال . الترغيب : التطميع ، وقد رغّبته فى الشىء إذا زيّنته له وطمّعته فيه . ونجع : نفع ، وقد نجع عليه الطعام ، إذا أصلح عليه جسمه .

المقامة الثالثة والأربعون وهى البكريّة

حَكى الحارثُ بن هَمامٍ قال : هَفَا بِى الْبَيْنُ الْمُطوِّحُ ، وَالسَّيْرُ المبرِّح ، إلى أرضٍ يَضِلُّ بِهَا الخِرِّيتُ ، وتَفْرَقُ فِيهَا الْمَصَالِيت ، فوجَدْتُ ما يَجِدُ الحائرُ الْوَحِيد ، ورأيتُ ما كُنْتُ مِنْه أَحِيد ؛ إلاَّ أنِّى شَجَّمْتُ قَلْبِيَ الْمَزْءود ، ونَسَأتُ نِضْوِيَ الْمَجْهُود ، وسِرْتُ سَيْرَ الضّاربِ بقِدْحَيْنِ ، الْمُسْتَسْلِمِ لِلْحَيْنِ ؛ وَلَمْ أَزَلْ بَيْنَ وَخْدٍ وذَمِيل ، وإجازةِ ميلٍ بعد مِيل ؛ إلى أن كَادَتِ الشَّمْسُ تَجِب ، والضِّيَاءُ يَحْتَجِب . فارْتَعْتُ لإظْلالِ الظَّلاَمِ ، واقْتِحامِ جَيْشٍ حام ، وَلَمْ أَدْرِ أأَكِفْتُ الذَّيْلَ وأرْتَبِطُ ، أَمْ أغتمد اللَّيْلَ وَأَخْتَبِط !

* * *

هفا ، أى طار وخَفّ . المطوّح : الْمُبْعِد الْمُشْفِي على الهلاك ، وقد طوّحتُ الشيء ، إذا رميتَ به وألقيته إلقاء منكراً . المبرِّح : الشاقّ المتعب ، وقد برّح الأمر ، إذا عَظُم واشتدّ . يضلّ : يتحيّر ويتلف . الخِرّيت : الدليل ، وقيل : هو من خَرْت الإبرة كأنه من حسن دلالته يهتدى على مثال خرت الإبرة وهو ثُقْبها . تفرَق : تفزع . المصاليت : الشجعان الماضون فى الحروب ، واحدهم مِصْلات ، قال الفرّاء : الْمنصلِّت : المسرِع من كلّ شيء ، وجمعه مَصَالت ومصاليت . أحِيد : أخاف وأميل عنه . المزءود : المفزَّع ، وزئد الرجل : فزِع . نسأت : ضربتُ بالمِنْسَأة ، وهى العصا . نِضْوِى : بعيرى . المجهود : الْمُتعب . قَدحَيْن : سهمين .

[الميسر والقداح]

وكان الرجل فى الجاهلية يُمسك ثلاثة أقداح، على أحدها مكتوب: « أمرنى ربى »، وعلى الثانى « نهانى ربى »، والثالث غُفْل لا شىء عليه وهو المَنيح، فإذا أراد سفراً أو أمراً ضرب بها، فإن خرج له « أمرنى ربى » مضى آمناً، وإن خرج له « نهانى ربى » ترك ذلك الأمر وإن خرج له غُفْل أعاد الضّرب.

وقيل: كان يمسك قَدَحين مكتوب على أحدهما « افعل » وعلى الثانى « لا تفعل »، فإن خرج « افعل » مضى، وإن خرج « لا تفعل » ترك.

وقيل: كان لا يمضى حتى يخرج له « افعل » ثلاث مرات، ولا يترك المضىّ حتى يخرج له « لا تفعل » ثلاث مرات، فإن خرج له مرة « افعل » ومرة « لا تفعل » ولم يخلص له أحدهما، فإن مضى فى ذلك الأمر مضى وهو يرجو ويخاف، وهذا هو الذى أراد الحريرى لأنه كان بين الرجاء والخوف.

ولما قُتِل حجر أبو امرئ القيس، أخذ امرؤ القيس أزلامه وهى القِدَاح، وأتى ذا الخُلْصة ـ وهو صنم لدوْس وخثعم وبَجيلة ـ فاستقسم عندها بالأزلام فخرج له القِدْح الذى يكره، فأخذ الأزلام وكسرها وضرب بها وجه صَنَمِها، وقال:

لو كنتَ ياذا الخَلَص الموتُورا[1]

مثلِي وكان شيخُك المقبورا

لم تنه عن قَتْلِ العداة زُورَا

وحكى الفَنجديهىّ، قال: الضارب بِقِدْحين، يعنى به قول الناس: إمّا الغُنْم، وإمّا الغُرْم، وإمّا المُلْك وإمّا الهُلْك قال الشاعر:

---

(١) الرجز فى معجم البلدان ٣ : ٤٥٨

ضربتُ بها البيت ضَرْب القِدَا ح إما لهذا وإماً لذا[1]

والقِدْح : السهم قبل أن يُراش ويركَّب نَصْلُه.

وحكى ابن ظَفَر أن الأزلام سبعة قِدَاح ، مكتوب على أحدها « نعم » وعلى الآخر « لا » وعلى قِدْح « منكم » وعلى قِدْح « من غيركم » وعلى قِدْح « مُلْصَق » وعلى قِدْح « العقل » ، وعلى قِدْح « فضل العقل » . وكانت بيد سادن الأصنام ، فيأتيه ذو الحاجة بدراهم، فيسأل الصنم أن يوضّح له ما سأل عنه، ثم يَضرب بالقِدَاح ، فإن أتى سائل عن تزويج أو سفر أو شبه ذلك مما يستشار فى مثله ضَرَب له بالقِدْحين اللذين عليهما نعم ولا ، فإن خرج « نعم » مضى على فعله وإن خرج « لا » ترك ذلك . فإن انتسب رجل إلى قبيلة ضرب له بالأقداح الثلاثة التى فيها « منكم » « من غيركم » « ملصق » فإن خرج « منكم » أضافوا نسبه إلى أنفسهم ، وإن خرج « من غيركم » كان حليفاً وإن خرج « ملصق » لم يكن له حلف ولا نسب . فإن أتى سائل عن قتيل أو جناية ضرب بالقِدْحين اللذين عليهما العقل ،فإن خرج على قوم« العقْل» برىء منه الآخرون ، وإن عقلوا ففَضَل شىء ، فإن اختلفوا فيه ضرب بالقِدْح الذى عليه فضل العَقْل ، فإن خرج عليه أدَّاه .

ومعنى الاستقسام بها الرِّضا بالقسمة بينهم من الأمر والنهى والبراءة والوجوب .

وسهام الميسر عشرة :ثلاثة يُتكثَّر بها لا أنصباء لها ، وسبعة لها أنصباء ، فأوّلها الفَذّ ، وفيه فرضة واحدة وله نصيب واحد ، والثانى التوءم وفيه فرضْتان وله نصيبان ، ثم الرقيب وفيه ثلاث فُرض ، وله ثلاثة أنصباء ، ثم الحِلْس بأربع، والنافس بخمس ، والمسبل بست ، والمعلّى ، وهو أعلاها بسبع فرض وعلى عدد الفرض هى الأنصباء . وقال ابنُ لُبَّال فجمعها فى بيت :

---

[1] انظر الميسر والقداح ٥٦ ، ٥٧

فذٌّ وتوءم والرقيب ونافسٌ والحِلس ثمَّت مُسبلٌ ثم المعلُّ

واسم الثلاثة الّتى يُتكثَّر بها : الفسيح والمَنيح والوغد ؛ فإذا أرادوا الضَّرْب بها طلبوا أوَّل رجل يَلْقَوْنه ، فشدُّوا عينيه ، ويسمّونه الحرضة ، وأقاموا له الرقيب وضُرِب ، فكلّما خرج له قِدْحٌ دفعه إلى الرقيب ، والرقيب هو الأمين على الضَّرب بالقِداح ، قال الشاعر :

لها خلف أذنابها أزمل مكان الرقيب من الياسر

وكان أهلُ اليسار والجود من الجاهليَّة عند شدَّة الزمان ، ينحَرُون الجُزُور ويَقْتَسِمُونها ويضربون عليها بالقِداح ، فمَنْ قمَرَ(١) جعل نصيبه لأهل الميسر ، والقمار يُكنَى عنه بالميسر ، وأصل المَيْسِر موضع تُنْحر به الجَزور ، والياسر : الجَازر ، وتقسم الجْزور عشرة أجزاء : العَضُدان فى الكتفين جزآن ، وهما ابنا ملاط ، والعَجُز والزَّوْر جزآن ، والكاهلُ واللحاء عليهما الجنب بنصفين جزآن ، والوركان عليهما الذّراعان جزآن ، والفَخِذان وعليهما العُنُق مقسوما جزآن . وبقى جَنْب ، وهم يستثنونه وقد لا يستثنونه ، فيردُّ منه على جزء الكاهل ضلعان وعلى سائرها ضِلَع ضلع ، فإن فضلت قطعة أو عَظْم سمّىَ الزِّيم ، قال الشاعر :

وكنت كعظم الزيم لم يدر جازرٌ على أىِّ أدنى مقسِمُ اللّحم يجعلُ

وقال الأصمعىُّ فى الميسر : إنَّه شىء كانت الجاهلية تفعله ، فليس عندنا منه حقيقة .

قوله : المستسلم للحَيْن ، أى المنقاد للهلاك . الوخد : نوع من السَّير وهو أن ترجُمَ الأرضَ بقوائمها لسرعة سيرها . والذَّميل : سيرٌ ليِّن . تجب: تسقط للمغيب.

---

(١) قمر ، أى غلب .

ارتعت : فزعت . لإظلال : لقُرْب ودُنوّ . اقتحام : دخول الشيء على غَرَر . وحام،هو ابن نوح وقد تقدَّم في الحادية والعشرين،وأراد بجيش حام ظلامَ الليل، لأنّ حاما أبو السُّودان ، أكْفِت : أقبضه وأشمّره. أرتبط : أربط بعيرى . أعتمد : أقصد : أختبط : أمشى على غير هداية ، وأراد أنه لا يدرى ما يفعل، أينزل ويبيت ، أم يسير فى الليل على غرَر .

* * *

وَبَيْنَما أنا أُقلّب الْعَزْمَ ، وَأَمْتَخِضُ الْحَزْمَ ، تَرَاءى لى شَبَحُ جملٍ ، مُسْتَذْرٍ بِجَبَلٍ ، فترجّيتُهُ قُعْدة مُرِيح ، وَقَصَدْتُه قَصْدَ مُشِيح ؛ فإذا الظَّنُّ كَهَانة ، وَالْقُعْدَةُ عَيْرَانة ، وَالْمُرِيحُ قَدِ ازْدَمَلَ بِبِجَادِه ، واكْتَحَلَ بِرُقَادِه ، فجلستُ عِنْدَ رَاسِه ؛ حَتّى هَبَّ مِنْ نُعَاسِه ؛ فلمّا ازْدَهَرَ سِرَاجَاه ، وَأَحسَّ بِمَنْ فَاجاه ، نفَرَ كَمَا يَنْفِرُ الْمُرِيب . وقال : أَخُوكَ أم الذِّيب ! فقلتُ : بَلْ خابِطُ ليلٍ ضَلَّ المسلك ، فأضِئْ لِي أَقْدَحْ لَكَ . فقال : لِيَسْرُ عَنْكَ همُّك ، فَرُبَّ أَخٍ لَكَ لَمْ تَلِدْهُ أُمُّك . فَانسَرَى عِنْدَ ذلِكَ إشْفَاقِي ، وَسَرَى الْوَسَنُ إلى آماقِي ، فقال : عِنْدَ الصَّباحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ السُّرَى ، فَهَلْ تَرَى كَمَا أرى !

* * *

العزم والحزْم : اجتماع رأى الرجل على ما يريد أن يفعله فلا يتردّد فيه . أمتخض : أحرّك وأحلب ، وأراد أنه أخذ يحدّث نفسه ويُدبِّر رأيه : هل يسرى أو يقعد . تراءى ، أى ظهر . مستذرٍ : مستعلٍ ، والذروة أعلى الشيء ، أراد أنه ظهر له شبح جمل ، أى شخصه فى أعلى جَبل . قُعدة : بعير يُقْعَدُ عليه عند الركوب . مريح : مستريح ، قد نزل يريح نفسه وبعيره . مشيح : مُجِدّ . والقُعْدة : المركوب . والعَيْرانة : الناقة الصلبة تشبَّه بالعَيْر، وهو حمار الوحش .

وازْدَمل : التفّ . ببجاده : بكسائه . هبّ : انتبه . ازدهر : انفتح وأضاء . سراجاه : عيناه . فأجاه : أتاه على غفلة . المريب : الذى أتى ريبة . أخوك أم الذيب[1] ، مثل ، كأنه خاطب نفسه ، فقال : أأخوك هو الذى رأيت أتى لمؤانستك أم ذئب لإذايتك ، وتضمّن الكلام أن الاستفهام وقع بالذى رآه ، فكأنه قال له : يا هذا ، أأخ أنت أم صاحب فأركن إليك أم عدوّ فأحذَرُك ؟ فأجابه بأن قال له : بل خابط ليل ، أى ماشٍ فيه على جهالة . ضلّ المسلك : أخطأ الطريق . أضىء لى : اكشف لى عن حالك . أقدح لك : أكشف لك عن حالى ، وهذا أيضاً مَثَل ، وفى هذا التباس ؛ لأنه إذا أضاء له ، أى أعطاه ضوءه أو أظهره له ، فأىّ حاجة له فى القَدْح ،وهو الضرب بالزّند ليخرج ناره ، وإنما معناه أن رجلاً كان طلب لآخر ضوءًا مثل فتيل يوقده ، فتخيّل من صاحبه أنه لا يعطيه ، فقال له : أضىء لى ، أى أعطنى ضوءًا فليس عليك فيه تكلّف فإنك أن أتيتنى فى مثلها فلم تجد لى ضوءًا قدحت لك زندى ، وتكلفت لك ذلك ، ثم استعمِل فيمن يطلعك على أمره فتطلعه من أمرك على ما هو أفيد ممّا أطلعك عليه ، فمعناه أطلعنى على ظاهرِ أمرك أطلعْك على باطن أمرى . ويروى : « أكدح لَك » قال أبو زيد : إذا طلب الرّجل إلى الرجل حاجة فلم يعرف وجهها ، قال : أضىء لى أكدحْ لك ، أى بيّن لى فأكدح لك ، أى أسعى لك ، وكدح لمعيشته : سعى واكتسب ، وأضىء : أسرج .

الفنجديهىّ : أضىء لى أكدحْ لك ، مثل يضرب فى المساواة بالأفعال ، والمعنى : كن لى أكن لك ، واسعَ لى أسع لك ، والمراد به كُنْ لى أكثرَ مما أكون لك لأن الإضاءة أكثر نفعاً من القَدْح ، ويقال : معناه : تولَّ الأمر الهيّن أتولَّ الأمر الصعب . لِيَسْرُ : لِيَزُل وليذهب . سَرَى عِرْق الشجرة يسرِى : دبّ تحت الأرض ، وسرى يَسْرى سار .

---

(1) الميدانى ١ : ٥٠ ، قال فى شرحه : اى هذا الذى تراه أخوك ام الذئب ، يعنى أن اخاك الذى تختاره مثل الذئب فلا تأمنه ، يضرب فى موضع التمارى والشك .

[أصل المثل : ربّ أخ لم تلده أمك]

رُبّ أخ لك لم تلده أمك ، معناه قد وجدتَ منى صديقاً يقوم لك مقام شقيقك ، وأصل المثل أن لقمان بن عاد رأى امرأته قد خلا بها رجُلٌ وهى تلاعبه ويلاعبها ، ومعها صبىٌّ صغير يبكى ، وهما قد أقبلا على شأنهما لا يكترثان به ، فسألها عن الرّجل ،فقالت : هو أخى ، فقال ربّ أخٍ لك لم تلده[1] أمك ، يكذّبها فى قصدها أى هو أخوك بالمحبّة والصداقة لا بالولادة . وقال فى الدُرّة : حكى ابن نصر[2] الكاتب أن أبا العباس ابن ياسر[3] دخل عليه ، رجل نصرانىّ ومعه فتى من أهل مِلّته حسن الوجه ، فقال له : مَنْ هذا الفتى ؟ فقال له : بعض أخوانى ، فأنشد أبو العباس :

دعتنى أخاها أمُّ عمرو ولم أكنْ ... أخاها ولم أرضع لهـــا بلِبانِ
دعتْنى أخاها بعـد ما كان بيننا ... من الأمر ما لا يصنع الأَخوَانِ

وقالوا فى هذا المعنى : ربّ بعيدٍ أقربَ من قريب ، وقالوا : القريب مَنْ قَرُب نفعه ، وقال أبو تمام :

ولقد سَبَرْتَ النـاس ثم خبرتُهمْ ... وبلوت ما وصفوا من الأسبـاب[4]
فإذا القرابة لا تقـــرّب قاطعاً ... وإذ المـودّة أقرب الأنسـاب

وقال ابن ميادة :

وإنّى لزوّار لمن لاَ يزُورنى ... إذا لم يكنْ فى ودّه بمريبِ
تقرّب لى دار الحبيب وإنْ نَأَتْ ... وما دارُ من أبغضته بقريبِ
فلا تطابنّ القربَ والبعدَ بعدَها ... إلى غير نيّاتٍ وغـــير قلوب

(١) الميدانى ١ : ٢٩ ، ٣١

(٢) درة الغواص : « فى كتاب المفاوضة » .

(٣) درة الغواص : « أبو العباس بن ماسرجس » .

(٤) العقد لابن عبد ربه ٢ : ٣١٤ ونسبهما الى أبى تمام وفى ٢ : ٣٢٨ من غير نسبة

وقال آخر :

أخو ثقة يُسَرّ ببعض شأنى ... وإن لم تُدْنِهِ منِّى قرابَهْ[1]

أحَبُّ إلىّ من ألفْ قريب ... بنات قلوبهمْ لى مُسْتَرابَهْ

وقال ابن هَرْمة :

هشٌّ إذا وقف الوفودُ ببابه ... سهل الحجاب مؤدَّب الخدّام[2]

فإذا رأيت صديقه وشقيقه ... لم تدر أيُّهما أخو الأرحام

انسرى : زال وذهب ، وسرْوتُ الثوب عنى إذا جردته . إشفاقى : خوفى . سَرَى الوسن : أقبل النوم . آماقى : آخر عينى، والمُوقُ طَرفُ العين من جهة الأنف .

[أصل المثل : عند الصباح يحمد القوم السرى]

قوله : عند الصباح يَحْمَد القوم السرى مثل ؛ ومعناه إذا سرى القوم بالليل قطعوا أرضاً كثيرة والأرض تُطْوَى بالليل لمن يمشيها فإذا أصبحوا حِمدُوا سيرَهم .

وهذا المثل بيت منْ رجزٍ وَقَع فى شعر الشّماخ ، وذلك أنه سافر فى قوم من بنى ثعلبة ، فمشوا حتى إذا كانوا قريباً من تَيْماء ، قال الشماخ لابن أخيه : انزل فاحدُ بنا ، فنزل فحدَابهم ثم نزل القوم للحُداء واحداً بعد واحدٍ ، فوقعت أرجيزُهم فى ديوان الشّماخ ، فنُسِبَتْ إليه ، وأول الرجز :

---

(١) العقد ٢ : ٣١٤ من غير نسبة .

(٢) ديوان الحماسة ـ بشرح المرزوقى ٢ : ٨٠٨ ونسبهما الى محمد بن بشير الخارجى وذكر قبلهما :

نعم الفتى فَجَعتْ به إخوانَهُ ... يومَ البقيع حوادثُ الأيام

والأبيات أيضا فى العقد ٢ : ٣١٥ مع اختلاف فى الرواية .

طَافَ خَيالٌ من سُلَيْمَى فاعْتَرَى[١]

بنجدٍ اوْ تيماء أو وادِى القُرَى[٢]

فَمَنَع النَّوْم وَمــنَّى بالمُنَى

وفى آخره :

عِنْد الصَّباحَ يحْمَد القومُ السُّرَى

وَتَنْجلِى عنهمْ غيـَابَاتُ الـكَرَى

قال المفضّل الضبىّ : أوّل مَنْ قال ذلك خالد بن الوليد ، لما بعث إليه أبو بكر رضى الله عنه وهو باليمامة أن ينزلَ إلى العراق ، فأراد سلوك المفازة ، فقال له رافع الطائىّ : قد سلكتُها فى الجاهليّة ، وهى خِمْسٌ للإبل الواردة ، وما أظنُّك تقدِر عليها إلاّ أن تحمِل من الماء ، فاشترى مائة شارِف[٣] فعطّشها ثم سقاها الماء حتى إذا مضى يومان خاف العطش على النَّاس والخيل ، وخشِىَ أن يذهب ما فى بطون الإبل ، نحرها ، واستخرج ما فى بطونها . فسقى النَّاس والخيل ومَضَى ، فلما كان فى الليلة الرابعة قال رافع : انظروا ، هل ترون سِدْرًا عظيماً ؟ فإن رأيتموها وإلا فهو الهلاك ، فنظر الناس فرأوها فأخبروه فـكبرّ وكبرّ الناسُ ثم هجموا على الماء فقال خالد :

(١) ديوانه ٣٧٧ — ٣٨٤ وبعد هذا البيت كما فى الديوان :

حَنَّتْ وقالت بنتُها حـتَّى متَى

تُبشَّرى بالرِّفهِ والمـاء الرَّوَى

(٢) رواية الديوان :

بثَجْرَ أو تَيْمَاء أو وادِى القُرَى

فمَنَـــع النومَ ومنَّانا المُنَى

(٣) الشارف : المسن .

لِلّهِ دَرُّ رافـعٍ أنّى اهْتَدَى[1]

فوّز من قراقرٍ أنّى سَرَى

خِمْساً إذا سار بها الخِيسُ بكَى

ما سارَها من قبله إنسٌ سَرَى

عِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ القومُ السُّرَى

ويقال : فوّز إذا ركب المفازة . وقراقر : اسم قرية من اليمن . والخِيس : الجبان الضعيف ، وقيل : الثّقيل . قال أبو عبيدة : والخِمْس أن تشرب الإبل يومَ وردها وتُصْدِر يومَها فتظلُّ بعد ذلك اليوم من الماء ثلاثة أيام سوى يوم الصدر ، وتردُ اليوم الرابع فذلك الخِمْس .

* * *

فقلت إنّى لكَ لأطْوَعُ مِنْ حِذَائك ، وأوْفَقُ من غذائك ، فَصَدَعَ بمحبّتى ، وبَخْبَخَ بِصُحْبَتِي ، ثُمَّ احْتَمَلْنَا مُجِدَّيْنِ ، وارْتَحَلْنَا مُدْلِجَيْنِ ، ولم نَزَلْ نُعَانِي السُّرَى ، ونعاصِي الْـكَرَى ؛ إلى أن بَلَغَ اللَّيْلُ غايتَهُ ، وَرَفَعَ الْفَجْرُ رايتَه .

فلمّا أسفر الْفَاضِـح ، ولم يَبْقَ إلاّ واضح ، تَوَسّمتُ رَفيقَ رِحْلَتِي ، وسَمِيرَ ليلتى ، فإذا هو أبو زيدٍ مطلبُ النَّاشِد ، ومَعْلَمُ الرَّاشِد ، فتهادينا تحيَّة المحبَّينِ ؛ إذ التقينا بَعْدَ الْبَـيْن ، ثُمَّ تباثثنا الأسْرَار ، وتناثثنا الأخبار ، وبَعِيرى يَنْحِطُ من الْـكَلاَل ، وراحلتُه تَزِفُّ زفيف الرَّال ؛ فأعجبنى اشْتِدَادُ أَسْرِها ، وامتدادُ صبرها ؛فأخذتُ أستشِفُّ جَوْهرها ، وأسأله من أين تَخَيَّرها .

---

(١) تاريخ الطبرى ٣ : ٤١٦ ونسبها الى شاعر من المسلمين .

فقال : إنَّ لهذِهِ النَّاقة خبراً حُلْوَ المذاقة ، مليح السِّياقة . فإن أحببتَ استماعه فَأَنِخْ ، وإنْ لم تشأ فلا تُصِـخْ .

* * *

قوله : حـذائك ، أى نعلك . صَدَع : كشف وأظهر . وبخبخ : قال : بخ بخ ، وهى كلمة تقال عند الإعجاب . مُجدّين : مُجْتهدين . مُدْلِجَيْن : ماشيَيْن باللَّيْل . نعانى : نقاسى . الكرى : النوم . رايته ، أراد ضوءه . أسفر : أضاء . الفاضح : من أسماء الصبح سمِّيَ بذلك لأنه يفضَح الأشياء ، أى لا يظهرُها . واضح : بيّن، يريد أنّ الصبح كشف ماستره الليل فاستبان كل شيء . توسمّت : نظرت . الفنجديهى : واضح : نجم ، والنجم الَّذى يُرى بعد الصُّبح مضيئاً فى كثير من الأوقات وهو الزُّهرة . ابن سيده : الواضح : الكواكب الخمس ، إذا اجتمعت مع الكواكب المضيئة من كواكب المنازل . والخنَّس : الراجعة والمتأخرة والمُنْقَبضة . رحلتى : ارتحالى . والسمير : محادِثُكَ باللّيل . مطلب الناشد ، أى حاجة الطالب التّى تلفت له ، فجعل يطلبها . مَعْلم الرّاشد : دليل الهادى ، والمعلم : الجبَل يُعْلم به الطريق . فتهادينا تحيـة المحبين ، أى أهديته سلام محبٍّ أهدى لى مثلَ ذلك . تباثثنا : تـكاشفنا ، أى كشفتُ له سِرِّى وكشف لى سرَّه . تناثثنا : تفاشينا ، أى أفشيتُ له خبرى وأفشى لى خبَره ، والبثّ أصله التَّفريق ، والنّث بالنون : أصله نشر الحديث وإفشاؤه . الفنجديهى : تناثثنا : تذاكرنا ، والنَّثّ : الذِّكْر ونَثَوْت الذِّكْر ونَثَوْت الحديث ، أنثوه ، إذا أذعتَه وأفشيتَه . ابن الأعرابىّ . النثاء فى الحسَن والقبيح من الكلام ، وقيل : النّثّ : نشر الحديث الذى كَتْمُه أوْلَى من نشره ، وفى معنى هذا اللقاء قال المعرىّ :

وَلوْ لم ألقَ غيرَكَ فى اغترابى ... لـكان لقاؤك الحظَّ الجزيلا[١]

سَتَحْمِلُ ناجباتُ العيسِ منِّى ... صديقاً عن ودادك لن يَحُولَا

يؤمّل فيك إسعافَ الليالى ... وينتظر العواقب أن تُديلَا

ينحِط : يزفِر ويتنفّس من شدّة التعب،والنَّحْط : خروج النَّفَس بصوت، وهو صوتٌ يعترى المهموم والمتعوب من صدْره بتوجع، وقد نَحَطَ ينحَط نَحطاً ونحيطاً، والنّحيط يعترى الدّابة إذا كَلَّتْ أو زيد فى حملها،فتسمع لها زفيراً بصوت، فذلك هو النَّحيط ، وقد نحطَ القَصَّار إذا ضرب بالثوب على الحجر وتنفَّس ليكونَ أرْوَح له . تزفّ : تُسرِع . والزفيف : مشى فى سكون مُتَتابع . والرأل : فَرْخ النَّعامة والجمع الرّئال . أسرها : قوّتها وشدّة خَلْقها . امتداد : طول . أستشِف : أنظر . جوهرها : خَلْقها وجوهر كلّ شىء : ما وُضِعَتْ عليه جِبِلّتُه . أنخ : حُطّ بعيرك وانزل . تُصخ : تستمع .

* * *

فأنخْت لقوله نِضوى ، وأَهْدَفْتُ السَّمْعَ لمـــا يَرْوِى ، فقال : اعْلَمْ أنّى استعرضْتُها بحضْرَمَوْت، وكابَدْت فى تحصيلها الموْت،ومازلْتُ أجوبُ عَلَيْهاَ البُلدان ، وأطِسُ بأخفافِهاَ الظِّرّان ؛ إلى أَنْ وجدتُهاَ عَبْر أَسْفَار ، وعُدَّة قرَار ، لا يلحقُها الْعنَاء ، ولا تُرَاهقُها وَجْنَاء ، ولا تَدْرِى ما الِهْناء . فأرصدتُهاَ للخير والشرّ ، وأحللتُها محلَّ البرِّ السّرّ ، فاتَّفق أن نَدَّت مُنْذ مُدَّة ، ومالِى سواها قُعْدَة،فاستشعَرْتُ الأسَف ، واستشرفْتُ التَّلَف ، ونسيتُ كلَّ رزءٍ سَلَف، ومكثْتُ ثلاثاً ، لا أستطيع انبعاثاً ، ولا أَطْعَمُ النّوم إلا حِثاثاً ، ثمّ أخـذتُ فى استِقْرَاء المسالِك ، وتفقّد

(٥) سقط الزند ١٠١٤

الْمَسَارِح والمبـارِك ، وأنا لا أسْتَنْشِي منهـا ريحًا ، ولا أسْتَغْشِي يأسًا مُرِيحًا ؛ وكلما ادّكرتُ مَضاءها فى السَّير ، وانْبِراءها لمباراةِ الطير ، لاعَنِي الادّكار ، واستهوتْنِي الأفكار .

* * *

نضوى: بعيرى المهزول . أهدفت: جعلتهُ غرَضًا يقَع فيه كلامه . والسّمع: الأذن . والهدَف : الغرَض ترْمِى عليه . استعرضْتُها : طلبتُ أن تعرَض علىّ للبيع . حضرموت : كُورة من كور اليمن فيها مدائن ، وتعمل بها النعال الحضرميّة وهى غاية فى الجودة . كابدت : قاسيت . أجوب : أقطع . أطس : أكسر . والوطْس : الوطء الشديد المؤثر . الظرّان : واحدها ظَرَر ، بظاء منقوطة وراءين ، وهى الحجارة العريضة ، وقيل المحدّدة . عبر أسفار : أى قويّة على السَّفَر كأنها تُعْبَر بها المراحل ، أى تقطـع ، وأصلُه عَبَرْت فى النهر إذا جزته من جهـة إلى جهـة أخرى. فِرار ، أى قد استعدّت للفرار والهرب . العَناء : التعب . تُرَاهقها : تدانيها وتقاربها ، وقد أرهقتُ الرّجُلَ ، إذا دانيتَه ، وذلك أن يذهب أمامَك فتتبْعه ، فإذا قرُبتَ منه قلت : رهقتُه ، فإذا أدركتَه قلت : أرهقتَه : ورواية ابن جهور « تُوَاهقها » بالواو ، ومعناها تواظب على المشى معها ، والمواهقة : المعارضة فى السير . وجْنـاء : ناقة قويّة غليظة . والوجِين : ما صلُب من الأرض ، وقيل : الوجناء: العظيمة الوجَنَات . والهِناء : الْقَطِران ، أى ليس بها داء فتحتاجَ إليه فهى لا تعرفه . أرصدتّها : أعددتها . البَرّ : الذى يُبرّك ويكرمك . والسَّرّ : ما يسرّك : ندّت : فَرّت وشَرَدَتْ . استشعرت : لبست . الأسف : الُحزْن . استشرفت التلف : عاينت الْهَلَاك ونظرته ، واستشرفت فلانًا إذا رفعتَ رأسك لتنظرَ إليه ويدُك على حاجبك . والرُّزء : فقد الشىء . سلف : مَضَى. مكثت : أقمت . انبعاثًا : نهوضًا وخروجًا إلى السفر .

حِثَاثًا : قليلا، والحِثاث: أن يصيبك النَّومُ ثم يزول عنك فى الحال ، ويوصف به فيقال : يوم حِثاث ، أى قليل . والطعم : الذوق . استقراء : تَتَبّع . والمسالك : الطُّرُق . المسارح : المراعى وحيث تسرح الإبل . والمَبارك : مراقد الإبل حول الماء . استنشاء الريح : شَمّها ،مهموز وغير مهموز . استغشى ثوبَه : تغطّى به . اليأس : قطع الرّجاء . مريحا : يُدْخِل على صاحبه الراحة . ادّكرت : تذكّرت . مضاءها : نفادها وإسراعها . انبراءها : نهوضها ، وقد انبرى لك فلان إذا عرَض لك . مباراة : معارضة . لاعنى : أحرقنى ، اللوعة: حرقة القلب من شدّة الوجد . استهوتنى : هوَتْ بى فى كلّ طريق . الأفكار : تذكر الهموم .

* * *

فبينما أنا فى حِواء ، بعضِ الأحياء ، إذ سمعتُ من شخصٍ مُتبعِّد ، وصوتٍ مُتجرّد : مَنْ ضَلّتْ له مطيّة ،حَضْرمَيّة وطِيّة ، جلدُها قد وُسِم ، وعَرُّها قد حُسِم ، وزمامُها قد ضَفِر ، وظَهْرُها كأنْ قد كُسِر ثمّ جُبِر ، تَزِينُ الماشية ، وتُعين النَّاشية ، وتقطع المسافةَ النائية ، وتَظلّ أبداً لك مُدَانية ، لا يعتورُها الْوَنَى ، ولا يعترِضها الْوَجَى ، ولا تُحْوِج إلى العصا ، ولا تَعْصى فيمَنْ عَصَى ؟

قال أبو زيد : فجذبنى الصَّوْتُ إلى الصَّائت ، وبَشّرنى بدرْك الفائت. فلمَّا أفضيت إليه ، وسلَّمت عليه ، قلت له : سلِّم المطيَّة ، وتَسلَّم العطيَّة، فقال : وما مطيَّتُك ، غُفِرت خطيَّتُك ؟ قلت له : ناقة جُثَّتُها كالهضْبة ، وذُرْوتُهَا كالْقُبَّة ، وحَلَبُهَا ملء الْعُلْبة ، وكنتُ أعطيتُ بها عشرين ، إذ حَلَتْ يَبْرين ، فاستزدت الَّذِى أعطى ، ودَرَيْتُ أنه أخطا .

* * *

قوله : حِواء : بيوت مجتمعة مائتان أو نحوها . الأحياء : القبائل . متجرّد : ماضٍ ظاهر ، وقيل ضعيف لبُعْده . ضَلّت : تلفت وضاعت . مطيـة ، يعنى بها نعلاً فى المعنى وناقة فى اللفظ ، وقد تقدّمت أشعار اللّغز بهما . وطيّة : لا تحرِّك الراكب ، وهى الذَّلول ، وفراش وطىء : وثير لا يؤذى جَنْب النائم عليه ، وعلى من ضلّت له مطية [أن يقول ما](1) فى حديث عتبة بن غزوان عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا ضل أحدكم شيئاً وأراد غوْثاً وهو بأرضٍ ليس بها أحد فليقُلْ : يا عباد الله المسلمين أعينونى ، يا عبادَ الله المسلمين أعينونى ، فإنّ لله عبَّاداً لا نراهم » ، وقد جرّب ذلك . وُسِم : خُرِز ، أى جعل الخرَز فيها كالعلامة . عرّها : جرَبها . حُسِم : استؤْصِل بالقطـع ، يريد أنّ آثار الجرَب الّتى كانت فى الجلد الذى صُنِعت منه هذه النعل قد قُطِعت وأزيلت . وزِمامُها : شرَكها . كُسِر ثم جُبِر ، يريد أنّ ظهرها يَبِس فتكسّر ، فوُصِل بجلد آخر فصحّ .

والماشية : الرّجْل التى تَمشى فيها ، وكذلك النّاشية ، ويقال : نشأ الرجل ، إذا نهض لحاجته وتنشّأ أيضاً . وسهّل الناشية لأجل الماشية وأصلها الهمز . الفنجديهى : تُعين الناشية ، أى تُعِين على السّير فى ناشئة الليل ، قال ابن عَرَفة : كلّ ساعة قامها قائم من الليل ناشئة . الأزهرىّ : ناشئة الليل قيام الليل مصدر جاء على « فاعِلة » بمعنى النَّشْء كالعافية والخاتمة بمعنى الْعفْو والختْم ، وقيل : الناشية والنَّشيئة أن تنام من أوّل الليل ثم تقوم . وقيل : النّاشئة أوّل النهار أول الليل ، وأكثر المفسرين على أنّ ناشئة الليل أوّله . عاصم : يهمِزُه والباقون لا يهمزون . جَذَبنى ، ساقنى بعُنْف . الصّائت : صاحب الصوت الذى سمع ، وقد أصات إذا رفع صوته . دَرْك الفائت : لحوق التّالف . أفضيت : وصلت .

---

(1) زيادة يقتضيها السياق .

تَسَلّم : خــذ . جُثَّتها : جسدها ، والُجثّة : شخص القائم والقاعد والراكب . والهضْبة : الصخرة العظيمة ، وقيـل الجبل المنبسط الأملس . ذِرْوتها : أعلى ظهرها . والعُلْبة : إناء من جلود. يبرْين : أرض فيها رمل .

* * *

قال : فأعْرَض عَـنِّي ، حِين سَمِـع صِفتي ، وقال : لستَ بصاحب لُقْطَتِي . فأخذتُ بتلابيبه ، وأصْرَرْت على تـكذيبه ، وهَمَمْتُ بتمزيق جَلابيبه ، وهو يقول : يا هذا ما مطيّتِي بِطلْبك ، فاكفُفْ عَنِّي مِن غَرْبك ، وعَدِّ عن سَبِّك ؛ وإلّا فقاضِنِي إلى حَـكَم هَذَا الحيّ ، البرىء من الغيّ ، فإِنَّ أوْجَبَها لكَ فتسلّمْ ، وإِن زَوَاها عَنْكَ فَلَا تَتَـكَلَّمْ ، فلَمْ أَرَ دواءَ قِصّتى ، ولا مَساغَ غُصّتِي ، إلّا أنْ آتىَ الحـكَم ، ولو لَـكَمَ .

فانخرطنا إلى شَيْخٍ رَكِينِ النِّصبة ، أَنيقِ الْعِصبة ، يُؤْنَس مِنه سكونُ الطَّائر ، وأنْ لَيْس بِالجَائر ، فانْدَرَأتُ أتظَلّم وأتألّم ، وصَاحبى مُرِمٌّ لا يَترَمْرَم ، حتَّى إذَا نثلتُ كِنانتي ، وقَضَيْت من الْقَصص لُبَانتِي ، أبرز نَعْلاً رزينة الْوَزْن ، مَحْذوّةً لمسلك الحَزْن ، وقال : هَذِهِ الَّتِي عَرّفت ، وإِيَّاهَا وَصفْت ، فَإِنْ كَانْتَ هِيَ الّتى أُعْطِيَ بِهاَ عِشْرِينَ ، وَهاَ هُوَ مِنْ الْمُبْصِرِينَ ، فَقَدْ كذب فِي دَعْوَاه ، وَكَبُر ما افتراهُ ؛ اللّهُمَّ إِلّا أَنْ يُعِدَّ قَذالَه ، ويُبِينَ مِصداقَ ما قَالَهُ .

* * *

أعْرَض : نحَّى وجهه . واللُّقَطة : ما تجـده قد سَقَط من غيرك فتلتقطه ، وعامة أهـــل اللغة على فتح قافها مثل أبى عبيدة ويعقوب والمفضّل وثعلب وابن قُتيبة وغيرهم . وحكَى ابنُ خالَوْيه أن تسكينَها لغة تميم ، وفتحها لغة أهل الحجاز ، فهما لغتان ، قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم :« مَنْ التقط لُقَطة فليُشهِد ذا عدلٍ ثم لا يكتم ولا يغيب ، فإن جاء صاحبُها فهو أحقُّ بها ، وإلا فهو مال الله يؤتيه من يشاء » . تلابيبه : أطواق ثوبه ، والتلبيب الجَيْب ، وأخذت بتلبيب فلان ، إذا جمعتَ ثوبه الذى حوالى صـدرِه وقبضت على نحرِه ، والجِلباب : المِلْحفة والرِّداء . أصررت : أقمت . تمزيق جلابيبه : تخريق ثيابه . بطِلْبك : بما تطلب . والطِّلْب : اسم ما تطلب . ابن دريد فلانة طِلْب فلان ، إذا كان يطلُبها ويَهْواها . عَدّ : كُفّ واصرِفْ . سبّك : شتمك . قاضنى : حاكمنى . الحىّ : القبيلة . الغىّ : الضّلال والفساد . زواها : نحّاها .

قوله : مَساغ غُصتى ، أى بلع ما أختنق به ، وساغ الطعام والشراب فى الحلْق : سهل نزوله فيه . لكَمَه ، يلكُمه : ضربه بجُمْع كفه .

انخرطنا : سرنا مسرعين . رَكِين النِّصبة : وقور الهيئة ، وفلان ركين بيِّن الرّكانة ، أى ثقيل المجلس ثابت قوىّ . الأزهرىّ . يقال للرجل إذا كان وقوراً ساكناً : إنه لرَكين ، وقد رَكُن ركانة . الجوهرىّ . يقال جبلٌ ركين ، أى له أركان عالية ، فيحتمل على هـذا المعنى أن يكون ركين النِّصبة ، عالى الانتصاب حسَن القامة ، والنِّصبة الفِعْلة من الانتصاب ، وأراد بها هيئة انتصابه فى جلوسه وحالته . أنيق : مُعْجِب . العِصْبة : هيئة العمامة على رأسِه ، تقول : عَصَبْت رأسى بالعمامة إذا شددته بها ، والعِصْبة هيئة التعمّم ، يقول : إن هذا الشيخ الحاكم رزينٌ فى جلوسه حسَن التعمّم والهيئة . يؤنس : يبصر . سكون الطائر ، كناية عن الوقار والحِلْم ، وإنما ذكَّر الطائر لأنه لا ينزل إلا على ساكن ،

وإذا نزل عليه سكن هو ، فإذا كان عند الرجل هَوَجٌ وطيش ، قيل : طارت عصافيره ، فإذا كان القوم أهلَ وقارٍ قيل : كأنّ على رءوسهم الطير . اندرأت: اندفعت . أتظلّم : أتشكّى الظلم . أتألم : أتوجع . مُرِمّ : ساكت . لا يترمرم : لا يُجيب ولا يتحرك ، وتكلَّم فما تَرَمْرَم ، أى ما أجاب ، وأصل تَرَمْرَم تحرّك . نثلتُ كِنانتى : أخرجت ما فيها من السّهام ، وأراد أتممت كلامى . وقَضيت : أتممت . والقَصَص : ذكر الخبر . لُبانتى : حاجتى . أبرز : أظهر . رزينة : ثقيلة .

محذوّة، جُعل عليها الحِذاء ؛ وهو الجلد الَّذى تُنْعَل به . مسالك : طرق . والحَزْن : ما غَلُظ من الأرض . عَرّفْت: صِحْتَ بها ليعرفها صاحبها . ما افتراه: ماجاء به من الادّعاء والكذب . قَذالة : عنقه ، والقَذال : مابين نُقْرة القفا إلى الأذن ، وجمعه قُذُل ، يقول : فإن كانت هذه النعل تُساوى عشرين ـ وها هو يبصر أنّ هذا باطل ـ فقد صارتْ دعواه باطلة ، اللهمّ إلا أن يمدّ عنقه ويأتى ببيان أنّها تساوى عشرين ، إلى هذا التفسير رأيتُ أكثر من لقيت يذهب ، وهو ضعيف ولا يكون لمدّ قذا له معنى ولا لما بعده .

والتفسير الحسن الَّذى فيه جِلاء للمعنى ما كان يفسّره به شيخى أبو بكر ابن أزهر عن ابن جَهْور ، وذلك أنه كان يفسّر أعطى بمعنى صُفِع وضرب ، وكذلك كتب عليه فى طرة كتابه ، أنَّ أعطى بمعنى ضَرب ، لغة أهل الشرق ، وقد حُدِّثْتُ أنا عنهم أنّ الرجل إذا كلم الآخر بما لا يُرضيه ثم انصرف عنه صاح الآخر فى أثرِه : أعطِه ، بمعنى اصفعه ، فهى لفظةٌ متعارَفة بينهم لهذا المعنى وبيان موقعها هُنَا أنه لما ادّعى السَّروجى أنه أُعْطِيَ بناقته عشرين ، فوصفها بما يصحّ معناه فى حقها من أنهـا تساوى عشرين . ثم قال : إن المعرِّف أبرز

نعلا رزينة الوزن ، أى ثقيلة فى الميزان . محذوة لمسلك الحزْن ، أى قد جعل عليها حِذاء ، أى رُقَعٌ من الجلد طرِقت بها ليسلُك بها الحَزْن ، أى ليمشى بها فى أرض ذات حجارة فلا تؤثّر فيها لتلك الأطراف ، وبتلك الأطراف صارت ثقيلة فى الوزن ، فلمّا أبرز هذه النّعل التى وصفتها رفعها بيده إلى الحاكم قائلاً له: هــذه النّعل التى عَرّفت ، وإيّاها وصفت ، فإن كانت هذه التى أعْطِىَ بها عشرين ، أى صُفِـع بهـا عشرين . فقلت : الإعطاء للنعل بمعنًى يوافقها إذ عدّ عشرين ديناراً فى ثمنها بعيد ، ثم بيّنه بقوله : وها هو من المبصرين . والضَّرْب الجافى فى العُنق تدمع له العينان ، وإذا أفرط فيه عِمَى له المصفوع ، فيقول المعرّف: هذه النعلُ لو صُفِـع بها إنسانٌ صَفْعَةً واحدة لعِمَى ، وهذا يقول إنه صُفع بها عشرين وهو سالم البصر ، فقد كذب فى ادّعائه أنه صُفع بها عشرين ، وكبرتْ فرْيته ، اللهمّ إلا أن يمدّ قفاه فيرينا فيها أثر الصفع ، وأثره احمراره وتعجيره ، فيتبيّن بذلك الأثر صدق قوله . فهكذا تفسير هذا الموضع ومعناه . وابن جَهْور الذى شافه الحريرى بمشكلاتِ كتابه كان أضْبَطَ لها ممنّ يتحكم فيها بنظره ، فيـكون تخليصُ المعنى إنّ المعرِّف يقول : هذه النعل يدّعى هـذا أنه أعْطِىَ بها عشرين ، وأنتم ترَوْنه سالمَ البصر ، ومحالٌ أن يُصْفَع بها إنسان لخشنها وثقلها عشرين صَفْعة إلا ويعمى ، فقد صارت دعواه كاذبة إلا أن يمدّ لنا عنقه فنرى فيها أثرَ الصفع والرّزء فنصدِّقه فى دعواه . وفى رواية غير ابن جهور « بعــد المبصرين » فقال : كذّب دعواه وهو داخل فى قول المعرّف الأوّل فلا يحتاج إلى إدعائه ، ولو جاء هنا بثمَّ مكان الفاء لـكان أبْـيَن فـكان بمعنى قوله ، قال : ثم يمشى فى كلامه ثم ينسِّق عليه قال : لـكلام ثان ، وإنما وضع الفاء موضع ثُمّ لأن جواب الشرط الذى هو « فإن كان » مضمّن فى قوله « وها هو من المبصرين » فإنه يتضمّن قوله : « وها هو من المبصرين » معنًى فقد كذب ، وليس فيه لفظ الجواب ، فجاءت الفاء كأنها جواب لفظى ، ووقعت قال : موطّئة

لقال الأولى ، ألا ترى أن فى رواية ابن جهور مكان فقال فقد ، والكلام بها متّصل حسن ، قال أبو الرقعمق يصف العمَى من الصفع :

ولقد بِتنا على زمنٍ ورءوس القوم تُسْلَبُ
وكئوسُ الصفع دائرة وبها اللّذات والطّرَبُ
وكأن الصفع بينهمُ شُعَلُ النِّيران تلتهبُ
والعمى منهم وإن شغلوا عنـه باللّذات مقتربُ

وله :

إنّ الذين تصافَعُوا بالقرع فى زمن القُشُورِ
أسـفوا علىّ لأنهم حضروا ولم أكُ فى الحضورِ
لو كنتَ ثَمّ لقيل هَلْ من آخذٍ بيد الضرير
يا لَلرِّجال تصافَعُوا والصَّفع مفتاح السرورِ
لا تغفلوه فإنّه يَسْتَلُّ أحقاد الصُّدورِ

وقال يصف أثر الصَّفْع فى قفاه :

فىّ ما شئتَ من حمق ومن هَوسٍ قليله لكثير الحمق إكسيرُ
كم رام إدراكه قوم فأعجزهمْ وكيف يُدرَك ما فيه قناطيرُ
لا عيب فىّ سوى أنّى إذا طربوا وقد حضرت يرى فى الرأس تعجيرُ
والأخدعان فما زالا يُرى لهما لكثرة المزح توريمٌ وتخميرُ

ففى هذه الأشعار تتبين لك تلك الأغراض التى قدمنا ذكرها .

[حكاية ابن المغازلى]

وتنتظم فى سلكها حكاية ابن المغازلىّ ، وكان رجلاً يتكلّم ببغداد على الطُّرق بأخبار ونوادر منوّعة ، وكان نهايةً فى الحذق لا يستطيع مَنْ سَمِعه ألّا يضحك

قال : وَقَفْتُ يوماً على باب الخاصّة أُضحِكُ النَّاسَ وأتنادرُ ، فحضر خَلْفي بعضُ خدّام المعتضد ، فأخذت فى نوادر الخدم ، فأعجب بذلك وانصرف ، ثم عاد فأخذ بيدى وقال : دخلتُ فوقفت بين يدىْ سيِّدى فتذكرتُ حكايتك فضحكتُ ، فأنكر علىّ ، وقال : مالك ويلك ! فقلتُ : على الباب رجل يعرف بابن المُغازلى يتكلّم بحكايات ونوادر تُضْحك الثّكول ، فأمر بإحضارك ولى نصف جائزتك ، فطمعت فى الجائزة ، وقلت : يا سيِّدى أنا ضعيف وعلىّ عَيْلة ، فلو أخذت سُدْسَهَا أو ربعها ! فأبى وأدخلنى فسلّمت فردّ السّلام ، وهو ينظر فى كتاب ، فنظر فى أكثره ، وأنا واقف ، ثم أطبقه ورفع رأسه إلىّ ، وقال : أنت ابن المغازلى ؟ قلت : نعم يا مولاى ، قال : بلغنى أنّك تحكى وتُضْحِك بنوادرَ عجيبة ، فقلت : يا أمير المؤمنين الحاجة تفتقُ الحيلة ، أجمع النَّاس حكايات أتقرّب بها إلى قلوبهم فألتمس برّهم ، فقال : هاتِ ما عندك ، فإنْ أضحكتَنِى أجزتُكَ بخمسمائة درهم ، وإن أنا لم أضحك فما لى عليك ؟ فقلت الحين : ما معى إلّا قفاى ، فاسأل ما أحببت ، قال : أنصفْتَ إنْ لم تُضْحِكْنِى أصفعك بذلك الجراب عشر صفعاتٍ ، فقلت فى نفسى : مَلِكٌ لا يصفع إلا بشىء ليّن خفيف ، والتفتُّ فإذا بجراب من أدم معلّق فى زاوية البيت ، فقلت : ما أخطأ ظنّى ، عسى فيه ريحٌ إن أضحكتُه ربحت ، وأخذت الجائزة ، وإلّا فعشر صفعات بجراب منفوخ شىء هيّن ، ثم أخذت فى النُّوادر والحكايات والنّعاشة والعبارة ، فلم أدعْ حكاية أعرابىٍّ ، ولا نحوىٍّ ، ولا مخنَّث ، ولا قاضٍ ، ولا نَبَطِىٍّ ، ولا سِنْدىٍّ ، ولا زِنْجىٍّ ، ولا خادم ، ولا تركىّ ، ولا شاطر ، ولا عيّار ، ولا نادرة ، ولا حكاية إلا وأحضرتُهَا حتى نَفَدَ كلُّ ما عندى ، وتصدَّع رأسى ، وفترت وبردت ، ولم يبق ورائى خادم ، ولا غلام إلا وقد ماتوا من الضحك ، وهو مقطِّبٌ لا يتبسمُ ، فقلت : قد نَفَدَ ما عندى ، ووالله

ما رأيتُ مثلكَ قطّ ، فقال لى: هيه ، ما عندك ؟ فقلت: ما بقيَ لى سوى نادرة واحدة ، قال : هاتِها ، قلت : وعدتَنى أن تجعل جائزتى عشر صفعاتٍ وأسألك أن تُضْعفها لى وتضيف إليها عشر صفعات أخرى . فأراد أن يضحك ثم تماسَك، قال : نفعل يا غلام خذ بيده ثم مددت قفاى فصُفِعتُ بالجراب صَفْعةً ، فكأنما سقطتْ على قفاى قطعةٌ من جبل،وإذا هو مملوء حصاً مدوّراً فَصُفِعتُ عشراً، فكادت أن تنفصل رقبتى ،وطَنَّت أذناى وانقدَحَ الشُّعاع من عينى ، فصحتُ يا سيّدى، نصيحة ،فرفع الصَّفْع بعد أن عزم على العشرين ، فقال : قل نصيحتَك، فقلت : يا سيّدى إنّه ليس فى الديانة أحسن من الأمانة ، وأقبح من الخيانة ، وقد ضَمِنتُ للخادم الذى أدخلَنى نصفَ الجائزة على قُلّها وكُثْرها ، وأميرِ المؤمنين بفضله وكرمه قد أضعفها وقد استوفَيْتُ نصفى ، وبقى نصفهُ. فَضحك حتى استلقَى ، واستفزّه ما كان سمع ، فتحامل له ،فما زال يضرب بيديه الأرض ويفحص برجليه ويُمسك بمراقّ بطنه ، حتى إذا سكن قال : علىّ به ، فأُتِى به ، وأمر بصفعه ، وكان طويلاً ، فقال : وايشٍ جنايتى ؟ فقلت له : هذه جائزتى وأنتَ شريكى فيها ، وقد استوفيتُ نصيبى منها ، وبقى نصيبُك، فلما أخذه الصَّفْع وطَرَق قفاه الوقْع ، أقبلتُ ألومه وأقول له : قلت لك إنى ضعيف معيل، وشكوتُ إليك الحاجة والمسكنة ، وأقول لك خذ ربعَها أو سدسَها ، وأنت تقول : لا آخذ إلا نصفَها ، ولو علمتُ أن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه جائزته الصفع وهبتُها لك كلّها . فعاد إلى الضحك من عتابى للخادم ، فلما استوفى نصيبه أخرج صُرّة فيها خمسمائة درهم ، وقال : هذه كنت أعددتُها لك ، فلم يدعْك فضولك حتى أحضرت شريكاً لك ، فقلت : وأين الأمانة ؟ فقسمها بيننا وانصرفت .

* * *

فقال الحكَم : اللّهمّ غفراً ، وجعَلَ يُقلّب النّعلَ بَطْناً وظَهراً ؛ ثم قال : أمّا هَذِهِ النَّعْلُ فَنَعْلِي ؛ وَأَمّا مَطِيّتُك فَفِي رَحْلِي ، فانْهَضْ لِتَسلُّمِ نَاقَتِكَ ، وافعل الخيْرَ بِحَسَبِ طَاقَتِكَ ، فقمت وقلت :

أقسمُ بالبيت الْعَتيق ذى الُحرَمْ
والطائفينَ الْعاَكفين فى الحرَمْ
إنَّكَ نِعمْ مَنْ إليـــه يُحْتَـكَمْ
وخيرُ قاضٍ فى الأعارِيبِ حَكَمْ
فاسلمْ ودمْ دَوْم النّعامِ والنَّعَمْ

فأجاب من غير رويّـة ، ولا عَقْد نِيَّة ، وقال :

جُزيت عن شكرِكَ خيراً يابْنَ عمّْ
إذْ لستُ أستَوْجِبُ شكراً يُلْتَزمْ
شَرُّ الأنامِ مَنْ إذا استُقْضِى ظَلَمْ
ثمّ مَن استرعِى فلمْ يرْعَ الُحرَمْ
فَذَانِ والكلبُ سواءٌ فى الْقِيَمْ

ثمّ إنّه نَفَّذَ بين يدىّ ، مَنْ سلَّم النّاقة إلَىّ ، ولم يَمْتَنّ علىّ ، فَرُحْتُ بَجِيح الأرَب ، أجُرُّ ذيلَ الطَّرَب ، وأقول يا لَلْعجب !

* * *

قوله : اللهم غفراً ، أي اغفر غفراً ، والغفر : السَّتر والتغطية . انهض : تقدّم . لقسّلم : لقبْض . العتيق : القديم . الحُرَم : جمع حُرمة . والعاكفين : المقيمين فيه للعبادة ، والعكوف : الإقامة ، والحرم حرَم مكة . اسلم : دعاء ، معناه سلّمك الله . والنّعام : طير معروف . الأعاريب : الأعراب وهم سكان البادية . والنّعم : جمع نِعمة ، والدّوْم والدوام واحد . رويّة ، أي فكرة . عقد نيّة : أي تدبير . استُرعِي : جُعل راعياً ، أي حكماً على الناس . يَرْعَى : يحفظ . فذان ، أي فهذان . القِيم : جمع قيمة . يمتنّ : يعتدّها منّة ، وامتنّ فلانٌ عليك ، إذا فعل معك معروفاً فمتى أنكر عليك شيئاً ذكر لك معروفه وجبهك به ، وقالت الحكماء : أحْيِ المعروف بإماتة ذكره ، وعظّمه بالتصغير له .

* * *

قال الحارث بن همام : فقلت لَهُ تَاللهِ لقد أطرَفْتَ ، وهرَفتَ بما عَرَفْتَ ، فناشدْتُكَ اللهَ : هل ألْفَيْتَ أسْحَرَ منكَ بَلاغة ، وأحْسَنَ لِلّفظ صِياغة ؟ فقال : اللَّهمّ نَعَمْ ، فاستَمِعْ وانْعَمْ . . . كنتُ عزَمْتُ حِينَ أَتْهمْتَ ، عَلَى أنْ أتَّخِذَ ظَعِينةً ، لتكونَ لى مُعينة ؛ فحين تعيّن الخطبُ المُلِبّ ، وكادَ الأمْرُ يَسْتَتِبّ ، أفْكَرْتُ فِكْرَ الْمُتحرِّز مِنَ الْوَهْم ، المتأمِّلِ كَيْفَ مَسْقِطُ السّهم ، وبتُّ لَيْلَتِي أُنَاجِي القَلْبَ الْمُعَذَّب ، وأُقلِّبُ الْعَزْم المَذبْذَب ، إلى أنْ أجمعتُ على أنْ أُسْحِر ، وأُشاوِرَ أوّلَ من أُبْصِر . فلمّا قوّستِ الظُّلْمَةُ أبوابَها ، وولّت الشّهُب أذْنَابَها : غَدَوْتُ غُدُوّ المتعرّفِ ، وابتكرتُ ابتكارَ الْمُتَعيّفِ ، فانبرَى لى يافِعٌ

في وجهه شافِع ، فتيمّنتُ بمنظرِه البَهيج ، واستقدحْتُ رأيه في التزويج . فقالَ : أوَ تبغيها عوانًا ، أم بكراً تُمانى ؟ فقلت : اخترْ لى ما ترَى ، فقد ألقيتُ إليك العُرَى .

* * *

أطرفتَ : أتيتَ بطُرْفة ، يريد بأمرٍ عجيب غريب . هرَفْت بما عرَفت ، أى تكلّمت بشيء غريب ، والهرَف : الإطناب في المدْح ، ومن كلام العرب لا تهرِفْ بما لا تعرف . ناشدتك : حلّفتُك : صياغة : صنعة وسَبْك . أتهمت : أتيت تِهامة ، وهى ما انخفض من أرض العرب . ظعينة : زوجة . الخِطْب : النكاح . وتعيَّن : تحقّق . يستتبّ : يتم . الوَهْم : الغلط . المتأمل : الناظر . المذبذب : المضطرب ، الذى لا يعتمد على رأى . أزمعت : عزمت . أُسحِر : أخْرُج في السَّحَر . قوّضت : هدمت . والأطناب : حِبال الخِباء وتقويضها : إزالتها . الشّهبُ : النجوم ، وجعل لها أذناباً مجازاً ، وأراد أنّ الفجر إذا طلع وانتشر غابت النُّجوم ، فكأنها قد ولّت أذنابُها وقال التّهامى في ذلك :

فظلتُ أعثر في ثوبِ الدُّجَى ولهاً والجوّ رَوْضٌ وزهرُ الشُّهْبِ كالزّهَرِ [1]

وللمجرّة فوقَ الأرض معترَكٌ كأنها حَبَبٌ يعلو على نَهَرِ

وللثريّا ركود فوق أرحُلِنا كأنها قطعة من فَرْوَة النمِرِ

كأنّ أنجمَها والصُّبح يُغْمِضها قَسْراً عيونٌ غفت من شدّة السَّهَرِ

المتعرّف : المكتسب لأنه يعرف ما جهل . المتعيّف : الزّاجر ، من عاف الشيء إذا كرهه . يافع : فَتًى شابٌ وقد أيفع إذا شبّ . في وجهه شافع ، أى هو حسن الوجه يشفع حسنُ وجهه إذا أذْنَبَ أو أخطأ .

* * *

(١) ديوانه ٢ ٤ .

[من قولهم فى الوجه الحسن]

وفى وجهه شافع صدر بيت للحكم بن قَنْبر .

وقال يحيى بن علىّ المنجم : كنتُ يوماً بين يدى المعتضِد ، وهو مقطّب ، فأقبل بدرٌ مولاه ، فلمّا رآه من بعيد ضحِك وقال : يا يحيَى مَنِ الذى يقول : « فى وجهه شافع » ؟ فقلت : يقوله ابن قنبر المازنى البصرىّ ، فقال لله: دَرّه ، فأنشِد هذا الشعر ، فأنشدته :

وَيْلِي على مَنْ أطار النوم فامتنعاَ ... وزاد قلبي على أوجاعِه وَجَعاَ
كأنما الشمس فى أعطافه لمعتْ ... حُسْناً أو البدر مِنْ أزرارِه طَلعاَ
مستقبل بالّذى يهوَى وإن كثُرتْ ... منه الذنوب ومعذور بما صَنَعاَ
فى وجهه شافع يمحُو إساءَته ... من القلوب وجيهٌ حيثما شَفَعاَ

أنس ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : « حسن الوجه مال » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « اطلبوا الخيرَ عند حسان الوجوه » .

وقال الشاعر :

أنت شرط النبىّ إذ قال يوماً ... اطلبوا الخير من حسان الوجوهِ

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « مَنْ آتاه الله وجهاً حسناً واسماً حسناً ، وجعله فى موضع غير شائن ، فهو من صفوة الله من خلقه » .

ابن عمر رضى الله عنهما قال صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة تجلُو البصَر : النظرُ إلى الْخُضرة ، والنّظر إلى الماء الجارى ، والنّظر إلى الوجه الحسن » ، نظمها الشاعر فقال :

ثلاثة يُذهِبنَ للمرء الحزَنْ ... الماء والخضرة والوجْهُ الحسنْ

قوله تيمنت : تبركت . البهيج . الحسن . استقدحت : طلبت ، وأصلها ، فى قدح النار . تبغيها : تطلبها . عوانا : ثيبا . تعانى : تعالج وتراضى . العرا : جمع عروة .

* * *

فقال : إلىّ التّبْيين ، وعَلَيْك التَّمين ، فاسْمع أَنَا أَفْديك ، بعد دَفْنِ أَعاديك ؛ أمّا البِكر فالدُّرَّة المخزونَة ، والبَيْضَةُ المكنونة ، والبَا كُورَةُ الْجَنِيَّة ، والسُّلافَةُ الْهَنِيّة ، والرَّوْضَةُ الأنف ، والطَّوْق الَّذى ثَمُن وشَرُف؛ لم يدنِّسْها لامِس، ولا استَغْشاها لابِس، ولا مارَسَها عَابِث، ولاوَكَسها طَامِث، ولهَا الْوَجْهالحَيِيّ، والطَّرْف الْخَفِيّ، واللِّسَانُ الْعَيِيّ، والْقَلْبُ النَّقِيّ . ثم هى الدُّمْيَةُ الْمُلَاعِبة، واللُّعبة الْمُدَاعِبَة، والْغزالَة الْمُغَازِلة ، والْمُلْحَةُ الْكَامِلة ، والْوِشَاحُ الطَّاهِرُ الْقَشِيب ، والضَّجيع الَّذى يُشِبّ ولا يُشيب ... أمّا الثيِّبُ فالمطِيّة الْمُذَلَّلَة ، واللُّهْنَةُ الْمُعجَّلَة . والبغْيَةُ الْمُسهّلَة ، والطَّبَّة الْمُعلّلة ، والقرينة المتحبِّبة ، والخَلِيلة المتقرّبة ، والصَّنَاع المدبِّرَة، والْفِطْنَة المختبِرَة . ثمّ إنَّها عُجالَةُ الرَّاكب ، وأُنْشوطَةُ الْخَاطِب، وقُعْدَةُ الْعاجِز، ونُهْزَةُ الْمُبارِز، عَرِيكتُها لَيِّنة ، وعُقْلَتُها هَيِّنَة، ودِخْلَتُها متبيِّنة ، وخِدْمَتُها مُزَيِّنَة ، وأُقسِمُ لقد صَدَقْتُ فى النَّعْتَيْن ، وجلوْتُ الْمَهاتَيْن ، فبأَيَّتِهما هامَ قَلْبك ، وعَلَى أيّتهما قَام رُبّك ؟

* * *

الدرّة : الجوهرة . المخزونة : التى جُعلت فى الخِزانة لرفعتها ، يريد أنّ البِكر تحجَب وتُصان : البيضة المكنونة ، أراد بيضة النعام ، ويشبّه بها النساء

لبياضها والصُّفرة التي تضرب فيها ، وقد تقدمت هذه الصفة في العاشرة ، وقال امرؤ القيس :

كَبِكْرِ مُقَانَاةِ البياض بصُفْرَةٍ غَذَاها نَمِيرُ الماء غيرُ المحلَّلِ (١)

وقال ذو الرُّمة :

* كأنَّها فضة قد مسها ذهبُ * (٢)

والمكنونة : المصونة ، والنعامة تُكِنّ بيضتها بريشها ، ولا تبديها للشمس والريح لئلا تتغيّر ، وقال الله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴾ (٣) ، الباكورة : أوّل ما يُباكر من الثمر . والسلافة : الخمر ، والمدْخُورة : المحجوبة في آنيتها . الأُنُفُ : التي لم تُدْخَل ولا رعيت . والطَّوْق : ثوب رفيع . ثَمِنُ : كثر ثَمَنُهُ . اللامس : الذي يلْمَس الشيء بيده ويدنّسه ، وأراد به الذي يلاعبها ويعضّها . ابن عباس : اللمس والملامسة واللِّماس ، كناية عن الجماع ، وفلانة لا تردّ يدَ اللامس ، أي لا تمنع مجامَعتها مَنْ أرادهَا . استغشاها : جَامَعها ، وغشيان النِّساء : مجامعتهنّ . واللّابس : الذي لابسها واختلط بها ، يريد نكحها . مارسها : عالجها وعاناها . عابث : مفسد ، وأراد من يَعْبَثُ بها عند الجماع . وَكَسها : نَقَصها ، ووضع منها ، والوكْس : الخسارة في البيع . طامث : ناكح . والطامث : المفتضّ للبكر . العَيّ : الَّذي لا يعرف تصرّفات الكلام : والدّمية صورة الرخام . واللُّعبة : ما يلعَب به ، وتقول : لمن اللعبة ؟ أي لمن الغلب في لعب الشطرنج وشبْهه . عليّ رضي الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : « المرأة لُعبة زوجها ، فإن استطاع أن يُحْسِن لعبته فليفعل » . والمداعبة : المازحة . والمغازلة : تقول غازلتني المرأة إذا تماجَنَتْ عليك في كلامها ، وأشارت لك

---

(١) ديوانه ١٦ (٢) ديوانه ٥ ، وصدره :

* كَحْلاءُ في بَرَجٍ صَفْرَاءُ في نَعَجٍ *

(٣) سورة الصافات ٤٩

بعينها وغمزتك بحاجبها حتى إذا طمعت فيها صدّت عنك . والمُلْحة : الصورة المستملحة كالدُّمى وكالصورة التى تلعب بها البنات والشطّار ، وهى اللعبة . وجاء بمُلْحة أى بكلمة طيبة مليحة . والوشاح : الحِزام . والقشيب : الجديد جعلها كالوشاح عند عناقها وجماعها . والضجيع : المراقد . يشبّ : يردّك شابًّا . يُشيب : يُكسِبك الشّيب . اللهْنَة : ما يعجّل للضّيف قبل القِرى . والطَّبّة : الحاذقة بمصالحها . المعلّة : التى تعطيك ما تريد منها مَرّةً بعد مرّة ، وهى بكسر اللام ، والمعلّة : التى تعلّل مرتشفها بالريق ، قال امرؤ القيس :

* وَلَا تمنعينا من جَنَاكِ المعلَّل [1] *

ابنُ الأعرابىّ : المعلِّل : المعين بالبرّ بعد البرّ ، ومن نصَب اللاّم فمعناه المطيَّب مَرَّة بعد مرة ، والتعليل سَقْى بعد سقِى . والقرينة : الصَّاحبة . والحليلة : الزَّوجة . والصَّناع : الحاذقة بالصَّنعة . وعُجالة الراكب : ما يعجَّل له من الطعام والشراب ، مثل التمر والسويق ، وما لا يتعِب بمعالجته ، وكانت العرب لكرمها يمرّ عليها الرجل ، وهو راكب فتعرِض عليه النزولَ للقِرى ، فيمتنع لأعذار له فيمسك ؛ حتّى يُخرَجَ له من البيوت أيسرُ ما يوجد ، يأكله وهو راكب ، فجعَل الثَّيِّب لسهولتها كالعُجالة التى لا يُتكلَّف لهـا ، وقال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه : البِكْر كالبرّة تطحنها وتعجنها وتخبزها وتأكلها ، والثَّيِّب عجالة الراكب تمر وسويق . والأنشوطة : عُقْدة تُحَلُّ بسهولة . نهزة : فرصة وغنيمة سهلة . عريكتها : طبيعتها ، ورجل ليّن العريكة إذا كان سهلا سَلِس القياد ، وأصل العريكة سنام البعير ، وكانوا يعمِدون للبعير إذا كان فيه شِماس وامتناع ، فيقطعون فى حَدَبته وهى مرتفعة يَصْعُب الرّكوب عليها ، فإذا قطع فيها سكن البعير ولان ، وتوطّأ موضع الرّكوب منه فيقال : قد لانت عريكته وقال الشاعر :

---

(١) ديوانه ١٢ ، وصدره :

* فقلت لَهَا سِيرِى وَأَرْخِى زِمَامَهُ *

من اللَّواتى إذا أوْدَتْ عريكتُها　　يَبْقَى لهـــا بعدها ألٌّ ومجهودُ

قوله : أوْدَتْ ، أى زالت وذهبت ، فهذا يدلّ على ما ذكرنا . عُقْلتها : حبستها ، يريد أن ما يعقلها به صاحبها شيء هيّن ، والعُقْلة مثل العُقدة ، ولفلان عُقْلة يعقِل بها الناس فيغلِبهم ويصرعهم . دِخْلتها : باطن أمرها ، وفلان عفيف الدِّخلة وخبيثها ، أى الباطنة والسَّريرة . متبيّنة : مكتشفة ظاهرة ، أى سرُّها ظاهر . المهاتين : البِكر والثيّب ، والبقرة الوحشية هى المهاة . هام : تحيّر من شدة الحبّ .

* * *

قال أبو زيد : فرأيْتُهُ جَنْدَلَةً يتّقِيهـا المُرَاجِم ، وتُدْمَى منهـا المحاجِم ؛ إلّا أنّى قلت له : كنتُ سمعتُ أنّ البِـكْرَ أشدُّ حُبًّا ، وأقلّ خِبًّا ، فقال : لعمرى قد قيل هـذا ، ولـكِن كمْ قولٍ أذى ، ويحك ! أمَا هى المُهرَةَ الأبِيَّة العِنان، والمَطِيَّةُ البَطِيَّة الإذْعَان ، والزَّندة المتعسّرة الاقتداح ، وَالقَلْعةُ المُسْتَصعَبَة الافتتاح. ثم إنّ مُؤْنتها كثيرة، ومَعُونتهاَ يَسيرة ، وعِشْرَتَها صَلِفَة ، ودَالَّتَها مُـكَلَّفة ، ويَدَها خَرْقاء ، وفِتْنَتَها صَمّاء، وعَرِيكَتَها خَشْنَاء، ولَيْلَتَها لَيْلَاء ، وفى رِيَاضَتِها عَنَاء، وعَلَى خِمْرَتِها غِشَاء ، وطالمَا أخزَت المُنَازل ، وفَرِكَتِ المَغَازِل ، وأحْنَقَتِ الْهَازِل ، وأَضْرَعَتِ الْفَنِيقَ البازلَ . ثمّ إنّهـا التى تقول : أنا ألبَس وأجلس ، فأطلب من يُطلِق ويَحْبس .

فقلت له : فما تَرى فى الثَّيِّب ، يا أبا الطَّيب ؟ فقال : وَيْحك! أَتَرْغَب فى فُضالة المآكل ، وثُمَالَةِ المَنَاهِل ، واللِّبـاس المستبذَل ، والوعاء

المسْتَعْمَل ، والذّوّاقةِ المتطرِّفةِ والخرّاجـة المُتَصرِّفة ، والوَقَاحِ المُتَسَلِّطة ، والمُخْتَـكِرَةِ المُتَسَخِّطة . ثم كِلمتُها : كنتُ وصِرْت ، وطالما بُغى علىّ فنُصِرْت . وشَتَّان بين اليوم والأمس ، وأين القمرُ من الشمس ! وإن كانت الحنّانةَ الْبَرُوك ، والطَّمّاحَةَ الْهَلُوك ، فهى الغُلّ القَمِل ، والجُرْح الَّذى لا يندَمِل .

* * *

قوله : المُراجم ، أى الذى ترْجُمه ويرجُمك . خِبًّا : مكراً وخديعة ، ورجل خِبّ : غاشّ فاجر . الابيّة العِنَان : الممتنعة القياد . الإذعان : الخضوع والذلة . الزّندة : ما تزنُد منه النار . المتعسرة الاقتداح : التى يعسر إخراج النار منها. القَلْعة : الحِصْن والمكان المرتفع . عشرتها : صُحْبتها . صَلِفة : مجاوزة حدّ الطَّوْق ، وأصل الصّلف الإعراض عن الشىء كأنه إذا استقبلك أبديْت له صَلِيفَك ، وهو صفحة عُنُقك . ودَالّتها : انبساطها ، يريد انبساطَها إذا أرادت أن تُدِلّ عليك تتكلّف ذلك. خَرْقاء : لا تحسِن العمل . صمّاء : شديدة ، كأنها لا تسمع النَّهى والعــذْل . وفِتْنتها : شرها . خشناء : خَشِنة صعْبة . ليلاء : شديدة السّواد طويلة . خِمرْتها : لبستها الخِمار . غشاء : غطـاء وَستْر . فُضالة : بقية، وكذلك ثمالة المنهل : موضع المـاء . والنّهَل : الشرب الأوّل . والذّوّاقة المتطرفة، أى التى تذوق طَرف الشىء وتتركه أو تذوق بطرَف لِسانها ثم تبصقُه، وتَطرّفت الناقة : رَعَتْ بأطراف المرعى ، فيريد أنها لا تبقى على زوج واحد ، إنما هى تذوق كلّ زوج وتجرّب لذة مباشرتِهم ، وقال رجل للنبى صلى الله عليه وسلم : إنى قد طلقت زوجتى فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا يحبّ الذوّاقين ولا الذوّاقات » . الخرّاجة : الـكثيرة الخروج . المتصرّفة : الجوّالة . الوَقاح : الصُّلبة الوجه التى ليس عندها حيـاء . المتسلطة : المستطيلة اللسان .

والمحتكرة : التي تَسْرِق رزْق زوجها، ثم تحتكره ، أي تدخّره وترفعه ، فإذا احتاج زوجُها لشرائه أخذت منه ثمن ما عندها محتكَراً . كنتُ وصرت : تخاطب به زَوْجها أي كنت في نعمةٍ مع الزوج الأوّل وأنا معك على شقاء . بُغِى علىّ، أي اجتمع علىّ بالظلم، والبغى: الظلم . وشتّان : بَعُد . واليوم وأمس : الزوج الحاضر معها والزوج المفقود ، وهو الذى أراد بالقمر والشمس ، ويقال : شتان زيد وعمر وترفعهما بشتّان، وتفتح نونها لالتقاء الساكنين تشبيهاً بالأدوات ويقال : شتان ما زيد وعمرو ، فتجعل ما صلة أو تنصبها على التمييز على حدِ نِعْمَ رجلاً زيدٌ والتقدير : شتّان شبهاً زيد وعمرو ،وبرفعهما بشتّان بمعنى بَعُد شبهاً زيد وعمرو ، ويجوز كسر نون شتانِ على أنها تثنية شتّ ، وهو التفرّق، وجمعه أشتان ،ويقال : شتان ما بين زيد وعمرو ،فترفع «ما» بشتّان على أنها بمعنى الّذى ، وبين صلتُها ، ولا يجوز كسر نون شتانَ لأنها اسم واحد ، ومعنى هيهات بَعُدَ الحنّانة : صاحبة الولد الذى من غير الزّوج الذى هى معه : فمتى رأتْ ولدها حنّت لوالده، والبروك : التى تتزوّج ولها ولدٌ كبير ، ويسمى ولدها الحوبند . والطّماحة الهلوك : هى التى فارقها زوجُها فتطمح له أبداً وتتهالك فى محبَّته . وقيل: الطماحة الّتى تطمح إلى كلّ شهوة ، والهلوك الفاجرة . والغُلّ : الشّرك التى يُغَلّ بها الأسير أى يربطها فى عنقه ويديه . والقمِل : الذى كثرت فيه القمل ويضرب بالغُلّ القمِل المثل للمرأة السيئة الخلق . لا يندمل : لا يبرأ .

أبو موسى رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاث يدعُون الله فلا يَستجيب لهم : رجل كانت عنده امرأة سيّئة الخلُق فلم يطلّقْها ، ورجل أعْطَى مالَه سفيهاً ، وقد قال الله تعالى ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أمْوالَكُمْ ﴾ ، ورجل كان له على رَجُلٍ دَيْنٌ فلم يشهد عليه » .

المقدمى : قال بعض الحكماء : أربعة أشياء يمنعْنَ النّوم والقَرار : المرأة السوء ،

والولد الجاهل ، والعَشِير المخالف ، والعبد اللئيم . قال الأصمعيّ : قال لى زائدة البندار : قيل لى بالشأم : هل لك أن ترى العَجَب؟فذهبتُ فإذا سبعة فى شق ، جدّ وستة من ولده وولد ولده ، وإذا الجدّ السابع أشب من الابن السابع ، فسألت عنه فقيل : كان للجدّ امرأة مُوافقة وللابن السابع امرأة سَلِيطة .

وقال صلى الله عليه وسلم : «أربعة لا يشبَعْنَ من أربعة : عينٌ من نظر ، وأرض من مَطَر ، وأنثى من ذكر ، وعالم من علم » .

قال الأصمعى : تزوّج رجل من عُذْرة امرأةً منَ بلىّ حمقاء ، فغاب عنها غيبةً ثم قدم عليها ، فلما جمعهما المضجع أنشأت تقول :

ما مسَّنِى بعدك منَ إنسىّ   غير غلامٍ واحدٍ جَعْدِىّ
ورجلٍ أحمق من بلِىّ   ورَجُلين منِ بنى عدىّ
وتسعة كانوا مع المطىّ   وسبعةٍ كانوا على الطّوِىّ
وخمسة وافوْا مع العَشىّ   من بين جَدّىّ إلى مكىّ

* ومنَ تِهَامِىٍّ إلى نجدىّ *

فقام إليها بالسوط فضربها ، فاجتمع لذلك مَنْ حوله يلومونه ، فقال : والله لولا ما قمتُ لضرْبها لَعَدّت علىّ أهل عَرفات ومِنى .

وقيل ليحيى المدينى : ما الجرحُ الذى لا يندمل ؟ قال : حاجة الكريم إلى اللئيم .

* * *

فقلت له : فهلْ تَرى أنْ أَتَرهَّبَ ، وَأَسْلُكَ هَـذَا الْمَذْهَب ؟ فانْـتَهرَنِى انتهارَ المؤدِّب ، عند زلّة المتأدِّب ، ثمّ قال : ويلك ! أتقتدى بالرّهبان، والحقُّ قد استَبان ! أفٍّ لك ولِوَهْنِ رَايِك، وتبًّا لك ولأُولئك

أَتُراكَ ما سمعت بأنْ لا رهبانيّة فى الإسلام، أو ما حدِّثت عنا كح نبيِّكَ عليه أزكى السلام. ثمّ أما تعلمُ أن القرينةَ الصالحة تَرُبُّ بيتَك، وتلبِّي صوتَك، وتغُضّ طَرْفَك، وتُطَيِّب عَرْفك، وبها تَرَى قُرَّةَ عَيْنِك، وريحانةَ أَنْفِك، وفَرْحةَ قَلْبِك، وخُلْدَ ذِكْرِكَ، وتَعِلَّةَ يَوْمِك وغَدِكَ! فكيفَ رغبتَ عن سُنَّة الْمُرْسَلين، ومُتْعَةِ المتأهّلين، وشِرْعَة الْمُحْصَنين ومجلبةِ المال والْبَنين: والله لقَدْ ساءنى فيك، مَا سَمِعت مِنْ فِيك. ثمّ أعرض إعراض المغضَب، ونَزَا نَزَوان العُنظَب، فقلت له: قاتلك الله! أتَنْطَلِق مُتَبخْتِراً، وتَدَعُنى متحيِّراً! فقال: أظنّك تدّعى الْخِيْرة، لِتَجْلِدَ عُمَيْرة، وتَسْتَغْنِي عن الْمُهَيْرة. فقلت له: قبّح الله ظَنَّك، ولا أشبَّ قرنَك. ثم رُحْتُ عنه مَرَاح الْخَزْيان، وتُبتُ من مشاورة الصبيان.

* * *

قوله: أترهّب، أى أترك التزويج، والتّرهب ترك النساء. انتهزنى: زجرنى وأخذنى بلسانه. زَلّة: سقطة. استبان: ظهر. الأفّ وسخ الأذنين، والوهن: الضعف والخسران. ولأولئك، إشارة للرهبان. السّكن: الزوجة يُسكَن إليها تَرُبّ: تصلح. تلبّى: تجيب. تَغُضّ طرفك، أى تحصّنك وتمنعك من نظر النساء. عَرْفك: ريحك الطيب. وقرّة العين: ما يتمنى وتقرّ به العين.

ريحانة: شجرة طيّبة الريح، وريحانة من صفة المرأة. قال علىّ رضى الله عنه فى وصيته لابنه محمد بن الحنفية: «لا تملِّكن المرأة من الأمر مايتجاوز نفسها فإن المرأة ريحانة وليست بقهرمانة، وإن ذلك أدْوَمُ لحالها وأرضى لبالها».

وما أحسن ما قال ابن اللّبـانة يرثى أختَ المرتضى صاحب مُيورقة ، وماتت بعد أخيها :

أبنْتَ العـلا جدَّدْت منعى على منعى
مضَى المرتضى أصلاً وأتبعتهِ فرعاً
جرى الموت جرْىَ الريح فى منبتيكما
فأذوَاكِ ريحـاناً وكسَّرَهُ نبعاً

َتعِلة : أى تتعلّل وتنتفع بما عندها من القيام بمؤنتك . ومُتعة : ما ُيتَمتّع به ويتلذذ . المتأهلين : المتزوّجين الذين لهم أهل . شِرْعة : طريقة . المحصَنين : المتزوجين . نزا : وثب وارتفع . العنُظُب : ذكر الجراد .

[فصل فى الزواج واختيار الأزواج]

ونذكر هنا فصلا يليق بهذا الموضع .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعطاف بن وداعة الملالى : « يا عطّاف ألك امرأة ؟ قال : لا قال : فأنت إذاً من إخوان الشياطين ، إن كُنْتَ من رهبان النصارى فالحق بهم ، وإن كنت مِنّا فسنّتنا النـكاح » .

أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ركعتان من المتأهّل خير من اثنتين وثمانين ركعة من العزَب » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « تزوّجوا الولُود الودود من من النّساء فإنى مكاثرٌ بكم الأمم » .

وقال صلى الله عليه وسلم « النّساء ثلاث : صِنْفٌ كالرحّى تحمِل وتَضَع ، وصِنفٌ كالعَرّ وهو الجرَب ، وصِنفٌ ودَود ولود ُتعِين زوجَها على إيمانه فهى خيرٌ له من الـكنز » .

ابن عمرو رضى الله عنهما قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « إذا أتى على أمتى مائة وثلاثون سنة فقد حلّت لهم العزبة والترهّب فى رءوس الجبال » .

وقال صلى الله عليه وسلم : الدنيا متاع ، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة .

وقال خالد بن صفوان لرجل : أتزوجت؟ قال : لا ، قال: فتزوج، ثم قال بعد ساعة : لا تتزوج ، فقال : لم ؟ قال : إنك إن تزوّجت واحدة فتطهر إن طَهُرت وتحيض إن حاضت وتغضَب إن غضبت، فإن تزوّجت باثنتين تقع بين ضَرّتين ، فإن تزوجت ثلاثاً تقع بين أثافٍ ، وإن تزوجت بأربع يفلّسْنَك ويُهْرِمنك . قال : أفتحرّم ما أحلّ الله لك ؟ قال : لا ، ولكن كُوزان وخِماران وعباءة وقُرْصان .

وقال رجل : أردتُ النّكاح فقلت : لأستشيرن أوّل مَنْ يطلع علىّ ، فأعمل برأيه ، فأول مَنْ طلع علىّ هبنّقة القيْسىّ الأحمق وتحته قصبة ، فقلت له : إنى لأستشيرك فى النّكاح ، فقال : البِكْر لك والثّيّب عليك ، وذات الولد لا تقربْها ، واحذر جوادى لا ينفحك .

وقال رجل لولده: يا بنىّ لا تتخذها حَنّانة ولا أنّانة ولا منّانة ولا عَشِبة الدار ولا كية القفا ، فالحنّانة التى لها ولَد من غيره فهى تحنّ إليه ، والأنانة : التى مات زوجها فهى إذا رأت الثانى أنّت للأوّل وقالت : يرحم الله فلانا ، والمنّانة التى لها مال ، فهى تمنّ به على زوجها متى احتاج إليه ، وعَشِبة الدار : خضراء الدّمن ، وقد تقدّمت ، وكية القفا : التى انصرف ابنُها أو زوْجَها من بين القوم قال رجل قد كان بينى وبين أمّ هذا أو زوجته شىء .

وسُئِل أعرابىّ عن النساء ، وكان ذا تجربة لهنّ فقال : أفضلنّ أطولهنّ إذا قامتْ، وأكظمهن إذا قعدتْ وأصدقهن إذا قالت، التى إذا غضبت حلمت وإذا ضحكت تبسّمت ، وإذا صنعت شيئاً جوّدت ، التى تلزم بيتَها ولا تعصى

زوجَها العزيزة فى قومها ، الذليلة فى نفسها ، الودود الوَلُود ، وكلّ أمرِها محمود .

نظر خالد بن صفوان إلى جماعة فى مسجد البصرة فقال : ما هذه الجماعة ؟ قالوا : امرأة تَدُلّ على النساء ، فأتاها فقال لها : أبغى امرأة ، قالت : فصفها ، قال : أريدها بِكْراً كثيّب ، أو ثَيِّباً كبِكر ، حُلْوة من قريب ، ضخمة من بعيد ، كانت فى نعمة ، وأصابتها حاجة ، ففيها أدب النّعمة وذلّة الحاجة ، إذا اجتمعنا كنّا أهلَ دنيا ، وإذا افترقنا كنا أهل آخرة ، قالت : قد أصبتُها لك ، قال : فأين هى ؟ قالت : فى الرفيق الأعلى من الجنّة فاعمل لها .

[حكاية خالد بن صفوان مع أبى العباس السفاح وزوجِهِ أم سلمة]

وقال خالد لأبى العباس السَّفَّاح ـ وكانت عنده أُمُّ سلمة بنت يعقوب بن سلمة المخزومىّ ، وكان تزوّجها قبل الخلافة ، وحلف ألّا يتزوج عليها ، ولا يتسرّى ـ: يا أميرَ المؤمنين ، إنّى تفكّرت فى أمرك ، مع سَعَة ملكك ، وقد ملَّكْتك امرأة واحدة ، إن مرضتْ مرضتَ لمرضها ، وإن غابت غبْتَ ، وحرَمتَ نفسك التلذّذ بالجوارى ومعرفة حِلالتهنّ ، فإنّ منهنّ الطويلة الغَيْداء ، والفضة البيضاء ، والعقيقة الأدْماء ، والرقيقة السّمراء ، والبربرية العجزاء ، يفتنّ بمحادثتهنّ . وتأتك عن بنات الأحرار والنّظر إليهنّ ، ولو رأيت الطويلة البيضاء ، والسمراء العيناء ، والبيضاء العجزاء ، والمولدات من البصريات والكوفيات ذواتِ الألسن العذْبة ، والقدود المهفهفة ، والأوساط المخصّرة والأصداغ المزرفنة ، والعيون المكحلة ، والثدىّ المحقّقة ، وحسن زينتهنّ وشكلهنّ ، لرأيت شَكلاً حسناً ، فقال له : ويحك يا خالد ! ما سلك مسامعى والله كلامٌ أحسنُ مما سمعت منك . فانصرف وبقىَ أبو العباس متفكّراً . فدخلتْ عليه أم سلمة فرأته ، مغموماً فقالت له : إنى لأنكرك ياأمير المؤمنين ، هل أتاك خبرٌ فارتعت له ؟ قال : لا ، قالت : فما قصّتُك ، فزوَى وجهَه عنها ، فلم

تزل به حتى أخبرها ، قالت : فما قلت لابن الفاعلة ؟ قال : سبحان الله ! ينصحنى وتشتمينه ! فخرجتْ مغضَبة ، وأرسلت إليه جماعة من العبيد ، وبأيديهم مقامعُ من حديد ، وأمرتْهم ألَّا يتركوا من خالد عضواً صحيحاً . قال خالد : فانصرفتُ مسروراً لما رأيتُ من إعجابه بما ألقيت عليه ، ولم أشكّ أنّ صلتى ستأتينى .

فإنّى لقاعد على باب دارى ، وإذا بالعبيد قد أقبلُوا نحوى فلم أشكّ فى الجائزة ، فسألوا عنِّى فقلت : أنا خالد ، فأهوى أحدُهم إلىّ بهراوة فوثبتُ إلى منزلى ، وعلمت أنى أُتيتُ من أم سلمة . وطلبنى أبو العباس طلباً شديداً ، وأنا مستخفٍ ، فهُجِم علىّ فى الثالث ، فقالوا : أجب أمير المؤمنين . فأيقنت بالموت ، فدخلْتُ عليه وليس فى وجهى دم ، فسلّمت وجلستُ ، وإذا خلف ظهرى سِتْرٌ خلفْه حركة . فقال لى : يا خالد أين كنت منذ ثلاثة أيام ؟ قلت : عليلاً ، قال : إنَّك وصفت لى من أخبار النساء والجوارى مالم يخرق مسامعى قطّ شىء أحسنُ منه ، فأعِدْه علىّ ، قلت : نعم أعلمتك يا أمير المؤمنين أنَّ العرب اشتقت اسمَ الضرّة من الضّر ، وإن أحدهم لم يكنْ عنده أكثرُ من واحدة إلا كان فى جَهْدٍ . قال : ويحك لم يكن هذا فى الحديث ! قلت : بلى والله ، وأعلمتك أنَّ الثلاث من النساء كأثافىّ القِدْرُ يُغْلَى عليهنَّ . قال أبو العباس : برئتُ من قرابتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم إن كنت سمعتُ هذا منكَ فى حديثك ، قلت : وأخبرتُك أنَّ الأربع شؤم مجتمع لصاحبهنَّ ، يُسْقِمْنه ويُهْرِمنه ويُشَيِّبْنَه . قال : والله ما سمعت هذا منك قطّ ! قلت : بلى والله يا أمير المؤمنين ، قال : ويحك ! وتكذّبنى ! قلت : وتريد أن تقتلنى ! قال : مرّ فى حديثك ، قلت : وأخبرتك أنَّ أبكار النساء رجالٌ ولكن لاخُصَى لهنَّ ، قال : وسمعتُ الضَّحكَ من وراء الستر ، قلت : وأخبرتُك أن بنى مخزوم ريحانة قريش وعندك ريحانة من الرّياحين ، وأنت تطمح إلى غيرها من الإماء ! فقيل لى من وراء الستر : صدقتَ والله يا عمّاه وبررْت ، وبهذا حدّثته ، ولكنه غيّر وبدّل . فقال لى

أبو العباس : مالك قاتلك الله وأخزاك ! وفعل وفعل ! فتركته وخرجت ، فما شعرت إلا برسل أم سلمة ، ومعهم عشرة آلاف درهم ، وتخت وبرذون وغلام ، فقبضتها[1] .

وفى هذا الحديث المليح تعلقٌ بما ذكر الحريرىّ من مدْح النّساء وذمهنّ ، وخالد بن صفوان لفصاحته أقدر الناس على مدح الشّئْ وذمه ، وقد تقدّم فى الثالثة هذا الفنّ .

[من فصاحة خالد بن صفوان]

وقال أبو العباس السفاح لخالد وعنده أخواله الحارثيّون : كيف علمك بأخوالى ياخالد ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، هُمْ هامة الشَّرَف وعِرْنين الكرم ، وغَرْس الجود، وفيهم خصال ليستْ لغيرهم،إنّهم لأصونُهم أمًّا ،وأحسنهم أمَمًا، وأكرمهم شيما ،وأطيبهم طعماً،وأوفاهم ذمما ،وأبعدهم هِمماً ، الجمْرة فى الحرْب، والوفد عند الجدْب ، وهم الرأس فى كل خطب ، وغيرهم بمنزلة العُجْب . فقال : لقد وصفت يا بن صفوان فأحسنت ، فزاد أخوالُه فى الفخر ، فغضِب أبو العباس لأعمامه فقال : افخر ياخالد ، فقال: أعلَى أخوال أمير المؤمنين ؟ قال : فأين أنت من أعمامه ! قال : كيف أفاخر قوماً هم بين ناسج برْد وسائس قرد ، ودابغ جلد ، دلّ عليهم هدهد ، وغرّقتهم فأرة ، ومَلَكَتْهم امرأة !

ودخل خالد على أبى الجهم العدوىّ وهو يريد ركوبَ حمار ، فقال خالد : أما علمتَ أنّ العير عار، وأنّ الحمار شنار، منكر الصوت ، قبيح الفوت ، مترنّح فى الحْل ، مرتطم فى الوحْل ، ليس بركوبة فحل ، ولا مطية رَحْل ، راكبه مقرِف ، ومسايره مشرف . فاستوحش العدوىّ من رُكوبه ، فركب فرساً وركب خالد الحمار ، فقال : ويحك يا خالد ! أتنهى عن شيء وتأتى مثله ! قال :أصلحك الله، عِيرٌ من بنات الكداد ، أسحم السربال، مدمج الأوصال ،

(1) الخبر فى مروج الذهب للمسعودى ٢ : ٢٧٥ — ٢٧٨

محملج القوائم ، يحمل الرّحلة ، ويبلغ العقبة ، ويمنعنى من أن أكونَ جبّاراً عنيداً ، أو ملكا شديداً،فقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين ! ذلك لك، وهذا لى . فتبسّم العدوىّ .

[ذكر مقاطيع فى أوصاف النساء]

ثم نرجع إلى جملة مقاطيع من أوصاف النساء تقبين بها أوصافهنّ ،

قال العديل بن الفرخ :

لعبَ النّسيم بهنّ فى أظْلَالِهِ ... حَتّى لَبِسْنَ زمان عيش غافلِ
يأخذنَ زينتهنّ أحسن ما يُرى ... وإذا عُطِّلْن فهنّ غير عواطلِ
وإذا أرينَ خدودهّن أرينَها ... حَدَقَ المهى وأخذنَ سَهْم القاتلِ
ورَمَيْنَنِي لا يَسْتَتِرْن بُجنّةٍ ... إلاّ الصِّبَا وعَرَفْن أين مقاتِلِي

وقال العباس بن طرخان :

تَقَسَّمْنَ قلباً كان مجتمعَ الشَّمْلِ ... وفرّقْنَهُ بين الْمَسَالِكِ والسُّبْلِ
زَرَعْنَ الهوى فى القلب ثم سقينه ... صَبابات ماء الشوق بالأعْيُنِ النّجْلِ
رَمَيْنَ فلما أن أصَبْنَ مقاتِلِي ... تولَّيْنَ وانْضَمَّت جِراحى على النّبْلِ

وقال البحترى :

لمّا مشيْنَ بذِي الأراك تَشابَهتْ ... أعطاف قُضْبَانٍ بِهِ وقُدُودِ[1]،
فى يمنتى حِبَرٍ ورَوْضٍ فالتقى ... وشيَان : وَشْيُ رُباً ووَشْيُ بُرُودِ
وسَفَرْنَ فامتلأتْ عيونٌ راقَها ... وردان : وَرْدُ جَنًى وورْدُ خدودِ
ومتَى يساعدنا الوصالُ ودهُرنا ... يومان : يوم منى ويوم صدودِ !

---

(1) ديوانه ٦٩٨.

وقال التهامى :

ماتَتْ لفقــــدِ الظّاعنين ديارُهُمْ ... فكأنهم كانوا لهــــا أرْوَاحا[1]

لا عيب فيهم غــير شحٍّ نسائهم ... ومِنَ السماحة أن يكنّ شحاحا

طرقته فى أترابِهـــــا فجلَتْ له ... وهناً من الغرر الصِّباح صباحا

وأنشد الأصمعى :

خُزاعيّه الأطرافُ مُرِّية الحشَى ... نِزَارية العينـــين طائيّة الْفَم

لها حُكم لقمانٍ وصورةُ يوسف ... ونَغْمَــةُ دَاوُدِ وعِفَّة مَرْيَم

وقال الأسعد بن نبيط :

غُلَامِيَّةٌ جاءت وقد جَعَــل الدُّجى ... لخاتمِ فيهـــا فصّ غانيةٍ خَطّا

فقلت : أحاجيها بما فى جفونهـــــا ... وما بالشفاه اللُّعس من حُسْنِها المعطَى

محبّرة العينين من غير سَكْرةٍ ... متى شربت ألحـاظ عينيك إسْفنْطا

أرى صُفْرَةَ المِسْوَاك من حُمْرة اللَّمى ... وشاربك المخضرّ بالمسْــك قد خُطّا

عَسَى قَدَحٌ قبَّلتِـــــه فإخاله ... على الشفة اللَّميـــاء قد جاء مُنْحَطّا

فتصور فى البيتين قبل هـذا أحسنَ مقابلة ، وتصوّر فى البيتين من آخر هذه القطعة ثلاث تشبيهات شبّهت بشىء واحد يتضمنها جميعاً !

وقال ابن شرف :

قامَتْ تجرُّ ذيولَ العَصْبِ والحبرِ ... ضعيفةَ الخطْوِ والميثــاق والنَّظَرِ

تخطُو فتولِى الحصا من حَلْيِها نُبَذاً ... وتخلِطُ العنـــبَرَ الوردىّ بالعفَرِ

تلَفَّتَتْ عن طلا وْسَنان وابتسمتْ ... عن واضحٍ مثلِ نَوْرِ الرّوضة العطِرِ

---

(1) ديوانه ١٠

مالذّ للعين نومٌ بعد ما ذكرتْ ليلاً سمرناه بين الضّال والسَّمُرِ
تساقَطَ الطلُّ من فوق النّحور بهِ تَساقُطَ الدُّرِ فى اللَّبّات والثّغرِ

وقال الرمادى :

شَطَّتْ نواهم بشمسٍ فى هوادجهم لولا تلألوها فى ليلهنّ عَشُوا
شكَتْ محاسنَها عينى وقد عذرتْ لأنها بضمير القلب تنخمِشُ
شَعْرٌ ووجْهٌ تبارى فى افتخارهما لحسن هذا وذاك الرُّومُ والْحَبَشُ
شككت فى سَقَمى منها، أفى فرشى إذا تأمّلت إلّا الطيفُ والفُرُشُ ؟

ولبعض أصحابنا :

سائِلْ سُقَاةَ الحىّ عن نجدّيةٍ وردَ الحجيجُ بها سقايةَ زَمْزَمِ
صفراء كالدّينا رغُلّ تَرِيبُها بالزّعفران وخَدّها بالعندمِ
لبستْ بُرودَ السابرىّ فأفضلت من ذيلها ولبستُ جلدَ الأرْقَمِ
ياليت شعرى وهى أنْسك ناسكٍ لمْ تستحّلُّ دمَ المحبِّ المُسْلِمِ !
نبّئت أنّ الظاعنين بها سَعْوا للأجر فانقلبوا بكُبْرِ المأثمِ
سفكوا دماء الرائحين إلى مِنًى بجفونها ونجْوا بسافكة الدمِ

وهذا القدر فى هذا الموضع كاف ، وقد تضمن هذا الديوان مقطعات بديعة فى أوصاف النساء .

[ما جاء فى الاستمناء]

قوله : لتجلد عميرة ، يقال لهذا الفعل الخضخضة والتدليك والاستمناء والاعتمار ، واعتمر الرجل : جمع يديه وضمّهما لذلك ، والإلطاف للنساء مثل الخضخضة للرّجال ، يقال منه : ألطفت المرأة، وقال القتيبى بيتاً ما سمعناه على وجه الدهر :

إذا مررتَ بوادٍ لا أنيس به فاضرب عُميرة لا عارٌ ولا حَرَجُ

آخر :

بيدى ورجلى لا عدِمْت كليهما أصبَحْت أغنى مَنْ يَرُوح ويغتدِى

أمشى على هـذِى وأنـكح هذهِ فمطيّتِى رِجْـلِى وجاريتى يدى

آخر :

تسألنى عن عَتـدى وعندى فإننى يا بنـة آل مرثدِ

* راحلتى رجلاى وامرأتى يدى *

وقال أعرابىّ :

إن تبخـلى بالمركب المحلوقِ فإن عنـدى راحَتِى وريقِى

ودَلْـكاتٍ لَسْن للتَّمزيق أشهى من التصبيح والتغبيقِ

وقال الخزامىّ :

خطبتُ إلى ساعدى راحتِى وما كنتُ من شرّ خُطَّابِها

وما إن تـكلَّفتُ من مَهْرِها سوى ريقةٍ أتجرّى بهـا

فإن شئتُ أوتَى بها ثيّباً وبكراً إذا شئت أوتَى بهـا

ونَزَّهت نفسِى عن الغانيات وعن ذِكْر سَلْمىَ وأترابها

وقال الحسن :

إذا أنتَ أنْـكَحْتَ الـكريمَة كُفؤها

فأنـكح حسيباً راحـة لابن ساعدِى

وقل بالرّفا ما نلت من وَصْل حرّة لهـا ساحة حُفت بخَمْسٍ ولائدِ

وقال ابن الرقعمق :

ومن بلائى أبو عميرٍ معرَّضٌ بى إلى المنونِ
منتصباً ما ينام وقتاً ولَيْس يهدا من الزَّنين
من يك ذا زوجة فإنى لشقوتى زوجتى يَمينى
عميرة قد جلدتُ حتى خشيت والله تجلدونِى
فراقبوا الله فى يمينِى وخلِّصوها وزوِّجونى

وقال آخر يشتكى غلظ يده :

لو أنها لَدْنَةٌ قضيتُ من وطرِى لكنه خَشِنٌ أربى على السَّفنِ
أشكو إلى الله نعظاً قد مُنِيت به وما ألاقى من الإملاق والحزَنِ

آخر :

ومغتابٍ إذا نبحَا يظنّ سواه قد جُرحَا
ومَنْ لم يدر لم يألم فعاد عليه ما اجْتَرحَا
كنا كح كفّه ينْوى فتاةً كانَ قَدْ لمحَا
وما نكح الفتى أحداً ولكنْ نَفْسَه نكحَا

فنكاحُ الكفّ هو جَلْد العميرة .

قال ابن أبى الأزهر : مررت على بَرذعة الموسوس ، وقد أدخل يدَه فى جَيْبه ، وهو يخضخض ، فضربتُه برجلى ، فانكشف ، فإذا هو منعظٌ ، فقلت : ما هذا ؟ فقال : أما ترى تلك ! وأشار بيده إلى جارية جميلة فى عِلِّيّة متطلعة ، فقال : إنى دعوتها إلى نفسى فلماً لم تجبْنى أجبتها ، فقلت : قبَّحك الله ! وولّيتُ عنه. فلم يلبث أن لحِق بى ، وَقال : قضيتُ الحاجة على رغم أنفك ، ثم أنشدنى :

أأنكَرْتَ ماعَايَنْتَ من كفِّ دالِك وهل يُنْكَرُ التدليك فى قول مالِك

لقد أمِنَ الدُّلاَّكُ من أن تنالهمْ   حُدود الزِّنا فى واضحاتِ المسالكِ
وإنِّى قد سكّنت عـزمة عملتى   بحسن عيون والثدىّ العواتك

كذب على مالك والشافعى ، وعامةُ العلماء يحرّمون الاستمناء ، وحجّتهم قولُهُ تعالى : ﴿والَّذينَ هُمْ لِفرُوجِهِمْ حَافِظُونَ* إلَّا على أزواجِهِمْ أو مَامَلَكَتْ أيمانُهم فإنَّهُمْ غيرُ مَلُومِينَ﴾ .

الفنجديهى : وقد جاء فى تحريم الخضْخضة حديث مشهور ، وسندُه إلى أنس بن مالك رضى الله عنه قال : « سبعة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ، ولا يزكّيهم ولا يجمعهم مع العالمين ، ويُدْخِلهم النار مع الداخلين ؛ إلا أن يتوبوا ، فمن تاب تاب الله عليه : الناكح يده ، والفاعل والمفعول به ، ومُدمِن الخمر ، والضّارب أبويْه حتى يستغيثا ، والمؤذِى جيرانَه حتى يلعنوه ، والناكح حليلةَ جارِه » . وإنّما رُويت الرخصة فى ذلك عن عمرو بن دينار .

وروى عن ابن عباس أنه سئل عن الخضْخضة فقال : نكاح الأمَة خيرٌ منها وهى خير من الزنا .

الأزهرى : أبو عمير ذَكَر الرجل .

الفنجديهى : سمعتُ الحافظ أبا العلاء يقول : الخضخضة على مذهب الإمام أحمد بن حنبل جائزة إن استولَتْ عليه الشّهوة حتى خاف على نفسه إتيان الفواحش .

أبو الفرج محمد بن أبى جعفر الطائىّ بهمَذَان ، قال : أنشدنا الإمام أبو المظفّر المعاوِى لنفسه ، وكان من أروع الفضلاء وأزهدهم :

خليلىّ لا بغـداد تدنُو فتنقضِى   همومى ولا الرىّ البغيضة تبعـدُ
فليس من الأنصاف والعدلْ أنكم   تنيكون ربّات الحجال ونجْـلدُ
وترْضونَ بالحرمان للفيْشة الّتى   على غضب باتت تقومُ وتقعـدُ

فلا تحسبو جِـلْدِى عُميرة وصمةً   علىّ فقد أفتى بهـا الشّيْخُ أحمدُ

ولو وسعتها راحــتى لاحتملتُها   فما حيلتى إذ ضاق ذرعاً بها اليدُ

وذكر بيتين آخرين .

قال : وأنشدنى إمام أهل اللغــة أبو المعالى إسماعيل بن الحسن البديع لبعضهم :

إنّمــا همّى كُسَيْرَهْ   نشفت ماء قُدَيرَهْ

وخميرةٌ فى ذُكَيرَه   بُلْغَتِى منها سُكَيْرَهْ

وغلام أو فتــاة   قد كِفى جلدَ عُمَيْرَهْ

مَنْ رأى عيشىَ هذا   عاش لا يؤثر غَيرَهْ

قال : وأنشدنى البديع أيضاً لبعضهم :

يا سيدى نحن فى زمان   أبدلَنا الله منـه غَيْرَهْ

فكل ذى خِسَّةٍ وذلٍّ   مَتّـع بالطّيبات أيرَهْ

وكل ذى فطنة وكَيْسٍ   يجـلِد فى بيته عُمَيْرَهْ

* * *

قوله : أشَبَّ قرنك : يُدْعَى بذلك للصبىّ أن يكبُر وتطول قامته ، كما تقول للصبىّ فى ضدّ ذلك: لا كبرّك الله . ويقال : شبَّ الصبىّ يشِبُّ بكسر الشين شَباباً بفتح الشين وكسرها ، إذا طال ونَمَا جسمهُ والصبىّ شاب ، وأشبَّ الله قرنه، أى جعله شاباً أسود الذؤابة ، والقرْن الضفيرة ، وهى الذؤابة وقيل: القرْن جانب الرأس . المَرَاح كالرَّواح . الخزيان : المُهان والمستحيي ، وخِزىَ يَخْزَى خِزْياً : أهين ، وخزايةً استحيا ، فهو خَزْيان أى مستحى ، وقوم خزايا .

وتُبتُ من مشاورة الصبيان ، قال عمر رضى الله عنه : خصلتان من علامة الجهل : مشاورة النِّساء والصبيان ، واستكتام السرّ النساء والصبيان .

* * *

قال الحارث بن همام: فقلتُ له : أُقسِم بِمَنْ أنبتَ الأَيْكَ ، أنَّ الجـدَل مِنْك وإليك ؛ فَأَغْرَبَ فى الضَّحِك ، وطَرِب طَرْبَةَ المُنْهَمِك ، ثم قال : الْعَقِ العسل ، ولا تَسَلْ ، فأخـذتُ أُسْهِبُ فى مدْح الأدب ، وأفضِّل ربَّه على ذِى النَّشَب ، وهو ينظر إلىَّ نظرَ المستهجِل ، ويغضى عنِّى إغْضاَء المتمهِّل . فلما أفرطتُ فى الْعَصَبِيَّة ، لِلعُصْبةِ الأَدَبيَّة ،قال لى: صَهْ ، واستمع منِّى وافقَهْ :

يَقُولُونَ إنَّ جَمَالَ الْفَتَى … وزينَتَـهُ أدبٌ رَاسِـخُ

وما إن يَزِينُ سوَى المـكثرين … ومَنْ طَوْدُ سُـوددِه شامِـخُ

وأمَّا الفقـيرُ فخـيرٌ لَهُ … من الأدب القُرْصُ والـكامِـخُ

وأىُّ جمالٍ أن يقال … أديبٌ يعـلِّمُ أو نَاسِـخُ !

ثم قال : سَيَضِحُ لك صدق لَهْجَتِى ، واستنارة حُجَّتِى .

* * *

الأيك : شجر . الجدَل منك وإليك ، أى إنّما كان هـذا الخصام بينك وبين نفسك، ولم يكن ثَمّ صبى تحاوره ، أى أن حديثَك مصنوع لا أصل له .

[بعض الحـكايات المصنوعة]

ومن مستعمَل الأخبار المصنوعة مايحكى أن حبيب بن أوس ، قال : لِقينَا أعرابىٌّ، وقد خرجتُ فى أيام الواثق إلى سرَّ مَنْ رأى ،فقلت له : ممنْ؟ قال : من بنى عامر ، قلت: كيف علمك بعسكر أمير المؤمنين؟ قال: قَتَل أرضاً عالمُها، قلت: ما تقول فى أمـير المؤمنين ؟ قال : وثِق بالله فـكفاه ، أشجى العاصية ، وقَمَع العادية ، وعدل فى الرعيَّة . قلت: فما تقول فى أحمد بن أبى دواد ؟ قال : هَضْبة

لا ترام ، وجبل لا يُضام ، تشحذله المُدَى ، وتُنْصَب له الحبائل ، حتى إذا قُيِّد وثب وثبةَ الذئب ، وَخَتل خَتْل الضَّب . قلت : فمحمد بن عبد الملك ؟ قال : وسعَ الدانىَ شرُّه ، ووصل البعيد ضُرُّه ، له فى كل يوم صريع ، لا يُرَى فيه أثر نابٍ ، ولا نَدَب مِخْلب ، قلت : فما تقول فى الفضْل بن مروان ؟ قال : ذلك الرجل نُشِرَ بعد ما قُبِر ، فعليه حياة الأحياء ، وخفْته الموتى . قلت : فابن الخصيب ؟ قال : أكلٌ أكلة نَهِمٍ ، وذرق ذرقة بَشِم ، قلت : فأخوه إبراهيم ؟ قال : أمواتٌ غير أحياء وما يشعرون أيان يُبْعثون ، قلت فأحْمَدُ بن إبراهيم ؟ قال : لله دَرُّه ! أىّ رجل هو ! اتَّخذ الصَّبر دثاراً ، والحق شعاراً ، وإن هوِّن عليه يهمّ ، قلت : فسليمان بن وهب ؟ قال : ذلك رجلُ السلطان ، وبهاء الدّيوان ، قلت : فأخوه الحسن ؟ قال : عُودٌ نضير ، غُرِسَ فى منابت الكرْم حتى إذا اهتزّ لهم حَصَدُوه ، قلت : فإبراهيم بن نجاح ؟ قال : ذلك رجلٌ أوثقه كرمُه ، وأسلمه حسبُه ، وله دعاء لا يُسلمه ، وربٌّ لا يخذله ، وخليفة لا يظلمه ، قلت : فنجاح ابن سلمة ؟ قال : لله درّه أىّ طالبِ وتْر ومدرك ثأر ! يلتهب كأنه شعلة نار ، له من الخليفة فى الأنام جلسة تزيل نعماً ، وتحلّ نقماً ، قلت : يا أعرابىّ أين منزلك ؟ قال : اللهمّ غفراً إذا اشتمل الظَّلام ، ألتحف الليل ، فحيثما أدركنى الرّقاد رقدت ، ولا أخلق وجهى بمسألتهم ؟ أما سمعت هذا الطائىّ يقول :

وما أبالى وخيرُ القوم أصدقُه ... حَقَنْتَ لى ماء وجهى أو حقنتَ دمى

فقلت له : أنا قائل هذا الشعر ، قال : أئنَّك لأنت الطائى ! قلت : نعم ، قال : لله أبوك ، أنت الذى تقول :

ماجودُ كفّك إنْ جادَتْ وإن بخلت ... من ماء وجهى إذا أخلقتَه عِوَضُ

قلت : نعم ، قال : أنت أشعر أهل زمانك .

ونُمِى خبره إلى ابن أبى داود فأوصله إلى الواثق ، فأعطاه ألف دينار ، وأخذ له من أهل الدولة ما غَنِىَ به عَقِبُه بعده .

وهذا الخبر خرج عن أبى تمـــام ، فإن كان صادقاً[1] وما أراده ، فقد أحسن الأعرابىّ الوصف،وإن كان صنعه فقد قَصَّر إذ منزلتُه أكبر من هذا .

* * *

قوله : أغرب ، أى أكثر الضحك حتى دمعتْ عيناه . المنهمك : المبالغ الطرب . العق العَسَل ولا تسَلْ ، معناه إن طابَ لك الكلام فاحفظْه ولا تسل عن صدقه ولا باطله ، كما إذا وجدب العسل حلواً فلا يلزمك السؤال عن نحله وقد قال فيما مضى :

* ولا تسأل الشَّهد عن نَحْـلِهِ *

فهذا هو ذلك . أسهِب : أبالغ وأكثر . ذى النَّشب : صاحب المـال . يغضى : يتغافل . المستجهل : الذى يحسَبُنى جاهلا . الممهل : المؤخّر ،وقد أمهله أى أخّره . صه : معناه اسكت. القُرْص : الخبز ، وتسمَّى الخبزة قرصة ؛ لأن الخابز يقرصُها من العجين ، أى يقطعها .

[الـكامخ]

والـكامخ : شىء يصنع من اللَّبن الحامض ، وهو أنواع .

وقد قُدِّم لأعرابىٍّ كامخ ، فقال : ما هـــذا ؟ قالوا : كامخ ، فقال : قد علمت فأيُّـكم كمخ به ؟ يقال : كمخ البعير إذا أخرج ثَلَطه رقيقاً .

وقُدِّم لأعرابيِّين كامخ ، فذاقَه أحدهما ، فلم يستطبْه ، فقال : هـذا خرء ، وذاقه الآخر فاستطابه ، فقال : يوشك أن يكون خرء الأمير !

وقدِّم لأعرابىّ كامخ فلم يستطبْه قال : ما هـــذا ؟ قالوا كامخ ، قال : ومن أىّ شىء صُنع هذا ؟ قالوا : من الِحنْطة واللَّبن قال : أبوان كريمان : وما أنجبا .

---

(١) الخبر فى أخبار أبى تمام للصولى ٨٩ ــ ٩٣

وقُدّم لأعرابى كامخ ، فلم يستطِبْـه ، وأكل منه شيئاً وخرج ، ودخل المسجد والإمام فى الصلاة يقرأ : ﴿ حُرِّمَتْ عليْكم الميتة والدّمُ ولَحْمُ الخِنزِير ﴾، فقال الأعرابىّ : والـكامخ لا تَنْسه أصلحك الله !

وقيل : هو طعامٌ يؤتَدَم به .

وقيل : هو البقل فى الطعام مثل الـكبر والزّيتون والمرىء والعنّاب إذا غلب طخاء الشحم على المِعدة ، أخذ الرَّجُل منه شيئاً ، فانجلى عن معدتِه ، وتنشَّط للأكل .

وقال أعرابى يصف إبطيه بالنَّتَن :

كأن إبْطىّ وقد طال الْمدَى　　　نفحة خُرْء من كَوامِيخ الْقُرَى[1]

الأصمعىّ : قدم علينا أبو طَيْبَـة الأعرابىّ بعد ما خرج إلى البادية ، وتفقّه ، فقلنا له : ما قولك فى البيْض ؟ قال : حرام ، فقلنا : ولم ؟ قال : لقوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الَّذِين هَادُوا حَرَّمْنا كلَّ ذِى ظُفُرٍ ﴾ والدجاج عندى من ذوى الأظفار . قلنا : فما قولك فى الـكامخ ؟ قال : حرام ، قلنا : ولم ؟ قال : لقوله تعالى : ﴿ خُلِقَ الإنْسَان منْ صَلْصَالٍ كَالْفُخَّار ﴾ ، والـكامخُ يتخّذ من الفخار ، فأظنُّ بينه وبين الجِلْد نسبا .

قوله : وافقه ، معناه افهم . راسخ : ثابت . المـكثرين : الأغنيـــاء . طَوْد سؤُدده : ارتفاع سيادته . والطَّوْد : الجبل . شامخ ، أى ثابت مرتفع . وقال النبى صلى الله عليه وسلم « يأتى على النَّاس زمان مَنْ لم يكن معه فيه أصفرُ وأبيض لم يتمنّ العيش » ـ يعنى الذهب والفضة .

وقال مهيار الديلمىّ :

تشرف بحظٍّ فإن الحظوظَ　　　حُلَى كلِّ ذى نسبٍ يفضُلُ[2]

---

(١) عيون الأخبار ٤ : ٦٣　　　(٢) ديوانه ٣ : ١٢٦

وما الحظّ فى أدبٍ مُفْصِحٍ وَمِنْ دونه نسبٌ مُجهلُ
تُرَاضِي الفتى رتبة وهو حيث يجعلُه ماله يُجْعَلُ

وقال ابن قاضى ميلة :

أسْعد بجدِّك لا تكونُ أديبا أو أن يرى فيك الورى تهذيبا
إن كنتَ مستوياً ففعلك كلُّه عِوجٌ، وإن أخطأت كنت مصيباَ
كالنَّقش ليس يصحُّ معنى خَتْمِه حتَّى يكون بناؤُه مقلوباَ

قوله : لَهْجتى ، أى منطقى ، وقيل : هى جَرْس الكلام ، وقيل : هى طَرَف اللسان ، وفلان فصيح اللَّهجة ، وهى لغته التى جُبِل عليها فاعتادها ونشأ عليها . استنارة : ظهرر نُورِها .

* * *

وسِرْنا لا نَألُو جُهْداً ، ولا نستفيق جَهْداً ؛ حتَّى أدَّانا السَّير ، إلى قريةٍ عَزَبَ عنها الخَيْرُ ، فدخلناها للارْتِيَاد ، وكِلاَنَا مُنْفِضٌ من الزّاد ؛ فما إنْ بَلَغْنَا المَحطّ ، والمناخَ المُخْتَطّ، أو لَقِينَا غلامٌ لم يبلغ الحِنْث وعلى عاتقه ضِغْث. فحيَّاه أبو زيدٍ تحيَّةَ المُسْلِم ، وسأله وَقْفَةَ المُفْهِم ، فقال : وعمَّ تسأل وفّقك الله ؟ قال : أيُبَاع هاهنا الرُّطَب بالخُطَب ؟ قال : لا والله . قال : ولا البَلَحُ بالمُلَح؟ قال : كلاَّ والله ، قال . ولا الثَّمر بالسَّمَر؟ قال : هيهات والله . قال : ولا العَصائد بالقصائد ؟ قال : اسْكُتْ عافاكَ الله . قال : ولا الثَّرائِدُ بالفرائد ؟ قال : أين يُذهبُ بِكَ أَرْشَدَكَ الله ! قال : ولا الدَّقيق بالمعنى الدَّقيق ؟ قال : عَدِّ عن هذا أصلحك الله !

* * *

نألو : نقصر . جهداً : طاقة واجتهاداً . نستفيق جُهْداً : نستريح من المشقة. أدَّانا : أوصلنا . والقرية : فى كلامهم: الموضع الذى يجتمع الناس فيه ، وقَرَيْتُ الماء فى الحوض جمعته فيه . وعَزُب : بَعُد . للارتياد : لطلب ما يُؤْكل . مُنْفِض : فارغ ، وأنْفَضَ : فَنِيَ زادُه فنفض مِزْوَدَه من الفُتات . المحطّ : المنزل الذى تُحَطّ فيه الأحمال . والمناخ : مثله فى المعنى . والمختطّ : المُعْلَم عليه بخطّ ، وكلُّ موضع أردتَ حمايتَه ومنعَه خَطَطْتَ عليه بخطّ ، فمن رآه علم أنه محمىٌّ فاجتنبه . الحِنْث : الإثم ، أى لم يبلغ حَدَّ التكليف ، وهو الحلم فيكتب عليه إثم . على عاتقه ضِغْث ، أى على عُنُقه حزمة حَشيش ، والعاتق : ما بين المنكِب والعنُق ، والضِّغْث قبضةٌ من أخلاط النبات أو من قُضْبان مختلفة . المُفْهِم : المخبر المبين . أيباع هاهنا الرُّطَبُ بالخُطَب ؟ الرُّطب والبلح نوعان من التَّمر . والسَّمَر : السهر باللَّيل على الحديث . هيهات ، أى بعد .

ابن عباسٍ رضى الله عنهما : ما باع الدقيق برٌّ ولا فاجرٌ إلَّا أصفرَّ لونُه وقسا قلبُه ، ونُزِعت الرَّحمةُ من قلبه .

الفرائد : جواهر الكلام . أين يذهب بك : أين تتلف وتضلُّ ! ولذلك دعا له ، فقال : أرشدك الله ، أى هداك الطريق . عَدّ : كُفَّ واصْرِف .

* * *

واسْتَحْلَى أبُو زيدٍ تَراجُعَ السُّؤالِ والجوَابِ ، والتَّكايُلَ مِنْ هذا الجِرَاب . ولَمَحَ الغلام أن الشَّوْطَ بَطِين ، والشَّيْخَ شُوَيْطِين ، فقال له : حسبُك يا شيخُ قد عَرَفْت فنَّك ، واسْتَبَنْتُ أَنَّك ، فخذ الجوابَ صُبْرَة ، واكْتَفِ به خُبْرَة ؛ أمَّا بهذا المكانِ فلا يُشْتَرى الشِّعْرُ بشَعيرة ، ولا النَّثر بنُثارَة ، ولا القَصَصُ بقُصاصة ، ولا الرِّسالة بغُسالة ، ولا حِكَمُ

لُقْمان بِلُقْمة ، ولا أَخْبَارُ الْمَلاحِمِ بِلَحْمة . وأما جيلُ هذا الزمان ، فما منهم من يَمِيح ، إذَا صِيغَ لَهُ الْمَدِيح ، ولا مَنْ يُجيز ، إذا أنشِد له الْأَرَاجيز ، ولا مَنْ يُغيث ، إذَا أَطْرَبَهُ الْحَدِيث ، ولا مَنْ يَمِير ، ولو أنَّه أمِير . وعنـدَهم أن مثلَ الأدِيب ، كالرَّبع الجديب ، إن لَمْ تَجِدِ الرَّبعَ دِيمة ، لم تكن له قِيمة ، ولادَانَتْه بَهِيمة . وكذلك الْأَدَب، إنْ لم يَعْضُدْه نَشَب، فَدَرْسُه نَصَب ، وخَزْنه حَصَب . ثم انْسَدَرَ يَعْدو ، وولَّى يَحْدُو .

* * *

لمح : نظر . الشَّوْط : الطلَق والجرْى إلى الغاية : الأخفش الشَّوْط أن تأتِيَ إلى موضعٍ تريده ، ثم ترجع وإن رجعت إليه مرَّةً أخرى ، فذلك شَوْطٌ آخر ، ومن الحجر إلى الحجر شَوْط : وجرَى الفرسُ شوطاً إذا بلغ مجراه ثم عاد . بَطِين : متَّسِـع ، ومعناه : علم أن كلام الشيخ كثير . ورجل بطين : عظيم البطن ، وكيس بطين ، أى ملآن ، وأخذه من قول كعب بن زهير :

وَزَحْزَحْنَ بين أدانى الغضى وبين عُنَيْزَةَ شـــوطاً بَطِينا

شُويطين ، أى دويهية لا تقاوم ، وتصـغيره بمعنى التعظيم . حسبك : يكفيك . فنّك : نوعك وطريقك . استبنت أنّك ، أى تحققت أنك داهية : صُبرَة : أى جملة بغير كيل ، وكُدْسُ القمح ، وما يكال يُسمَّى صُبْرَة . اكتف : اقتنع . خبرة : اختبار . النثر : ضد النظم مثل التراسل والخطب . والنُّثار : ماتناثر من الشىء ، أى تفتّت ، تقول : نثرت الشىء أى رميتُ به مُفْتَرَقاً ، واسم ما يتساقط منه النُّثارة . والقَصَص : أخبار المتقدمين . والقُصَاصة : ما تساقط من الشَّعرِ إذا قُصَّ . والغُسالة : الماء الذى قد غُسِل به بقيَّة الطعام أو غير ذلك

ويروى : « بفضالة » ، مكان غسالة ، والفُضَالة من الزرع إذا غُرْبِل تبقَّى فى الغربال فتدرَس بعد ذلك ، ويخرَج ما فيها من الزَّرْع .

وأنشد الْفَنْجَدِيهىّ فى هذه المعانى :

عرضت على الخبَّاز نحوَ المـبرَّدِ وكُتْباً حِساناً للخليل بن أحمـدِ
ورؤيا ابن سيرينٍ وخَطَّ مهلهلٍ وتجويد عمرٍو بَعْدَ فقـه محمَّدِ
وأنشدته شعر الكُمَيْتِ وجَرْوَلٍ وغنَّيْتُهُ لحنَ الْغَرِيضِ وَمَعْبَدِ
فما نفعتْنِى دون أن قلتُ هاكها مدوّرة صُفْراً تطنّ على اليـدِ

وقال أخبرنى أبو المحاسن بن أبى العلاء بن محمد الأديب ، قال : أنشدنيه لنفسه أبو يوسف بن محمد يعقوب الأديب .

[ذكر لقمان عليه السلام]

قوله : ولا حكم لقمان بلقمة ، فى لقمان سَبْعَةُ أقوال :

قال قتادة : خيَّره الله بين النبوّة والحِكْمة ، فاختار الحِكْمة ، فقذفها عليه جبريلُ ، وهو نائم ، فأصبح ينطِق بالحكمة ، فسئِل عن ذلك ، فقال : لو أرسل الله إلىّ النُّبوّة عزمةً ، لرجوتُ الفوز بها ، ولكنّه خَيَّرَنِى فخفت أنْ أضعُف عن النبوّة .

وقيل : كان من النُّوبة قصيراً أفطَس الأنف .

وقيل: كان حبشيًّا .

سعيد بن المسيّب : كان أسود من سُودان مصر ، ذا مِشْفَرٍ ، حكمتهُ حكمة الأنبياء .

وقيل : كان خياطًا .

وقيل : كان راعياً ؛ فرآه رجلٌ كان يعرِفه قبل ذلك ، فقال: ألستَ عبد بنى فلان كنت ترعى بالأمس ؟ قال : بلى ؟ قال : فما بلغ بك ما أرَى ، قال :

وما يُعْجِبك من أمرى ؟ قال : وطء النَّاس بساطَك ، وغشيُهم بابَك ؟ ورضاهم بقولك؛ قال: يابن أخى ، إن صنعتَ ماأقولُ لك كنتَ كذلك ، قال : وما تَصْنَع؟ قال غضّ بصرى ، وكفّ لسانِى ، وعفّة طعمى ، وحفظ فَرْجِى ، وقيامى بعَهْدِى ، ووفائى بوعْدِى ، وتكرِمة ضيفى ، وحفظ جارى ؛ وترك مالا يعنينى ؛ فذلك الَّذِى صَيَّرَنِى كما ترى .

ويروى أنه قال : قَدَر الله وأداء الأمانة وصدق الحديث وترك مالا يعنينى .

أنس رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الحكمة تزيد الشريف شرفاً ، وترفع المملوكَ حتى يجلسَ مجالس الملوك ، قال اللهُ تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الحِكْمَةَ﴾(١) .

وقال الإمام أبو إسحاق أحمد بن محمد إبراهيم الثعالبى المفسّر : اتفق العلماء على أنّ لقمان كان حكيماً ، ولم يكن نبيًّا ، إلا عكرمة فإنّه تفرّد بأنه نبىّ .

ابن عمر رضى الله عنهما : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : حقًّا أقول ، لم يكن لقمان نبيًّا ولكن كان عبداً صَمْصَامَة ، كثير التفكّر ، حسن اليقين ، أحبَّ الله فأحبَّه ، ومنَّ الله عليه بالحكمة » .

وهب بن منبّه : كان لقمانُ ابنَ أخت داود عليه السلام ، وقيل : ابن خالته ، وكان فى زمنه ، وكان داود يقول له : طوبى لك ! أُوتيتَ الحكمة ، وصرفتَ عنك البلوى ، وأُوتِىَ داودُ الخِلافة وبُلِىَ بالبليَّة . وكان داود يَغْشَاه ويقول : انظروا إلى رجلٍ أُوتِىَ الحكمة ، ووُقِىَ الفتنة .

عبد الوارث: أوتى لقمانُ الحكمة فى قائلةٍ قالها ، فقيل : وهل لك أن تكون خليفة فتعمل بالحقّ ؟ فقال : إن تخترلى فسمعاً وطاعة ، وإن تخيِّرنى أختار العافية. فقيل : وما عليك أن تكون خليفة فتعمل بالحق ؟ قال : فإنْ أعمل بالحقِّ

(١) سورة لقمان ١٢

فبالحرى أن أنجو، وإن أخطىء الحق أخطىء طريق الجنة، وإنه من يبع الآخرة بالدنيا يخسرْهما جميعاً، وأن أعيش حقيراً ذليلا أحبُّ إلىّ مِنْ أن أعيش قويًّا عزيزاً. فشكر الله تعالى مقالته، فغطّه فى الحكمة غطّة فأصبح وهو أحكم الناس

وقيل: كان عبداً نجّاراً فقال له سيّده: اذبح شاةً وأتنى بأطيب مُضْغَتَين، فأتاه بالقلب واللسان، ثم أمره بمثل ذلك، وأن يُخْرِج أخبثَ مُضْغتين، فأخرج القلب واللسان، فقال له: ما هذا؟ فقال: ليس شيء أطيبُ منهما إذا طابا، ولا أخبثُ منهما إذا خَبُثَا.

وأما حكمتُه فقد ذكر الله تعالى منها فى كتابه ما عُلم، وذكر مالك فى مُوَطَّئِه منها كلاماً كثيراً، وذكر منها فصلاً فى كتاب الجامع من الموطأ.

ومن حكمته: يا بنىّ إنَّ الناس قد تَطاول عليهم ما يوعدون، وهم إلى الآخرة سِرَاعاً يذهبون، وإنّك قد استدبرت الدنيا منذ كنت، واستقبلْتَ الآخرة، وإن داراً تسير إليها أقربُ من دارٍ تخرج منها. يابنىّ ليس غنًى كصحّة، ولا نعيمٌ كطيبِ نفسٍ. يا بُنىّ لا تجالس الفُجّار ولا تماشِهم؛ اتّق أن ينزل عليهم عذابٌ من السّماء فيصيبَك معهم، وجالس العلماء وزاحِمْهم بركبتَيْك، فإن الله تعالى يُحْيِي القلوب الميّتة بالعلم، كما يُحْيِي الأرضَ بوابل المطر.

أبو إسحاق الثعالبىّ بإسنادٍ له عن عكرمة، قال: كان لقمان مِنْ أهون مماليك سيِّده عليه، فبعثه مولاه مع عَبيدٍ له إلى بستانه يأتونه بشىء من ثمرٍ فجاءوه وما معهم شىء، وقد أكلوا الثمر، وأحالوا على لقمان، فقال لقمان لمولاه: ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً، فاسقنى وإياهم ماء حميماً. ثم أرسِلْنا لنعدو ففعل فجعلوا يتقيئون تلك الفاكِهة ولقمان يتقيَّأ ماء، فعرف مولاه صدقه وكذبهم.

قال: وأوّل ما عُرِف من حكمته أنه كان مع مولاه؛ فدخل مولاه المبرَّز فأطالَ فيه الجلوس، فناداه لقمان: إنَّ طولَ الجلوس مع الحاجةِ لَيجع منه

الكبد ، ويُورِث البَاسُور ، ويصعِّد الحرارة إلى الرأس ، فاجلس هوينًى ، قال : فخرج وكتب حكمتَه على باب الُحشِّ .

قال : وسكر مولاه يوماً فخاطر قوماً أن يشرب مَاءَ بُحيرة ، فلمَّا أفاق عرَف ما وقع فيه ، فدعا لقمان فقال له : لمثل هذا كنت اختبأتُك . فقال لمولاه : أخرج أباريقَك ثم اجمعهم ؛ فلما اجتمعوا قال : على أىِّ شىء خاطرتموه ؟ قالوا : على أن يشرب ماء هذه البُحيرة . قال : فإن لها موادّ فاحبسوا عنها موادّها ، قالوا : وكيف نستطيع ذلك ! قال لقمان : وكيف يستطيع هو أن يشربَها ولها موادّ !

وأراد مولاه بيعَه . فقال : يا مولاى إن لى عليك حقًّا فلا تبعْنى إلاّ مِمَّن أُحِبّ . قال: لك ذلك ، فكان الرَّجُل إذا جاء يستامه قال : لأىِّ شىء تريدنى ؟ فقال أحدهم : تحفظ علىّ بابى . قال : اشترِنى ، فلما جنَّه الليل أغلق الباب ، وقام يصلِّى فى الدهليز . وكان لبنات الرجل أخلاّء فجاءوا فضربوا الباب ، فقلن : يا لقمان ، افتح الباب ، فقال : بأبى أنتنّ وأمّى ! ليس لهذا اشترانى أبوكنّ ، فضربْنَه ضرباً كِدْنَ أن يأتين منه على نفسه ، فلما أصبح لم يخبر أباهنّ ، فلما كانت الليلة الثانية عاودْنه بمثل ذلك ، فلما أصبح لم يخبر أباهنّ ، فلما كانت الليلة الثالثة عاودْنه بمثل ذلك ، فلما أصبح لم يخبر أباهنّ ، فأقبل بعضهنّ على بعض فقلن : ما جعل الله هذا العبد الأسود أوْلَى بهذا الخير منا ، قال : فنسكْنَ نسكاً لم يكن فى بنى إسرائيل أفضلُ منهنّ .

عبد الله بن دينار ، قال : قَدِم لقمان من سفرٍ ، فاستقبله غلام له فى الطريق ، فقال له لقمان : ما فعل أبى ؟ قال : مات ، قال : الحمد لله ملكتُ أمرِى ، قال : مافعلتْ أمى ؟ قال : ماتت ، قال : الحمد لله ، ذهب همِّى . قال : مافعلت امرأتى ؟ قال : ماتت ، قال : الحمد لله جدِّد فراشى ، قال: ما فعلت ابنتى ؟ قال : ماتت ، قال : الحمد لله سُتِرَتْ عورتى ، قال : ما فعل ابنى ؟ قال : مات ، قال : إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون ، انقطع ظهرى !

وقيل له : ماأقبح وجهك ! قال : أتعيب على هذا النَّقْشِ أم على النقاش !
وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : « سادة السودان أربعة : لقمان والنجاشى وبلال ومِهْجع » .

وثَمّ لقمانُ آخر وهو لقمان بن عاد ، وهو تذكره العرب فى أخبارها ، وكان أيضاً حكيماً ، وكانت له أخت محمّقة فقالت لامرأته: هذه ليلة طهورى ، فهبى لى ليلتك ، طمعاً فى أن تعلق من أخيها ينجيب ، ففعلت فولدت لُقَيْم بن لقمان ، وفيه يقول النَّمِر بن تولب :

لُقَيْمُ بن لقمانَ من أُختِه   فكان ابنَ أختٍ له وابْنَمَا[1]

وقال المسيّب يذكره :

أنْتَ الرّئيس إذا همُ نزلُوا   وتواجَهوا كالأسد والنَّمِرِ
ولأنت أبيَن حين تنطق مِنْ   لقمانَ لمّا عيّ بالفكَرِ

وقالت بنت عثمان بن وثيمة ترثى أباها :

الْوَاهب المائةَ التِّلا   دَلَنا وَيَكْفِينا الْعَظِيمَهْ
والدّافع الخصم الألدّ   إذا تفوضح فى الخصومهْ
بلسان لقمان بن عا   د وفَصْلِ خطبته الحكيمه
ألجمتهم بعد التجا   ذُب والتَّدافع فى الحكومه

* * *

قوله الملاحم : مواضع الحروب التى تَلْتَحِم فيها الجموع ، وتختلط عند القتال وتسمَّى أخبار الوقائع والحروب ملاحِم . جيلُك : أهل عصرك . الأوان : الحين والعصر . يميح : يعطى معروفاً ؛ ويحتمل أن يريد يسقيك ماء ، والمائح : النازل فى قَعْر البئر ، يخرج ماءها ، وقد ماح الماءَ، إذا استقاه . صِيغ : صُنِع . يُجِيزُ : يُعْطِى الجائزة . يُغِيثُ : يتكرَّم ويجود ، وهو من الغيْث . يَمِير :

(١) اللسان (لقم) من غير نسبة .

يُعْطى الميرة . والمِيرة : الطعام المجلوب . والرَّبْع : المنزل . الجديب : الذى لا يمطر . ديمة : مَطَر دائم . دانته : قاربته . يعضده : يقوّيه . نَشَب : مال . نَصَب : تعب . حِزْبه : أهله . والحصَب : هو الحطب الملقَى فى النار ، وكلّ ما تطعمه النار فهو حَصَب ، وهو من حَصَبْتُه بالحصباء ، أى رميته بها . انْسَدَر : جرى وانصبّ فى جريه ، وانسدر البازى ، إذا انحطّ . يَعْدُو : يسرع . يحدو : يتابع الجرْى ، وكل شىء اتبعته فقد حَدَوْته .

* * *

فقال لى أبو زيد : أَعَلِمْتَ أنّ الأدب قَدْ بَارَ ، وولّتْ أَنصارُه الأدْبَار ؛ فبوّتُ له بِحُسْنِ البَصِيرة ، وسلّمتُ بحكْم الضَّرورة . فقال : دَعْنا الآن من المِصَاع ، وخُضْ فى حديث القِصَاع ، واعلم أنّ الأَسْجَاع ، لا تُشبِـعُ مَنْ جَاع ؛ فما التدبير فيما يُمْسِكُ الرَّمَق ، ويُطفِئُ الْحَرَق ؟ فقلت : الأمرُ إليك ، والزّمام بيديْك ، فقال : أَرَى أن ترهنَ سيفَك ، لتُشْبِـع جوفَك وضَيْفَك ، فناوِلْنيه وأقِمْ ، لأنقلب إليك بما تَلْتَقِم .

فأحسنت به الظّنّ ، وقلّدته السَّيْفَ والرَّهْن ، فما لبث أن ركب النّاقة ، ورفض الصِّدْقَ والصَّداقة ؛ فمكثتَ مليًّا أترَقَّبُهُ ، ثمّ نهضت أتعقّبُهُ ؛ فكنتُ كمن ضيّع اللّبنَ فى الصَّيْف ، ولم ألقَه ولا السَّيْف .

* * *

بَارَ : هَلَك ، ومنه بارَ الطَّعَامُ ؛ إذا كسد ، وفى الحديث : « نعوذ بالله من بَوْر الأَيّم » أى من كسادها . وقال الله تعالى : ﴿يَرْجُونَ تِجارةً لَنْ تَبُور﴾[1] أى لن

(١) سورة فاطر ٢٩

تكسد ، وقال تعالى : ﴿ وكُنتمْ قَوْماً بُوراً ﴾ أى هالكين . قال الفرّاء : البُور يكون للمذكر والمؤنث والاثنين والجمع بلفظ واحد . أبو عبيدة رحمه الله : هو جمع بائر كعائذ وعُوذ ، ويدلّ على صحة قول الفرّاء قول ابن الزِّبَعْرَى :

يا رسول المليك إنَّ لسانى   راتق مافتقتُ إذأنا بُورُ[1]

بؤت : رجعت . البصيرة : اليقين والاعتماد الصحيح . المِصاع : مراجعة الكلام . والمصاع فى الأصل : القتال والدِّفاع وكلّ ما عانيته بشدّة وجِدّ فقد ماصعته . القِصَاع فى الأصل: صحاف الطعام . الأسجاع : الكلام المقفّى . الرَّمَق : بقية النفس . والحُرَق : جمع حُرْقة ، وأراد بطفء الحُرَق تسكينَ ألم الجوع . ما لبث: ما أقام ولا استقرّ. رَفَضَ : تركَ . الصِّدق : قول الحقّ ، والصَّداقة : الصحبة . مكثت مليًّا : أقمت زماناً . أترقّبه : أنتظر مجيئَه . أتعقّبه : أمشى فى أثره وأطلبه .

[أصل المثل : الصَّيْف ضيّعتِ اللبن]

وضيَّع اللبن فى الصيف ، مثل يُضرب لكل مَنْ ضَيَّع أمره ، ثم تعرّض لاستدراكه بعد فوته ، قاله عمرو بن عُدَس التّميمىّ ، وكان تزوّج دَخْتَنُوس بنت لقيط بن زُرارة ـ وكان شيخاً مُسِنًّا ذا مال كثير ـ فأبغضتْه بسببِ كِبَره وسألتْه طلاقَها ، فطلّقها وتزوّجها عمير بن مَعْبد بن زرارة ـ وكان شابًّا معدِماً ـ فبينما هو معها جالس إذ مرّت بهما إبل عمرو بن عمرو بن عُدَس كالليل لكثرتها ، فقال لها عمير : ابعثى إلى عمرو يعطيك لبناً أو حلوبة ، فأرسلت إليه رسولاً بذلك ، فقال لرسولها قل لها : الصَّيْفَ ضيَّعتِ اللبن[2] ، فلما بلغها ذلك ضربَتْ على كتِف ابن عمها ، وقالت : هذا ومذقُه خير ، فيريد أنه طلّقها فى الصَّيْف فضاع لبنُها فى ذلك الوقت . وقال فى الدّرة : خصَّ الصَّيْف بالذّكر لأنها كانت سألتهْ الطّلاق فيه ، فكأنها يومئذ ضيَّعت اللبن . والله تعالى أعلم .

(١) طبقات الشعراء ٢٠٢

(٢) جمهرة الأمثال ١ : ٥٧٥

المقامة الرابعة والأربعون وتعرف بالشتوية

حَكَى الحارثُ بن همام قال : عَشَوْتُ في ليلةٍ داجيةِ الظُّلَم ، فاحِمَةِ اللِّمَ ، إلى نارٍ تُضْرَمُ على عَلَم ، وتُخْبِرُ عَنْ كَرَم ، وكانَتْ ليلةً جَوُّها مَقْرورٌ ، وجَيْبُها مَزْرُور ، ونَجْمُها مَغْمُومٌ ، وغَيْمُها مَرْكُوم ، وأنا فيها أَصْرَدُ مِنْ عَيْنِ الحِرْباء ، والعنزِ الجَرْباء ، فلم أزل أُنُصُّ عَنْسِي ، وأقول : طُوبَى لَكِ ولنفسي ، إلى أن تبصّر الموقِدُ آلِي ، وتبيَّنَ إرْقالِي ، فانْحَدَرَ يَعْدُو الجَمَزَى ، ويُنشِدُ مُرْتَجِزًا !

* * *

دَاجية وفاحمة : شديدة السّواد . واللِّمَ : جمع لِمّة ، وهي جُمّة الشعر التي ألَمّتْ بالمنكِب ، أى قاربته . وجعل لليلة لِمَّة مجازاً ، وهو يريد شدّة سوادِها . تُضْرَم : تُوقد . علَم : جبَل . جَوُّها : ناحية سمائها . مَقْرُور : بارد ، وأراد أنّ ما يجيء من جوّها من الريح والهواء بارد جدًّا . مَزرُور : مشدود بالأزْرَار ، وهي أطواق الثّياب ، وهذا يكون في طَوْق الصّغير يُشَقّ في صَدْر الثّوب عِوَضاً عن الجَيْب ، ويُترك من الطّوق طرفان على ذلك الشّق ، فإذا لبس الثوب شدّ الطرفين ، فيقال عند ذلك : قد زرّرتُ الثوب ، يريد أن السحاب قد تكاثف في تلك الليلة ، فلا تبصر العين فيها لشدّة ظلامها ، لأن الثوب إذا شدَدْتَ أزراره ، لم يجد رأسُ الإنسان من أين يَخْرج ، فلمّا جعل لليلته ثوباً من الظّلام والسحاب جَعله مربوطاً مشدوداً مغموماً مستوراً . غيمها : سحابها . مركوم ، أى متراكِب بعضُه على بعض . أنصُّ عَنْسي ، أى أُجْهِد ناقتى وأتعِبُها ، والنّصّ رفْع السير ، وقالت أم سلَمة لعائشة رضى الله عنهما : ما كنتِ قائلةً لو أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم عارَضك ببعضِ الفلوات ناصّةً قَلُوصاً من منهل إلى آخَر ، ومنه نصّ الحديثَ إلى فلان ، أى رفعه إلى شخص . وإرقالى : مُسْرِعتى . يعدو : يُسْرِع . الجمزَى : عدوٌ شديد .

* * *

حُيِّيتَ من خَابط ليل سَارِى هَـدَاه بل أهْداهُ ضوءُ النّارِ

إلى رحيبِ الْبَاعِ رَحْبِ الدارِ مُرَحِّبٍ بالطّـارِقِ المُمْتَارِ

تَرْحابَ جَعْد الكفّ بالدِّينارِ ليس بمزورٍّ عَنِ الزُّوارِ

ولا بِمُعْتَامِ القِرى مِئْخَارِ إذا اقْشَعَرّتْ تُرَبُ الأقطارِ

وضنّتِ الأنْواءُ بالأمطارِ فهو على بُؤْس الزّمانِ الضارِى

جَمُّ الرَّمادِ مُرْهَفُ الشِّفَارِ لم يَخْلُ فى ليـلٍ ولا نَهَارِ

* من نَحْرِ وَارٍ واقْتِداحِ وَارِى *

* * *

قوله : سارِى ، أى آتٍ بالليـل . والخابِط : الماشى على غير عِلْم بالطريق . هداه ، من الهداية . وأهـداه ، من الهدّية . رحيب الباع : كثير البِرّ . واسع العطاء: واسع البرّ. والرَّحب : المتسع . مَرْحَب ؛ يقول: مرحباً بك. والطّارق : الآتِي بالليل. الممتار : طالب المِيرة ، وهى الطعام يُجْلَب من بلد إلى بلدٍ . جَعْد الكفّ ، هو البخيل أى يرحِّب بالضيف كما يرحِّب البخيل بالدّينار إذا وقع فى كفّه .

نظر أعرابىٌّ إلى درهم فى يد رجل ، وأدام النّظَرَ إليه ، فقال له الرجل : لو كان لك ما كنت صانعاً ؟ قال : كنت أنظر إليه نظرة ثم تكون آخر عهده باليد .

وكان بعضُ البخلاء إذا وقع الدرهم فى يده يخاطبه ويقول له : أنت عَقْلى ودينى وصلاتى وصيامى وجامع شملى وقرّة عينى وأنسى ، وقوّتى وعُدَّتى وعمادى ثم يقول له :

أهلاً وسَهلاً بك من زائرٍ كنتُ إلى وجهك مشتاقا

ثم يقول : يا نورَ عينى وحبيبَ قلبى ، قد صرتَ إلى من يصونك، ويعرف قدرَك ، ويُعظِّمُ حقَّك ، ويرعى قيمتَك ، ويشفق عليك ، وكيف لا تكون كذلك وأنت تعظِّمُ الأقدار وتعمرُ الدّيار ، وتُفتَضُّ بك الأبكار ، وتسمو على الأشراف ، وترفع الذكر ، وتُعْلِى الْقَدْر ، وتؤنس من الوحشة ، ثم يطرحه فى الكِيس ، ويقول :

بنفسىَ محجوبٌ عن العين شخصُه ومَنْ ليس يخلُو من لسانى ولا قلبى
ومَنْ ذكرهُ حظىٌّ من الناس كلهمُ وأوّلُ حظِّى منه فى البعد والقربِ

مُزْوَرّ : منقبض . معتام : مؤخّر مبطىء . والقِرى : طعام الضيف ، معناه أنه لا يؤخِّر طعامَه ، ويقال : أعْتَمَ بإبله إذا أخّر حَلْبهاَ ، ومنه الْعَتَمة لتأخّر وقتها . مئخار : كثير التأخّر . اقشعرّت : انقبضت من شدَّة البرد . تُرَب : جمع تُرْبة وهى وجه الأرض . والأقطار : البلاد والنّواحى . ضَنَّت الأنواء : بخلت النّجوم ، وكانُوا يستمطرون بها . بؤس : شدّة . الضَّارِى : المعتاد ، أى الّذى عادته ألَّا يكون فيه غير بُؤس . جمّ : كثير ، وإذا كثر الرماد كان عن كثرة النار ، وكثرة مايُطْبخَ عليها . مُرْهَف : قاطع . اقتداح : ضرب بالزّند . وارٍ : بعير سمين ، ووَرِىَ المخّ : اكتنز فهو وارٍ ، ووِرىَ الزّند فهو وارٍ ، أى مبدٍ للنار .

* * *

ثمَّ تلقَّانى بمحيًّا حَيٍّ ، وصافَحَنى براحةِ أَرْيحىّ ، واقتادنى إلى بيتٍ عِشارُه تَخُورُ، وأَعْشارُهُ تفُور، وولائدهُ تَمُور، ومَوائدهُ تدُور، وبأكسارِهِ أضيافٌ قد جَلَبهم جَالِبى، وقُلِّبوا فِي قَالَبِى، وهم يجْتَنُون فاكهةَ الشِّتَاء، ويَمْرَحُون مَرحَ ذِي الْفَتَاء، فأخذتُ مأخذهم فى الاصْطِلاء، ووجدت بهم وجْدَ الثَّمِلِ بالطِّلاءِ .

* * *

مُحَيًّا : وجه . صافحنى : واجهنى وقابلنى . براحة : بكفّ . أريحىّ : كريم يهتزّ للكرم . اقتادنى : ساقنى . ولائده : خَدَمُه . تَمُور : تسير وتختلف . بالطعام موائده : جمع مائدة .

أبو عبيد: سُمِّيَتْ مائدة لأنها ميدَ بها صاحبُها ، أى أُعْطِيَها وتُفُضِّل عليه بها ، والعرب تقول : مادنى فلان يميدنى ، إذا أحسن إلىّ ، فكأن المائدة تميد من حواليها مما أُحْضِر عليها ، قال رؤبة :

* إلى أمير المؤمنين المتادْ *(١)

أى المستعطى غيرَه، سمّيت مائدة لأنها تميد بها عليها ، أى تتحرّك ، وماد الغصنُ يميد : مال ، قال الله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا الأرض رواسىَ أَنْ تَمِيد﴾ . الجَرْمى يقال : مائدة ومَيْدة وأنشد :

وَمَيْـدَةٍ كثيرة الألوانِ تُصْنَع للإخوان والجيرانِ

وذكر القولين أبو محمد فى درة الغوّاص(٢) وزاد أنه لا يقال لها مائدة إلا أن يُحْضَر عليها طعام ، وإلاّ فهى خِوان ، واستدلّ بأن الحواريّين لمّا اقترحوا

---

(١) ديوانه ٤٠
(٢) درة الغواص ١٠

على عيسى عليه السلام أن يُنْزِل عليهم مائدة ، قالوا نُرِيد أن نأكُلَ منها .

قال : وحكى الأصمعىّ قال : غدوت ذات يوم إلى زيارة صديق لى ، فلقيَنى أبو عمرو بن العــلاء فقال لى : إلى أين يا أصمعى ؟ فقلت : إلى صديق لى ، فقال : إن كان لفائدة أو لِعائدة أو لمائدة ، وإلاّ فلا ، وهذا باب يتّسع كثيراً ، وسأسوق جملة تأتى على أكثره .

[فصل فيما قيل فى الكرم وإيقاد النار للضيف]

وهذه الحالة التى وصف من إيقاد النار هى التى كان يفعل حاتم . وكان إذا اشتدّ البرد وكَلِبَ الشتاء أمر غلامه ، فأوقد ناراً فى يفاعٍ من الأرض ، لينظر إليها مَنْ أضلّ الطريق ليلاً فيهتدى إليها ، وقال فى ذلك :

أوقِدْ فإنّ الليــل ليلٌ قَرُّ ... والريحُ يا موقِدُ ريحٌ صِرُّ[1]
عـلّ يَرَى نارَكَ مَنْ يمُرُّ ... إن جلبت ضيفاً فأنتَ حُرُّ

ولابن هَرمَة فى هذا أشعار مُسْتَحْسَنة منها :

أغشى الطريق بقبّتى ورواقِها ... وأحُــلُّ فى قُلَلِ الرُّبَا وأُقِيمُ[2]
إنّ امرأ جعَــلَ الطّريق لبيته ... طُنُباً وأنكر حقَّـــه للئيمُ

وقال مهيار :

ضَرَبُوا بمدْرَجَةِ الطَّرِيق قبابَهُمْ ... يتَقَارَعُونَ على قِرى الضِّيفان[3]
ويكاد مُوقـــدها يجُود بنفسه ... ـ حُبّ القِرَى ـ حَطَباً على النِّيران

(١) ديوانه ٦٠

(٢) ديوانه ١٩٤

(٣) ديوانه ٢ : ٥١

ولابن هرْمة أيضاً :

ومستنبحٍ تستكشط الرِّيح ثوبَهُ ليسقط عنه وهو بالرَّمْلِ مُعْصِمُ(١)
عوَى فى سواد اللّيل بعد اعْتسافه لِيَنْبحَ كلبٌ أو ليفزَعَ نُوَّمُ
فجاوبه مُسْتَسْمِعُ الصَّوْت لِلقرى له عند إتيان الملبّين مَطْعَمُ
يكاد إذا ما أبصر الضَّيفَ مقبلاً يكلِّمُهُ من حُبِّه وهوَ أَعْجَمُ

وقال بعض المحدثين :

ويدلّ ضيفى فى الظَّلَامِ على القِرَى إشراقُ نارى أو نُباح كلابى
حتى إذا واجهنَه ولقينَه حيَّيْنَهُ ببصائص الأذناب
وتكادُ من عِرْفان ما عُوِّدنَه من ذاك أن يُفصِحْن بالتَّرْحابِ

ولابن هرْمة فى ذلك أيضاً :

كيف احتيالى لبسْط الضَّيف من حَصَرٍ
عند الطعام فقد ضاقت به حِيَلِى(٢)
أخاف ترداد قولىَ : « كلْ » فأقطعهُ
والسَّكتُ ينزله منِّى على البَخَلِ

وقال حاتم :

سَلِى الطَّارقَ المعتارَ يا أمَّ مالكٍ إذا ما اعترانى بين قِدْرِى ومَجْزَرِى(٣)
أيُسْفِر وجهى إنه أوّل القِرى وأبذلُ معروفى له دون مُنْكَرِى

---

(١) ديوانه ٤٩
(٢) ديوانه ١٨٢
(٣) الشعر لعروة بن الورد ، ديوانه ٩٩

وقال أيضاً :

أما والَّذِي لا يعرفُ السرَّ غيرُه ... ويحيي العظام البيضَ وهي رَمِيمُ[1]

لقد كنت أختار القِرَى طاوِي الحشى ... محافظـــة من أن يقال لئيمُ

وإنِّي لأســـتحيي يميني وبينَها ... وبين فمِي داجي الظلام بهيمُ

وقال أيضاً :

أكُفُّ يَدِي من أن تنالَ أكُفُّهم ... أكفُّ صِحَابي حين حاجاتُنا مَعَا[2]

أبيتُ هضيمَ الكشحِ مضطرمَ الحشَى ... من الجوع أخْشَى الذمّ أن أتضلَّعَا

وإني لأســتحيي رفيقيَ أن يَرَى ... مكان يَدِي من جانب الزَّادِ أقْرَعَا

وإنّكَ إن أعطيتَ بَطْنَكَ ســؤله ... وفَرْجَكَ نالاَ مُنْتَهَى الذم أجْمَعَا

وقال أبو زياد الأعرابى :

له نارٌ تُشَبُّ على يفاعٍ ... إذا النيران أُلْبِسَتِ القِنَاعَا

فلم يكُ أكثرَ الفتيانِ مالا ... ولـكنْ كانَ أرحبَهم ذِرَاعَا

وقال آخر :

لَعَلَّ عاراً إذا ضـــيفٌ تأوَّبنى

ما كان عندى إذا أعطيت مجهودِى

جُهْدَ المُقِــلّ إذا أعطــاك نائله ... ومكثرٌ فى الغِنَى سِيَّان فى الجود

وقال آخر :

تركت ضأنى تودّ الذئب راعيَها ... وأنهـــا لا ترانى آخرَ الأبدِ

---

(١) ديوانه ٨٧

(٢) ديوانه ٦٩

الذئب يطرُقُها فى الدهر واحدة وكلّ يوم ترانى مدية بيدى

وقال آخر :

وسِّع بمدّك ماء اللحم تقسِمُه وأكثر الشَّوب إن لم يكثر اللّبَنُ
وسِّع به وتلفَّتْ نحو حاضِرِه إنَّ الكريم الَّذِى لم يخله الفطنُ

وقال الغنوى :

لِحافِى لحافُ الضَّيْفِ والبيتُ بيتهُ ولم يلهِنى عنه غزالٌ مُقنَّعُ
أحدِّثه إن الحديث من القِرَى وتكلأ عينى عينَه حينَ يهْجَعُ

وقال آخر :

وإنّا لمشَّاءون بين رحالِنا إلى الضيف منّا لاحفٌ ومُنيمُ(١)
فذو الحلم منّا جاهل دون ضَيْفِه وذو الجهل منّا عن أذاه حليمُ

وقال آخر :

سأقدح من قِدْرِى نصيباً لجارتى وإن كان مافيها كِفافاً على أهلِى
إذا أنت لم تُشرِك رفيقَك فى الذى يكون قليلا لم تشارِكْه فى الفضْلِ

ولبعضِ أصحابنا :

وسارٍ تحلّى أنجمَ اللَّيْلِ زِينَةً ويلبس من ظلمائها ثوْبَ ثاكِل
رَفَعتُ له نارى فآنس ضَوْءَهَا كما آنس الظمآن بَرْدُ المناهلِ
أتانا فحيَّانا فكان جوابُه صليلَ شِفار السَّيْفِ فى ساقَ بَازِلِ
وما أنا من سؤاله ممّن الفتى وتلك سحابا كلّ أطلس بالى
فذاك الذى أودى بما اكتسبت يدى وإن عادَ وفرى عُدْتُ غير مواكِل

(١) ديوانه الحماسة ١٥٧٧

[ما قيل فى البخل]

وقال آخر فى ضد ماقلناه :

أرانى من بنى حكَم ٍ غريباً على قترٍ أزُور ولا أُزَارُ
أناسٌ يأكلون اللّحم دونِى ويأتينى المعــاذِرُ والقتَارُ

القتر والقطر : الجانب .

وقال آخر :

مات فى عُرْسِ سُلَيْما نَ من الْجُوع جَمَاعَهْ
مات أقوامٌ وقومٌ حملوا فيــه القناعَهْ
لم يكن يوجد فيه الخبز إلَّا بشفاعَــــهْ

آخر :

وما تُنْسِنِى الأيام لا أنسَ جوعنا بدار بنى بَدْرٍ وطولَ التَّلَدُّدِ
ظللنا كأنا بينهم أهلُ مأتمٍ على ميِّت مستودع بطنَ مَلْحَدِ
يحدّث بعضٌ بعضَنا عن مصابه ويأمر بعضٌ بعضَنــا بالتجلُّدِ

وفى هذا طرف من قول الآخر :

إذا ما عراكُمْ حادثٌ فتحدَّثوا فإنّ حديثَ القوم يُنْسِى الْمَصَائبِاَ

وأهل الُحزْن يستعملون الحديث اشتغالًا عن المصيبة .

وقال بشار :

أبناء عمرٍو لنى خفضٍ وفى دعةٍ وفى عطاءٍ لعمرى غَــيْرِ مَمْنُوعِ
وضيف عمرو وعمرو ساهرانِ معاً عمرو لبطنتــه والضيفُ لِلْجُوع

آخر :

ما كنت أحسِب أن الخبزَ فاكهة حتى نزلتُ على قومٍ بميْسَانِ

قوم إذا حلَّ ضيفٌ بين أظهرِهم لم يُنْزِلُوه ودلُّوه على الخانِ

آخر :

والناس فى فِطْرٍ سوى شهرهمْ ودهر أضيافك شهر الصيام

آخر :

كتبت له صيفا فظنّ بأننى كتبت له ضيفا فقام إلى السيف
فقلتُ خـــيراً فَظَنَّ بأنَّنى ذكرتُ له خبزاً فمات من الخوف

وإن ابنَ هَرْمة ألأمُ الناس مع ادِّعائه فى شــعره الـكرم ، قال رجل : أتيناه فى جماعة من قريش أحببنا أن يتنزه عندنا ، ومشينا بزادٍ كثير ، فخرج علينا ، وقال : ما جاء بكم ؟ قلنا : شعرك حيث قلت : إن امرأ جعل الطريق لبيته ... ، وقولك أيضاً :

وإذا تنوّر راكبا مستنبحٌ نَبحَتْ فدلَّته علىّ كلابى[1]
وعوَيْن يستعجلنَه فلقينـــه يَضْرِبْنَهُ بشَراسِفِ الأذناب[2]

وسمعناك تقول :

كم ناقةٍ قد وجأتُ منْحَرها بمستهلّ الشؤبوب أو جَمَلِ[2]
لا أُمْتِــع الْعُوذَ بالفصال ولا أبتاعُ إلّا قريبــةَ الأَجلِ

فنظر إلينــا وقال : ما علَى وجه الأرض عصبةٌ أسخفُ عقولاً منـكم ، أما سمعتم قول الله عز وجل : ﴿ وأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ فى الشعراء ، والله إنى لأقول ما لا أفعل ، وأنتم تريدون أنْ أفعل ما أقول ، والله لا أُغضِب ربِّى فى رضاكم . فضحكنا منه وأَخرجناه معنا يتنزَّه حتى فَنِيَ الزّاد .

---

(١) ديوانه ٧٣

(٢) فى الديوان : « وفرحْن إذ أبصرنه فلقينه »

أتى الحطيئةَ رجلٌ وهو فى غنمه ، وقال : يا صاحبَ الغنم ، سلام عليك ، فرفع الحُطيئة العصا ، وقال : إنها عَجْرَاء من سَلَمٍ ، فقال الرجل : إنِّى ضيف ، فقال : للضيفان أعددتُها ، فأعاد السّلام ، فقال : إن شئتَ قمتُ بها إليك .

ومرّ به ابن حمامة وهو جالس بفناء بيته ، فقال : السَّلام عليكم ، فقال : قد قلتَ مالا ينكَر .

وقال : خرجت من أهلى بغير زاد ، قال : ماضمِنْتُ لأهلك قراكَ ، قال : أفتأذن لى أن آتىَ ظلّ بيتك ؟ قال : دونك الجبل يفىء عليك ، قال : أنا ابن حمامة ، قال : انصرف وكن ابن أىّ طائرٍ شئت . يروى هذا عن أبى الأسود الدؤلى .

ونزل الغضبانُ بن القَبَعثْرى خارج كِرْمان وهى قرية كثيرة الرّمضاء ، فضرب قبّته ، فورد عليه أعرابىّ من بكر ، فقال : السَّلاَم عليك ، قال : السَّلام عليك كثير ، وهى كلمة مقولة ، قال الأعرابىّ : ما اسمك ؟ قال : آخذ ، قال أو تعطى ؟ قال : ما أحبّ أن يكون لى اسمان ، قال : ومِنْ أين جئت ؟ قال : من الذَّلول ، قال : وأين تريد ؟ قال : أرضنا أمشى فى مناكبها ، قال : ومن عُرِض اليوم ؟ قال آل فرعون على النّار ، قال : فمن بُشِّر ؟ قال : الصّابرُون، قال : فمن غَلَب؟ قال: حزبُ الله قال : أفتقرِض؟ قل : إنّما تقرض الفأرة ، قال : أفتُسْمِع قال : إنّما تُسْمِع القينة ، قال: أتُنشد؟ قال : إنما تُنْشَد الضالة ، قال : أفتقول؟ قال : إنما يقول الأمير ، قال : أفتسجَع ؟ قال : إنما تسجع الحمامة ، قال : أفتنطق ؟ قال : كتاب الله ينطِق ، قال : إنك لمنكَر ، قال : إنى لمعروف ، قال : ذلك أريد ، قال : وما إرادتك ؟ قال : الدُّخُول عليك ، قال : وراءك أوسع ، قال : قد أضرّتْنى الشّمس ، قال : الساعة يأتيك الفىء ، قال : الرّمْضاَء أحرقت قدمىّ ، قال : بُلْ عليهما تبردَا ، قال : قد أوجعنى الحرّ ، قال : ليس لى

عليه سلطان ، قال : إني لا أريد طعامك ولا شرابك ، قال : أتعرِّض بهما ؟ والله لاتذوقهما عندى ، قال : سبحان الله ! قال : قبل كَوْنِك، قال : ما أرى عندك ؟ قال : هراوة أرزن ، أدقّ بها رأسك . فتركه وانصرف .

الأصمعىّ: عَذَلتْ أعرابية أباها فى إتلاف ماله ، فقالت : يا أبتِ ، حبْس المال أنفع للعيال من بَذْل الوجه للسؤال ، وقد أتلفت التلاد ، وبقيت ترقب ما بأيدى العباد ، ومن لم يحفظْ ما ينفعه يُوشك أن يقع فيما يضرُّه ، أخذه ابن المعتز فقال:

يا ربَّ جودٍ جَرّ فقر امرئٍ ... فقـام للنّاس مقَامَ الذّليـل[1]

فاشْـدُدْ عُرَا مالك واستبْقِه ... فالبخل خيرٌ من سؤال البخيلِ

وقال بعض البخلاء :

أَعْـدَدْتُ للأضياف كلباً ضارياً ... عندى وفضل هراوة من أرْزَنِ

ومَعَاذِراً كذباً ووجْهاً باسرا ... وتشكّيا عضَّ الزمان الألزنِ

الألزن : المضيق .

محمد بن الجهم : ودِدْتُ أنّ عشرةً من الفقهاء ، وعشرة من الشعراء ، وعشرة من الخطباء ، وعشرة من الأدباء ، تواطَئُوا على ذمىّ حتى ينتشر ذلك عنهم فى الآفاق ، فلا يمتدّ إلىّ أمل آمل ، ولا ينبَسِطُ نحوِى رجاء لراجٍ .

وكان يقول : مَنْ وَهَب فى عمله فهو مخدوع ، ومن وَهَبَ بعد العزل فهو أحمق ، ومَنْ وهب فى جوائز سلطانه ، أو عمل لم يتعبْ فيه فهو مخذول ، ومَنْ وهب من كسبه وما استفاد بحيلته فهو المطبوع على قلبه ، المختوم على سمعِه وبصرِه .

وقال : مَنْع الجميع ، أرْضَى للجميع . وهذا كقول الأصمعى ! لو قسمت فى

(١) ديوانه ...

النّاس ألف ألف لـكان أكثرَ للأئمى من لو أخذتهـا منهم ، قالوا : ولم يُرِد البخل ؛ ولـكن إذا تعذّر عليه أن يعمَّ فلا يخصّ .

وقال آخر : قول « لا » يدفع البلاء وقول « نعم » يزيل النِّعم .

دعبل كنّا يوماً عند سهل بن هارون وأطلنا الحديث حتى أضرَّ به الجوع ، فدعا بغدائه ، فإذا بصحفة فيها مَرَقٌ ولحم ديك ، قد هَرِم ، لا تحزّ فيه سكين ، ولا يؤثّر فيه ضِرْس ، فأخذ قطعة من خبز فقلع بها جميع المرق ، وفقد الرأس ، فبقى مطرقاً ساعة ثم رفع رأسَه إلى الغلام وقال : أين الرأس ؟ قال : رميتُ به ، قال : ولم ؟ قال : لم أظنك تأكله ، قال : ولم ظَنَنْتَ ذلك ؟ فوالله إنّى لأمقت مَنْ يرمى برجله فضلاً عن رأسه ، والرأس رئيس الأعضاء وفيه الحواس الخمس ، ومنه يصيح الديك ، وفيه عيناه اللتان يُضرب بهما المثل فى الصفاء ، فيقال : شراب مثل عين الديك ، ودماغه عجيب لوجع الـكلْية ، فإن كانَ بلَغ من جهلك أنى لا آكله ، فإنَّ عنـدنا مَنْ يأكله ، انظر أين هو ؟ قال : والله لا أدرى أين رميتُ به ، قال : لـكنى والله أدرى ، رميتَ به فى بطنك .

ولسهل هذا رسالة مدح فيهـا البخل وفضَّله على السخاء ، ليرى فى ذلك بلاغته ، وأهداها إلى الحسن بن سهل فى وزارته للمأمون فوقّع عليها : لقد مدحتَ ما ذمّه الله ، وحسَّنت ما قبّح ، وما يقوم صلاح لفظك بفساد معناكَ ، وقد جعلنا ثوابك عليها قبول ما فضلت فيها ، ونتأدّب فيها بأدبك . ولم يعطه شيئاً .

وقيل : إنَّ الذى أُهْدِى إليه كتابٌ ألّفه ، مدَح فيه البخل ، وذمَّ الجود فوقّع عليه بما تقدم . قال دعبل :

صدِّق أليتّه إنْ قال مجتهداً ⠀⠀ لا والرغيفِ فذاكَ البرُّ من قَسَمِهْ[1]

فإنْ همتَ به فافتِكْ بخُبزته ⠀⠀ فإن موقعَهاَ من لحمِـه ودمِهْ

(١) ديوانه ١٨٨ ، العقد ٦ : ١٩٠ ، نهاية الأرب ٣ : ٣٠٩ ، عيون الأخبار ٣ : [illegible]

قد كان يعجبنى لو أن غيرته ... على جُرادقه(1) كانت على حُرَمِهْ

أبو نواس فى البؤبؤ الزنديق :

لقيت فى آل زياد فتًى ... يلقب البؤبؤ حُلْوٌ ظريفْ

ينزل للضيف بنيّاته ... صيانة منه لعِرض الرغيفْ

وإن فى النَّيْك لمستمتعاً ... عند اعتياضِ الخبز للمستضيفْ

آخر :

أما الرغيف لدى الخوا ... ن فمن حمامات الحرَمْ

ما إن يُحَسُّ ولا يمسُّ ... ولا يذاق ولا يُشَمْ

فتراه أخضرَ يابساً ... بالى النُّقُوش من الْهرمْ

آخر :

أبو نوح دَخَلْتُ عَلَيْهِ يَوْماً ... فغدَّانى برائحة الطَّعَامِ(2)

وقَدَّم بيننا لَحْماً سميناً ... أَكَلْنَاهُ على طَبَقِ الْكَلَامِ

فلمّا أن رفعتُ يدِى سقانى ... كئوساً خمرُها ريح الْمُدامِ

فكان كمن سقى الظمآن آلاً ... وكنت كمن تَغَدَّى فى المنام

وقال فى أبى نوح أيضاً :

لأبى نوحٍ رغيفٌ ... أبدًا فى حِجْر دايَهْ

فهى تحميه مدَى الده ... ر بكمٍّ ووقَايَهْ

وله كاتب صدقٍ ... خَطَّ فيه بعناية

فسيكفيكهم اللهُ ... إلى آخر الآيهْ

(1) الجرادق : نوع من الخبز .

(2) العقد ٦ : ٨

آخر :

استبْقِ ودّأبى المقـــــا ... تل حين تأ كلُ من طعامِهْ[1]
سِيّان كسرُ رغيفِــــه ... أو كسرُ عَظْمٍ من عِظَامِهْ
فارفق بكسْرِ رغيفِـــــهِ ... إن كنْتَ ترغب فى كلامِهْ
وتراه من خَوْف النُّزو ... ل به يروّع فى منــامِهْ

آخر :

خان عَهدِىَ عمرو وما خُنْتُ عَهْدَهْ ... وجفانى وما تغـــيّرْتُ بَعْدَهْ
ليس لى مُذْ حَيِيت ذنبٌ إليــه ... غير أنّىَ يوماً تَغَدَّيْتُ عِنْــدَهْ

آخر :

أبو جعفر رجـــل عالم ... بما يُصلح المعـدةَ الْفَاسِدَهْ
تخوّف تُخْمــة أضيافِه ... فعوّدهم أكلةً واحــدَهْ

أبو نواس :

فــتًى لرغيفِه قُرْطٌ وشنفٌ ... ولؤلؤتان من خَرَزٍ وشَذْرِ
ودون رغيفــه قَلْعُ الثّنَايا ... وحربٌ مثل وقعــة يوم بَدْرِ
وإنْ كُسِرَ الرّغيف بكَى عليه ... بكا الخنساء إذْ فُجِعَتْ بصخرِ

آخر :

رغيف أبى علىّ حــلّ خوفاً ... من الأضياف مــنزلة السِّماكِ
إذا كسروا رغيفَ أبى علىّ ... بكَى يَبْـكِى بُـكاءً فهو باكِ

(١) من أبيات فى عيون الأخبار ٢ : ٣٦ ورواية البيت الأول فيه
ارفُقْ بحفصٍ حين تأ ... كُلُ يا معاوىَ من طعامِهْ

آخر :

إنَّ هـــذا الفتى يصون رغيفاً ... ما إليه لنـــاظرٍ من سبيلِ

هو فى قُفّتين من أدم الطا ... ئف فى سَلّتَيْنِ فى مِنْدِيلِ

فى جراب فى جوف تابوتِ مُوسى ... والمفاتيح عنـــد ميكائيلِ

ابن بسام :

أتانا بخـــبزٍ له يابسٍ ... كمثل الدَّرَاهِم فى خلقتِهْ

إذا ما تنفَّسْت عند الخوان ... تَطَايَر فى الْبَيْت من خِفّتِهْ

وقال عباس الخياط :

رغيفُه النّجم لمن رامَهُ ... يُرَى ولا يُطْمَـــعُ فى لَمْسِهِ

كأنه فى جوفِ مرآتِهِ ... يَبْدُ ولا يُطْـــمَعُ فى جَسِّهِ

وفَلْسُـــه الأمسُ الذى قد مضى ... بل أمسُه أوْجَدُ من فَلْسِهِ

آخر :

رغيف فى الحِجال عليـــه قُفْلٌ ... وخَزّانٌ وأبوابٌ منيعَـــهْ

رأى فى بيتـــه يوماً رغيفاً ... فقال لضيفه هـــذا ودِيعَهْ

اعتلّ أبو هِفّان فى منزل ابن أبى طاهر فأبطئوا عليه بالغَداء فقال :

أنا فى مـــنزلِ خِلٍّ ... مشفق بى ورَفِيـــقِ

رجـلٌ أعمر من منـــزله ظهر الطريقِ

ليس لى أ كل سوى لحـــمِى وشربٌ غيرُ ريقِى

ولجحظة يهجُو رجلاً :

لا تعـذِلُونى إن هَجَرْتُ طعامَهُ ... خوفاً على نفسِى من المأ كُولِ

فمتى أ كَلْتَ قتلتَه من بخـــله ... ومتى قَتَلْت قُتِلْتَ بالمقتول

وله أيضاً يذم بخيلاً :

تَبَرَّم إذ جئتُـــه للسّلامِ وأبدى لِيَ الكُرْهَ لمّا دَخَلْتُ
فقلت له : لَا يَرُعْكَ الدُّخولُ فوالله ما جئت إلاّ أكلتُ

أين هذا من قول إبراهيم بن العباس الصولىّ :

لنا إبلٌ كومٌ يَضِيق بهـا الْفَضَا وتفترُّ عنهـــا أرضُها وسماؤها[(١)]
فمن دونهـا أن تستباحَ دِماؤنا ومِنْ دوننا أن تُسْتَذمّ دماؤها
حِمًى وقِرًى فالموتُ دُونَ مَرَامِهَا وأهونُ خَطْبٍ فى الحقوقِ بناؤها[(٢)]

وقوله :

لا تلومى فإنَّ همّكِ أن تُثْــرِى وهمِّى مكارمُ الأخلاقِ[(٣)]
كيْفَ يَسْطِيعُ حِفظَ ما جمعت كفّاه مَنْ ذاق لذة الإنفـــاق

وقوله :

تلجُ الضُّيوفُ بُيوتَهمْ وترَى لهَا عن جار بيتهم ازْوِرَارَ مَنا كِبِ[(٤)]
وتراهم بسيوفهمْ وشِـــفارِهمْ مستشرفين لراغبٍ أو راهب
حَامِين أو قارين حيثُ لقيتَهُمْ نَهْبَ العفــاةِ ونُهزةً لِلرّاغب

وجَلَس هارون بن محمد بن الزيات فى مجلس عبد الله بن سليمان ، فجعل هارون يُنْشِد من شِعْرِ أبيه محاسنَه ، فقال له ابن برد الخبّاز : إن كان لأبيك مثل قول إبراهيم :

أسدٌ ضارٍ إذا ما هجْتَهُ وأبٌ بَرٌّ إذا مَا قَدَرا[(٥)]
يعرف الأبعد إنْ أَثْرَى ولا يعرف الأدنى إذا ما افتقرا

(١) ديوانه ١٥٣
(٢) رواية الديوان « وأيسر خطب يوم حق فناؤها » .
(٣) ديوانه ١٨٦
(٤) ديوانه ١٢٩
(٥) ديوانه ١٣٣

أو مثل قوله : « تلج الضيوف » البيتين فاذْكُرْهُ وفاخرْ به ، وإلا فأقْلِلْ من الفخار والتطاول بما لا طائل فيه ، فخجل هارون .

وإبراهيم هذا أشعر الكتّاب بلا خلاف .

[فى وصف القدور]

وذكر الحريرىّ القدور ، وممن وصفها ، فأحسن الفرزدق حين قال :

وقد علم الجيرانُ أنّ قدُورَنا ضوامنُ للأرزاق والريح زَفْزَفُ[1]
تُفَرّغُ فى شِيزى كأنّ جفانهم حياضُ الملاَ منها ملاء ونُصّفُ[2]
ترى حولهنّ المعتفين كأنّهمْ على صَنمٍ فى الجاهليّةِ عُكَّفُ

وقال أمية بن أبى الصَّلْت :

وكأنها بِفِنائه للضيف مترعة زواخر[3]
وكأنّهنّ بما شحنّ وما حمين به ضَرائرْ
زبد وقرقرة كقر قرة الفحول إذا تُخاطِرْ

وقال النابغة فى مثله :

له بفِناء البيت سَوْدَاء فَخْمَةٌ تلقَّمُ أعضاء الجزورِ العراعرِ[4]
بقية قِدْرٍ من قُدور تُوُرِّثتْ لآل جُلاحٍ كابراً بعد كابرِ
يظلُّ الإماء يبتدرن قديحها كما ابتدرتْ سعدٌ مياهَ قراقرِ

ـ قديحها : مرقها لأنه يقدح ، أى يؤخذ بالمِقْدَحة ، وهى المغرفة ـ

وقال آخر :

وسوداء لا تكسى الرقاعَ نبيلةٌ لها عند قرّات العشياتِ أزمَلُ

---

(١) ديوانه ٥٦٠.
(٢) الشيزى : قصاع من خشب الجوز .
(٣) ديوانه ١٧٣ (نشرة الدكتور شكرى فيصل) .
(٤) ديوانه .

إذا ما قَرَيْنَاها قراها تضمّنت ... قِرى مَنْ عراناأو تزيد فتفضِلُ

وقال مسكين الدرامى :

كأنّ قُدورَ قــومِي كلّ يوْمٍ ... قِبَابُ التّرك ملَبسة الجِلاَلِ

بأيديهمْ مغارِفُ من حديدٍ ... أشبّهها مقــيَّرة الدَّوالِي[1]

الدّالية : الخطّارة .

وفى ضدّ ذلك لأبى نواس :

رأيتُ قدورَ النّاسِ تَبْــلَى على الصِّلَى ... وقِدْر الرّقاشِيّيْن بيضاء كالْبَدْرِ[2]

يَضِيق بحيزُوم البَعوضة صدُرها ... ويُخْرَجُ ما فيها على طَرَف الظُّفْرِ

إذا ما تنادَوْا للرَّحِيلِ سَعَى بِها ... أمامهم الحولىّ منَ ولَدِ الذّرِّ

وقال الفرزدق :

لو أن قِدْراً بكتْ من طول ما جَهَشَتْ ... على الجفوف بَكتِ قِدْرُ ابنِ عمّارِ[3]

ما مسَّها دَسَمٌ مذ فضّ معدِنُها ... ولا رأتْ بعدَ نارِ القَيْن من نارِ

وتسمّى النار فاكهة الشتاء لما يُجْتَنَى من تسخينها .

وقد أحسنَ ابنُ صارَة فى وَصْفِهَا حيث قال :

هاتِ الّتى للأيك أصلُ ولادِها ... ولها جبينُ الشَّمْسِ فى الأشماسِ

يتقَشَّعُ الياقوتُ من لَبَّاتِها ... بِوَسَاوسَ تَشْفِى من الوسواسِ

---

(١) البيت فى اللسان (ولا) وقال : الذالية : الناعورة .

(٢) ديوانه ١٧٧

أُنْسُ الوحيد وصبح عين المجتلِي ولباس مَنْ أمْسَى بغير لبَاسِ
حمراء تَرْفُلُ فى السواد كأنها ضَرَبَتْ بعِرْقٍ من بنى العَبَّاسِ

وقال آخر :

لابْنَـةِ الزَّنْد فى الكوانين جَمْرٌ كالدَّرارِى فى اللَّيلةِ الظَّلْمَاءِ
خَبِّرونى عنها ولا تـكذِبونى ألدَيْها صِـناعة الكِيمياءِ
سبكت فحمَها سبائك تبْرٍ رصَّعتْها بالفِضَّـة البيضاءِ
كُلَّمَـا ولولَ النَّسيمُ عليْهَا رقصتْ فى غِلاَلةٍ حَمْـرَاءِ
سفرتْ عن جبينها فأرتْنا حاجبَ الشمس طالعاً فى العِشاءِ
لو ترانا من حَوْلها قلت شِرْبٌ يتعاطوْن أكؤس الصَّهْبَاءِ

وقال الفقيه الأديب ابنُ لبّال رحمه الله :

فحم ذكتْ فى حشاه نارٌ فقلت مسـكٌ وجلَّنَارُ
أو خدّ مَنْ قد هوِيتُ لمّا أظـلَّ من فوقه العِذارُ

وقال البحترىّ يصف كانوناً :

وذى أربـع لا يطيق النهو ضَ ولا يألف السَّيْرَ فيمَنْ سَرَى (1)
تحمـله سبجا أسودا فيَقْلِبُهُ ذهبا أحمـرا

* * *

قوله : قلّبوا فى قالبى ، أى هم أمثالى لأن قالب الشىء كلّ ما يُجعل فيه ليجىء مثله ، وقُلِّبوا : جُعِلوا فى القالَب. يمرحون : ينشطون ويطرَبون. ذوى الفَتاء : أهـل الفُتوّة . والفَتاء : الحداثة والشباب ، يقال منه : فتؤ يفتأُ فتاءً ، ويقال أيضاً : بَـكْرٌ فتىّ بيّن الفَتَاء ، وفتىٌّ من الناس : بيّن الفُتُوّة ، والفتى

(1) ملحق ديوانه ٢٥٦٧

والفتيّة : الشابّ والشابّة . الاصطلاء : التسخن بالنار . الثّمل : السّكران . والطِّلاء : الخمر ، وأصل الطِّلاء الرُّبّ الثّخين الأسود ، فسمِّيت الخمر الصافية طِلاءً بضد صفتها ، كما سُمِّى اللديغ سليما ، والأسود أبا البيضاء، والذئب أبا جعدة ، وجَعدة اسم الشاة .

* * *

ولما أن سَرَى الحْصَر ، وانْسَرى الخَصَر ، أُتِينا بموائدَ كالهَالاتِ دوْراً ، والروضاتِ نَوْراً ، وقد شُحِنَّ بأَطْعِمَةِ الْوَلاَئم ، وحُمِين من الْعائب واللاّئم ، فرفَضْنَا ما قِيلَ فى البِطْنَة ، ورأْينا الإمعانَ فيها من الْفِطْنَة ، حتّى إذا اكتَلْنَا بصَاعِ الْحُطَم ، وأشْفَيْنا على خَطَرِ التُّخَم ، تَعَاوَرْنَا مَشُوشَ الْغَمَر ، ثمَّ تبوّأْنَا مَقَاعِدَ السّمَر ، وأخَـذَ كُلٌّ واحدٍ منَّا يشولُ بلسانهِ ، وينشُرُ ما فِى صِوانِه ، ما عدَا شيخاً مشتهباً فَوْدَاهُ مخلَوْلقاً بُرْدَاه ؛ فإنَّه رَبَضَ حَجْرَةً ، وأوْسَعَنَا هِجْرَة ، فغاظنا تجنُّبُه ، الملتبسُ مُوجِبُه ، المعذور فيه مؤنِّبُه ، إلَّا أنّا أنَّاله الْقَوْل ، وخَشِينا فى المسألةِ الْعَوْل ، وكلَّمَا رُمْنَا أنْ يَفِيض كما فِضْنَا ، أَوْ يُفِيضَ فِيمَا أفَضْنَا أَعرَضَ إعراض الْعِلْيةِ الأَرْذِلين، وتلا ﴿إنْ هَذَا إلَّا أساطيرُ الأوَّلين﴾. ثمّ كأَنَّ الحَمِيَّة هاجتْه ،والنَّفْسَ الأبِيّة ناجَتْه ، فدلَف، وازْدَلَف،وخَلَع الصّلَف ، وبَذَلَ أن يَتلافَى ما سَلفَ ، ثمّ اسْتَرْعَى سَمْعَ السَّامِرِ . واندَفَع كالسَّيْلِ الهَامِرِ وقال:

* * *

سَرَى الْحَصَر ، أى زال السكوت ، والحصَر : انقطاع الـكلام ، وهو العِيّ ، وحَصَر يَحْصَر : عيّ ، والحصر أيضاً : ضيق الصدر . انسرى الْحَصَر : ذهَب البرْد ، والخصر : البارد ،وخصِر الرجل : إذا آذاه البرد وآلمه فى أطرافه . والروضات نورا ، أى هى فاعمة بكثرة الطعام وأنواع الألوان . شُحِنّ : ملئن . الولائم : الأعراس . حُمِين : مُنعِن . العائب : الذى يَعيب الطعام . واللائم : الذى يقف على رءوس أضيافه ، فيقول : ما أكلتم ، استعملوا ، زِدْ يا فلان ، فيخجلُ أضيافه لذلك ، فلا يتمكّنون من الطعام . رفضنا : تركنا .

[ممـا قيل فى البطنة]

البطْنة : الامتلاء من الطعام ، والّذى قيل فى البطنة : البطنة تُذْهب الفطْنة ، فقال تركنا هذا المعنى وخالفناه ، ورأينا أنّ البِطْنة وهى امتلاء البطن من الطعام والإمعان فيه ، أى المبالغة فى الأكل يقوّى الفطنة ، ويولدّها لا أنه يُذهِبها . والفِطْنة : الذكاء وحدّة الذهن .

معاذ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما أحلّ الله حلالا أبغضَ إليه من بَطْنٍ ملىء طعاماً ، فقصِّروا من الطعام تملئوا من الحـكمة » .

المقـدام بن معديكرب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما ملأ آدمىٌّ وعاءً شرًّا من بطنه ، بحسب ابن آدم أكلات يُقِمْنَ صُلْبه ، فإن كان لا محالة ، فثُلث لطعامِه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » .

عمر بن الخطاب رضى الله عنه : يأيها الناس ، إيّاكم والبِطْنة ، فإنها مكسلة عن الصّلاة ، مفسدة للجسد ، مورّثة للسقم .

وقال علىُّ بن أبى طالب كرم الله وجهه: إياكم والبِطْنة فإنها مفسدة للقلب

الأصمعىّ قال أعرابىّ : إذا كنتَ بطيناً فعد نفسك زمِناً .

وقال الحارث بن كلدة : أربعة أشياء يُهْرَمن البدن : الغِشْيان على البطنة ، ودخول الحمّام على الامتلاء ، وأكل القديد ، ومجامعة العجوز .

وقال الأصمعى : كنت عند هارون الرشيد فقدّمت إليه فالوذجة فقال : يا أصمعىّ ، حدثنى بحديث مزرِّد أخى الشماخ ، قلت : إنَّ مزرِّداً كان رجلاً جسيماً ، وكانت أمه تؤثر عيالهَا بالزاد ، وكان يُحْفِظه ذلك منها ، فذهبتْ يوماً فى بعض حقوق أهلها ، وخلَّفته فى بيتِها ، فدخل خَيْمتهاَ فأخذ صاعيْن من دقيق ، وصاعاً من عجوة ، وصاعاً من سمن ، فضرب بعضَه ببعض وأكله ثم أنشأ يقول :

ولمّا مضتْ أمىّ تزورُ عيالهَا ... أغرت على العكّ الذى كان يُمْنَعُ
خلطت بصاعىْ حنطة صاعَ عجوةٍ ... إلى صاع سمن فوقهـــا يتربَّعُ
ودلَّيت أمثَال الأثافى كأنّها ... رءوس لعـــادٍ قُطِّعت لا تجمَّعُ
وقلتُ لبطنى أبشِر اليـــوم إنّه ... حمًى آمنٌ مما يغُـــير ويُفْزِعُ
فإنْ مصفوراً فهذا داووْه ... وإن كنت غَرْثَانًا فذا اليوم تَشْبَعُ

فاستضحك منه حـتى أمسك بطنَه ، واستلقى على ظهره ، ثم قدّم يدَه بمال ، وقال : خذ ، فهذا يوم تشبع يا أصمعىّ .

قوله الُحطَم ، أى الذى يحطّم ويُكْسَر ، ورجل محطَّم وحُطَمَة ، إذا كان قليل الرحمة للماشية ، وفى المثل : شرُّ الرِّعاء الُحْطَمَة . وقال الزَّاجر :

* قَدْ لفَّها الليلُ بسوّاقٍ حُطَمْ *

فمعنى اكتلنا بصاع الُحطم ، أى أكلنا أكل أكول لا يُشْفِق على نفسه من السّقَم . وأشفينا : أشرفنا . خَطَر : غَرَر التُّخَم : جمع تُخَمَة بفتح الخاء ، وهو أن يثقُل الطعامُ على المعدة ويتغيَّر ، والعامة تسكِّن الخاء ، وقد يجىء ذلك فى الشعر قال أعرابىّ :

وإذا المعـدة جاشَتْ فارْمِهـا بالمنْجَنيقِ

بثلاثٍ من نبيـذ ليس بالحلو الرقيقِ

تَهْضِم التَّخْمـة هَضْماً حين تجرى فى العروقِ

وتعاورنا الشيء : تداولناه ، وأخذه بعضُنا من بعض ، وأزلناه من موضع إلى موضع . وَعَورُ العين : زوالها . والْغَمَر : ريح اللحم وزَهَمُه. تبوّأنا : أخذنا ونزَلْنا . السَّمر : الحديث يُسْمَر عليه . يشول بلسانه ، أى يضرب به فى كلّ كلام ، وشال : رفع . والصّوان : وعاء يُصان فيه الشيء . فواده : ناحيتا رأسه، والْفَوْد : ما بين طرف الجبهة والأذن . مخلولقاً : كثير البِلَى . بُرْداه : ثَوْباه . رَبَض : جلس ، وفى المثل : فلان يَرْبِضُ حَجْرَةً ، ويرتقى وسطاً ، يضرب مثلاً لمن يساعدك ما دمت فى خير ، فربَض حَجْرة ، أى جلس ناحية وبرك . أوْسَعَنا : كثَّر لنا . الهجرة : المباعدة والمقاطعة ، يريد أنه اعتزلهم وجلس ناحية ولم يكلّمهم بكلمة. تجنُّبه : تباعده ، يقال : تجنَّبْتك وتَجانبتك ، أى تباعدت عنك ، والجار الُجنُب : البعيد . وما زاره إلا عن جَنَابة ، أى عن بعد . المتلبِّس موجبه ، أى الذى التبسَ علينا ما أوْجَبه . مؤنّبه : لائمه . العول : الزيادة . رُمْنَا : طلبنا . يفِيض كما فِضْنا : يتكلّم كما تـكلّمنا والْفَيْض زيادة الماء، ويُفيض فيما أفضنا ، أى يأخذ معنا فى النوع الذى أخذنا فيه . أعرض : لوى وجْهَه . الْعِلْية : الأشراف . الأرذَلين : الأدنياء . أساطير : تآليف وكتب . الحَمِيّة : عزة النفس . هاجته : حرّكته . الأبية : العزيزة . نَاجتْه : حَدّثَتْه . دلف : مشى إلينا ، وازدلف : تقرّب . خلع : أزال . الصلَف : مجاوزَةَ قدْر الظَّرْف حتى يفضى به ذلك إلى أن تأخـذ به باباً ما فيخالفك ولا يعبأ بك . يتلاق : يتدارك . سلف : مضى . استرعى : دعاهمْ للاستماع يقال : أرعِنى سمعَك أى أسمع منى . الهامر : الـكثير الانصباب .

* * *

عندى أعاجيبُ أَرْوِيها بلاَ كذبِ
عن العِيـــان فكنُّونى أَبَا الْعَجبِ

رأيتُ يا قومِ أقواماً غِـذاؤهُمُ بولُ العجوزِ وما أَغْنِي ابْنَةَ الْعِنَبِ

— بَوْل العجوز : لبن البقرة ، والعجوز أيضاً من أسماء الخمر —

ومُسْنِتِين من الأعرابِ قـــوتهُمُ
أَن يَشْتَوُوا خِرقةً تُغْنِي من السَّغَبِ

— الخِرْقة : القطعة من الجراد —

وقادرين متَى ما ســـاء صنعهُمُ
أو قصَّرُوا فيـه قالوا الذّنب لِلْحَطَبِ

— القادر : الطَّابخ فى القِدْر ، والقَدِير : المطبوخ فيها .

وكاتبين وما خطّت أنامِلُهُمْ حرفاً ولا قرءوا ماخُطَّ فى الكتبِ

— الكاتبون الخرّازون ؛ يقال : كتب السقاء والمزادة ؛ إذا خَرَزَها وكتب البغلة أو الناقة ، إذا جمع بين شفريها وخاطهما ، قال الشاعر :

لا تأمننَّ فزاريًّا خَـــلَوْتَ به على قَلوصك واكتبها بأسيار

وتابعـــين عقاباً فى مسيرهِمِ على تكمّيهمُ فى الْبَيْضِ وَالْيَلَبِ

— العُقاب : الراية ، وكانت راية النبى صلى الله عليه وسلم تسمّى العُقاب .

* * *

العيان ، أى المشاهدة بالعين . مسنتين: أصابتهم السّنة ، أى اشتدّ عليهم . يَشْتَوُوا : يتخذوا شواء . السَّغب : الجوع . تَـكَمِّيهم : تسترّهم . الْبَيْض : ما يجعل فى الرءوس فى الحرب .

ومنتدِينَ ذَوِى نُبْلٍ بدتْ لهمُ نبيلةٌ فانْثَنَوْا منها إلى الْهرَبِ

— النّبيلة : الجِيفة ، ومنه تَنَبَّل الأميرُ ؛ إذا مات وأروح ، يعنى نتن .

وعُصْبةً لم تَرَ البيتَ العتيق وقدْ حجّتْ جُثِيًا بلاشَكٍّ على الرُّكَبِ

— معنى حجّتْ جثيًا ، أى غلبت بالحجّة مجادلين جاثِين على الرُّكَب ، وجُثِيّ : جمع جاثٍ .

ونسوةً بعدما أَدْلَجْنَ من حلبٍ صَبَّحْن كاظمةً من غير ما تَعَبِ

— كاظمة فى هذا الموضع من كَظَمَ الْغيظ —

ومُدْلِجينَ سَرَوْا من أَرْضِ كاظمةٍ

فأصبحوا حينَ لاح الصُّبْح فى حَلَبِ

— فى حلَب ، أى أصبحوا يحلُبون اللبن —

ويافعاً لم يُلاَمِسْ قَطُّ غانيـــةً شاهدتُه وله نسلٌ من الْعَقِبِ

— النَّسْل هاهنا : العدوّ قال تعالى : ﴿ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾ . والعقِب : مؤخَّر القدم .

* * *

منتدين : مجتمعين . انثنوا : رجعوا . والنّبيلة : الحاذقة فى فعلها . عُصْبة : جماعة . أدْلَجْنَ : سرن بالليل ، ومثلُه سَرَوْا . لاح : ظهر . يافعاً : شابًا . يلامس : يلاعب ، ويمسّها بيده . غانية : امرأة جميلة غَنِيَتْ بحسنها عن الزينة . صُبحْن كاظمة ، أى سُقين الصّبوح كاظمةً غيظَها . وصَبَحه . سقاه صَبوحاً ، وكَظم غيظه : تجرعه ، وهو قادر على الإيقاع بعدوّه ولم يمضه ، وكَظم خصمه : أجابه بالمسكت فأفحمه ، وأصل الكظم للبعير ، وهو أن يردّد جِرّته فى حلقه ولا يجترّها : وكاظمة : موضع على سِيف البحر ، أى على ساحله على مرحلتين من البصرة ، وفيه ركايا كثيرة ، وماؤها شروب .

* * *

وشائباً غـيْرَ مُخفٍ للمشيب بدا في البدو وهو فتىُّ السِّنّ لم يَشبِ

— الشائب هاهنا : مازج اللبن ، والمشيب : اللّبن الممزوج ، ويقال فيه مَشِيب ومَشوب .

ومُرْضَعاً بلبانٍ لم يفُهْ فمُهُ رأيتُــه في شِجارٍ بَيْن السَّبَبِ

— الشِّجار : المحفة ما لم تـكن مُظَلَّلة فإنْ ظلّلَتْ فهو الهودج . والسّبب هاهنا : الحَبْل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فليمدُدْ بسببٍ إلى السماء ﴾ —

وزارعاً ذُرَةً حَــــتَّى إذا حُصِدَت

صَارَتْ غُبَيْراءَ يَهْواها أخو الطَّرَبِ

— الغبيراء : المُسْكِر المتّخَذ من الذُّرة ويُسمَّى أيضاً الشُكركه . وفى الحديث : « إياكم والغبيراء فإنّها خمر العالم » .

وراكباً وهو مغلولٌ على فرسٍ قد غُلّ أيضاً وما ينفك عن خَبَبِ

— المغلول هاهنا المطشان ، وغلّ ، أى عطش .

وذا يدٍ طُلُقٍ يَقْتَاد راحــــلةً

مستعجِلاً وهو مأسورٌ أخو كُرَبِ

— المأسور : الّذى يجد الأسر ، وهو احتباس البول .

* * *

اللّبان : لبن الآدميات . يَفُهْ : ينطق . يهواها : يحبّها . أخو الطَّرَب : صاحبه للولع به . ينفك : يزول . خَبَب : نوع من السير . طَلُق . سارح . كُرَب : همّ .

* * *

وجالساً ماشياً تهوِى مطيَّتُه به وما فى الَّذِى أَوْرَدْتُ من رِيَبِ

— الجالس : الآتى نجداً ، والماشى : الذى كثرتْ ماشيتُه ، وعليه فسّر بعضُهم قوله تعالى : ﴿أنِ امْشُوا﴾ ؛ كأنه دعاء عليهم بكثرة الماشية والنماء والبركة

وحائكاً أَجْذَمَ الكفَّيْن ذا خَرَسٍ فإن عجبتمْ فكمْ فى الْخَلْقِ من عَجَبِ

— الحائك هاهنا : الّذى إذا مشى حرّك منكبيه وفجّ بين ركبتيه .

وذا شَطَاطٍ كصَدْرِ الرُّمْح قامتُه صادَفْتُه بِمِنًى يَشْكُو من الْحَدَبِ

— الحدَب : ما ارتفع من الأرض —

وساعياً فى مسرَّاتِ الأنامِ يرَى إفراحَهُمْ كالظُّلْمِ والكَذِبِ

— إفراحهم : إثقالُهم بالدّين ، ومنه قوله عليه السلام : « لا يُتْرَكُ فى الإسلام مُفْرَح » أى مُثْقَلٌ من الدَّين أو يقضَى عنه دينُهُ —

ومُغْرَماً بمنــــاجاة الرّجال لَهُ وما لَهُ فى حديث الْخَلْقِ من أَرَبِ

— الخلْق هاهنا : الكذب ، ومنه قوله تعالى : ﴿إِنْ هَذَا إلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ﴾ —

وذا زمامٍ وَفَتْ بالْعَهْدِ ذِمّتُــــه ولا ذِمَامَ لَهُ فى مَذْهَبِ الْعَرَبِ

— الذّمام الثانى : جمع ذمّة ، وهى البئر القليلة الماء . وعنى بالمذهب المسلك ، أى ماله آبار قليلة الماء فى البدو .

* * *

تهوى : تسقط وتسرع . ريب : شكوك . أجذم : مقطوع . خَرَس : بكم . شَطَاط : طول . مُغْرماً : شديد الحب . مناجاة : محادثة . أرب : حاجة .

* * *

وذا قُوًى ما استبانَتْ قطُّ لِينتُهُ ولبنُه مُستبينٌ غيرُ محتجبِ

— اللِّين : نخيل الدَّقَلْ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ما قَطَعتُم مِنْ لينَةٍ ﴾ .

وساجِداً فوقَ فحلٍ غيرَ مكترِثٍ بِمَا أَتَى بل يَرَاهُ أَفْضَلَ القُرَبِ

— الفحل : الحصير المتَّخَذ من فُحَالِ النخل .

وعاذراً مَنْ ظَلَّ يَعْذِرُه مع التلطُّف والمعذورُ فى صَخَبِ

— العاذر : الخائن . والمعذور : الْمَخْتُون .

وبَلْدَةً ما بها ماءٌ لمغترفٍ والماء يَجْرى عَلَيْهاَ جَرْىَ مُنْسَرِبِ

— البلدة : الفُرْجة بين الحاجبين ، وتسمَّى أيضاً البَلْجة —

وقَرْيةً دونَ أخوصِ الْقَطاَ شُحِنَتْ

بديلمٍ عَيْشُهُمْ مِنْ خُلسَة السَّلَبِ

— القرية : بيت النمل . والديلم النمل الكثير . وخلسة السَّلَب : لِحَاء الشّجر .

وكوكباً يتوارَى عند رؤيته الــإنْسَانُ حتى يُرَى فى أَمْنَعِ الحُجُبِ

— الكوكب : النّكتة البيضاء التى تحدث فى العين . والإنسان هاهنا : إنسان العين .

* * *

مكترِث : منكسر من الهمّ . القُرَب : جمع قُرْبة ، وهى ما يتقرّب به إلى الله تعالى من أعمال البرِّ . عاذر : قابل العذر . مؤلماً : موجعاً . التلطف : الرفق واللين . الصّخَب : الصياح ، وتفسير ظاهر البيت أن تقول : رأيتُ عاذراً يوجع الّذى يعتذر له مع تلطّف العاذر للمعتذر وتَلْيينه القول له ، والمعتذر فى

صياحٍ من شدة ضَرراً لعاذر له ، فتتقابل هذه الأضداد ، فإذا فسّرتَ بتفسير الحريرىّ صحّ المعنى . ومُنْسَرِب : داخل فى السَّرَب وهو الحفير فى الأرض . قرية: مدينة ، وأفحوص القطا : مرقدها وهى تَفْحَصُه: برجليها توسّعه. شُحِنَتْ : ملئت . والدّيلَمْ : أمة من العجم . خُلْسة : سرقة . والسَّلَب : المال المسلوب . يتوارى : يتغطّى ، وقال الحسن بن هانئ فى صفة الكواكب الذى هو النكتة على إنسان العين :

أعورُ المُقلة من غير عِوَجْ   لو عداه عَوَرُ العين انْسَمَجْ[1]

تحسب النكتة فى ناظرِه   درّةً بيضاء فى فصّ سَبَجْ

* * *

ورَوْثَةٌ قُوِّمَتْ مالاً لَهُ خَطَرٌ   ونفسُ صاحِبِها بالمال لَمْ تَطِبِ

— الرَّوثة : مقدَّم الأنف —

وصحفةٌ مِنْ نُضَارٍ خالص شُرِيَتْ   بَعْدَ المِكاسِ بقيراطٍ من الذَّهَبِ

— النُّضار هاهنا : شجر النَّبْع ، ومنه قول بعض التابعين : لا بأس أنْ يُشرَب فى قدح النضار ؛ عَنَى به هذا .

ومُسْتَجِيشاً بخشخاشٍ لِيَدْفَعَ ما   أظَلَّه من أعاديهِ فلم يَخِبِ

— الخشخاش : الجماعة عليهم دُروع وأسلِحة —

وطالما مرّ بى كلبٌ وفى فِهِ   ثَوْرٌ ، ولكنَّه ثورٌ بلا ذَنَبِ

— الثَّوْر : القطعة من الأَقِط ، وهو نوع من الجبن .

---

(1) ديوانه .

وكم رأى ناظِرِى فيلاً على جملٍ وقد تورَّكَ فوق الرَّحْلِ والقَتَبِ

— الفيل : الرّجل الفائل الرأى .

وكم لقيتُ بعُرْض البِيدِ مُشْتَكِياً وما اشْتَكى قَطُّ فى جِدٍّ ولا تعبِ

— المشتكى : المتخذ شكْوةً وهى القِرْبة الصغيرة .

* * *

قوله : خَطَر ، أى حظ كثير ، والخطير : الرفيع القدر ، نُضار : ذهب أحمر . المِكَاس : المُمَاكسة بين المُتبايعين ، وهو أن يطلُب صاحب السِّلعة من المشْتَرِى سَوْماً ، فلا يزال المشترى يراجعه وينقصُ له ممّا طلب شيئاً حتى يتّفقا على ما يتراضيان عليه . والمستجيش : الجامع للجيش . والخَشْخَاش : بنت معروف، وقال ابن وَكيع يصفه :

وخشخاش كأنّا منه نفرى قميصَ زَبَرْجَدٍ عن جسم دُرٍّ[1]

كأقداح من البلّور صيغَتْ وأغشيةٍ من الدِّيباج خُضْرِ

أظلَّه : قرُب منه ، وكأنه أغشاه ظلَّه . القتَب : خشب الرَّحْل ، والرَّحْل برذعة البعير . بعُرْض البيد : بجانب القِفار .

* * *

وكنتُ أبصرْتُ كرّازاً لرَاعيةٍ بالدَّوِّ ينظر من عينين كالشُّهُبِ

— الكرّاز : كبش يَحْمِل عليه الرّاعى أداته .

وكَمْ رأتْ مقلتِي عينيْن ماؤهما
يجرى من الغرْبِ والعينانِ فى حَلَبِ

— الغرْب : مجرى الدمع . والعينان : المقلتان .

(١) ديوانه ٦٢ . ونفرى : نقطع .

وصادعاً بالقنا مِنْ غَيْرِ أن عَلِقَتْ كفَّاه يوماً برمحٍ لا ولم يَثِب

— الْقَنَا : ارتفاع الأنف وتحدُّبِ وسطه ، وصَدَع به ، أى كشفه .

وكم نزلتْ بأرضٍ لا نَخيـلَ بها

وبَعْدَ يَوْمٍ رَأيتُ الْبُسْرَ فى الْقُلُبِ

— البُسرْ : جمع بُسْرة ، وهو الماء الحديث العهد بالمطر . والقُلُب : جمع قَلِيب —

وكم رأيت بأقطار الْفَـلاَ طَبَقاً يَطِـير فى الجوِّ مُنْصباًّ إلى صَبَبِ

— الطَّبق : القطعة من الجراد .

وكم مِنْ مشايخَ فى الدُّنْيَا رأيتُهم مخلَّدين ، ومَنْ يَنْجُو من الْعطَبِ

— المخلّد : الذى أبطأ شيبُه —

وكم بدا لِيَ وَحْشٌ يشتكِى سَغَباً بمنطقٍ ذَلِقٍ أَمْضَى من الْقُضُبِ

— الوحش : الرَّجل الجائع .

وكم دَعَانِيَ مُسْتَنْجٍ فَحَادثنى وما أَخَلّ ولا أَخْلَلْتُ بالأدبِ

— المستنجى : الجالس على نَجْوة ، وهر المكان المرتفع .

* * *

كَرّاز : إناء . والدَّوّ : الصحراء ، والغَرْب : الدَّلو العظيمة . فى حلَب : فى سَيَلان وجَرْيٍ . البُسْر : التمر الذى لم يَطِبْ . القليب البئر ، والجمع القُلُب . أقطار الفلا : نواحى القِفار . والصَّبب: الانحدار . العطب: الهلاك . السّغَب: الجوع . ذلق : حادّ . أمضى : أقطع . القُضُب : السيوف . أخلّ : نقَصَ . المستنجى : الجالس لقضاء حاجة الإنسان .

* * *

وكم أَنختُ قَلُوصِي تحت جُنْبُذَةٍ تُظِلُّ ماشئتَ من عُجْمٍ ومن عُرُبِ

— الجُنْبَذَة : القبّة . والعُرُب : جمع عَروب ؛ وهى المتحبّبة إلى زوجها ، من قوله تعالى : ﴿ عُرُباً أترابا ﴾ .

وكم نظرتُ إلَى مَنْ سُرَّ ساعَتَهُ ودَمْعُه مستَهِلُّ الْقَطْرِ كَالسُّحُبِ

— سُرَّ ، أى قطع سَرَرُه ، ويسمّى ما يبقى بعد القطع السُّرّة —

وكم رأيتُ قميصاً ضرَّ صاحِبَهُ حتَّى انثنَى واهِيَ الأعْضاءِ والْعَصَبِ

— القميص : الدّابّة الكثيرة القُماص ، وهو الوثوب والقَفْز .

وكم إزارٍ لَوَانَّ الدَّهْرَ أتلفَهُ

لجفَّ لِبدُ حَثِيث السَّيْرِ مُضْطربِ

— الإزار : المرأة ، ومنه قول الشاعر :

* فدًى لك من أَخِي ثقةٍ إزارى *

هـذا وكَمْ من أفانينٍ مُعْجِبَةٍ عندى ومن مُلَحٍ تُلْهِي ومن نُخَبِ

فإن فَطِنتَمْ لِلَحْنِ القول بانَ لكمْ صدقى وَدَلَّكُمُ طَلْعِي على رُطَبِي

وإن شُدِهْتُمْ فإن العارَ فيه على مَنْ لا يُميِّز بين العُودِ والْخَشَبِ

* * *

أنخت : أبركت . قَلُوصِي : ناقتى الفتية . تظلّ : تستر . سُرّ : أدخل عليه السرور ، وقد بيّن هو أنه المقطوع السرة ، وقال فى الدّرة فيما يكنى فى المعاريض . المقلُول : الذى ضُرِبتُ قلّته ، أى أعلاه ، والمركُوب : الذى ضُرِبَت ركبته ، والمذكور : الذى قُطِع ذكره . والمسرور : الذى قُطِعت سرّته ، قال : ومن الأحاجى بأبيات المعانى :

نَسُرّهمُ وإن هُمُ أقبـلوا ... وإن أدبروا فهمُ من سببِ

أى نطعنهم إذا أقبلوا فى السّرة ، وإذا أدبروا فى الشُّبَة وهو الإست .

وأنشد أيضاً :

ذَكَرْتُ أبا عمرو فمـاتَ مكانَهُ ... فواعجباً هلْ يهلِكُ المرءُ من ذَكَرِ

وزُرت عليًّا بعْــدَهُ فرأيته ... ففارق دنياه ومات على صبرِ

ذكرتُه : قطعت ذَكَره ، ورأيتُه: قطعتُ رئته . مستهل : سائل . القَطْر : مصدر قطر ، إذا سقط ، ولا يقال :استهلّ حتى يكون مع انصبابه صوت . واهِى : ضعيف . العَصَبِ : حبال الجسد . الإزار ، هو المئزر الذى يجعل عوضاً من السراويل . حثيث : مسرع أراد به ذَكَر الإنسان فى حال نكاحه المرأة إنه مضطرب سريع السير والدفع فيقول : إن المرأة التى كانت تبلّ الذّكر عند الجماع لو هلكت لبقِيَ جافًّا وأراد باللّبد موضع اللّبد وهو الظهر ، الفنجديهى يقول : كم من امرأة لو ماتت لترك زوجها كثرة الحركة فى طلب المعاش مرضاةً لها ، وجفوف العرق قد يكون من السكون ، والتفسير الأوّل أبين ، وهذا الثانى يحتمل إما وصفه بالسرعة والاضطراب ، وهو صفة فرس جعل له لبداً فألغز بذلك ، وقال أعرابى ماتت امرأته :

وكنتِ فَرِيسَتِى وغِلَافَ بُضْعى ... فأمسى البُضْعُ ليس له غلاف

ومن اللّغز فيه قول الآخر :

وصاحبٍ معجب فى طول صُحْبته ... لا ينفـع الدّهْر إلّا وهو محمومُ

تأتيك فى نافض الحمّى منافعُــه ... وإن أفاق يُرَى فى وجهه اللُّومُ

وقال الأقيشر : وكان عنّيناً ، فغالط فى شعره بالضدّ :

ولقـد غَدَوْت بمشرِفٍ يا فوخُه ... عَسِر المكرّة ماؤه يتــدفّقُ

أرنّ يسيل من النشاط لعابُه ويكاد جِـــلْد إهابه يتمزّق
حتى عـــلوتُ به مَشْق ثَنِيَّـةٍ طوراً يفور بها وطوراً يغرقُ

قوله : أفانين ، أى ضروب وأنواع ، والأفانين : الأساليب وهى أجناس الكلام وطرقه ، الأزهرىّ : أفانين : جمع أفنان : جمع فَنَن ، وهو الغصن والُخصْلة من الشّعر ، وقيل : الأفنونُ الفنّ ، وهو ضَرْبٌ من الشّجر ، والحبال ، والجمع أفانين . مُلَح : ما يتكلم به من حلو الكلام وألغازه . تُلْهِى : تَشْغَل نُخَب : مختارة . لحن القول : معناه ومذهبه ، واللحن التّورية ، وهى أن تُظهر خلاف ما تضمر . الطَّلْع : أوّل ما يخرج من التمر . والرُّطَب : الطّيب منه . شُدِهْتُمُ : تحيرتم .

* * *

قال الحارثُ بن همام : فطفِقناَ نَخْبِط فى تَقْليبِ قَرِيضِه ، وتأويلِ مَعارِيضه وهو يلهو بنا لَهْوَ الخَلِىّ بالشَّجِى ، ويقول : لَيْس بعُشِّك فادْرُجى ، إلى أن تعسّر النِّتَاج ، واستحكم الارْتِتَاج ؛ فألقينا إليه الْمَقَادة ، وخطبْناَ منه الإفَادة ؛ فوقّفَنا بين الْمَطْمَعِ والْيأس ، وقال : الإيناسُ قَبْلَ الإبْسَاس ؛ فعلِمْناَ أنّه ممن يرغبُ فى الشُّكْم ، ويَرْتَشِى فى الُحكْم ، وساء أبا مثوانا أن نُعرَّض للغُرْم ، أو نُخَيَّبَ بالرُّغم ؛ فأحضر صاحبُ المنزل ناقةً عِيديّة ، وحُلّةً سَعِيديّة ، وقال لَهُ : خُذْهما حَلالاً ولا ترزأْ أَضيافى زِبالاً ، فقال : أشهد أنّها شِنْشِنَةٌ أَخْزَمِيّة ، وأَرْيَحِيّةٌ حاتِميّة .

* * *

طفِقْنا : أخـذنا نخبط : نتـكلّم بالزائد والناقص . تأويل : تفسير . معاريضه : ما عُرِّض به ولم يتمّه . الخلىّ : الذى لا هَمّ له ، والشّجى : الحزين وياء الخلىّ مشددة وياء الشجى مخففة ، وقد شُدِّدَتْ ياء الشَّجِى فى الشعر إتباعاً

الياء الخليّ ، وقالوا: إني لآتيه بالغدايا والعشايا ، فحملوا الغدايا على العشايا ، وحكى ثعلب في غير الفصيح عن الأصمعيّ تثقيل الياء فيهما ، ومَنْ جعل شَجِي فَعِل كحذر خفّف ، ومن جعله فعيل مثل غنيّ شدّد ، وفعل بغير ياء أقيس ، والتشديد في المَثَل أحسنُ للازدواج . تَعَسَّر : صَعُب . النِّتاج : ما ينتج لهم من المعاني . استحكم : توثّق. الارتتاج : الانغلاق ،وأُرْتِج على القارئ وارتجج ، إذا لم يقدر على القراءة كأنه أُطْبِق عليه . ويرتشي : يأخذ الرِّشوة . وعن ثوبان مولَى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لعن الله الراشيَ والمرتشي والرائش» ، فقيل : وما الرائش ؟ قال : الذي يمشي بينهما .

ألقينا إليه المقادة : أي انقدنا له ، ورزأتُ الرّجل أرزؤه؛ إذا أصبتَ منه خيراً ، ورزأته ماله : نقصته والزِّبال بالكسر : ماتحمله النَّملة بفيها . والأريحيّة : الاهتزاز للجود . ساء : حزن . والرّغم : الذلة والهوان . شِنْشِنة : طبيعة حاتمية منسوبة إلى حاتم بن عبدالله بن سعد بن الحشرج أحد بني ثُعَل بن عمرو بن الغوث بن طيء .

[ذكر حاتم الطائي]

يكنى أبا سفّانة وأبا عديّ. فارس شاعر جاهليّ ، أحد الأجواد الذين يُضرَب بهم المثل ، بل هو أشهر منهم ، وهم: كعب بن مامة ، وهرِم بن سنان ، وحاتم ، وكان إذا قاتل غلب ، وإذا غنِم نَهَب ، وإذا سئل وَهَب ، وإذا قامَرَ سَبَق ، وإذا أَسَر أَطْلَق، وإذا أثرى أنفق . ويقال : إنه لا يُعرف ميّت قرَى أضيافه إلاّ هو ، وذلك أن ركباً من العرب نزلوا بموضع قبره ، وقد نفد زادهم ، وفيهم رجلٌ يكنى أبا خيبريّ ، فجعل يقول : أبا سَفّانة ، أما تَقْري أضيافَك أبا سَفّانة ، إن أضيافك جياع ، يعيدها ، فلما نام ثار من نومه ، وهو يقول : واراحلتاه ! عُقِرت والله ناقتي ، فقال له أصحابه : وكيف ؟قال : رأيت أبا سَفّانة قد انشق عنه قبره ، فاستوى قائماً ينشدني :

أبا خيبرىٍّ لأنْتَ امرؤ ظـلومُ العشيرة لَوَّامُها
وماذا تريد إلى رمّـة بدوِّية صخب هامُهَا
تبغى أذَاها وإسعـارَها ودُونك طىٌّ وأنعامهـا

ثم عمـد إلى سيفى ، فانتضاه من غِمْده ، وعَقَر ناقتى ، وقال : دونكم فما أيقظنى إلا رغاؤها ؛ وإذا بالناقة ترغو ما تنبعث ، فقالوا : قد والله قَرَاك حاتم فنحروها ، وأكلوا وتزوّدوا واقتسموا متاع أبى خيبرىّ ، واستبرّوا لوجهتهم ، فلمّا صاروا فى الظَّهيرة وَضَح لهم راكب يجْنُب بعيراً يؤمّ سمتهم ، حتى التقوْا فقال لهم : أفيكم أبو خيبرىّ ؟ قالوا : نعم ، فقال : فإن عدىّ ابن حاتم رأى أباه البارحة ، وهو يقول : إنّ أبا خيبرى وأصحابَه استقرُونِى ، فقريتُهم ناقته ، فعوّضْه منها ، وزِدْه بَكْراً يحمل عليه متاعه ؛ وهـذه الناقة وهذا البَكْر ، فارتحل أبو خيبرىّ الناقة ، وتخفّف هو وأصحابه من أزوادهم ، على البَكْر ، ومضوا بأتّم قرًى .

وأدرك عدّى ابنه النبىّ صلى الله عليه وسلم وروى عنه ، وكان يحدِّث أصحابه بهذا الحديث بعد إسلامه وقال الشاعر فى عدىّ :

أَبوكَ أبو سَفَّانَةَ الخـير لم يزلْ لدنْ شبَّ حتى مات فى الخير راغباَ
قرى قبره الأضـياف إذ نزلوا به ولم يقرِ قبرٌ قبلَه الدَّهْرَ راكباَ

وكانت سفّانة بنته من أجود نساء العرب ، وكان أبوها يعطيها الصِّرمة من إبله فتهبُها وتعطيها الناس . فقال لها أبوها : يا بنيَّة إن الغويَّيْن إذا اجتمعا فى المال أتلفاه ، فإما أن أعطِى وتُمْسِكى ، وإمّا أن أُمْسِك وتُعطى أنت ؛ فإنه لا يبقى على هذا شىء ، فقالت : والله لا أمسِك أبداً ، قال : وأنا لا أمسك أبداً قالت : فلا نتجاور ، فقاسمها ماله وتبَاينا .

وحكى أن أمّه كانت مِنْ أسخى النّـاس ، وأقراهم للضيف ؛ وكانت

لا تحبس شيئاً تملكه ، وهى عُتْبة بنت عُفَيف بن عمرو بن عبد القيْس ، فلما رأى إخوتُها إتلافَها ، حجروا عليها ومنعوها مالها ؛ حتى إذا ظنوا أنها قد وجَدَتْ ألَمَ ذلك أعطوْها صِرْمة من إبلها ، فجاءتها امرأة من هَوازن تسألها ، فقالت : دونك الصِّرمة ، فخذيها ، فوالله لقد عضَّنِي من الجوع ما لا أمنع بعده سائلاً أبداً ، ثم أنشأت تقول :

لَعَمْرِى لقِدْماً عضَّنِى الجوع عَضَّةً فآليتُ ألاّ أمنع الدَّهْرَ جائعاً[1]

فقولا لهذا اللائم : اليوم أعفِنى فإن أنت لم تفعل فعضّ الأصابعاَ

فإذا عسيتم أن تقولوا لأختُكمُ

سوى عذلكم أو عذلِ مَنْ كان مانعاَ

وهل ما ترون اليوم إلا طبيعة وكيف بتركى يا بنَ أمٍّ الطَّبائعاَ

فقد اكتنفَه الجودُ من أمه وأبيه .

وقالت امرأتُه النّوار : أصابتنا سنة اقشعرّتْ لها الأرض واغبَّر أفق السماء ، وضنّت المراضع عن أولادها فما تبِضّ بقطرة ، فأيقنّا بالهلاك ، فوالله إنى لفى ليله صَبِيرةٍ[2] بعيدة الطرفين ، إذ تضاغى صبيتُنا جوعاً : عبد الله وعدىّ وسفانة ، فقام إلى الصبيَّيْن وقمت إلى الصبيَّة ، فوالله ما سكتوا إلّا بعد هدأة من الليل ، وأقبل يعلّلنى بالحديث ، فعرفت ما يريد ، فتناومت ، فلما تغوّرت النجوم إذا شىء قد رفَع كِسر البيت ، فقال : مَنْ هذا ؟ فقالت : جاريتك فلانة أتيتك من عند صِبْية يتعاوَوْن من الجوع عُواء الذئاب ، فما وجدتُ معوّلا إلاّ عليك أبا عدىّ ، فقال : أعجليهم فقد أشبعك الله وإيّاهم ، فأقبلت تحمل اثنين ، ويمشى إلى جانبها أربعة ، كأنها نعامة حولها رِئالُها ، فقام إلى فرسه فوجأ لبّتها بمدية ،

---

(١) الخبر والشعر فى طبقات الشعراء ٢٤٢

(٢) صبيرة : شديدة البرد .

نحرّت ، ثم كشط الجلد ، ودفع المُدية إلى المرأة وقال شأنك ، فاجتمعنا على اللحم نشوِى ونأكل ، ثم جعل يأتيهم بيتاً بيتاً ، ويقول : هُبّوا أيّها القوم ، عليكم بالنار ، فاجتمعوا والتفّ فى ثوبه ناحيةً ينظر إلينا ، والله إن ذاق منها مُزْعة ، وإنه لأحوجُ إليها منا ، فأصبحنا وما على الأرض منها إلا عظمٌ وحافر ، فأنشأ يقول :

مهلاً نوار أقلّى اللومَ والعــذلا ولا تقولى لشىء فاتَ ما فَعَــلاَ[1]

ولا تقولى لشىء كنتُ مهلكَه

مهلاً وإن كنتُ معطِى القَنْسَ والجلاَ

يرى البخيلُ سبيل المالِ واحدةً إن الجواد يَرَى فى ماله سُبُــلاَ

ولم يكن يمسك شيئاً ما عدا فرسه وسلاحه ، فإنه كان لا يجود به .

وذكر الحريرى أن عُقَيْلاً تمثّل بقول حاتم :

* شِنْشِنةٌ أعرِفُها من أخْزَمِ *

وكان عُقَيل[2] بن عُلفَّة المرىّ غيوراً نخوراً وكانت الخلفاء تُصاهره ، نخطب إليه عبدُ الملك ابنته لبعض ولده ، فقال : أمّا إن كان ولابدّ ، فجنّبْنِي هُجناء ولدك ، وخرج يمتار ومعه ابنه وابنته الجرْباء فنزلوا بالشأم بديْر سعد ، فلما ارتحلوا قال عُقَيل :

قضتْ وطراً من دَيْرِ سعدٍ وربّما على عُرُضٍ ناطحنَه بالجمــاجمِ[3]

ثم قال لابنه أجزيا عملّس ، فقال[4] :

(١) ديوانه ٧٤

(٢) الأغانى ١٢ : ٢٥٦

(٣) دير سعد : موضع بين بلاد غطفان والشام ، وبعده فى الأغانى :

إذا هبطتْ أرضاً يموت غرابهـا بها عطشاً أعطينهم بالخزائم

(٤) فى الأغانى : « انفذ يا علقة »

فأصبحن بالموماة يحملنَ فتيــةً نَشاوَى من الإدلاجِ ميلَ العمائم[١]

ثم قال لابنته الجرباء : أجيزى ، فقالت[٢] :

كأنّ الـكرى أسقاهمُ صَرْخدِيّةً عُقاراً تمشّت فى المطا والقوائم[٣]

فقال لها : وما يدريك ما نعتُ الخمر ؟ ثم سلّ السيف ، فاستغاثت بأخيها فاختبل فخِذيه بسهم ، فبرك ومضوا وتركوه حتى بلغوا المياه الدانية إليهم ، فقالوا لأهل المياه : إنّا أسقطنا جَزُوراً ، فأدركوها فوجدوا عُقيلاً باركاً ، وهو يقول :

* إنّ بنىّ ضرجونى بالدمِ *[٤] الأبيات

* * *

ثمّ قابَلنا بوجْهٍ بِشرُه يشفّ ، ونُضرتُه ترِفّ ، وقال : يا قومِ ؛ إنّ اللّيل قد اجلوّذَ ، والنّعاس قد استَحْوذ ، فافزعوا إلى المراقِد ، واغْتَنِموا راحة الرّاقِد ، لتشربُوا نَشاطاً ، وتُبْعَثُوا نِشاطاً ، فتَعُوا ما أُفسِّر ، وبتسّهل لكم المتعسّر ، فاستَصْوَبَ كُلٌّ ما رآه ، وتوسّد وسادة كَرَاه .

فلما وَسَنَتِ الأَجْفَان ، وأَغْفَتِ الضِّيفَان ، وثب إلى النَّاقة فرحَلها ثمّ ارتَحلها ، وقال مخاطباً لها :

---

(١) بعده فى الاغانى :

إذا عــلمٌ غادرنه بتنوفةٍ تذارعْن بالأيدى لآخَر جاسِمِ

(٢) فى الاغانى : « ثم قال أنفذ بى يا جرباء ، فعملت : « وأنا آمنة ؟ قال : نعم ؛ فقالت »

(٣) الصرخدية نسبة الى صرخد : بلد قريب من دمشق . والعقار : الخمر . والمطا : الظهر .

(٤) رواية الأغانى للابيات :

إن بنىّ سَرْبلونى بالدّم من يلق أبطال الرّجال يكلم

ومن يك ذا أوَدٍ يقوَّم شنشنة أعرفهــا من أخزمِ

وأخزم فحل كان لرجل من العرب وكان منجبا فضرب فى ابل رجل آخر — ولم يعلم صاحبه — فرأى بعد ذلك من نسله جملا فقال : شنشنة أعرفها من أخزم .

وانظر الأغانى واللسان — خزم .

سَروجُ يا ناقُ سِيرِى وخِدِى ... وأَدْلِجى وَأَوِّبى وَأَسْئِدى
حتَّى تطا خُفَّاكِ مَرْعَاها النَّدِى ... فَتَنْعَمى حينئذ وَتَسْعَدِى
وَتأمَنِى أن تُتْهِمى وتُنْجِدى ... إِيهٍ فَدَتْكِ النُّوقُ جِدِّى وَاجْهَدِى
وَافْرِى أديم فَدْفَدٍ فَفَدْفَدِ ... وَاقْتَنِعى بالنَّشْحِ عند الموْرِد
وَلَا تَحُطِّى دون ذاك المقصِدِ ... فقد حَلَفْتُ حَلْفَةَ المجتهِدِ
بِحُرْمة البيتِ الرَّفيعِ الْعُمُدِ ... إنَّكِ إنْ أَحْلَلْتِنِى فى بَلدِى

* حَلَلْتِ منِّى بِمَحَلِّ الْوَلَدِ *

* * *

قوله : بشره ، أى طلاقته . يشفّ : يتلألأ ويرِقّ حتى يكاد يصِفُ ماوراءه من السُّرور . نُضْرته : نعمته ورَوْنقه . تَرِفّ : تندَى . استحوذ : غلب واستولَى . افزعوا : الجئوا . لتشربوا نَشاطاً ، أى يتمشى النشاط فى أجسادكم حتى تُرْوَوْا به . تُبعثوا : تنتبهوا . نِشاطاً : جمع نَشيط ككريم وكرام ، ونَشِط ينشَط فهو نشيط ، إذا كان طيّب النفس للعمل . تعوا : تحفظوا . المتعسّر : الصعب . كراه : نومه . سَنَتْ : خالطها الْوَسَن ، وهو النوم . أغفت : نامت .

قوله : خِدِى ، أى أسرعى . تُتْهِمى وتُنْجِدى : تقصدى تِهامة ونَجْداً . إيهٍ ، معناه زيدى فى سيرك . اجهدى : اتعبى . افرى : اقطعى . أديم : جلد . فدفد : أرض صُلْبة ، وقيل مستوية ، وقيل فلاة ، وأراد بالأديم وجهَ الأرض . ونَشَح ينشِح نَشْحاً : شرب قليلاً قليلاً . تحُطّى : تنزلى . العُمُد ، والعمود : ما يقومُ عليه الخِباء .

وقوله يخاطب ناقته :

إنك إن أحللتِنى فى بلدِى ... حَلَلْتِ منِّى بمحلِّ الْوَلَدِ

قد جاء فى كلامهم نظيره وضدّه ، وكلاهما فى بابه حسن . قال الشماخ فى ضدّه من مجازاة الناقة على إحسانها بالسوء :

إذ بلّغْتَنِي وحَمَلْتِ رَحْلِي عَرابَةَ فاشْرَقِي بدمِ الوَتِينِ[1]

وناقضه الآخر فقال :

أقول لناقتى إذ بلغَتْنِي لقد أصبحتِ منى باليَمينِ
فلم أجعلك للقربان طَعْماً ولا قلتُ اشرقى بدم الوتينِ

وتبعه ذو الرُّمة فقال :

أقول لها إذ شمّر الليل واستوتْ بها البِيدُو استَنَّتْ عليها الحزَاوِرُ[2]
إذا ابن أبى موسى بلالاً بلغتِه فقام بفأْسٍ بين رجليك جَازِرُ

وتوجيه الحسن فى هذا المذهب على شنعة ظاهره أنّه لا يبالى بفقدها ، لأن الممدوح يحمله ، ويعطيه فهو فى غنًى عنها . ومن يَعيب هذا يقول مجازاةُ الحسن بالسوء قبيح ، وقد قال رسول الله عليه وسلم للمرأة التى قالت وقد نجت على ناقتِه : نذرتُ إن نجّانى الله عليها أن أنحرها : « بئس ما جازيتِها ، ولا نذر لك فى مال غيرك » والمذهب الأحمد فى ذلك قولُ عبد الله بن رواحة رضى الله عنه حين خرج فى جيش مؤتة يخاطب ناقته :

إذا بلَّغتِني وَحَمَلْتِ رَحْلِي مسيرةَ أربعٍ بعد الحِساء[3]
فشأنَكِ فانعمِى وخلاكِ ذمٌّ ولا أرجع إلى أهلى ورائى

ولهذا تبعه الحريرى فى شعره .

وقال الحسن :

---

(١) ديوانه ٣١٩

(٢) ديوانه ٢٥٣

(٣) الحساء : موضع وانظر معجم البلدان ٢ : ٢٧٤

وإذا المطىّ بنا بلغن محمّداً   فظهورهنّ على الرِّجال حرام[1]
قرّبننا مِنْ خير من وَطِىء الثرى   فلها علينـــا حُرْمَةٌ وذمام

وقال داود بن أسلم يمدح قُثَم بن العباس رضى الله عنهما :

نجوتِ من حَلٍّ ومن رِحْلَةٍ   يا ناق إن بلَّغتِنى من قُثَمْ.[2]
إنّك إنْ بلّغتنيه غـــداً   عاش لنا الخير ومات العَدَمْ

* * *

قال : فعلمت أنّه السَّروجىّ الّذى إذا بَاعَ انبَاع ، وإذا ملأ الصاعَ انصاع .

ولمّا انبَلجَ صَبَاحُ اليَوْم ، وهبَّ النوّام من النّوم ، أعْلَمْتُهُمْ أن الشيخ حين أَغْشَاهُمُ السُّبَات ، طلَّقَهم البَتَات ، وركب الناقة وفَات ؛ فأخذهم ما قَدُم وما حَدُث ، ونَسُوا ما طابَ منه بما خَبُث ؛ ثمّ انشعبنا فى كلّ مَشْعَب ، وذَهَبْنَا تحت كلِّ كَوْكَب .

* * *

قوله : انباع ، أى جرى ومدّ باعه ، ومعناه هرب منه فى سيره .

يقال : صُعْت الشىء فانصاع ، أى فرّقته فتفرّق، ومعناه إذا ملأ كيسه من عطاء قوم راح عنهم. انبلج : أضاء . هبّ : انتبه . أغشاهم : غطَّاهم. السُّبَات : النوم الخفىّ كالغشية . ثعلب: السُّبات ابتداء النوم فى الرأس حتى يبلغ القلب ، وسبت الرجل فهو مسبوت : نعس . والبتات : القطع البائن. فات ، أى فرّ فلا يُلْحَق .

---

(١) ديوانه ٦٤

(٢) الكامل للمبرد ٢ : ٢٩ ونسبها الى سليمان بن قتة عن الاخفش .

وذكر الحريرى فى درّة الغواص : أن قولهم: حَدُث أمر بضم الدال قياساً على أخذهم ما قَدُم وما حَدُث خطأ ، وإنما ضُمّت الدال من حدُث حين قرن بقَدُم للمحافظة على الموازنة، فإذا أفردت لفظة حَدُث زال موجب الضم ، ووجب الردّ إلى الأصل . قال : وأنشدنى بعضُ أدباء خُراسان لأبى الفتح البستى :

جزعت من أمرٍ فظيع قد حَدُثْ أبو تميم وهو شيخ لا حـــدَثْ

* قد حبس الأصلع فى بيت الحدَثْ *

* * *

لم نتعرض فى شرح هــذه المقامة ، لما ثبت فى كتاب المقامات من شرح مُنْشِيها ، بل نُعقْب ما أهمله ، وكان الأولى إثباتُ ما شرح بنصه ؛ إذ هو وَفْقٌ لغرضِه .

قال الشيخ الرئيس أبو محمد القاسم بن عليٍّ رحمه الله تعالى :

قد فسّرتُ سرَّ كلّ لغز تحته ، ولم أُبعد على مَنْ يقرؤه كشفَه ، وقد بقيتْ أَلْيفَاظ اشتملت عليها هذه المقامة ربّما التبس تفسيرُها على بعض مَنْ تقع إليه ، فأحببتُ إيضاحها له ليُكْفَى حَيْرة الشبهة وكُلْفة الفكْرة ، ووصْمَة البحث والمسألة ، وبالله تعالى الاستعانة والقوّة .

قوله : « عشوتُ إلى نار » يعنى تنوّرتُها فقصدتُها فإن لم تقصدها قلت : عَشَوْت عنها ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عن ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ ﴾ أى يُعْرِض .

وقوله : « وأنا أَصْرَد من عينِ الحِرْباء والعَنْزِ الجَرْباء » هذان مَثَلان يُضْربان لمن يبلغ منه البرد ، وذلك لأنَّ الحِرْباء تَدُور أبداً مع الشمس وتستقبلها بعينِها ، ولذلك شبّه ابنُ الرومى الرّقيب بالحِرْباء فى قوله[1] :

ما بالُها قد حُسِّنَتْ ورقيبُها أَبَداً قَبيحٌ ، قَبَّحَ الرُّقَباءَ
ما ذاك إلاّ أنّها شَمْس الضُّحا أبداً يكون رقيبَها الحِرْباءَ

والعنز الجَرْباء لا تدفأ فى الشتاء لقِلّة شعرها . وذكر بعضهم أن العَنْز الجرباء تصحيف المَثَل الأول .

وقوله : « من نحر وارٍ » يعنى الجمل المكتنز شحماً ، الكثير مُخًّا .

وقوله : « عِشاره تخورُ وأعشاره تفور » العِشار : النُّوق الحوامل . والأعشار : البُرْمة العظيمة ، كأنها شُعِبت لعِظَمها ، يقال : بُرْمَةٌ أعشار وجَفْنَةٌ أكسار وثَوْبٌ أسمال وبُرْدٌ أخلاق وحبل أرْمَام ، ووصْف الجماعة منها كوصف الواحد .

وقوله : « فاكهة الشتاء » كَنَى بها عن النار ، ومنه قول بعض المحدَثين :

(١) ديوانه ١ : ٦٣

النّار فاكهة الشتاء فمن يُرِدْ أكل الفواكه شاتياً فليصطَلِ
إنَّ الفوَاكِه فى الشتاء شَهِيَّةٌ والنّار للمقرور أفضَلُ مَأكلِ

وقوله : « موائد كالهالات » يعنى داراتِ القمر ، ودارةُ الشمس تسمّى الطُّفاوة

وقوله : « مَشوش الغَمر » يعنى المنديل ، يقال : مشَّ يده بالمنديل ، أى مَسَحها ، ومنه قول امرئ القيس :

نَمُشُّ بأعراف الجياد أكُفَّنَا إذا نحن قُمْنَا عن شِواء مُضَهّب[1]

وقوله : « مشتهباً فوداه ، أى صارا من الشَّيْب فى لون الأَشْهب ، ومنه قول امرئ القيس :

قالتِ الخنساء لمّا جئتُها شابَ بَعْدِى رأسُ هذا واشتهبْ[2]

وقوله : « رَبَض حَجْرَة » يعنى ناحية ، ويقال فى المثل لمن يشارك فى الرّخاء ويجانب عند البلاء : يَرْتَعُ وسطاً ويَربض حَجْرة .

وقوله : « فاسْتَرْعَى سَمْعَ السّامر » يعنى السُّمّار ؛ لأنَّ السامر اسم للجمع كالحاضر اسم للحىّ النازلين على الماء ، وكالباقر : اسم لجماعة البقر .

وقال بعض أهل اللغة : هو اسم للبقر مع رُعاتها ، واشتقاق السّامر من السّمر ، وهو ظلّ القمر مأخوذ من السمرة ، فلمّا كان غالب أحوال السّمّار أنهم يتحدثون فى ظل القمر اشتُقّ لهم اسم منه ، وإلى هذا يَرْجع قولهم : « لا أكلّمه القَمَرَ والسَّمَر »

وقوله : « ليس بعُشِّك فادْرُجى » هذا مثل يضرب لمن يتعاطَى مالا ينبغى له . والعُشّ : مايكون فى شجرة ، فإذا كان فى حائط أو كهف جبل فهو وَكْر .

وقوله : « الإيناس قبل الإبساس » هذا مثل أيضاً ، ومعناه أنه ينبغى أنْ يؤنِسَ الإنسان ثم يكلِّف ، وأصله أنّ حالب الناقة يُؤنسها حين يَرُوم حلَبها ،

(١) ديوانه ٥٤ (٢) ديوانه ٢٩٣

ثم يبسّ بها للحلب ، والإبساس أن تقول لها : بس بس ، لتَسْكُن وتَدِرّ ، وتسمّى الناقة التى تَدِرّ على الإبساس : الْبَسُوس .

وقوله : « يرغب فى الشَّكْم » الشكم ما أعطيتَه على سبيل المجازاة ، فإن أعطيتَه مبتدئاً فهو الشَّكْد .

وقوله : « ساء أبا مثوانا » يعنى المُضيف الذى أَوَوْا إليه وثوَوْا عنده .

وقوله : « ناقة عِيدِيّة » قيل إنها منسوبة إلى فحل منجب اسمُه عيد ، وقيل : هى منسوبة إلى فخِذ من مَهرة اسمه عيد بن مهرة ، وكانت مَهرة وعِيد تتخذان نجائب الإبل ، فنسبت إليهما .

وقوله : « حلّة سعيدية » هى منسوبة إلى سعيد بن العاص ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم كَسَاه وهو غلام حُلّة فنُسِب جِنْسُهَا إليه .

وقوله : « لاتَرْزَأْ أضيافى زِبالاً » أى لا ترزؤهم شيئاً وإن قل ، والأصل فى الزّبال ما تحمله النملة بفِيها .

وقوله : « شنشنة أخزمية » أشار به إلى المثل الذى ضربه جَدُّ حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج بن أخزم الطائى ، حين نشأ حاتم وتقبَّل أخلاقَ جدّه أخزم فى الجود ، فقال : « شنشنة أعرفها من أخزم » وتمثّل عُقيل بن علّفة به حين قال :

إن بَنِيّ ضرّجُونى بالدمِ مَنْ يَلْقَ آساد الرّجال يُكْلَمِ

* شِنْشِنَةٌ أعرِفها من أَخْزَمِ *

ومن ادّعى أن المثل له فقدسها فيه .

وقوله : « اجلوّذ » أى أسرع فى الذّهاب ومثله اخْرَوَّط .

وقوله : « وَثَب إلَى النَّاقَةِ فرحَلها » يعنى شدّ عليها الرّحْل ، وبه سُمِّيت الراحلة، لأنها فاعلة بمعنى مفعوله كقوله تعالى : ﴿فى عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ ، أى مَرْضية .

وكقوله تعالى : ﴿ مِنْ مَاء دَافِقٍ ﴾ أى مدفوق، والرّاحلة تقع على الناقة والجمل ودخول الهاء فيها للمبالغة ، مثل داهية وراوية .

وقوله : « ارْتحلها » أى ركبها ، وفى الحديث أن النبىّ صلى الله عليه وسلم سجد ، فركبه الحسن فأبطأ فى سجوده ، فلمّا قضى صلاته قال : « إنّ ابنى ارْتَحلنى فكرهتُ أن أُعْجِله » .

وقوله : « ورحَلها » أى أزعجها وأشْخَصها وأجدّ بها فى الرحيل ، ومنه الخبر : « تخرُج عند اقتراب الساعة نارٌ من قَعْرِ عدَن تَرْحَلُ الناس » .

وقوله : « فأدْلجى وأوّبى وأسئدى » . الإدلاج : أن تسير الليل كلّه والاسم منه الدَّلجة بفتح الدال والادّلاج بالتشديد : أن تسير من آخره والاسم منه الدُّلجة ، بضم الدال . وقيل فتحها وضمها بمعنى واحد . والتأويب : سَيْر النّهار وحده . والإسئاد : أن تسيَر ليلاً ونهاراً . والنَّشْح : أن تشرب دُونَ الرّىّ .

وقوله : « ما قَدُم وما حدُث » ، يقال ذلك لمن تستولى الهموم عليه وتتلاعب به . وتضمّ الدال من « حدُث » فى هذا الموضوع وحدَه ، ليوافق لفظها لفظ « قَدُم » ؛ فإن أفردت « حدَث » عن قَدُم وجب فتح الدال من « حدَث » ، ومثله قولهم : هنأنى ومرأنى بحذف الألف من أمْرَأنى إذ ذكر مع « هنأنى » فإن أفردته قلت : أمرأنى الشىء .

وقوله : « ذهبنا تحت كلّ كوكب » هذا المثل يضرب لمن تختلف فى السفر طُرُقهم وتتباين سبلهم .

المقامة الخامسة والأربعون وهى الرّمليّة

حكى الحارث بن همّام قال: كنتُ أخذتُ عن أولِي التَّجارِيب، أن السَّفَر مرآةُ الأعاجيب، فلم أزل أجُوبُ كلَّ تَنُوفة، وأقتحِم كلَّ مَخُوفة، حتى اجتلبتُ كُلَّ أُطروفة؛ فمن أحسن ما لَمَحْتُهُ، وأغربِ ما اسْتَمْلَحتُهُ، أنْ حَضَرْتُ قاضِيَ الرَّمْلة، وكان من أرباب الدّولة والصَّوْلة، وقد ترافع إليه بالٍ فى بالٍ، وذاتُ جمالٍ فى أَسْمال، فهمّ الشَّيْخُ بالكلام، وتِبْيان المَرَام؛ فمنعتْه الفتاة من الإفْصاح، وخَسَأَتْه عنِ النُّبَاح، ثمَّ نَضَتْ عنهـــا فَضْلَةَ الوِشَاح، وأنشدته بلسان السَّلِيطةِ الْوَقَاح:

* * *

أولى التجاريب، أى أصحابها وأهلها. أجوب: أقطع. تَنوفة: قفرة. أقتحم: أدخل. اجتليت: رأيت. أطروفة: عجيبة. لمحته: نظرته. استملحته: وجدته مليحاً. الصولة: الاستطالة. وقد صال إذا استطال وهدّد. ترافع، أى تداعَى للحكومة، ورفع كلّ واحـد صاحبَه. بالٍ: شيخ كبير. فى بالٍ: فى ثوب خَلَق، وأسمال: ثياب خَلَقة، واحدها سَمَل، وسمل الثوبُ وأسمل، ويقال أيضاً: ثوب أسْمال، فيُوصف بالجمع، كما يقال: رمح أقصاد، وبُرْمة أعشار. تبيان المرام: تبيين مراده، وإظهار حجته. الإفصاح: التبيين. خسأته: أبعدته وطردته. النُّباح: الكلام هنا، وخسأ ونبح أصلهما فى الكلب، ويقال: خسأتُ الكلب خَسْئاً: طردته وأبعدته، وخسأ الكلب بنفسه، أى انخسأ،

يتعدّى ولا يتعدّى ، قال تعالى : ﴿ اخْسَئُوا فيها ﴾ أى تباعدوا تباعدَ سُخْط . نضَت : جردت . الوشاح : الحزام ، وهو المنطقة . الفنجديهى : الوِشاح شبه قلادة تنسج من أدم عريضة وتُرَصَّع بالجواهر وغيرها . السّليطة : المستطيلة بلسانها . الْوَقَاح : الَّتى ليس فى وجهها حياء ، فهى تقول ما شاءت .

* * *

يا قاضِيَ الرّمـــلة ياذا الّذِى ... فى يده التَّمـــرةُ والْجَمْرهْ
إليك أشكو جَوْرَ بَعْلِي الَّذِى ... لم يَحْجُجِ الْبَيْتَ سِوَى مَرّهْ
وليتَـــهُ لمَّا قضى نُسْكَهُ ... وخَفَّ ظَهْراً إذْ رَمَى الجمْرهْ
كانَ على رأى أبِي يوسُفٍ ... فى صِـــلَةِ الحِجَّةِ بالعُمْرَهْ
هــذا على أنِّىَ مُذْ ضَمَّنِي ... إليـــهِ لَمْ أعْصِ له أمْرَهْ
فمرُهْ إمَّا ألفَةً حُـــلْوَةً ... تُرْضِي وإمّا فُرقَةً مُرّهْ
من قبـل أن أخلع ثوب الحيا ... فى طاعــة الشيخ أبى مُرّهْ

* * *

الرّملة : قرية بالشأم ، وقسم الشأم خمسة أقسام ، فَخُمس منه فلسطين ومدينته العظمى الرّملة ، والرملة أربعة آلاف ضَيْعة ، ومن مدن فلسطين إيلياء مدينة بيت المقدس ، بينها وبين الرملة ثمانية عشر ميلا . وقال ابنُ ظَفَر : عشرون فرسخاً . التّمرة والجمرة : الخير والشّرّ ، والنفع والضّر ، ويضرب بهما المثل فى هذا المعنى ، ومَنْ قضى له القاضى بشىء فكأنه قد أعطاه . والبيت ، عَنَتْ به فَرْجَها يُحْجَج : يقصد إليه بالجماع ، وقولها . سوى مرّة ، تريد أوّل مرّة وطئها وافترعها ولم يَعُدْلها بعد تلك المرة ، وتعنى بالنّسك افتراعها وما هناك من الدم . وعَنَتْ برمى الجمرة إتيانه لها ، وجَمْع الجمر جمار ، وهى الحجارة الصغار عند العرب ، وجَمَّر الرجل تجميراً : رمى جمار مكة ، قال عمر بن أبى ربيعة :

فلم أر كالتجمــــير منظرَ ناظرٍ ولا كَلَيالى الحج أفلتن ذا هَوَى

ومنه الحديث: « وإذا استجمرتَ فأوتر » معناه تمسَّحت بالحجارة .

[ذكر أبى يوسف صاحب أبى حنيفة]

أبو يوسف ، هو يعقوب بن إبراهيم بن حسين بن سعد بن حبيب الأنصارىّ.

وأبو يوسف كوفىّ صاحَب أبا حنيفة فغلَب عليه ؛ حتى قالوا : أبو يوسف أبو حنيفة ، أى يسدّ مسدّه ويغنى عنه ، وروى عن أبى حنيفة والمطرّف والمغيرة وهشام بن عروة الشيبانى . وكان صدوقاً من أهل الدين والعلم ، وكان قاضىَ القضاة ببغداد لثلاثة خلفاء: المهدى والهادى والرشيد ،وكانت أم جعفر قد استفتتْه فى مسألة ، فأفتاها بما أوجبه العلم عنده ، فوافق بذلك مرادَها ، فأهدت له حُقًّا من فضة فيه طِيب وجام فضة فيه دنانير ، فقال له بعضُ مَنْ حضره : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أهدِيتْ له هدية فجلساؤه شركاؤه فيها » ، فقال أبو يوسف تأوّلتَ الخبر على ظاهره ، والاستحسان قد منع من إمضائه ، فإن ذلك إذ كان هدايا الناس التّمر واللبن ، لا فى هذا الوقت، والهدايا ذهب ووَرِق ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

قال أبو جعفر الطحاوى : ولد أبو يوسف سنة ثلاث عشرة ومائة .

حمّاد : رأيت أبا حنيفة يوماً وعن يمينه أبو يوسف وعن يَساره زُفَر ، وهما يتجادلان فى مسألة ، فلا يقول أبو يوسفَ قولاً إلا أفسده عليه زُفَر ، ولا يقول زُفَر قولاً إلاّ أفسده عليه أبو يوسف إلى وقت الظهر ، فلمّا أذّن المؤذّن رفع أبو حنيفة يدَه ، فضرَب بها فخِذَ زُفر ، وقال : لا تطمع فى رياسة فى بلد فيها أبو يوسف ، فقَضَى لأبى يوسف .

علىّ بن حرملة التيمىّ : قال أبو يوسف : كنت أطلبُ الحديث والفقه ، وأنا مُقِلٌّ رثُّ الحال ، فجاء أبى يوماً وأنا عند أبى حنيفة ، فانصرفت معه ، فقال : يا بنىّ لا تمدَّنَّ رجليك مع أبى حنيفة ، فإن خبز أبى حنفية مستوٍ ، وأنت محتاج إلى المعاش ، فقصَّرْت عن كثير من الطَّلب ، وآثرتُ طاعة والدى . فتفقّدنى أبو حنيفة، وسأل عنى ، فجعلتُ أتعهّد مجلسه ، فلمَّا كان أوّل يوم أتيته بعد تأخُّرى عنه ، قال لى : ما يشغلك عنا ؟ قلت : الشُّغْل بالمعاش ، وطاعة والدى ، فلما انصرف الناس دفع إلىَّ صُرَّة ، وقال : استمتع بهذه ، وإذا فيها مائة درهم ، وقال لى : الزم الجماعة ، فإذا نفِدَتْ فأعلمنى ، فلزمت الحلْقة ، فلما مضت مدَّة يسيرة دفع إلىَّ مائةً أخرى ، ثم كان يتعهَّدنى كذلك ، وما أعلمته بنفاذها قطُّ ، وكأنه كان يخبر بنفادها ، حتى استغنيت وتموّلت .

علىّ بن الجعد : حدَّثنى أبو يوسف ، قال : توفِّىَ أبى إبراهيم ، وخلَّفنى صغيراً فى حِجْر أمىِّ فأسلمتْنى ، إلى قصَّار أخدُمه ، فكنت أدَعُ القصَّار وأمرّ على حلْقة أبى حنيفة فأجلس وأستمع ، فتجىء أمىِّ فتأخذ بيدى وتذهب بى إلى القَصَّار . وكان أبو حنيفة يُعْنَى بى لِمَا كان يرى من حرْصى على التعلُّم ، فلما طال ذلك على أمىِّ وكثُر عليها هربى ، قالت لأبى حنيفة : ما لهذا الصبىِّ فساد غيرك ، هذا صبىٌّ يتيم لاشىء له ، وإنما أطعمه من مِغْزَلى ، وآمل أن يكتسب دانقاً يعود به علىّ نفسه. فقال لها أبو حنيفة : مرِّى يا رعناء ، هاهو ذا يتعلَّم أكل الفالوذج بدُهن الفستق ، فانصرفَتْ عنه وهى تقول : أنت شيخ قد خرِفْت وذهب عقلك .
قال : ثم لزمتُه ونفعنى الله تعالى بالعلْم ورفعنى حتى تقلَّدت القضاء ، فكنت أجالس الرشيد ، وآكل معه على مائدته ، فلما كان فى بعض الأيام قُدِّم إليه فالوذجة . فقال لى : كلْ يا يعقوب ، فليس فى كلِّ يوم يُعْمَل لنا مثلها ، فقلت : وما هذه يا أمير المؤمنين ؟ فقال : هـذه فالوذجة بدُهن فُسْتُق ، فضحكت فقال لى :

مِمَّ تضحك ؟ فقلت : خيراً ، أبقى الله أمير المؤمنين ، فقال : لَتخبرنّى وألحّ علىَّ ، فحدّثته بالقصَّة من أولها إلى آخرها ، فعجب من ذلك ، وقال : لعمرى إنَّ العلم لينفع ويرفع ديناً ودنيا ، وترحَّم على أبى حنيفة ، وقال : إنه كان ينظُر بعين عقله ما لا ينظره غيرُه بعين رأسِه . وأبو يوسف أوَّلُ من دُعِىَ بقاضى القضاة فى الإسلام .

إسحاق الموصلىّ: حدَّثنى بشر بن الوليد ، وسألته : من أين جاء ؟ فقال : كنت عند أبى يوسف القاضى ، وكنت فى حديث ظريف ، فقلت : حدِّثنى به ، فقال : قال لى أبو يوسف : كنت البارحة قد أَوَيْتُ إلى فراشى ، فإذا داقٌّ يدُقّ الباب بشدَّة ، فأخذت علىَّ إزارى ، وخرجت ، فإذا هو ابنُ أعين يقول : أجب أمير المؤمنين ، فقلت : يا أبا حارثة لِى بك حُرْمة ، وهذا وقتٌ كما ترى ، ولست آمن أن يكون أمير المؤمنين دعانى لمكروهٍ ، فإن أمكنك أن تدَع الأمر إلى غدٍ فلعله أن يحدُث له رأى ! فقال : ما لى إلى ذلك من سبيل ، قلت : كيف كان السبب ؟ قال : خرج إلىَّ مسرور الخادم ، فأمرنى أن آتىَ بك أميرَ المؤمنين ، فقلت: أتأذن لِى أن أصبَّ علىَّ ماء وأتحنّط فإن كان أمرٌ كنت قد أحكمتُ شأنى ، وإن رزق الله العافية فلن يضرَّ، فدخلت ففعلت ذلك، وتطيَّبت ثم خرجنا إلى دار الرشيد ومسرور واقف، فقلتُ: يا أبا هاشم خِدمتى وحُرمْتى ، وهذا وقت ضيِّق، أفتدرى لم طلبنى ؟ قال : لا، قلت : فمَن عنده ؟ قال : عيسى ابن جعفر وحدَه ، ثم قال : مُرَّ فإذا صرت فى الصَّحْن فحرِّك رجليك ، فإنه فى الرواق، ففعلت ، فقال : مَنْ هذا ؟ قلت: يعقوب ، قال : ادخل، فدخلت فسلَّمت فردّ علىّ السلام ، وقال : أظنُّنا روَّعناك ؟ قلت : إى والله ومَنْ خَلْفى ، قال : اجلس ، فلما سكن رَوْعى ، قال : يا يعقوب هَلْ تدرى لم دعوتك ؟ قلت : لا ، قال : لأشهدك على هذا ؛ إنَّ عنده جاريةً ، فسألتُه أن يهبَها أو يبيعها لى

فأبى، ووالله لئن لم يفعل لأقتلنّه. فالتفتُّ إلى عيسى وقلت: وما بلغ قَدْر الجارية؟ أتمنعُها أميرَ المؤمنين وتنزّل نفسك هذه المنزلة؟ فقال لى: عجّلْت القول قبل أن تعرف ما عندى، إن علىّ يميناً بالطلاق والعَتاق وصدقة ما أملك ألّا أبيعَها لأحدٍ ولا أهبَها، فالتفت إلىّ الرشيد، فقال لى: هل لك فى ذلك مخرج؟ فقلت: نعم، قال: وما هو؟ قلت: يهب لك نصفَها ويبيعُك نصفَها، فيكون لم يبِعْ ولم يهَبْ، قال عيسى: ويجوز ذلك؟ قلت: نعم، قال: فأشهدك أنى قد وهبتُ له نصفَها، وبعت منه نصفها بمائة ألف دينار، وأُتِيَ بالجارية، فقال: خذها يا أمير المؤمنين بارك الله لك فيها، قال: يا يعقوب، وبقيت واحدة، قلت: يا أمير المؤمنين، وما هى؟ قال: هى مملوكة ولابدّ أن تُستَبرأ، ووالله إنّ نفسى لتخرج إنْ لم أبِتْ معها. فقلت: ياأميرَ المؤمنين تعتقها وتتزوّجها، فإن الحرّة لاتُستبرأ، قال: فإنى قد أعتقتُها، فدعا بمسرور وحسن، وخَطَبْت وحمدت الله ثم زُوّجت على عشرين ألف دينار، ودُفع المال إليها، ثم قال: يا يعقوب انصرف، ثم قال: يا مسرور احمل إلى أبى يوسف مائتى ألف درهم وعشرين تختاً ثياباً، فحمل معى ذلك، قال بشر: فالتفتُّ إلىّ يعقوب، فقال: هل رأيت بأساً فيما فعلت؟ قلت: لا قال: فحقّك منها العُشْر فشكرته، وذهبت لأقوم وإذا بعجوز دخلتْ، فقالت: يا أبا يوسف، بنتُك تقرئك السلام، وتقول: والله ما وصلنى من أمير المؤمنين فى ليلتى هذه إلّا المهر الذى قد عرفت، وقد جَعَلْت إليك النصف منه، وخلّفت الباقى لما أحتاج إليه، فقال: رُدِّيه، فوالله لا قبلتُه، أخرجتُها من الرِّق وزوّجتها من أمير المؤمنين وترضينى بهذا، فلم نزل نتلطف إليه أنا وعمومتى يقبلَها فقبلها وأمر لى بألف دينار.

وأما صلة الحج بالعمرة التى ذكر الحريرى، فإن أبا يوسف فى ذلك مخالف لمالك رضى الله عنهما فى أن القِران فى الحج أفضلُ من الإفراد، وهو مذهب

عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه وقوله : خَفَّ ظهراً ، أى حطَّ عن ظهره بعضَ الذنوب،والذى أرادت أنه لم يأتها ولا جامعها غير مرَّة واحدةً خفّف بها ظهره وبعض شهوته وليته فعل ذلك مرَّتين ، فورَّت بظاهر كلامها عن هذا المعنى .

وجاءت امرأة إلى المغيرة بن شعبة بزوجها تستعديه عليه ، وتذكر أنه عِنّين فقال الرجل :

الله يعلم يا مغيرةُ أننى قد دُسْتُها دَوْسَ الحِصَانِ المُرْسَلِ
وأخذتها أخذ المعنّف شاته عَجْلاَن يذبحُها لقومٍ نُزَّلِ

فقال له المغيرة : إنّى لأرى ذلك فى شمائلك .

وخاصمت الدّهناء بنت مسحل أحد بنى مالك بن سعد بن زيد مناة العجّاج ، وكان من بنى عمها إلى والى اليمامة ، فكان أبوها يُعينها على ذلك ، فقال له أهل اليمامة : ألا تستحى ، تطلب العُسْبَ لابنتك ! فقال : إنّى أحبّ أن يكونَ لها ولد ، فإن أفرطتهم أجِرت ، وإن بَقُوا دعوا الله لها ، فدخلتْ على الوالى ، فقالت : إنى منه بجمع ، فقال : لعلّك تغارين الشيخ ؟ فقالت : إنِّى لأرخى له بادّى ، وأقيم صُلْبى ، فقال العجاج :

أظنت الدهنا وظنّ مسحَلُ أن الأمير بالقضاء يعجِّلُ
عن كسلاتى والحصان يكْسَلُ عن السِّفاد وهو طِرْف هَيْكلُ

فقالت هى :

والله لولا خشيةُ الأميرِ وخشية الشّرطىِّ والمثيرِ
لجلت من شيخ بنى الفقيرِ كجوَلان صَعْبَةٍ عسير

فأخذها وضمها إليه يقبّلها فقالت :

تالله لا تخـــدعُنى بالضَّمِّ إليك والتَّقْبيل بعْد الشَّمِّ

إلاّ بهزْهازٍ يُسَلِّى همِّى ينزع عَنِّى فتجِى فى كُمِّى

فذهب بها إلى أهلها ، فطلّقها فى تلك الليـلة سرًّا . ولو استقبلها العجاج بما وصف ابن الرومى حيث يقول :

ألَا يا هند هل لك فى ممدٍّ غليظٍ تفرحين به متينْ

يشدُّ به حشاك غلام نَيْكٍ من الفتيان منقطِع القرينْ

فمن يره يبولُ يقول : أنثى بدا من فرجها ثلثـا جنينْ

لرضيتْه ، ولم تحا كمه .

قوله :ألفة : صُحْبة . أخلع : أزيل. وأبومرّة . كنية إبليس لعنه الله ، وكنى بذلك لما تقدّم أنّ أبغض الأسماء إلى الله تعالى مرّة وحرب. تقول : إما يصاحبنى صحبةً يرضينى فيها بكثرة الجماع ، وإلا أزلتُ عنى الحياء وخرجت أزنى وأفسق فى طاعة إبليس ، ولو عالجها بمـا كان يعالج به رجل زوجتَه ، وكان إذا وقع بينهما شرٌّ انحنى عليها بالجماع ، فـكانت تقول : لعنك الله ! كلّما وقع بيننا شرّ جئتَنى بشفيع لا أقدر على ردِّه ! فلو جاءها بهذا الشفيع لما رفعتْه إلى الوالى .

محمد بن يحيى بن حَيّان : عاتبت جدَّتى جَدِّى فى قلة الباه ، فقال لها : أنا وأنت على قضاء عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قالت : وما قضاء عمر ؟ قال : قال : إن الرجل إذا أتى امرأته فى كلِّ طُهْرٍ مَرّة فقد أدَّى حقها ، قالت : فـكلُّ الناس تركوا قضاء عمر ، وأقمتُ أنا وأنت عليه !

وقال إعرابى كَبِر وعجَز :

عجبت من أيْرِى كيف يَصْنَعْ أدفعـــه بإصبعى فيرجـعْ

* يقوم بعد الشدِّ ثم يركع *

دخل عيسى بن موسى على جارية له فعجز ، فقال :

النَّفْس تطمع والأسباب عاجزة والنَّفْس تهلِكُ بيْن العجز والطمعِ

خلا ثمامة بن أشرس بجارية له فعجز ، فقال : ويحك ! ما أوسع حِرك ! فقالت :

أنت الفداء لمن قد كان يملؤُهُ ويشتكى الضِّيق منه حين يَلْقاهُ

وكان عُروة بن شُيَيْم أوفرَ الناس أيْراً وأشدّهم نِكاحاً ، وكان إذا أنعظ يستلقى على قفاه فيأتى الفصيل الجرِب فيحتك بأيره يظنّه الجِذْل ، وهو عود فى العطَن يُنْصَب لتحتك به الإبل الجرْبَى .

ويزعمون أنه أصاب أيْرهُ جنب عروس زُفَّت إليه، فقالت له: أتهددنى بالركبة! وهو القائل :

أَلَا رُبَّمَا أنعظتُ حتى إخالُه سينقــدّ للإنعاظ أو يتمزقُ

فأُعمِلُه حتى إذا قلت : قدَونَى أبَى وتمطّى جامحًا يتمطّقُ

وأقبل رجل عَلَى علىّ رضى الله عنه فقال : إن لى امرأةً كلما غشيتُها ، تقول : قتلتنى قتلتنى ! فقال : اقتلها وعلىّ إثمها .

وقع أعشى همدان أسيراً عند الدّيلم ، ثم إن ابنة العلج الذى أسَرَه عشقتْه ، فمكّنَتْه ليلة من نفسها ، فأصبح وقد واقعها ثمان مرات ، فقالت له : يا معشر المسلمين ، أهكذا تفعلون بنسائكم ! قال : هكذا نفعل كلُّنا ، فقالت : بهذا العمل نصرتم ، أفرأيتَ إن خلّصتُك تصطفينى ؟ فعاهدها ، فحلّت قيودَه بالليل ، وأخذت به فى طرقٍ تعرفُها حتى تخلّص ، فقال أسير شاعر فيه :

فمن كان يَفْديه من الأسر مالُه فهمْدان تفديها الغداةَ أيورُها

كان عبدالله بن عمر من أنزه النّاس نفساً، وأبعدِهم عن المزاح وذكر الفاحشة، فجاءه ابنُ أبى عتيق يوماً ، وكان صاحبَ مُزاح وفكاهة ، وفى يده رُقْعة فيها :

ذهبَ الإله بما تعيشُ به وقَمَرْتَ مالكَ أيَّما قَمْرِ
أنفقت مالك غير مكترثٍ في كلِّ زانيةٍ وفي الخمرِ

وكانت هجته بهما امرأتُه عاتكة بنت عبد الرحمن المخزومىّ ، فقال : يا أبا عبد الرحمن ، انظُر هذه الرقعة وأشِرْ علىّ برأيك فيها . فلما قرأها عبد الله استرجع فقال : ما ترى فيمن هجانى بهذا الشعر ؟ قال : أرى أن تعفوَ وتصفح ، فقال : يا أبا عبد الرحمن ، لئن لقيتُ صاحبَه لأنيكنَّه نيكاً جيداً ، فأُخِذ ابن عمر من قوله وأرعد وأزبد ، قال : مالك ؟ غضب الله عليك ! فقال : ما هو إلا ما قلت لك ، وافترقا ، فلماَّ كان بعد أيام لقيه ابنُ عمر ، فأعرض عنه ، فصاح : يا أبا عبد الرحمن ، إنى لقيت صاحبَ البيتين فنِكْتُه والله نَيْكا شافياً ، وأقسم على ذلك ، فصُعِق ابنُ عمر ، فلما رأى ابنُ أبى عتيق ماحلَّ به دنا منه ، وقال له فى أذنه : إنَّها والله امرأتى ، فقام ابنُ عمر وقد سُرِّىَ عنه ، وهو يضحك ، فقبَّله بين عينيه ، وقال أَحْسَنْتَ ، زده من هذا الأدب ، فلن يَهْجوكَ بعدها أبداً .

* * *

فقال له القاضى : قد سمعتُ ما عزتْكَ إليه ، وتوعَّدتك عليه ، فجانِبْ ما عرَّك ، وحاذِرْ أن تُفْرَك ، وتُعْرك ، فجثا الشيخُ على ثفِناته ، وفجَّر ينبُوع نفثاتِه ، وقال :

اسمعْ عَدَاكَ الذَّمُّ قولَ امرئٍ يُوضِح فيما رابَها عُـذْرَهْ
واللهِ ما أعرضتُ عنها قِلًى ولا هَوَى قلبي قَضَى نَذْرَهْ
وإنَّما الدَّهْرُ عَدَا صَرْفُهُ فابتزَّنا الدُّرَّة والذرَّهْ
فمنزلِي قفرٌ كَمَا جيدُها عُطْلٌ من الجِزْعةِ والشَّذْرَهْ
وكنت من قَبْلُ أرى فى الهَوَى ودِينِهِ رأىَ بنى عذرهْ

فمُذْ نبـــا الدَّهْرُ هجرتُ الدُّمَى هِجرانَ عفٍّ آخـــذٍ حِذْرَهْ
وملتُ عن حَرْثِي لا رغبةً عنــه ولكن أتَّقِي بَذْرَهْ
فلا تَلُمْ مَنْ هـــذهِ حالُه واعِطف عليهِ واحتمِلْ هَذْرَهْ

* * *

قوله عَزَتْك، أى نسبتك. توعّدتك: هدّدتك. عرَّك: شانكَ وعابك ولطَّخك بشرّ وساءك، وعرّ فلانٌ قومَه بشرّ: لطَّخهم به. حاذِرْ: خف. نفْرَك: تبْغَض، وفَرِكتِ المرأة زوجَها: أبغضتــه. وتُعْرَك: تُدْلك دَلْـكاً شـديداً مثل دلك الأديم، وعركتُ القوم فى الحرب قاتلتُهم. جَثَا يجثو جُثُواً وجِثيًّا: جلس على رُكبتيه. الثَّفِنات: ما وَلِي الأرض من أعضاء البعير وغَلُظ؛ إذا برَك على الرّكبتين والكِرْكرة. يَنْبوع: ماؤها النابع. نَفَثاته: كلماته. عدَاك: تجاوزك. يُوضح: يُبيّن. رابَها: شكّكها وأدخل عليها الرِّيبــة. أعْرَضْت: صَدَدْت. قِلًى: بغض. هوًى: حبّ. النذر: أن ينذر الإنسان على نفسه شيئاً يفعلُه، وقضى نحبَه: استوفى غرَضه. عدَا: ظلم. صَرْفه: تصرّفه بالإنكاد. ابتزَّنا: سلبنا. الدّرّة: اللؤلؤة. والذّرّة: اللابن، ومالُ العرب الإبل، وعيشهم من لبنها، فلهذا جنَّس بالذّرّة مع الدّرة. جِيدها: عنقها. عُطْل: خال. الجِزْعة: خرَز يمانىّ، وهى التى فيها بياض وسواد. والشَّذر: قطع من ذهب، يفصل بها بين الجواهر، وقيل: الجِزْع: خرَزٌ مُلوّن، والشَّذْر: خرز أخضر، وقيل: الشَّذْرة: القطعة من الذّهب تُلْتَقط من المعدن من غير إذابة الحجارة.

بنى عذْرة، قبيلة يغلب على قلوبهم حبّ النساء، فكلّ مَنْ أفرط فى حبهنّ قيل له: عُذرىّ، فنسب إليهم. وسُئِل أعرابىّ، فقيل له: من أين أنت؟ فقال: من قبيلةٍ إذا أحبُّوا ماتوا، فسمعته جارية، فقالتْ: عذرِىّ وربّ الكعبة.

قوله: نبـا، أى ارتفع وزال خيرُه. الدُّمَى: النّساء المشبهات فى بياضهن وصفائهن بصُوَر الرّخام، وكان العاشق من العرب إذا غلب عليه العِشْق

والهَجْر ذهب إلى الأمصار فاشترى صُورةً من رُخام على صورة محبوبته ؛ فإذا ركب بعيرَه أجلس الصُّورة بين يديه يحدّثها ، ويستريح إليها ، فسمّوا النساء دُمًى تشبيهاً بصور الرخام . عفّ : عفيف . البَذْر : ما يزرع فى الأرض من الحبوب ، وحرثه نكاحه ، وأراد بالبذْر مايزرعه فيها من النُّطفة . هَذْره : هذيانه ، وكلامه الفارغ .

* * *

قال : فالْتَظَتِ المرأة من مَقَالِه ، وانْتَضَتِ الْحُجَجَ لجدَالِه ، وقالت له : ويلك يامرثمان ! يا مَنْ هو لاطامٌ ولاطِمان ؛ أَتَضِيق بالولد ذَرْعاً ، ولكلّ أكولةٍ مَرْعًى ؛ لقد ضلّ فهمُك ، وأخطأ سهمُك ، وسفِهَتْ نفسُك ، وشقِيتْ بك عِرْسُك .

فقال لها القاضى : أمّا أنتِ فلو جادَلْتِ الخنساء ، لا نْثَنَتْ عنكِ خَرْساءَ . وأمّا هو فإن كانَ صَدَق فى زعمه ، ودَنْوى عُذْمِه ، فَلَهُ فى همّ قَبْقَبه ، مايَشْغَلُه عن ذَبْذَبِه . فأطرقَتْ تنظر ازوراراً ، ولا تَرْجع حِواراً . حتى قلنا قد راجعها الْخَفر ، أو حاقَ بها الظفر . فقال لها الشيخ : تَعْساً لكِ إن زَخْرَفْتِ ، أو كتمتِ ما عَرَفْتِ . فقالت : وَيْحك ! وهل بعد المنافرة كَتْم ، أو بَقِيَ لنا على سرٍّ ختْم ! وما فينا إلاّ مَنْ صَدَق ، وهتك صَوْنَه إذ نَطَق ، فليتنا لاقينا البَكَمَ ، ولم نَاْتِ الحَكَمَ ، ثم التفعت بوشاحِها ، وتباكَتْ لافتِضاحِها ، وجعل القاضى يَعْجَب من خطْبِهما ويُعَجِّب ، ويلوم لهما الدَّهرَ ويُؤنّب ، ثم أَحْضَرَ من الورِق أَلْفَيْن ، وقال:

أَرضيا بهما الأَجْوَفَين، وعاصِيا النازغَ بين الإلفين، فشكراه على حسن السَّراح، وانطلقا وهما كالماء والراح.

* * *

التظَت: حَتَدَتْ والتهبت غيظاً. وانتضت: جَرّدَتْ: جِداله: خصامه. مَرْقعان: كثير الرّقاعة، والرّقاعة كالحماقة، كأن عمله تخرّق فرُقِّع. وضِقت بالشيء ذرعاً، إذا لم تقــدر عليه. ضَلّ: تحيّر. عِرسك: زوجُك. جادلت: خاصمت. انثنت: رجعت. خرساء: بكماء. زَعْمه: ما ادّعاه. قوله: قبقبه، القَبْقَب: البطن، والقبقبة: الصوت الّذى يدور فيه، فسمِّىَ به.

والذّبذب: الذّكر، وأصل الذبذبة الاهتزاز والاضطراب،فسمِّىَ الذّبذبَ لحركته. وَنَظَرَ عمر بن الخطاب رضى الله عنـه إلى شابّ، فقال: يا شابّ إن وُقيتَ شرّ ثلاث، وُقيتَ شرّ الشَّباب: لقلقك، وذبذبك، وقبقبك. الأصمعىّ: اللقلق: اللّسان، والقبقب البطن، والذبذب: الذكر.

قوله: أَطرقتْ، أى سكنت ميلةً إلى الأرض رأْسها حياء. ازوراراً: مَيَلاناً. والحِوار: مراجعة الـكلام. الخفَر: الحياء. حاق: لحِق. والظَّفَر هنا: غلبة حُجَّتها وظفرها به. تعساً: هلاكاً. زَخْرفت هنا: زيّنَت الباطل. المنافرة: المحاكمة. ختَمْ: ربط، أى قد أَظهرنا جميع أَسرارنا. هَتَك: خرق. صونه: صيانته. لاقينا البَـكَم، أى أصابنا البَـكَم وخلقنا خُرْساً، فلم نبد ما أَبديناه من القبائح، والبـكَم: الخرَس مع عىّ. وقال ثعلب: البَـكَم: أَن يولد الإنسان لا ينطق ولا يسمع ولا يبصر، وبكُم بَـكَماً وبَـكاماً. والحـكَم: الحاكم. التفَعت: التفّت. والوشاح: الثوب، وقد توشحت بثوبها، جعلته موضع وشاحها. لافتضاحها: لاشتهارها بالقبائح. خَطْبهما: أمرهما. يعجّب: يجعل غيره يُعْجَب منــه. يؤنّب: يوبّخ ويلوم. الورِق: الدراهم. الأجوفين: البطن والفرج. النازغ: الماشى بالشرّ المفسد، ونزغ الشيطان بينهم ينزغ نزغاً، أغوى وأفسد. والإلفين:

الصاحبين . السَّراح : الانصراف . والرّاح : الخمر ، وهى سريعة الامتزاج مع الماء ، فيُضْرَب بهما المثل فى امتزاج نفوس المتحابين .

وقد جاء من ذلك فى الشّعر ما يُستحسن ، قال ابنُ أَبى فَنَن : أَحسن ما قيل فيه قولُ العباس بن الأحنف :

ما أَنسَ ما أنسَ يُمناها مطَّفةً على فؤادى ويُسراها على رَاسِى[١]

وقولها : ليته ثوبٌ على جَسدى وليتنى كنتُ سِرْبالا لعباس

أَوْليتَه كان لى خمراً وكنت له من ماء مزنٍ فكنا الدَّهْرَ فى كاس

قال الحاتمى : وأحسن دعبل كل الإحسان فى قوله :

الله يعـــلم والأيام دائرةٌ والمرء ما بين إيحاش وإينـاس[٢]

أَنى أُحبُّــكِ حبًّا لو تضمّنَهُ سَلمى سميُّك دكَّ الشاهقَ الرَّاسى[٣]

حبًّا تلبّس بالأحشاء وامتزجا تمازُجَ المـاء بالصَّهْباءِ فى الـكاس

وقال البحترى فأحسن :

تهتزُّ مِثلَ اهتزازِ الغصن حرّكه مُرُورُ غيثٍ من الوَسمىّ سَحَّاحِ[٤]

إِنى وَجدتك من قلبى بمـنزلةٍ هى المصافاةُ بين المـاء وَالرّاحِ

* * *

وطفِق القـاضى بَعْـد مَسْرَحِهماَ ، وتَناَئى شَبَحهما ، يُثْنى على أدَبِهما ، ويقولُ : هَلْ من عارفٍ بهما ؟ فقال له عينُ أعوانه ، وخالصةُ خُلْصاَنِه : أما الشيخ فالسَّرُوجىّ المشهودُ بفضلِهِ ، وأمّا المرأةُ فقَعيدة رَحْلِهِ ، وأمّا تَخاَ كُمهما فكيدةٌ من فِعْله ، وأُحْبُولَةٌ من حَبَائل خَتْله ،

---

(١) ديوانه ١٤٦

(٢) ديوانه ٩٤

(٣) سلمى أحد جبلى طيء .

(٤) ديوانه ٤٤٢

فأحفظ القاضيَ ما سمع ، وَتلهَّبَ كيف خُدِع . ثم قال للواشى بِهـا : قُمْ فردَّهما ، ثم اقْصِدْهما وصِدْهما . فنهض ينفض مِذْرويه ، ثم عاد يَضْرب أَصْدَرَيْه . فقال له القاضى : أظهِرْنا على ما نَبَشْتَ ، ولا تُخْفِ عَنَّا ما استَخبثْت . فقال : ما زلتُ أستقرِى الطرق ، وأستفتح الغُلَق ، إلى أن أدْرَكتُهما مُصْحِرَيْن، وقد زمَّا مَطِيَّ البين ، فرغَّبتهما فى العَلل ، وكفلت لهما بنيلِ الأمل ، فأُشرِب قلبَ الشيخ أنْ ييأس ، وقال : الفِرار بقُرابِ أكيس ، وقالت هى : بل العوْد أحمد ، والفَروقة يَكْمَد .

* * *

قوله طَفِق ، أى جعـل . مسرحهما : انصرافهما . تنائى شبحهما : بُعْد شَخْصهما . وعينالأعوان : مقدّمهم . والخُلْصان : الأحباب. وخالصة : خيار ، فكأنه خيار خيارهم . قعيدة رَحْلِهِ : زوجته وصاحبة بيته . مكيدة : مكر . أحبولة : شبكة . ختْله : خداعه . أحفظ : أغضب . تلهف : تندّم فصاح : يا لهفى ! . رُدّهما : اطلبهما . مِذْرويه : أطراف أليتيه . والأصدران : عرقان فى الصُّدغين ، وقيل : هما المنكبان ، وقيـل : العطْفان ، ويقال : أتى فلان ينفض مِذْرَوَيْه ، إذا جاء غاضباً يتهدّد . ويَضْرب أصدريه ، إذا جاء فارغاً بلا حاجة ، فإذا قضى حاجته قيل: جاء ثانياً من عنانه . وقال الحسن البصرىُّ ، ورأى الناسَ يوم عيد يضحكون ، فقال : تلقَى أحدَهم أبيض بضًّا يملُخ فى الباطل مَلْخاً ، ينفض مِذْرَوَيْه ، ويضرب أصدريه ، يقول : ها أنا ذا فاعرفونى ، قد عرفناك، مقتَك الله ، ومقتك الصالحون . يملُخ : يلج ، وقيل يتثنّى ويتكسَّر . استخبثْت : أصبته خبيثاً . أستقرى : أتتبع . الغُلُق : جمع غُلْقة ، وهى المغالق التى تسَدّ بها الطرق وغيرها ، وباب غلِق ، أى مغلَق . مصحرين : ذاهبين فى

الصحراء . زَمًّا : شدًّا . والْبَيْن : الفراق . والعَلَل هنـا : العطاء . كَفَلْت : ضمنت . نيل الأمل : درك الحاجة . أُشرِب : دوخل وألقى فى نفسه ، والفِرار بقُراب أكيس ، مثـــل ، وقُراب الشيء : ما يقاربه وأراد الهروب باليسير والقريب أكْيَس من الرّجوع إلى الطمع ، ويروى:الفرار بِقِراب، بكسر القاف، وهو مصدر بمعنى المقاربة ، والمثل لجابر بن عمر المازنى ، وكان سائراً فى طريق ومعه أوْفَى بن مطر وشهاب بن قيس، فتراءى آثار رَجُلين معهما فرسان وبعيران وكان قائفاً فقال : أرى آثار رَجُلين شديد كَلَبُهما ، عزيز سَلَبُهما ، والفِرار بقُرابٍ أكيس ، ثم مضى هارباً ، والمعنى: فرارنا ونحن بقرب السّلامة خير لنا من أن نتورّط فى المكروه . والْعَوْد أحمد ، أى أوفق وأحق أن يوجد محموداً ، والْعَوْد أحمد مثل ، أى الرجوع أحسن ، وقال المرقش :

وأحسن فيما كان بينى وبينـه فإن عاد بالإحسان فالعوْد أحمـدُ

وأنشد أبو الحسن لعمارة :

بنى دارم إن يفن عُمْرى فقد مَضَى حياتى لكُمْ منى ثناءٌ مخـــلَّدُ(١)
بدأتمْ فأحسنتم وأثنيت جاهداً وإن عدتُمُ أحسنتُ والْعَوْد أحمدُ

قوله : الفَروقة ، أى الفزّاع الكثير الْفَرَق وهو الخوف . يكمَد : يحزن حزناً لا يستطيع إمضاءه . تبيَّن : علم . غَرَر : خطر .

* * *

فلمَّا تبيَّن الشيخ سَفَه رأيها ، وغَرَرَ اجترائها ، أمسك ذَلاذِلهاَ ، ثم أنشأ يقول لهاَ :

دونَكِ نُصْحى فاقتفى سُبْلَهْ واغْنَىْ عن التفصيل بالجُمْلَهْ
طيرى متى نقَّرْتِ عن نَخْلةٍ وطلِّقيهاَ بَتَّة بتْـــلَهْ

(١) الكامل ــ بشرح المرصفى ١ : ١٢٩

وحاذِرى الْعَوْد إليها ولوْ سبَّلَها نَاطُورُها الأبْلَهْ
نخــــير ما لِلّص ألاَّ يُرَى بِبُقعَةٍ فيهـــا له عُمْلَهْ

* * *

سَفَه : خفة ، والسفيه : الخفيف العقل . اجترائها : جسارتها وجرأتها . ذلاذلها : أطراف ثوبها، وذلاذل القميص : ما يلى الأرض من أسافله ، الواحدُ ذُلْذُل مثل قُمْقُم وقَماقِم . دونك : معناه قاربك ما تطلب فتناوله . اقتفِى : اتبعى . سُبْله : طرقه . نقَّرتِ : أكلتِ ثمرتها بمنقارك ، وهو مثل ، ونقّرت أيضاً : بحثت ، والتَّنقير : البحث عن الشيء ، يقول : متى ما أخذتَ من ثمر نخلة بنصيبٍ ففارقها ولا ترجع إليها ، وفى حديث أبى سعيد قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « خلقت النَّخْلة والرّمانة والعِنب من فَضْل طينة آدم عليه السلام » ، والبتّة البَتْلة : التى لا رجعة فيها ، والبتُّ : القطع . سبَّلها : طرّقها وأصله لابن السبيل . الناطور : حارس النّخل خاصة ، بطاء غير معجمة ، وقيل : هو حافظ الكرْم ، والجمع النّواطير . الأبله : الكثير الغفلة . اللّصّ : السارق . وعُمْلة : سَرِقة وفَعْلة قبيحة .

* * *

ثم قال لى : لقدْ عُنّيت ، فيما وُلّيت ، فارْجع من حيْث جِئْتَ ، وقل لِمُرْسِلِك إنْ شئت :

رُوَيدكَ لا تُعقِبْ جميلَك بالأذى فتَضْحِى وشَمْلُ المالِ والحمْدِ منصدِعْ
ولا تتغضّبْ مِنْ تزيُّدِ سائلٍ فما هو فى صَوْغ اللّسان بمبتدِعْ
وإن تكُ قدْ ساءتْك منّى خَديعَةٌ فقبْلَكَ شيخُ الأشعريّين قد خُدِعْ

فقال له القاضى : قاتَله الله ! فما أحْسَنَ شجونَه ، وأملح فنونَه !

ثم إنه أَصْحَبَ رائدَه بُرْدَيْن، وَصُرّةً مِنَ الْعَيْن، وقال له : سِرْ سَيْرَ من لا يَرَى الالتفات ، إلى أنْ ترى الشيخ والْفَتاة، قبِّلْ يديْهما بهذا الحِباء ، وبيِّن لهما انْخِداعى لِلْأُدَباء .

قال الرّاوى : فلم أرَ فى الاغتراب ، كَهَذا العُجاب ، ولا سمعتُ بمثله مِمّن جَالَ وجَاب .

* * *

عُنِيِّت: تعبت . وُلِّيت : كُلِّفت . رُوَيدك : رفقَك ، أى أَوْلِنَا منك الرِّفق والمهل . لا تُعْقِب : لا تَتْبَع . الأَذَى : الضَّرَر . وشَمْل : جَمْع . منصدِع : متفرّق . صَوْغ اللسان : كذبه وحِيَله ، وفى الحديث « هـذه كذبة صاغها الصوّاغ »، أى اختلقَها الـكذّاب . مُبْتَدِع : أوّل فاعل . ساءتك : أحزنتك .

شيخ الأشعريين ، هو أبو موسى الأشعرى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واسمه عبدالله بن قيس ، من ولد الأشعر بن أُدَد بن زيد بن يشجب ابْن يَعرب بن كَهلان بن سبأ ، قدم مكة وأسلَم بها ، ثم هاجر إلى أرض الحبشة ، ثم قدم مع جعفر بن أبى طالب إلى المدينة ، والّذى خدعه هو عمرو بن العاص فى قصّـة التحكيم بين علىّ ومعاوية رضى الله عنهما ، وهى قصّة مشهورة فى كتاب العقد وفى كتاب المسعودى وغيرهما من كتب الأدب، وفيهما أشياء منا كير فى حق الصحابة رضى الله عنهم ، فلذلك أضربنا عن ذكرها .

رائده : طالبه . أصحبه : جعله فى صُحْبته . بُرْدين : ثوبين : صُرَّة : خرقة تشدّ فيها الدراهم . العين : الذهب والفضة . سير من لا يرى الالتفات ، أى سيراً سريعاً لا يلتفت معه إلى مهمّ . قوله : بلّ أيديهما ، يقال: بللت به أبلّ إذا ظفرتَ به ، وبلّك الله بابن ، أى رزقـكه ، وفى الحديث : « بُلُّوا أرحامكم ولو بالسّلام » أى صِلُوها ، وَبَلَلْتَ رَحِمى أبُلّها بللًاو بِلالاً ، إذا نديتَها ووصلتَها . الحِباء : العطاء . جال : تصرّف وقطع البلاد بالمشى .

المقامة السادسة والأربعون وهي الحلبية

روى الحارث بن همّام قال : نَزَع بي إلى حَلَب ، شوقٌ غلَب ، وطلبٌ يا له مِنْ طلب ! وكنتُ يومئذٍ خفيفَ الحاذ ، حديث النفاذ ، فأخذتُ أُهْبَة السَّيْر ، وخفقْتُ نحوَها خُفُوقَ الطَّيْر ؛ ولم أزل مذ حَلَلْت رُبُوعَها ، وارتبعتُ ربيعَها ، أُفانى الأَيّام ، فيما يشفِي الغرام ، ويُرْوى الأُوام ؛ إلى أن أقصر القلب عن وَلُوعه ، واستطار غرابُ البين بعد وقوعه .

* * *

نزَع بى ، أى شوّقنى وحملنى .

[ذكر مدينة حلب]

حلَب : مدينة عظيمة بالشام وقنّسرين ، خمس من أخماس الشام ، ومدينته العظمى حلَب وساحلها أنطاكيَة . وذكرها شيخنا ابن جبير فقال : حلب بلدةٌ قدرها خطير ، وذكرُها فى كلّ زمان يطير ، خُطَّابها من الملوك كثير ؛ كانت فى القديم ربوة فيما يقال ، كان يأوى إليها إبراهيم الخليل عليه السلام بغنمه، فيحلُبها هناك ويتصدّق بلبنها، فسميت حَلَب، وبها مشهد كريم منسوب إليه، يتبرّك الناس بالصلاة فيه ، ولها قلعة شهيرة الامتناع ،بائنة الارتفاع،معدومة الشبه والنظير فى القلاع ، تنزّهت حصانةً أن تُرام أو تُستطاع ، قاعدة كبيرة ، ومائدة من الأرض مستديرة ، منحوتة الأرجاء ، موضوعة على نسبة اعتدال واستواء ، فسبحان من أحكم تدبيرها وتقديرها ، وأبدع كيف شاء تصويرها

وتدويرها . ومن كمال جمالها الزائد على المشترط لحصانة القلع أنّ الماء بها نابع ، وقد صنع عليها جفان ، والطعام يصير فيها الدهرَ كلَّه ، وليس من شروط الحصانة أهمّ من هاتين الخلّتين ، ويُطِيف بجبلها سوران حصينان ، يعترض دونهما خندق بالماء ، فلا يكاد البصر يبلغ مدى عمقه ،وسُورها الأعلى بجلّل ،كله أبراج منتظمة فيها القلالى المنيعة ، قد تفتحت كلّها طبقات ، وكل برج منها مسكون ، والبلد ضخم جدًّا ، جميل الترتيب ، أسواقه متصلة الانتظام ، تخرج من سماط صَنْعَة إلى سماط أخرى ، وقيساريتها وجامعها ومدارسها ما سُمع بمثـــل وصفها فى بلد من بلاد الله تعالى ؛ كل سوق من أسواقها مسقّف بالخشب ، يقيِّدُ البصر حسناً ويستوقف المستوفز تعجباً . وقيساريتها حديقة بستان نظافة وجمالاً ، مطيفة بجامعها .وأكثر حوانيتها خزائن من الخشب البديع الصنعة ،قد اتَّصل السماط كله خزانة واحدة ، وتخللتْها شرُف حسنة ، بديعة النقش وتفتَّحَت كلها حوانيت ، فجاءتْ فى أجمل منظر ، وكلّ سِماط منها يتّصل بباب من أبواب الجامع .

ثم أخذ ابن جبير فى وصف الجامع والمدارس والبيمارستان بأنواع من الأوصاف الحسان .

* * *

قوله : يا له ! معناه التعّجب كأنه قال : ما أعجبه من طلب : خفيف الحاذ ، أى قليل العيال ، وتقدّم الحاذُ فى السادسة . حثيث النفاذ : سريع المضىّ فى أموره ، ورجل نافذ ونفُوذ ونفّاذ: ماض فى جميع أموره . أُهبة :عدّة .خففْت : ارتحلت بسرعة . حللت ربوعها : نزلت فى بيوتها . ارتبعت ربيعها : التمست خيرَها . أفانى : أقاطع ، وفنى الشىء ، تم وانقطع . والغرام : عذاب الحب . والأوام : العطش. وأقصر : كف ، وأقصرت عن الشىء : تركتَه وأنت عليه قادر . وَلوعه : مصدر ولع به إذا أحبه ولزمه . استطار ، بمعنى انتشر . وقوعه : نزوله ، وهم يتشاءمون بالغراب لأنه يؤذِن عندهم بالفراق ، وذلك أنهم لا يرون

الغراب عند منازلهم إلاّ إذا حطّوا بيوتَهم للرحيل ، ينزل يلتمس ما يتركون مما يُلقَط ، ولذلك سمّوه غراب البين ، واشتقوا من اسمه الغريب والغُرْبة .

* * *

فأغراني البال الخِلْو ، والمَرَحُ الحُلو ؛ بأنْ أقصد حِمْص لأصطاف ببقعتها ، وأسبُر رَقاعة أهلِ رُقعتها ؛ فأسرعْتُ إليها إسراعَ النّجم ؛ إذا انقضّ للرّجْم ، فحين خيّمتُ بِرُسُومها ، ووجدتُ رَوْح نَسيمها ، لمح طرفي شيخاً قد أقبل هَرِيرُه ، وأدبر غريرُه ، وعند عشرة صِبْيان ، صِنْوانٌ وغيرُ صنوان ، فطاوعْتُ في قصده الحِرْص ؛ لأخبُر به أدباء حِمْص ، فبشَّ بي حينِ وافيتُه ، وحيّا بأحسنَ مِمّا حَيَّيْته ، فجلست إليه لأبْلوَجَنَى نُطْقِهِ ، وأكْتَنِه كُنْه حُمْقه ، فما لبث أنْ أشار بِعُصَيّته ، إلى كُبْر أُصَيْبِيَتِهِ ، وقال له : أنشد الأبيات العَواطل ، واحذرْ أن تُماطل ، فجثا جَثْوةَ ليث ، وأنشد من غير رَيْث . .

* * *

أغراني : حَرّضَني وسَلّطَنِي . الخِلْو : الفارغ . المرح : النشاط وخِفّة النفس من الطرب .

[ذكر حمص]

حمص مدينة عظيمة ، بينها وبين دمشق مائة ميل ، وأرض حمص خُمْسٌ من أخماس الشام ، وهي مدينة يقال إن لها سوراً وفي وسطها حصنها ، ولا تدخلها حيّة ولا عقرب ، وأوّل من ابتدع الحسابَ أهلُها ، لأنهم كانوا تجّاراً بإشبيلية وأحوازها ، نزل أهلُ حمص عند افتتاح الأندلس ، فلذلك سميت حمص ، أخذت من قولهم : حَمَص الجُرْح يحمِص حُمُوصاً ، وانحمص ينحمِص انحماصاً ، إذا ذهب وَرَمُه .

قال اليعقوبي : مدينة حِمْص من أوسع مبانى الشام ، ولها نهر عظيم ، منه يشرب أهلُها ، افتتحها أبو عبيـدة بن الجراح رضى الله عنه . وفى حديث عمر رضى الله عنه : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لَيبعثَنّ الله تعالى من مدينةٍ بالشام يقال لها حمص سبعين ألفاً يوم القيامة لا حساب عليهم » .

ودخلها شيخُنا ابن جبير سنة ثمانين وخمسمائة وقال : هى فسيحة الساحة ، مستطيلة المساحة ، نزهة لعين مبصرها من النَّظافة والملاحة ، موضوعة فى بسيط من الأرض ، عريض مداه ، لا يتخرّقه النسيم بمسراه ، ويكاد البصر يقف دون منتهاه ، وماؤها يجلَب لها من نهرها العاصى ، وهو منهـا بنحو ميل ، ومنبعه فى مغارة بسفح جبل بمرحلة منها ، بموصل يقابل بَعْلبكّ . وأهل حمص موصوفون بالنَّجدة لمجاورتهم العدوّ ، وأسوارها فى غاية العتاقة والوثاقة ، مرصوص بناؤها بالحجارة السود ، وأما داخلها فما شئت من بادية شَعْثاء ، خَلَقة الأرجاء لا إشراق لآفاقها ، ولا رَوْنَق لأسواقها ، وما ظنُّك ببلد حصن الأكراد منه على أميال يسيرة ، وتجد فيها عند اطّلاعك عليها بعض شَبَهٍ من مدينة إشبيليَة يقع للحين فى نفسك حبّها ، ولذلك سميت باسمها فى القديم ، ولهذا نزل إشبيليّة بعضُ أعراب حمص .

وقال الفنجديهى : بأهل حمص يضرب المثل فى الحمـاقة ، وكثرة الرقاعة ، وتنسب إليهم حكايات مضحكة ، حكى عن بعضهم أنه قال : دخلتُها وفى فمى درهم لأشترى به بعض ما اشتهيه ، فإذا برجلٍ بباب الجامع جالس على كرسىّ ، وعلى رأسه عمامة محنّك بها على قانسوة ، وقد لبس فَرْوة مقلوبة بلا سراويل ، وقد تقلّد بسيف ، وفى حجره مصحف يقرأ فيه ، وعنده كلب رابض يمسكه بمِقْوَدِه ، فسلّمت عليه ، فردّ السلام ، وقلت له : أترى القوم صلُّوا ؟ فقال لى : أو أنت أعمى ! أما ترانى قاعـداً ! قلت : من أنت ؟ قال : أنا أبو خالد إمام الجامع ، فقلت : ما هذه الحلية ؟ قال : وِرْد رجل زنديق يقرأ السبع الطوال ، ويشتم أبا بكر الصّناديقى وعمر القواريرىّ وعثمـان بن أبى سفيـان ومعاوية

ابن أبي غَسَّان الذي هو من حملة العرش ، وزوّجه النبي ابنتـه عائشة في زمن الحجَّاج بن يوسف ، فاستولدها الحسن والحسين ، فقلت : ما أعرَفك بالمقالة والأنساب ! قال : وما خُفِيَ عنك أكثر ، قلت : أتحفظ القرآن ؟ قال : نعم ، قلت : فاقرأ شيئاً منه ، فقال : بسم الله الرحمن الرحيم « وَإِذْ قَالَ لُقْمَانَ لابْنِهِ وَهوَ يَعِظُهُ يا بُنَيّ لا تَقْصص رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْـداً وأَكِيدُ كَيْداً ، فَمَهِّل الْكَافِرِينَ أَمْهِلهم رُوَيْداً » ، فصفعته صفعةً سقطت عمامتُه ، وبقي التحنّك في عنقه ، فصاح بالناس : قلنسوتي ! وقال : احملوه إلى المحتسِب ، فأوصلوني إلى رجـل حاسر حافٍ ، قد لبس درّاعة بلا سراويل ، فقال : ما صنع هذا ؟ قالوا : صفع إمام الجامع ، قال : يا مسكين ، أهلكْتَ نفسك ، قلت :هذا حكم الله فصبراً عليه ؟ قال : أيّما أحبّ إليك سَمْل عينيك، أو قطع يدْيك ، أو تدفع نصف درهم ؟ قال : فرفعت يدى وصفعت المحتسب صفعة ، ثم أخرجت الدرهم من فمي ، وقلت : يا سيدى خذ نصف درهم لك ، ونصف درهم لإمامك .

وقال فيهم بعض الشعراء :

لأنّهم أهـلُ حمص لا عقول لهمْ   بهائم غير معدودين في النَّاسِ

ونزلها في القـديم أهلُ اليمن ، ولم يكن فيها من مصر إلا ثلاثة أبيات ، وكان لهم إمام من مصر ، فغضبوا عليه وعزلوه،فقال فيهم ديك الجن يهجوهم:

سمعوا الصـلاة على النبيِّ تَوالَى   فتفرّقوا شِيَعاً وقالُوا : لَا ، لَا[1]

ثم استمرّ على الصَّـلاة إمامهم   فتحزّبوا ورمَى الرِّجالُ رجالاَ

يا أهلَ حِمْصَ توقّعوا من عارها   خِزْياً يحِلُّ عليكمُ وَوَبالاَ

شاهت وجوهكمُ وجوهاً طالما   رغمت معاطسها وسـاءت حالاَ

* * *

(١) ديوانه ١١٠ ، وآخر بيت في هذه المقطوعة :

إِنْ يُثْنِ مَنْ صلَّى عليه كرامةً   فالله قدْ صـلَّى عليـه تعالَى

قوله : أصطاف ، أى أسكن فى الصَّيف . وأسبر : أختبر . والرَّقاعة : تجاوز الحدّ فى الوقاحة وصلابة الوجه . والبقعة : القطعة من الأرض، وكذلك الرقعة . وانقضَّ النجم للرجم ، إذا استطار لرجم الشياطين ، وأراد أنه أسرع إليها بسرعة الخيل كسرعة النجم المنقضّ ، قال خلف الأحْمر :

كالكوكب الدّرىّ مبتهلاً ... سيراً يفوت الطرفَ أسرعُهْ

وكأنما جهدت أليّتُهُ ... ألَّا تمس الأرض أربَعُهُ

وقال ابن الرومى :

خذها تَبُوعاً لمن أُولى مسوَّمة ... كأنها كوكب فى إثر عفريتِ[1]

وما أحسنَ قول ابن المعتز فى هذا المعنى :

كأنما النجم والعفريت مسترِقاً ... للسمع ينقضّ يُلْقِي خلفه لهَبَهْ

كفارس حلّ من عجب عمامتَه ... فردّها كلّها من خلفه عذَبَهْ

قوله : خيَّمت ، أى أقمت ، وأصله ضربت خَيْمة . رسومها : آثارها . روْح نسيمها : لذة ريحها : لمح طرفى : أبصرتْ عينى . هريره : صياحه ، وقد هرّ الكلب هريراً ، إذا نبح وحمل على مَنْ أنكره . وغريره : شبابُهُ، والغِرَّة : صغر السن، ومعناه أقبل شرّه وسوء خلقه ، وأدبر صباه وحسن خُلُقه ، ولما كانت خليقته فى هذه المقامة منبسطة مع صبيانه صار هذا التفسير فيه بُعْد . وقال بعضهم : أقبل هريره، أقبل هَرَمُهُ ويُبْسه ، من هرّ الشوكُ إذا اشتدّ يبْسه حتى صار كأنياب الهرّ ، وهذا يوافق الغرض ، فمعناه أقبل هَرَمه وكِبَرهُ وأدبر صباه وصِغَرهُ ، ومثله كالبت الإبل شجر الشَّوك، إذا رعته كأنها رعت فيه أنياب الكِلاب لصعوبته، والغرير أيضاً : الضامن ، ويكنى به هنا عن الشباب كأنه ضمن لصاحبه طولَ الحياة المفقود معناها فى الهرَم . والصِّنو : الأخ الشقيق ، وأصل الصِّنو فى النخيل والشجر، وهى التى تجتمع أُصولُها وتفترق أجسادها . الحِرْص : الرغبة والطمع.

(١) ديوانه ١ : ٣٧٩

أخبر : أجرِّب : بشّ . استبشر ، والبشاشة إظهار السرور وبسط الوجه . وافيته . أتيته . جنى نطقه : ما يجنى من كلامه ويحصل منه . أكتنه : أتعرّف وأتحقّق . كنه . قدر وحقيقة . ابن الأنباريّ : الحمق عند العرب الخمر ، ثم أخِذ منه الأحمق وهو المتغيِّر العقل .

[من نوادر المعلمين]

فمّا يحكى من حماقتهم : كان حمزة المعلم متقلْنِساً فأنشد فيه أبو جعفر الحاكم :

أَرَى على حمزة المقرِى قلنسوةً ... عساكر القمل تجرى فى حواشِيهَا
إن المعــلّم لا تخفى حماقتُه ... ولو تقلْنَس بالدُّنيا وما فيها

تقلنس : لبس القلنسوة .

الجاحظ : عَقْل مائة معلِّم عقل امرأة ، وعقل مائة امرأة عقل حائك ، وعقل مائة حائك عقل خصىّ ، وعقل مائة خصى عقل صبىّ ، قال الشاعر :

معلّم صبيان وصاحب درّةْ ... وليس له عقل بمقدار ذَرّةْ

الفنجديهى : قال أبو طاهر : عقل امرأتين كاملتين عقل رجل ، وعقل أربعة خصيان عقلُ امرأة ، وعقل أربعين حائـكاً عقل خصىّ ، وعقل أربعين معلماً عقل حائك .

الزبير بن عبد الملك الهاشمىّ قال : مررت ببعض المعلّمين ويعرف بكسرى ، فرأيته يصلّى بالصبيان صلاة العصر ، فلم أزل واقفاً أفـكّر فيه ، فلما أن ركع أدخلَ رأسَه بين رجليه ، لينظر ما يصنع الصبيان خَلْفَه ، فرأى صبيًّا يلعب . فقال له وهو راكع : يا بن البقّال ؛ هوذا ؟ أدرى ما تصنع !

الجاحظ : مررت بمعلم وقد كتب على لوح صبى : « وإذْ قال لقمان لابنه وهو يعظه . يابنىّ لاتَقْصُصْ رؤياك على إخوتك فيـكيدوا لك كيداً ، وأكيدُ

كيداً فمهل الكافرين أمهلهم رويداً» . فقلت : ويحك! أتدخل سورة فى سورة ؟ فقال : نعم عافاك الله ، إن أبا العاصِ بَظْرأمه يدخل أجرة شهر فى شهر ، وأنا أيضاً أدخل آية فى آية ، فلا أنا آخذ شيئاً ولا الصبيُّ يتعلم شيئاً .

أبو بكر القبطيّ : عبرت على معلم وهو يُمْلِي على غلام بين يديه : «فريق فى الجنة وفريق فى السعيد» ، فقلت : يا هذا ماقال الله من هذا شيئاً إنما هو فى السعير ، فقال : أنت تقرأ على حرف أبى عاصم بن العلاء الكسائى ، وأنا أقرأ على حرف أبى حمزة بن عاصم المدنى فقلت: معرفتُك بالقراء أعجب إلىّ؛ وانصرفت.

وروى بعض الفضلاء قال : مررتُ فى بعض قُرَى السَّواد ، وَإذا معلم صبيان يقول : وَيحكم ياصبيان، تفسون افصاح به وَاحدٌ منهم ، وَقال: إنّما فسا أخى ، فقال المعلم : إنى لأعلم فسوته الخبيثة ، وَلكن أُعلِّل نفسى بالأباطيل ، ثم قال : إنى لأعرف فساءكم كما أعرف أصواتكم ، وَحلف على ذلك ثم أنشد :

معلم صبيان يروح وَيغتدِى ... على أنفه ألوان ريح فُسَائِهِمْ
وَقد أفسدوا منه الدِّماغ بفَسْوِهم ... ورفعهم أصواتَهم فى سَحَائِهِمْ

الجاحظ : كان فى المدينة رجلٌ معلّم صبيان ، يُفرط فى ضربهم ، فلاموه على ذلك ، فساءنى حالُه معهم ، فاستفتح صبىّ ، وقال : يا معلم ، وإنّ عليك اللعنة إلى يوم الدين ، مابعده ؟ فقال : بل عليك وعلى والديك لعائن الله تترى .

وجاء آخر فقال : يا معلم ، اخرُج منها فإنّك رجيم ، ما بعده ؟ قال : ذاك أبوك الكَشْخَان . وجاء آخر ، فقال : يا معلّم مالنا فى بناتك من حقٍّ ، ما بعده؟ فقال : لا ولا رأيتهنّ ، فقال : على هذا أضربهم ، أتعذروننى ؟ قلت : نعم .

العتّبى : كان ببغداد معلّم يشتم الصبيان فأخذت بيد المشايخ فدخلنا عليه ، فقلنا : يا شيخ ما يحلّ لك أن تشتم هؤلاء الصبيان ؟ فقال : أنا مبتلًى بهم ، ماأشتمُ إلاّ مَنْ يستحقّ الشتم ، فاحضروا حتى تسمعوا بعضَ ماأنا فيه ، فحضرنا

معه ، فقرأ عليه صبيّ : « عليها ملائكة غلاظ شداد يعصون الله ما أمرهم ولا يفعلون ما يؤمرون » فقال : يا ماصّ بَظْرأمه ، فليس هؤلاء ملائكة ولا أعراب ولا أكراد شهرزور ، قال : فضحكنا والله حتى بال أحدُنا فى سراويله، فقرأ عليه آخر : « لا تنفقوا إلاّ من عند رسول الله » وتردّد فقال : من عند أبيك الْقَرْنَان أولى ، فإنه أكثر مالاً يا بن الفاعلة ، أتُلْزِم النبى صلى الله عليه وسلم نفقةً لا تجب عليه ؟ أأعجبك كثرة ماله ؟ فقال : فكنت بعد ذلك أترك أشغالى ، وأجلس عنده أتعجّب .

الجاحظ : سرق صبي عثمانىّ مصحفاً ، فقال له المعلم : ماذا لقيت المصاحفُ منكم يا آل عثمان ! أبوك أحرقها وأنت تسرقها !

قال أفلح التركى : خرجنا مرّة إلى حرب لنا ، ومعنا معلم كان يقول : أنا أتمنى أنْ أرى الحرب كيف هى ؟ فأخرجناه معنا ، فأوّل سهم جاء وقع فى رأسه ، فلما انصرفنا دعونا له معالجاً فنظر إليه ، وقال : إن خرجَ الزّج وفيه شيء من دِماغه مات ، وإن لم يخرج عليه شيء من دِماغه لم يكن عليه بأس ، فسبق إليه المعلم فقبّل رأسه ، وقال : بشرك الله بخير ، أنزعه فما فى رأسى دماغ ، فقال الطبيب : وكيف ذلك ؟ قال : لأنى معلمٌ كتاب الله تعالى ، وما فى رءوس المعلمين ذرّة من دماغ ، ولو كان فيه ذرّة من دماغ ما كنت هاهنا .

وقال موسى بن حسّان الكاتب : رأيت بالبصرة معلماً قد أجلس أولاد الأغنياء للظلّ وأولاد المساكين للشّمس ، وهو يقول لأولاد الأغنياء : يا أهل الجنة ، ابزُقوا على أهل النارِ ـ يعنى أولاد المساكين ـ فقلت : يا هذا ، ما بال هؤلاء يُبْخَسُون ؟ فقال : هؤلاء يبخسون الأخطار .

أحمد بن دليل : مررت بمعلّم يضرب صبيًا ، ويقول : والله لأضربنَّك حتى تقول لى : مَنْ حفر البحر ؟ فقلت : أعزّكَ الله ، والله لا أدرى أنا مَن حفر البحر ، فقل لى حتى أتعلّم أنا ، فقال : حفر البحر كردم أبو آدم عليه السلام .

أبو العنبس : كان فى دَرْبنا معلّم طويل اللحية ، فكنت أجلس إليه كثيراً وأتلهّى به ، فجئته يوماً وبين يديه صبىّ يقول له : ويلك ! الدجلة من حفرها ! قال : عيسى بن مريم ، قال : فالجبل مَنْ خَلَقه ؟ قال : موسى بن عمران ، قال : فالبعر، مَنْ دوَّره فى است الجملِ ، قال : شيطان يقال له الحىّ ، قال : أحسنت ، فآدم مَنْ أبوهُ . قال : نوح ، قال : بخٍ بخٍ ، نجوت والله ! فقلت : ياسبحان الله ! أليس آدم أبا البشر ! قال : نعم ، قلت : فكيف يكون نوح أباه ! قال : ويلك أتعرّفنى بآدمَ وأنا أبو عبدالله المعلم ، يا صبيان كَرْفِسُوه فكرفسونى ، حتى صيّرونى مقيَّداً ، فحلفت ألاّ أقف على معلم أبداً .

الجاحظ : أتت امرأة إلى معلّمٍ بابن لها ، وكان المعلّم طويل اللحية ، فقالت : إن هذا الصبي عاقّ لا يطيعنى فأحبّ أن تفزِّعه ، فأخذ المعلم لحيته وألقاها فى فمه وحرّك رأسه ، وصاح صيحة ، فضرَطت المرأة من الفزع ، وقالت : إنما قلت لك: فزِّع الصبى، ليس إياى ، فقال لها : مرّى ياحمقاء إن العذاب إذا نزلَ هلك الصّالح والطالح .

الأصمعى : مررت بمعلّم بالبصرة يضرب صبيًّا ، ثم أقام الصبيان صفًّا ، وجعل يدُور عليهم ، ويقول : اقرءوا ، فلما بلغ الصبىَّ المضروب ، قال لآخر إلى جنبه : قل له : يقرأ فإنى لا أكلمه !

[فصل فى التأديب والأدباء]

ونذكر هنا فى التأديب والأدباء ما يكون من شكل هذا الموضع ، ثم نتبع عند ذكر الغلمان الحسان من الأشعار ما يجرى كالبيان والتفسير لأحوالهم بعون الله تعالى .

قالت الحكماء : من أدَّب ولده صغيراً سُرّبه كبيراً ، ومن أدّب ولده أرغم حاسده .

وقال ابن عباس : مَنْ لم يجلس فى الصغر حيثُ يَكْرَه ، لم يجلس فى الكبَر حيثُ يحبّ .

وقالوا : أطبعُ الطّين ما كان رطباً ، وأغرز العُود ما دام لدنا .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثل الذى يتعلم فى صغره كالنقش على الصخر ، والذى يتعلم فى كبره كالذى يكتب على الماء » .

وسمع الأحنف : التعلم فى الصغر كالنقش على الحجر ، فقال : الكبير أكبر عقلاً ، ولكنه أشغل قلباً .

وقال على رضى الله تعالى عنه : قلْب الحدَث كالأرض الخالية إذا أُلقِيَ فيها شىء قبِلته .

وقالوا : نشاط الألباب فى عصر الشباب ، والسّودَد مع السواد ، وشواظ النار قبل الرّماد .

وقال الشاعر :

إنّ الغصون إذا قوّمتَها اعتدلتْ ولن تلين إذا قوّمتَها الخُشُب

وقال آخر :

إنّ الكبير إذا تناهى سِنُّه أعيت رياضته على الرُّوّاضِ
فإذا دفعت إلى الصغير فإنما تكفيك منه إشارةُ الإيماضِ

وقال آخر :

* ومن العناء رياضة الهرِم *

وأنشدوا :

* أبعد شيبك هذا تبتغى الأدبا *

وقال الشاعر فى تدريج الصبى برفق :

سَدّد مرامِى الطفلِ فى شأْنه بلفظةٍ تَشْدُدْ بها أَزْرَهْ
واغتنمِ اللمحةَ من فَهْمِهِ إن المبادى أبدا نَزْرَهْ
كما تربَّى النّارُ من شعلةٍ والدّوحة الغناء من بَذْرَهْ

وهذا ضدّ ما قال المعرى :

لايستوى ابناكَ فى خَلْقٍ ولا خُلُقٍ إن الحديدة أمّ السَّيف والجَلَمِ
فاضرب وليدَك وادلله على رشدٍ ولا تقل هو طفل غير محتلِمِ
فربّ شق برأس جرّ منفعةً وقس على نفع شق الرأس بالقلم

أشار إلى قوله تعالى : ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة ﴾ .

وقال صالح بن عبد القدوس :

وإنّ مَنْ أدّبتَه فى الصّبا كالعود يُسْقَى الماء مِنْ غَرْسِهِ
حتى تراه مورقاً ناضراً بعدالذى أبصرْتَ من يُبْسِهِ
والشيخ لا يترك أخلاقَه حتى يوارَى فى ثَرَى رَمْسِهِ
إذا ارعوى عاوده جهلُه كذى الضنى عاد إلى نكْسه
ما يبلغ الأعداء من جاهلٍ ما يبلغ الجاهل من نفسِه

وقال عتبة بن أبى سفيان لمعلم ولده : ليكن أوّل إصلاحِك لولدى إصلاحُك لنفسك ، فإن عيوبهم معقودة بعيبك ، فالحسَن عندهم ماصَنَعْت ، والقبيح عندهم ما تركت ، علّمهم كتاب الله ولا تملهم فيه فيتركوه ، ولاتتركهم فيه فيهجروه ، وروّهم من الحديث أشرفَه ، ومن الشعر أعفّه ، ولا تنقلهم من علم إلى آخر حتى يُحْكِموه ، فإنّ ازدحام الكلام فى السّمع مشغلة فى الفهم ، وعلّمهم سير

الحكماء ، وأخلاق الأدباء ، وهددهم فى أدبهم دونى ، وكن لهم كالطبيب الذى لا يعجل بالدّواء قبل معرفة الداء ، وجنّبهم محادثة النساء ، واستزدنى بزيادتك إيّاهم أزدك فى برّى ، وإياك أن تتّكل على عذر منّى ، فقد اتّكلت على كفاية منك لى .

وأوصى الرّشيد مؤدّب ولده الأمين ، فقال : إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه ، وثمرة قلبه ، فصيّر يدك عليه مبسوطة ، وطاعتك عليه واجبة ، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين ، أقرئه القرآن ، وعرفه الآثار ، وروّه الأشعار ، وعلمه السنن ، وبصّره مواقع الكلام ، وامنعه الضحك إلا فى أوقاته ، ولا تمرر بك ساعة إلّا وأنت مغتنم فيها فائدة تفيدها له من غير أن تخرق به فتميت ذهنه ، ولا تمعن فى مسامحته ، فيستحلى الفراغ ويألفه ، وقوّمه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فإنْ أباهما فعليك بالشدّة والغلظة ، وبالله توفيقكما .

وقال للأصمعىّ : يا عبد الملك ، أنت أعلم منّا ، ونحن أعقل منك ، لا تعلّمنا فى ملا ، ولا تسرع بتذكيرنا فى خلا ، واتركنا حتى نبتدئك بالسؤال ؛ فإذا بلغت الجواب حسب الاستحقاق ، فلا تزد إلّا أن نستدعىَ ذلك منك .

الماوردى : إذا كان لبعض الملوك رغبة فى العلم ، فلا تجعل ذلك ذريعة للانبساط عليه والإدلال . وكتب شُريح إلى معلم ولده :

تَرَكَ الصّلاة لأكْلُبٍ يسعى بهَا	يبغى الهِراش مع الغُوَاةِ الرُّجَّسِ [1]
فإذا هممت بضربه فبـدرّة	وإذا بلغت به ثلاثًا فاحْبِس
وإذا أتاك فعضّه بملامة	وعظنّه موعظةَ الأديب الأكيس
واعلم بأنّك ما أتيت فنفسه	مع ما يجرّعنى أعزُّ الأنفس

(١) العمدة لابن رشيق ١٧

[فنّ آخر فى المتهمين من المعلمين]

اتصل حمّاد عجرد بالربيع يعلّم ولده ، فكتب إليه بشار :

يا أبا الفضـل لا تنَمْ وقع الذئب فى الغنَمْ
إنّ حمـاد عجردٍ إن رأى غفلةً هجَمْ
بين فخذيه حَرْبةٌ فى غلافٍ من الأدَمْ
إن خلا البيتُ ساعةً تجمّـع الميمُ بالقلَمْ

فطرده الربيع .

واتخذ المهدىّ قطرباً لتأديب بعض ولده ، وكان حماد يطمع فى ذلك ، فلم يتم له لتهتّكه وشهرته فى الناس بما قال بشار ، فلما تمكن قطرب من موضعه ، صار حماد كالملغى ، فجعل يقوم ويقعد قلقاً ، ثم دسّ إلى المهدى رقعةً فيها :

قل للإمام جـزاك الله صالحةً لا تجمع الدهرَ بين السَّخْلِ والذِّيبِ
السخل غِرٌّ وهمّ الذئب فرصتـه والذئب يعلم ما فى السَّخْل من طيبِ

فقال المهدىّ : انظروا لا يكون هـذا المؤدب لوطياً ، ثم أخرجوه من الدار ، فبعث الضجر حماداً حيث حرَمه بشّار هذه المراتب إلى أن قال فيه :

لقد صار بشارٌ بصـيراً بدبره وناظره بين الأنام ضريرُ
له مقلةٌ عمياء وآستٌ بصـيرة إلى الأيْر من تحت الثياب تشيرُ
على ودّه أن الحمـير تنيكهُ وأنّ جميع العـالمين حمير

وقال فيه :

ألا مَنْ مبلغ عنى الـذى والـده بُرْدُ

إذا ما ذُكِر النـــاس فلا قَبْـــلُ ولا بَعْدُ

وأعمى يشبه القـــرد إذا ما عمى القـــردُ

وقال فيه :

دُعِيتَ إلى بُرْدٍ وأنت لغـــيره

وهبك ابن برد نـكت أمَّكَ من بُرْدِ

وكان عبد الصمد بن عبد الأعلى مؤدّب الوليد لُوطيًّا زنديقاً ، وكان سعيد ابن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت جميلَ الوجه شاعراً ، فدخل على عبد الصمد فراوده فى نفسه فسبَّه ، وخرج مغضباً ، فدخل على هشام بن عبد الملك ، وهو يقول :

إنّه والله لولا أنت لَمْ ينجُ منى سالمًا عبد الصَّمَدْ

فقال هشام : ولِمَ ؟ قال :

إنه قد رامَ مـــنى خُطّةً لم يَرُمْها قبله منى أحــدْ

قال : وما هى ؟ قال :

رامَ جَهْلًا بى وجهــلًا بأبى يُدخل الأفعى إلى غيل الأسدْ

فضحك هشام ، وقال : لو فعلت به شيئاً لم أنـكر عليك .

وكان سعيد يومئذ صغيراً فى المـكتب ومؤدّبه عبد الصمد هذا ، فلما راوده عن نفسه شكاه إلى هشام وأبدع فى الـكناية ، ورقّق هذا المنـكر الأكبر بلفظ يقابل به خليفةً ، وغاية ذوى الحُنْـكة من الخطباء محاكاة براعته واستعارته ، وليس ببدع ، فهو من بيت ثلاثة شعراء فى نَسَق ، وكان هذا الشعر سبب إبعاد عبد الصمد من تأديب أولاد الخلفاء .

قوله : مالبث ، أى ما أقام ولا تأخّر . كبر أصيبيته ، أى أكبرهم ، وكُبْر ولد الرجل أكبرُهم من الذّكور ، وكبر قومه : أقعدهم فى النّسب ، أى أقربهم إلى الجدّ الأكبر ، ومنه قيل : الولاء للكبر . أصيبيته تصغير أصبية . قال الجوهرى : الصبىّ : الغلام ، وجمعه صبية وصبيان وهو من الواو ، ولمّا لم يقولوا : أصبية ولا أغلمة استغنوْا عنهما بصبية وغلمة ، وجاء فى الشعر أصيبية . وقال سيبويه : تصغير صِبْية أصيبيَة ، وتصغير أصْبيَة صبيَّة وكلاهما على غير قياس .

ابن سيده : عندى أن صبية تصغير صبيّة وأصيبيَة تصغير أصْبية ، ليكون كل شىء منهما على بناء مكبره .

العواطل : التى لا نقْطَ فيها . تماطل : تؤخر إنشادها . جثّاً : برك . ليث : أسد . ريث : بطء وتأخير .

* * *

أعْدِدْ لحسّادِك حدّ السّلاحْ ... وَأوْرِدِ الآمِلَ وِرْدَ السّماحْ

وصارِم اللّهْوَ ووصْلَ المَها ... وأعْمِلِ الكومَ وسُمْرَ الرِّماحْ

واسْعَ لإدراكِ محلٍّ سَمَا ... عمادُه لا لادّراعِ المِراحْ

والله ما السؤدد حَسْوُ الطِّلا ... ولا مَرَاد الحمد رؤْدٌ رداحْ

واهاً لحُرٍّ واسعٍ صدره ... وهمّه ما سرَّ أهلَ الصّلاحْ

موردُهُ حُلْوٌ لسؤّاله ... وماله ما سألوهُ مُطاحْ

ما أسْمَعَ الآملِ ردّاً ولا ... ماطَلَهُ والمَطْلُ لُؤْمٌ صُراحْ

ولا أطاعَ اللّهْوَ لمّا دعا ... ولا كَسَا راحاً له كأسَ راحْ

سوّده إصلاحُــــه سِرَّه ورِدْعُه أَهَواءَه والطِّمَاحْ

وحصَّل المــــدحَ له عِلمُهُ ما مُهِر العُورُ مهور الصِّحَاحْ

* * *

أورد الآمل ، أى أعطِ الراجى . وِرد السماح : ماء الكرم . صارم : قاطع . المها : جمع مهاة وهى البقرة الوحشية ، وأراد النساء . الكوم : جمع كَوْماء ، وهى الناقة العظيمة السنام . اسع : اجر مسرعاً . محلّ سما : منزل ارتفع . والعماد : قائمة الخِباء وإذا علت علا البيت . ادّراع : لبس الدّروع . والمِراح : الطرب والنشاط ، كأنه يقول : لا تشتغل باللهو واشتغل بكسب الشرف . حسو الطِّلا : شرب الخمر . السُّودَد : الفعل الذى يرجع به فاعله سيّداً . مَراد ، بفتح الميم : مذهب وطريق ، وأصله موضع اختلاف الإبل مقبلة ومدبرة وهو المرعى . رُود : جارية ناعمة شابة . والرّدَاح : العظيمة العَجزُ ، وهو كما قال أبو نواس :

لئن خُلِق الأنام لحب كأسٍ ومزمارٍ وطنبورٍ وعُـــودْ

فلم يُخلق بنو حمــــدان إلّا لبأسٍ أو لمجـــد أو لجودْ

واهاً : عجباً . ما : بمعنى الذى . مطاح : هالك بالعطاء . صراح : ظاهر . راحاً : كفاً . راح الثانى : خمر . سؤدده : شرفه ، وجعله سيّداً . سرّه : باطنه . ردعه : كفه . أهواءه : شهواته . والطماح : ارتفاع النظر . العُور : جمع عَوْراء وهى الفاقدة إحدى عينيها . مهور : جمع مهر ، وهو الصداق ، وأعمل علمه فيما بعده من الكلام ، وضرَب العور والصحاح مثلًا للأفعال الجميلة والذميمة ، فأراد أن تمييزه بين الأشياء المتضادة وعلمه أن مهر القبيحة العوراء لا يبلغ مهر المليحة الحسناء ، جعل ممدوحاً سيداً . ومثل هـذا الشعر الذى لم ينقط ما أنشد أبو القاسم الزجاجى لأحمد بن الورد :

علم العـــدوّ ملامة اللوّامِ ودوام صدّك وهو صَدٌّ حمام
لولاك ما حَدَر السهاد دموعَه ولما أطار كراه حَرٌّ أُوامِ
هل ما أسرّ وما أؤمِّل رادعٌ هول الهموم وروعة الأحلامِ
رُدّ السلام وما أراك مسلّماً ورآك أهلُ هواك سرَّ كلام
كم حاسد لك أو مسرٍّ وداده ومعلّل أهـــواه طول ملامى

وهى قصيدة نحو الثمانين بيتاً وما زال المحدثون يظهرون اقتدارَهم فى هذا الفن ، إلّا أنه قَلّما يقع فى ذلك بيت مستحسن ، فلذلك تركنا أن نمشىَ مع أشعار هذه المقامة فيما يماثلها ، وقد أكثر الناس القول فى ذلك ، وفائدته أن يقال : قدَر على لزوم مالا يلزم لا أن يقـال : قد أحسن فيما قال ، وقد أنشد أبو القاسم أيضاً ، أبياتاً لا تنطبق عليها الشفاه ، منها :

أتيناك يا جَزْل العطية إننـــا رأيناك أهلاً للعطايا الجزائلِ
عقيل النَّدى يا حار عـدنا عقيلةً نعـدك انتجاعاً للحسان العقائلِ

* * *

فقال له : أَحْسَنْتَ يا بُدَيْر ، يا رأسَ الدَّيْر ، ثمّ قال لِتِلْوه ، المشتبِه بِصنْوِه : ادْن يا نُوَيْرَه ، يا قمر الدُّوَيْرَة ، فدنا ولم يَتَباطَأ ، حتَّى حلّ منه مَقْعَدَ الْمُعاطَى ، فقال له : اجْلُ الأبياتَ الْعرائس ، وإن لم يكُنّ نفائس ، غيرى الْقَلَمَ وقط ، ثمّ احتجرَ اللَّوْح وخطّ :

فَتَنَتْنِي فَجَنَّنَتْنِي تَجَـــنِّى بتجَنٍّ يَفْتَنُّ غِبَّ تَجَنِّى
شغفتني بجفنِ ظبي غَضيضٍ غَنِجٍ يَقْتَضِى تَغَيُّضَ جفْنِي
غشيَتْنِي بزينتَيْنِ فَشَفَّتْـــنِي بِزِيٍّ يشِفُّ بين تَثَنِّى

فتظنَّيتُ تَجَنْبِيِي فَتَجْزِ نِى بِنَفْثٍ يَشفِى نَخِيِّبَ ظَنِّى

ثبتَّتْ فىّ غشٌ جيبٍ بتَزْيِيـــنٍ خبيثٍ يَبْغِى تشفِّىَ ضِغْنِ

فنزت فى تَجَنُّبِي فَتَنَتْنِي بنشيجٍ يُشْجِى بِفَنٍّ فَفَنِّ

* * *

قوله : أحسنت يا بدير : تَصغير بَدْر ، صغَّره لصغر سنه ، على أنه قد زَعَمْ أنه كبير صبيانه . وفى مثل هذا البدر الذى قد نثر هذه الدرر قال الشاعر :

دُرَّانِ من فَمِهِ شَفًا محـــدِّثه للنَّثْر والنَّظْم مسموع ومُلْتَثِمْ

قد قلت لو قبـل الوعظ المبين له خَفِ المهيمين فينا إننا نَسَمْ

فقال مَنْ ضَرَّجَتْ خدى نظرتُه فإن سيف جُفونى مِنْهُ ينتقمْ

يا رأس الدير : يا عظيم القوم ، والدير : موضع القسِّيسين ، أراد به حَلْقَة أصحابه . تِلوه : التابع له ، أو الجالس إلى جانبه . صنوه : أخوه الذى على قدر سِنّه . ادْنُ : اقرب . نُوَيْرة : تصغير نار ، شبّه فى حدته وذكائه بها ، أو فى حسنه وبهائه . والدويرة : تصغير دارة ، وهى حَلْقتهم التى اجتمعوا فيها ، فكأنه قال : يا قمراً فى أصحابه .

[ممَّا قيل فى الغلمان الكتاب]

ومما قيـل فى غلام كاتب : سأل الثعالبىّ أبا الفضل الدارمىّ أن يصف له غلاماً كاتباً حسن الخطّين : خَطّى اليد والوجه ، فقال :

وكاتب أهـــديتُ نَفْسِى له فهى من السُّوء فِدَى نفسِهِ

سلّط خـــدّيه على مُهجتى فاستأصَلاها وهى من غَرْسِـهِ

فلستُ أدرى بعـد ما حَلّ بى بمِسْكِه أتلف أم نِقْسِـــهِ

وقال فى ذلك :

وشادن أسرف فى صَدِّه ... وزاد فى التيه على عَبْدِهِ
الحسن قد بَثَّ على خدّه ... بنفسجاً يربُو على وَرْدِهِ
رأيتُه يكتب فى طِرْسِهِ ... خطًّا يبارى الدُّرَّ فى عِقْدِهِ
تخلْتُ ما قد خطَّه كفُّه ... للحسن قَدْ خطَّ على خَدِّهِ

ولابن رشيق :

كتبت ولو أننى أستطيعُ ... لإجلال قَدْرك دُون البَشَرْ(١)
قَدَدْتَ البراعة من أنملى ... وكان المدادُ سواد البَصَرْ

وله أيضاً :

عزيز يُبَارِى الصُّبحَ إشراق خدِّه ... وفى مَفْرِق الظَّلْماء منه نسيبُ(٢)
يزفّ إليه ضاحكاً أقحوانُهُ ... ويهتزّ فى برديه منه قضيبُ

ولابن المعتز فى العِذار المشبه بالحروف :

بُليتُ بشادنٍ كالبدر حُسْناً ... يُعذّبنى بأنواع الدَّلالِ
غُلالة خدّه وردٌ جنىٌّ ... ونون الصُّدغ معجمة بخالِ

وله أيضاً :

كأنّ خطّ عذارٍ فوق وجنتِهِ ... مَيْدَانُ آسٍ على وَرْدٍ ونَسْرِينِ
وخطَّ فوق حَباب الدّر شاربه ... بنصف صادٍ ودار الصُّدغ بالنونِ

وله أيضاً :

لَهُ من عيون الوحش عينٌ مريضة ... ومن خضرة البستان خضرة شاربِ
كأن غُلاماً حاذقاً خطَّه لَهُ ... فجاء كنصف الصّاد من خط كاتب

(١) النتف ٣٧
(٢) النتف ٧

وقال آخر :

تعـلّم العطف من صُدغيه فانعطفَا وكان عادتُه ألّا يفي فَوَفَى
دبّ العِذار على ميـدان صَفْحَتِهِ حتى إذا هَمّ أنْ يسعَى به وقفَا
كأنه كاتبٌ عزَّ المِدادُ به أراد يكتب لاماً فابتدى ألفَا

وقال أبو القاسم بن المغربى :

ولمَّا احتوى بَدْرُ الدّجى صحنَ خدِّه تحـيرَّ حتى ما دَرَى أين يَذْهبُ
كأنّ انعطاف الصُّدغ لامٌ أمالَهـا أديب يُجيـد الخَطّ أيّان يكتبُ

فهذه الأشعار المستعذبة الّتي بها تعلّق بالغلمان الذين يذكر أنهم كتّاب من جهة حسنهم واعتدال قدودهم وتوريد خدودهم، وتطريزها بالعذار أحسن من ذكر شعر لزومىّ ليس فيه شيء من الأنس للنفس .

قوله تَبَاطا : أى تأخر وأصله الهمز . المعاطَى : الّذى تعطيه كأس الخمر ويُعطِيها لك ، وقد عاطيتُه وعاطانى وقد تعاطى فلان كذا، أى تناوله وأخذه ، من قولهم: عَطَوْت أعطو عَطواً ، أى تناولت . العرائس : جمع عروس، وسمَّاها عرائس لما فيها من التزيين بالنقط ، وكانت زينة العروس عند العرب أن تُنقّط فى خديها نقطاً صغار بالزعفران ، فلذلك سمّى هذه عرائس لنقطها ، وسمَّى التى قبلها عواطل لعدم نَقْطها . نفائس : جمع نفيس ، وهو الرفيع القدر ، يريد أنه لما لزمها ما لم يلزم ضعفتْ ، وقد ذكرنا أن الغرض بمثل هـذه الأشعار إظهار الاقتدار ، وعلى ماذكر أنها غير نفائس فهى أحسن مما عمل فى بابها ،وما أحسن ما قال ديك الجن فى جاريته :

انظُرْ إلى شمس القصور وبدرِها وإلى خُزاماها ونفحـة زهرِها[1]

(١) ديوانه ٢٦٨ .

لم تبصرْ عينُك أبيضاً فى أسود　　جمع الجمال كوجهها فى شَعْرِها

ورديّة الوجَنات يختـــبرُ اسمها　　من ريقها من لا يحيط بخبرِها

وتمايلت فضحكتُ من أردافها　　عجبــاً ولـكنى بكيت لخَصْرِها

تَسْقيك كأس مُدامة من كفِّهَا　　ورديّة ومدامة من ثغرِها

ولابن الزّقاق :

تَضَوَّعْن إشراقاً وأشرقن أوجهاً　　فهن منـــيرات الصَّباح بواسمُ[(1)]

لئن كنَّ زهراً فالجوانح أبرجٌ　　وإن كن زهراً فالقلوب كمائمُ

قوله : قطّ : قطع ، وقيـل : القَطّ القطع عرضاً ، والقدّ : القطع طولا . احتجر : جعله فى حجره . خط : كتب . فتنتنى ، أى عذبت قلبى . جنَّنتنى : أى صيرتنى مجنوناً . تجنى : اسم امرأة ، والتجنِّى الدلال والتيه .

وللبحترىّ :

إذا خطرتْ تأرَّج جانباها　　كما خطرت على الأرض القَبولُ[(2)]

ويحسن دَلُّهَا والموت فيـــه　　وقد يستحسن السَّيْفُ الصَّقيلُ

شغفتنِى : بلغ حبّها شِغاف قلبى ، والشّغاف حجاب القلب . ظبى : غزال . غضيض : منـكسر الطرف فاتر العينين . والغُنْج : تـكسير الـكلام وتخنيثه وهو المجانة . يقتضى : يتضمّن . تغيّض جفنى : سيلان عينى .

ومما قيل فى مرض العينين وحَسُن فيه التشبيه قول البحترىّ :

غـــداة تثنّت للوداع وسلّمتْ　　بعينين موصولٍ بجفنيهما السِّحْرُ[(3)]

توهّمتُها ألوى بأجفانهـــا الـكَرَى　　كَرَى النّوم، أو مالت بأعطافِهَا الخمرُ

---

(١) ديوانه ٢٩٧ .

(٢) ديوانه ٨٢٢ .

(٣) ديوانه ٨٤٤ .

وقال ذو الرُّمة :

لها بَشَرٌ مثل الحرير ومنطقٌ رخيمُ الحواشى لا هُراء ولا نَزْرُ(١)
وعينان قال الله كونا فكانتا فَعُولان بالألباب ما تفعل الخمر

وقد تقدَّم جملة من هذا .

غشيتْنِي : أتتنى على غفلة . شفَّتنى : أنحلت جسمى . والزِّى : الهيئة الحسنة من اللباس . يشفّ : يفضل . تثنّ : اهتزاز وانعطاف . تظنَّيت : حسبت . تجتبينى : تختارنى . بنفْث : بلفظ وكلام . والجيب : القلب . يبغى : يطلب . تشْق ضِغْنى : إزالة عداوتى . نزت : وثبت . تجنُّبى : بعدى . ثلثنى : ردّتنى . نشيج : صوت البكاء . يشجى : يحزن . بفنٍّ ففنّ : بنوع فنوْع .

* * *

فلمَّا نظر الشيخُ إلى ما حبَّره ، وتصفَّح ما زَبَرَه ، قال له : بورِكَ فيك من طَلاَ ، كما بُورِكَ فى لا ولا . ثم هتَف : اقرُب ، يا قُطرُب ، فاقترب منه فتًى يَحْكِى نَجْمَ دُجْية ، أو تِمْثالَ دُمْيَة ، فقال له : ارْقُمِ الأبيات الأَخْيَاف ، وتجنّبِ الخِلاف ، فأخذ القلم ، ورَقَم :

اسْمَحْ فَبَثُّ السّماحِ زيْنٌ ولا تَخِبْ آملاً تَضَيَّفْ
ولا تُجِز ردَّ ذِى سؤالٍ فَنَّنَ أم فى السؤال خففْ
ولا تظنَّ الدُّهورَ تُبْقِى مَالَ ضَنينٍ ولَوْ تقشَّفْ
واحْلُمْ فجفْنُ الكِرام يُغْضِى وصَدْرُهُمْ فى العَطاء نَفْنَفْ
ولا تَخُنْ عهدَ ذى ودادٍ ثبْتٍ ولا تبْغِ ما تَزَيَّفْ

* * *

(١) ديوانه ٢١٢

حبَّره : زينّه . زبره : كتبه . طَلا : غزال . لاولا ، يعنى الزيتون ، ومن كلام العامة : بورك فيك كما بورك فى الزَّيت ، وأراد بلاولا قولَه تعالى : ﴿تُوَقدُ من شَجَرةٍ مُبَارَكةٍ زَيتُونةٍ لا شَرْقيّةٍ ولا غربيّة﴾(١) ، فأخذ من الآية لا ولا واكتفى بهما .

الفنجديهى : يحكى أن بعض الناس ظهرت به علة مزمنة شديدة أعيا الأطباء علاجُها ، فلما أيسَ رأى النبى صلَّى الله عليه وسلم فى النَّوم فشكا إليه علّته المزمنة ، فقال له : عليك بلَاولا ، فقصَّ رؤياه على ابن سيرين ، فقال له : إن صدقتْ رؤياك فإنه صلى الله عليه وسلم أمرك بتناول الزيتون ، فتناولها الرجل فبرئ من علّته ، فقال لابن سيرين : من أين قلتها ؟ قال : من قوله تعالى : ﴿زَيتُونةٍ لا شرقيّةٍ ولا غربيّة﴾ ، المعنى من زيت شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ، أى ليست تطلع عليها الشمس أوّل النهار فقط ، ولا غربيّة أى عند الغروب فقط ، أى لا يسترها من الشمس فى وقت من النهار شىء ، فهو أنْضَرُ لها وأجود لزيتها ، وقال صلى الله عليه وسلم : « كلوا الزيت وادّهنوا به فإنه يخرج من شجرة مباركة » .

قوله : هتف : صاح . قطرب : خفيف النوم ، والقطرب : دويّبة تمشى بالليل . وجنّية : تبرك على الإنسان فيجد لها ثقلا ، والعامة تبدل طاءها تاء ، والعرب تسميها النَّئْدلان ، والكابوس والجاثوم ، ويسمّيها أهل بغداد البحت . دُجْية : ظلمة . دمية : صورة رخام ، وجمعها دُجًى ودُمًى وكأنّ صورة هذا الغلام الذى ذكر الشاعر :

بَدَا فبدا من وجهه البدرُ طالعاً	لدى الروض يستعلى قضيبا منعَّمَا
وقد أرسلت أيدى العذارَى بخدِّه	عِذاراً من الكافور والمسك أسْحَمَا
وأحسِب هاروتاً أطاف بطرْفه	يعلّمه من سحره فتعلَّمَا
ألمّ بنا فى دامسِ الليل فانجلى	فلما انثنى عنّا وودّع أظلمَا

(١) سورة النور ٣٥

والأبيات للأمير أبى الحسن أحمد بن عضد الدولة .

وقال أبو إسحق الحصرى مؤلف كتاب الزهر :

عاينُ طرفٍ سقيتُ خمراً   مِنْ مقلتيه فتُ سكرَا
ترقرقت وجنتاه ماء   مازج فيه العتيق دُرًّا
يُحرِّك الدلّ منه غصناً   ويُطلع الحسنُ منه بدرًا
قد نمّ مسكٌ بعارضيه   خلّف للعاشقين عُذرَا

قوله : الأخياف ، أى المختلفة . وقوله : فأخذ القلم ورقم ، كأن أبا إسحاق الحصرى إيّاه عَنَى بهذه الأبيات :

إذا بدا القلم الأعلى براحتِهِ   مطرِّزاً لرداء الفجر بالظُّلَمِ
رأيتَ أسود فى الأبصار أبيض فى   بصائر لحظها للفهم غير عمِى
كروضةٍ خطرتْ فى وشى زهرتها   وافترّ نوّارها عن ثغرٍ مبتسم

وكأنّ الحسن استعار منه الدواة والقلم حيث قال :

يا ريم هاتِ الدواة والقلَما   أكتب شوْقى إلى الّذى ظَلَمَا[1]
غضبان قد غرّنى رضاه ولو   يَسأل فيما غضبت ما عَلِمَا
لو نظرتْ عينُه إلى حَجَرٍ   ولّد فيه فتورُها سقَمَا
فليس ينفكّ منه عاشِقُه   فى جمع عذرٍ لغير ما اجْتَرَمَا
علقتُ مَنْ لوأوى إلى أنفس الـ   ـماضين والغابرين ما ندماَ

قوله : اسمح : جُدْ . بث : نشر . آملا : راجياً . تضيّف : طلب منك أن تضيفَه . فنّن : أتى بفنون من السؤال . ضنين : بخيل . تقشّف : ترك النظافة .

(١) ديوان أبو نواس ٣٣

يُغْضِي: يتغافل . نفنف . واسع ، والنفنف متسع الأرض . ثبتْ : صادق الودّ ، ويروى : نَثّ أى نشر . تبغ : تطلب . تزيّف : تنقص ، وصار زائفاً ، وهو الدرهم الردىء .

* * *

فقال له : لَا شَلّتْ يداك ، وَلَا كَلّتْ مُداك . ثم نادى : يا غَشَمْشَم ، يا عِطْر مَنْشَمْ ، فلبّاه غلامٌ كدُرّه غوّاص ، أوجؤذرِ قنّاص ، فقال له : اكتب الأبيات الْمتَائِم ، ولا تكن من المشائيم ، فتناول القلم المثقّف ، وكتب ولم يتوقّف :

زيِّنتْ زينبٌ بقــدٍّ يَقُدُّ · وَتَلاه ويــلاه نَهْدٌ يَهُدُّ
جُنْدها جِيدُها وظَرفٌ وطَرْفٌ · ناعِسٌ تاعسٌ بحــدٍّ يَحُدُّ
قدرُها قدْ زَهاَ وتاهتْ وباهتْ · واعْتدتْ واغْتدتْ بِجَــدٍّ يَجُدُّ
فارَقَتْنِي فأرّقتْــنِي وشَطَّتْ · وسَطَت ثمّ نمّ وجْــدٌ وجِدُّ
فدنتْ فدّيتَ وحنَّتْ وحَيّتْ · مُغْضَباً مُغْضِــياَ يودُّ يُوَدُّ

* * *

قوله كلّت ، أى حفيت . مُداك : سكاكينك ، جمع مُدْية . الغشمشم : الذى لا يردّه شيء عن مراده .

[أصل المثل : دقّوا بينهم عطر مَنْشَم]

عطر مَنْشَم ، قيل : كانت مَنْشَم جارية عطّرت رجالها حين خرجوا للقتال ، فقتلوا عن آخرهم ، فضرب بها المثل فى الشؤم . وقيل : بل الإشارة إلى عطارة ، أغار عليها قوم فأخذوا عِطْرَها فتطيّبوا فاستغاثت بقومها ، فخرجوا فى طلبهم ،

فمن شمُّوا عليه رائحة الطيب قتلوه ، ومن أوّله على هذا قال : عِطرُ مَنْ شمّ ، فجعلوه من كلمتين . وقيل: الكناية عن قرون السنبل الّذى يقال إنه سم ّساعة .

وذكر ابن الكلبيّ أنها امرأة من خُزاعة كانت تبيع العطر فتطيَّب بعطرها قومٌ وتحالفوا على الموت ، فماتوا .

وقال غيره : بل هى صاحبة يَسار الكواعب ، وكان عبداً أسود مُشوّه الخلقة راعىَ إبل ، فمتى رأْته النساء ضحكن منه ، فتوهّم أنهنّ يضحكْنَ من إعجابهنّ بحسنه ، فقال يوماً لرفيق له : أنا يسار الكواعب ، ما رأتنى جارية كاعب إلا وعشقتْنى، فقال له رفيقه : يايسار ، اشرب لبن العِشار، وكل لحم الُحوار[1] ، وإياك وبنات الأحرار ، فأبى وراود مولاته عن نفسها ، فقالت له : مكانك حتى آتيَك بطيب أشمك إياه ، فأتته بموسى ، فلما أدنى أنفه ليشمّ الطيب جدَعته .

ويقال إنه لما راودَها قالت له : أهكذا تأتينى بذفَرك وَوَسخِك ! ادنُ حتى أعطّرك ، فأدخلت يدها تحته وفيها موسى لطيفة قد أعدّتها له ، فقبضت على ذكره وخصيته ، فاقتطعت الجميع ، نخرج فمن رآه على تلك الحالة قال له : ماهذا ؟ فيقول : عطرُ من شمّ .

وقيل : كانت تبيع الحَنوط وهو عطر الموتى .

وقيل : المَنْشَم : الشر نفسه ، وقيل : المنشَم ثمرة سوداء منتنة .

وقيل فيها غير ما ذكر .

وذكر الحريرى فى الدرة أكثَر هذه الوجوه، وذكر أن كسر شين منشِم أكثر وأشهر ويروى بفتحها .

قوله المتائيم : جمع مُتْئِم ، وهى التى من عادتها أن تلد توأمين ، ولما كانت أبياته لا يوجد فيها إلا الألفاظ المزدوجة ، سمِّيَتْ متائيم ، وقيل : المتائيم : جمع توأم على غير قياس . المشائيم : جمع مشآم ، وهو الكثير الشؤم ، وشبّه بدرَّة

(١) العشار : اسم يقع على النوق والحوار : ولد الناقة إلى أن يفصل عن أمه .

غواص فى بياضه ورقة ديباجه . وجؤذر قنـاص ، هو الظبي الفاتر العينين ، والقنّاص : الصياد ، فـكأنه يصطاد بعينيه مَنْ نظر ، وإن أضفت جؤذر إلى القناص فمعناه مستقيم ، فيصفه بالخوف وكثرة التلفّت خشية أن يُصاد .

وما أحسن ما قال صاحبنا الوزير الحسيب أبو المطرّف الزّهرى فى هـذا المعنى وكان جالساً فى باب داره مع زائر له ، فخرجت عليهما من زقاق جارية سافرة الوجه كالشمس الطالعة ، فحين نظرتْهما على غفلة نفرت خجلة فزِعة ، فرأى الزائر ما أبْهته ، فـكلّفه وصفَها ، فقال مرتجلاً :

يا ظبيةً نفرتْ والقلب مَسْكَنُها ... خوفاً لختلىَ أو عمـداً لتعذيبى

لتأمنى فابنُ عبد الحىّ ألحقنـا ... عِدْلاً يؤلف بين الظبي والذيب

وكأنّ ابن رشيق وصف هذا الغلام الـكاتب حيث قال :

وفاترِ الأجفان ذى وجنـةٍ ... كأنهـا فى الحسن ورد الرّياضْ[1]

قلت له : يا ظبي خُذْ مهجتى ... داوى بهـا تلك الجفون المراضْ

فجاوبتْ من خـدّه خجلة ... كيف ترى الحمرة فوق البياضْ

وقال أيضاً :

بين أجفانك سحرُ ... ولأغصانك بدرُ[2]

جرّدت عيناك سيفيـن لذا أمْرُك أمْرُ

فعلى خدّيك من نزْ ... ف دِما العشّاق أُثرُ

ومن الـكثبان شَطْرٌ ... لك والأغصان شطر

وسـواء قلت درٌّ ... ما أرى أو قلت ثَغْرُ

وبماذا أصف الخَصْـر وما إن لك خَصْرُ

بك شغلى واشتغالى ... ومضى زيد وعمرو

(١) النتف ٤١ (٢) النتف ٣٠

وقال خالد الكاتب :

قد قلتُ لمّا أن بدا متبختراً والرِّدف يجذب خَصْره من خَلْفِه

يا من يسلِّم خَصْرَه من رِدْفِه سَلِّمْ فؤاد محبِّه من طرْفِهِ

وله مما يتعلق بالكتابة :

كتبت إليك بماء الجفون وقلبي بماء الهوى مُشْرَبْ

فكيف تخطّ وقلبي يملّ وعَيْنِيَ تمحو الّذى أكتبْ

فليس يتم كتابى إليك بشوقى فمن هاهنا أعجبْ

قوله : زينت زينب بقدّ يمدّ ، إنما أراد بقد يقدّ ، أى ينقطع لرقة خَصره ، فعوّض منه يقدّ لقرب ما بين اللفظين ولضرورة الازدواج . وقال البحترىّ فى القدود :

من السّمر اللدان إذا اسْبَكرّتْ وصرف الموت فى السّمر اللّدانِ

شبيهات الرّماح قنى جفونٍ وكلمٍ فى القلوب بلا سنانِ

فهل من ضربةٍ أو من سنانٍ كعين أو كثغر أو بنَانِ

وقال السرىّ :

قَامَتْ وخُوط البانة الـميّاس فى أثوابها

تسقى بصهباءين من ألحاظها وشَرَابها

ويهزّها سُكرانِ سُكْـر شرابها وشبابها

وكأنّ كأس مُدامها لما ارتدت بِحبَابها

توريد وجنتِها إذا مالاح تحتَ نقابها

وقال القاضى أبو حفص بن عمر :

هـــذا فؤادى أقصدته الأسْهُمُ مَنْ ذا يرى تلك الجفونَ وَيَسْلَمُ
يا غرّة حكم الجمـــال لهَا على شمس الضحى وأصاب فيما يحكمُ
يحكى الجآذرَ جيـــدُها ولحاظُها هيهات دون العـــالم المتعلِّمُ
وكأنّ قامتها ونغمـــة لفظها غُصْنٌ عليه بلبـــلٌ يترنّمُ
يضحى الخـــلىّ إذا رآها عاشقاً والعقل توقظه اللحـــاظ النوّم

وما أحسن ماقال أبو الحسن بن القبطُرنة :

ذكرت سليمى وحرّ الوغى كقلبى ساعة ودّعتُهـــا
وأبصرت بين القنـا قدّها وقد ملن نحوِى فعانقتُها

قوله : تلاه ، أى تبعه . ويلاه : دعا لنفسه بالويل والخسران حين رأى نَهْداً لا يصبر عنه .

[فى وصف النهود]

ومما جاء من التشبيهات الحسان فى أوصاف النّهود قول عمرو بن كلثوم :

وثدياً مثـــل حقّ العاج رخصاً مصاناً من أكفّ اللّامسينا[1]

بشار :

والنهد تحسبه وسنانَ أو كَسِلاً وقد تمايل ميلاً غير منكسرِ

ابن الرومى :

صــــدور فوقهنّ حقاق عاج ودرٌّ زَانه حُسْنُ اتّساقِ
يقول القـــائلون إذا رأوْه أهذا الدّرّ من هـــذى الحقاقِ !

(١) المعلقات — بشرح التبريزى ٢١٤

وأخذه من قول عبد الله بن السبط :

كأنَّ الثَّـدى إذا ما بدت ... وزان العقود بهنّ النَّحورَا
حِقاقٌ من العـاج مكنونةٌ ... يَسَعْنَ من الدرّ شيئاً يسيراً

ولإدريس اليمانى :

أيا ربَّة النَّهــــد الذى بسنانه ... يحطّ فتى الهيجاء عن فرس نَهْـدِ
أحقان مِنْ عاج بصـدْرك أم هما ... رقيبان قد قاما على جَنّة الخـلدِ

ومن البدائع الروائع قول الآخر :

وذات دلالٍ سبتْ مهجتِى ... بمستشرفيْن على مئزرِ
كأنهما خُوطُ كافورةٍ ... بأعــــلاها نُقْطَتَا عَنْبَرِ

وللقاضى عبد الوهاب ، ويروى لغيره :

يا صـــاحبيَّ قبالتى خُمصـانةٌ ... مالت فمال الدِّعْص من أعْطَافها
فى الصَّـــدْر منها للطّعان أسنَّةٌ ... ما أشرعت إلا لجــــنْى قِطَافها
إن تنـكرا قتــــلى بها فتبيَّنا ... تجـدا دمِى قد جفَّ فى أطرافها

على بن الجهم :

كنتُ مشتاقاً وما يحجـــــزنى ... عنك إلا مانع يمنعُــــنِى[1]
شاخص فى الصـدر غضبانُ على ... قبَبِ البطنِ وطىّ العُكَنِ
يمـــلأ الـكفَّ ولا يفضلُها ... فإذا أثنيتَــــهُ لَا يَنْثَنِي

* * *

قوله جيدها : أى عنقها ، وكأنّ حبيباً وصف هذه الجارية وجيدها بقوله:

كالخوطِ فى القـدّ والغزالة فى الــــبهجة وابن الغزال فى غِيــدِه
وما حكاه ولا نعـــــــيم له ... فى حسنه بلْ حكاه فى جِيده

(١) ديوانه ١٨٨

وإن كان هذا الجيدُ عاطلًا حلّيناه بقول ابن العباس الأعمى :

ونُبِّئتُ ذاكَ الجيدَ أصبح عاطِلًا   خذى أدمعى إن كُنتِ غَضْبى على الدّرِّ
خذى فانظميها أو كِلِينى لنظمِها   حُلِيًّا على تلك التَّرائبِ والنَّحْرِ
خذى اللؤلؤ الرطب الذى لَهِجُوا به   مَحَارتُه جفنى ولجّته صَدْرِى
ولا تخبرى حُور الجنانِ فربَّما   غَصَبْنَكِه بين الخديعة والمكرِ

طرف : عين. ظرف : حلاوة ورشاقة ، وجعل الطَّرف والعُنُق جنداً لها ، لأنها لما حُسُنَتْ معنى هذه الصفات انقاد لها عشّاقها أذلاّء ، فكأنها أغارت على قلوبهم فاستلبتْها ، وقد قال فيما تقدَّم :

وأحوى حوًى رِقّى لفظه *

فجعله قد ملكه بحلاوته . وقال حبيب :

وحشيّة ترمى القلوب إذا اغتدت   وسْنَى فما تصطاد غير الصّيدِ

فجعلها تصطاد السادات بفتور عينيها ، وهذا المعنى لا يحصى كثرة .

وأراد بالنّاعس الفاترَ النّظر وينعش من كان له منه نصيب وتمكن . يحدّ : يمنع من رآه من التسلى والتصبّر . زهاً : تكبّر. والتّيه : ضرب من الزَّهو ، وهو الكِبْر . باهت : فاخرت وعظمت . واعتدت : ظلمت . يخدّ : يقطع ، أى أن خدّها يقْطع فى القلوب لاسيما إن كان كما قال من أحسن :

وبيضاء تحسبها دُرَّةً   تضىء الدُّجى إن بدت أو تكادْ
تُنَمِّمُ بالمسك كافورتىْ   محيًّا حوَى الحسنَ طُرًّا وزادْ
فقلت : أوصلُك هذا البياض   وبعض صدودك هذا السواد
فقالت : أبى كاتب للملوك   دنوت إليه بحسن الوداد
فخافَ اطلاعى على سرّه   فلم يعد أن رشّنى بالمِدَادْ

فوصفها بأنّ فى خدَّيها خِيلانا .

قوله : أرّقتنى ، أى منعتنى النوم . شَطَّت : بعدت . سَطَتْ : بطشت . نَمّ : أفشى السرّ ، أى أفشى ما بى من الحب . وجْد : حزن من الحبّ وهمّ . جدّ : اجتهاد . فدنت : قربت . حنَّت : أشفقت . مغضياً : متغافلاً عمّا ينال منه . يودّ : يتمنى . يُوَدّ : يُحَبّ ، يقول : لما نمّ لها وجدى بما أُجِنُّه من حبها وأبصرت ما فعل هجرها بى دنَتْ عند ذلك منّى شفقةً، وحيّتْنى بسلامها وأنا فى حال غضبان ، لما حلَّ بى من الهجر متمنِّياً أن تحييْنى ، فلمَّا سلمتْ علىّ أزالت غضبى ، وأغضيت عما سلف من الفعل القبيح .

[أبيات حسان فى وصف الجوارى]

ونذكر هاهنا من الأشعار الحسان مما يوافق وصف هـذه الجارية جملة مستظرفة ، قال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر :

يَزيدنى البعـــد شوقاً إليكِ ... وطُول صُدودُكِ حِرْصاً عليكِ
ولو كنت أملك ما تملكينَ ... من الصّبر ما طال شوقى إليكِ

وقال آخر :

وما أنسَ لا أنسَ ذاك الخضوعَ ... وفَيْض الدموع وغمز اليـــدِ
وخـــدّى مضافٌ إلى خـــدّها ... قياماً إلى الصُّبح لم نرقُدِ

وقال أبو مطرف الزهرىّ :

مرَّتْ بنا وبَدَتْ كالبدر وانفلَتَتْ ... كالغصن والتفتتْ كالشادن الخرِقِ
تسربلتْ ببرود الحُسْن والتحفتْ ... بالغُنْج واشتملت مِرْطاً من الغسَقِ

وقال السّرى :

لبستْ مصندلة الثِّياب فَمَنْ رأى ... قمراً تسربل قَبْلَهـا أثوابَا[1]
وحكَتْ من الظبى الغرير ثلاثةً ... جِيـــداً وطرفاً فاتراً وإهابَا

(١) ديوانه ٦٣

وله أيضاً :

مذهبّة الخــدود بجلنار مفضّضة الثّغور بأقْحُوان[١]
سَقَانا اللهُ من ريّاك ريًّا وحيَّانَا بأوجهك الحِسَان

وللقاضى أبى حفص :

همُ نظروا لواحظَها فهامُوا وتشرّب عقلَ شاربهـا المُدَامُ
سَمَا طرفِى إليهــا وهو باكٍ وتحت الشَّمس ينسَكِبُ الغمامُ
يخاف النَّـاسُ مقلتَها سِوَاها أيذعرِ قلبُ حامله الحسامُ !
وأذكـر قدّها فأنوح شوقاً على الأغصان تنتدب الحمامُ
وأعقب همّها فى الصّــدْرِ غمًّا إذا غربتْ ذكاء أتى الظّلامُ

وله أيضاً :

أعيذك يا سليمىَ من سُلَيمٍ قتلتِ فتاهمْ وهو الكـريمُ
فمــا لكِ طالب بتراتِ نفسى إذا قتل الغرامُ فلا غريمُ
فؤادى سار نحوك عن ضُلُوع بهـا يا ريمُ حبُّك لا يَريمُ
ودادكُ صحّ فى قلبٍ سليم كطرفك صحّ ناظره السقيمُ
إذا أعرضتْ تسودّ الأمانى وإن أقبلتْ تبيَضّ الهمومُ

* * *

فطفِق الشيخُ يتأمّل مَا سَطَره ، ويقلِّب فيه نَظَرَهُ ، فلمَّا استَحْسَن خطّه ، واستَصَحّ ضَبْطَه ، قال له : لاشَلَّ عَشْرُك ، ولا استُخْبِثَ نَشرُك . ثمَّ أهابَ بفتًى فتَّان ، يُسْفِرُ عن أزهارِ بُسْتَان ، فقال له : أَنْشِدِ البَيْتَيْن المطرَّفَيْن ، المشْتَبِهِى الطرَّفَيْن ، اللَّذَيْن أَسْكَتَا كُلَّ نافِث ، وَأَمِنَا أن يُعَزَّزا بثالث ، فقال له : اسمع لا وُقِرَ سَمْعُكَ ، ولاهُزِمَ جَمْعُكَ ، وأنشد مِنْ غير تلبّث ، ولا تَرَيّث :

---

١) ديوانه ٢٦٨

سِمْ سِمَــــةً تَحْسُن آثارها   وَاشْكُرْ لمن أَعْطَى ولو سِمْسِمَهْ
والمكرُ مَهْمَا اسْطَعتَ لا تأته   لتقتَنِي السُّـؤْدُدَ والمكرُمَهْ

* * *

قوله : طفق ، أى أخذ . يتأمَّلُ : ينظر . سَطَرَه : كتبه . استصَحّ : وجده صحيحاً، والضَّبط : الشكل والنقط : لا شَلَّ عشرُك، دعاء، أى لا يبستْ أصابعك، ويروى : لا ثُلَّ عرشك ، أى لا هُدِم عزك ، والرّواية الأولى هى الصحيحة . استُخْبِث : فسَد وصار خبيثاً . نشرك : رائحتك العطرة . أهاب : دعا وصاح . يُسْفِر : يكشف عن وجهه لثامه . عن أزهار بستان : عن بياض الوجه وحمرة الخدّين والشّفتين وسواد العينين والأشفارِ وخضرة الشارب والعِذار ومحاسن لا تنى بها ناضرات الأنوار ، وقد يكون يُسفِر بمعنى يَتبسّم عن بياض شقيق وأقحوان واحمرار عقيق ومرجان، وكأنّ هذا الغلام هو الذى ذكر أبو الرقعمق بقوله :

إذا جرتْ يدهُ فى الطرس كاتبةً   تبلّج الطِّرس عن دُرٍّ ومَرْجانِ
وإنْ تكلّم جاءته براعتهُ   بكلِّ ما شاء من فَهْم وتبيانِ

وقال بعضهم يصف غلاماً كاتباً :

انظر إلى أثر المدادِ بطِرْسِه   كبنفسج الرّوض المشوب بوردِهِ
ما أخطأتْ نوناته من صُدْغه   شيئاً ولا ألِفاته منَ قدِّهِ
وكأنما ألِفاته من شَعْرِه   وكأنما قِرطَاسُه من خدِّهِ

ولعمر بن فتح :

فنوناته من حاجبيْه استعارها   ولاماتُه من صُدْغِه المتعاطفِ
ومن صدّه المؤذى اسودادُ مداده   ومن وصله المحيى ابيضاض الصحائف

ولأبى إسحاق الحصرى فى وصف هذا الغلام :

أيا من تُمْسِك الأوصافُ عنه أعنَّـةَ وصْفِنا نَظْماً ونثْرَا
ومن يدعو القلوب إلى مُناها بعينيه فلا تأتيـه قَسْرَا
ومَنْ يُجْرِى اللآلئ فى أقاحٍ يمـازج ظَلْمَهُ بَرَداً وخَمْراً
ويعرض فى رياض الدّلّ غصنا ويطلعُ فى سمـاء الحسن بَدْرا
كأن بخدّه ذهبَا صَقِيلاً أذاب عليه ياقوتًا ودُرَّا

ومنها فى وصف الكتاب :

قرأت كتابكَ الأعلى محلاًّ لدىّ ومُوقعاً شرفًا وقَدْرَا
فأحيـانى وقد غودرت مَيْتاً وأنشرنى وقد ضُمِّنْتُ قَبْرَا
نقشت بحالكِ الأنقـاش نَوْراً جَلاَ لعيـوننا نَوْراً وزَهْرَا
فدَّبج من بَسِيط الْفِكْرِ رَوْضاً أنيقًا مشرق الجَنَبَاتِ نَضْرَا
لو استسقى العليـلُ به لأروى أو استشفى العليل به لأبْرَى
هَفَا عطرِ الجنـوب له نسيمٌ أقول إذا أناسِم منه نَشْرَا :
نثرتَ لنا على الكافورِ مِسْكاً ولم تنثر على القرطاسِ حِبْرَا

وله فى العذار :

سَلَبَتْ محاسنُه سوادَ عيوننا وقلوبنا وكَسَتْ أديمَ عِذَارِهِ
فبدا طرازا فى أسيلٍ مشرقٍ ماء الحيـاة يجولُ فى أسرارِه
علم الذى استُلبت له يدٌ حسنَه منا فمازج أمنَه بحـذارِه
فـله توقُّف مستريبٍ تائب ولنا تلهُّب عاجزٍ عن ثارِهِ

وقال أبو الفضل الدرامى :

ظبىٌ إذا حرَّكَ أصـداغَه لم يلتفت خلق إلى العِطـر
غنى بشعرى منشداً ليتـنى اللّفظ الذى ضمنته شـعرى
فكلما كرر إنشادَه قبلتُهُ فيـه ولا يدرى

ولمهيار :

مشتبه أعرِفُه وإنما مغالطاً قلت لصحبى دَارُ مَنْ[١]

وحاملٍ على السّرور حاملٍ فى كفّه وَطَرْفه سيفَ الفِتَنْ

قد كتب الحسنُ على عارضِهِ ما أقبح الهجران بالوجْه الحَسَنْ

ولأبى إسحاق الطليطلى :

ومعذَّرٍ رَقَّتْ له خمر الصبا حيث العذار حبابها المترقّقُ

ديباج حسنٍ تاه عقلا ناقصاً فأتمّها علم الشّباب المونق

وشكا الجمال مقيلَه فى وَرْدِهِ فأظلّه آسُ العذار المشفِقُ

عامت بماء الصَّقْل شامَةُ خدّه وحمى العِذار زُوَيْرقاً لا يغرق

إن كان يمحو نمشه من خده فطلا الغزال بمسكها يتفتّقُ

قوله : المطرّفين ، أى الغريبين ، وقد أطرفته ، جئته بطُرفة ، أى بشىء معجب . نافث : متكلم . يعزّزا : يقوّيا ويشدّدا ، وإذا صلب الشىء قيل: تَعزَّز وأصله من العَزاز وهى الأرض الصلبة .

وقال فى الدّرة : ويقولون شفَّعت الرّسولين بثالث فيوهمون فيه ، والعرب تقول : شفعت الرّسُول بآخر ، أى جعلتهما اثنين ليطابق معنى الشفع فى كلامهم ، وهو اثنان ، فأما إذا بلغت ثلاثاً فوجهه أن يقال : عززت بثالث . قال تعالى : ﴿ إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث ﴾ ، والمعنى فى عَزّزْته قوّيْتُه . وأعززته : جعلتَه عزيزاً ، فإن واتّرت الرّسل فالأحسن أن تقول قفّيت بالرسل ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنا على آثارهم برسلنا ﴾ .

وما أحسن ما قال ابنُ شرف فى العذار وذكر التعزيز بثالث :

---

(١) ديوانه ٤ : ٤٧

قد كنتَ فى وعد العذار فأنجزا — وقضى لحسنك بالكمال فأوْجَزَا[1]
وافى لنصرِ الحسن إلا أنه — ولّى إلى فئة الهوى متحيِّزا
عطفٌ تعلّم منه قلبى عطفَه — وجَدَ الفؤادُ به السَّبيلَ إلى العزا
لم يكف وجهَك حسنُه وبهاؤُه — حتى اكتسى ثوبَ الجمالُ مطرّزا
سبحان مَنْ أعطاك حُسْناً ثانياً — وبثالثٍ من حُسْنٍ فعلاك عَزّرا

الْوَقْر : الثقل فى الأذن . تلبّث : طول إقامة . تريّث ، إذا احتبس ومكث ، ويقال: تريّث بنقطتين وتربّث تربّثاً بواحدة ، والمعنى فيهما واحد . سِم : عَلَمٌ . سمة : علامة . سمسمة : حبة جلجلان . المكر : الخداع . تقتنى : تكتسب . السودد : الشرف . والمكرمة : الكرامة .

وممن اشترط أن بيتيه لا يعززان بثالث قبل الحريرى أبو دلف حين قال :

أنا أبو دلفِ المهدى بقافيةٍ — جوابها يهلك الزّاهى من الغيظِ
مَنْ زاد فيها له رَحْلِي وراحلتى — وخاتمى والمدُى فيها إلى القيظ

وذكر الحصَرى الأعمى المكرمة فى تجنيس قوافيه ، فسمع قوماً يقدحون فيه وفى أبى خلصة فقصده وقال :

يا أديبا ملكْتنى — فى يديْهِ المكرُمات
ليت قوماً دأبهم فىّ — وفيك المكْرُماتوا

وله :

رب ظبى هويته — نقمى للهوازِنهْ
قلت:ما أثقل الهوى — قال: ماللهوى زِنَهْ

---

(١) النتف ١٠٢

وله أيضاً :

إن كتمتَ الهــوى فقد صار سرِّى عــــلانيَهْ
بسقـــــــامٍ أذابني وشحُوبٍ عـــلانيَهْ

* * *

فقال له : أجَـــدْتَ يا زُغْلول ، يا أبا الغُلول ، ثم نادى : أوضِـح يا ياسين ، ما يُشْكِل من ذوات السِّين ، فنهض ولم يتأنّ ، وأنشدَ بصوتٍ أغنّ :

نِقْسُ الدَّواةِ ورُسْغُ الـكفِّ مثبَتةٌ سِينَاهما إن هُماً خُطَّا وإن دُرِساَ
وهـكذا السِّين فى قِسْبٍ وباسقةٍ
والسَّفْح والبَخْسِ واقْسِرْ واقْتَبِسْ قَبساَ
وفى تقسّسْت بالليل الـكلامَ وفى مُسَيْطِرٍ وشَموسٍ واتخـذ جَرَساَ
وفى قَرِيسٍ وبردٍ قارسٍ نخذ الـــصّوابَ مِنِّى وكُنْ للعــلم مُقْتبِساَ

فقال له : أحْسَنْتَ يانُغَيش، ياصَنَّاجة الجيش ، ثم قال : ثِبْ ياعنبسة ، وبين الصاداتِ الملتبِسَة ، فوثب وَثْب شِبْلٍ مُثار ، ثُمَّ أَنْشَدَ من غير عِثار :

بالصاد يكتب قد قَبَصْت دراهماً بأناملى وأصِخْ لِتَسْتَمِعَ الخَبَرْ
وبَصَقْتُ أبصُق والصِّماخ وصَنْجةٌ والقصُّ وهو الصَّدْرُ واقتصّ الأثَرْ
وبخصْتُ مقلتَه وهـذِى فرصةٌ قد أُرْعِدتْ منه الفريصةُ للخوَرْ
وقَصرتُ هِنْداً أى حبستُ وقَدْ دَنا فِصْحُ النَّصارَى وهو عيدٌ مُنْتَظَرْ
وقَرَصْتُه والخمر قارِصَــــةٌ إذا حَذَتِ اللّسانَ وكلّ هذا مُستَطَرْ

* * *

أجَدْت: أتيت بجيّد . الزُّغلول : الخفيف، وزغلول الرجل: ولده ، والغَلول: الخيانة فى المغنم ، وأصلُه الستر والتغطية ، تقول : غلّ الشّيء غلاًّ وغُلولا ، إذا ستره ، وصفه كأنه يغُلّ العقول ، أى يمسكها ويخون أصحابها فيها ، وقالت عُلَيَّة :

* يا غُلَّ ألباب الرجال *

أوضح : بيَّن. يتأنّى : يتباطأ ويفتر ، والتأنى : التّثبت ، وفى الحديث أنه نظر صلى الله عليه وسلم إلى رجل يتخطّى رقاب الناس يوم الجمعة ، فقال : « آنيتَ وآذيت » ، أى أخّرت المجىء ، ويكون يتأنّى من قولهم : فلان ذو أناة من وَنَى ينى ، وتكون الهمزة مبدلةً عن واو ، وهو الأظهر . أغنّ : فيه غُنَّة ، وهو البَحح الخفيف ، والأغنّ : الّذى يتكلم من قِبَل خياشيمه . نِقْس : مداد . رسغ الكف : موصلها من الذراع . والقَسْب : نوى التمر . باسقة : نخلة طويلة . السَّفْح : أسفل الجبل . البخْس : النقص . اقْسِر : اقهر واغلب . اقتبس قبَساً : اطلب شعلةً من نار . وتقسّست : تتبّعت . والشَّمُوس : الدابة التى تمنع أن تُسرج وأن تُرْكَب . جَرَساً : الذى يضرَب به فيصوِّت . قَرِيس : حوت . قارس : شديد . مقتبساً : طالباً حريصاً على كَسبْه .

قوله : نُغَيش ، أى كثير الحركة ، وقيل : نُغَيْش تصغير النَّغاش من الرجال الحقير الخلْقة ، الغاية فى القصر ، فصفة هذا الغلام أنه حقير الخلقة كثير الحركة ، وقلّما تكون تلك الخلقة إلا ومعها الحركة والحدّة . ورواه الفنجديهى « نفيش » بالفاء ، أى قصير . ثعلب : النغّاشون ، هم القصار الضّعاف الحركة ، ومنه الخبر أنه رأى نغَّاشاً فسجد شكراً ، قال: والنَّغْش: تحرّك الشىء فى مكانه ، يقال : دار تنتغش صبياناً ، والتنغّش : دخول الشىء بعضه فى بعض . وصنّاجة الجيش : التى يُضرَب بها المثل فى الحروب ، وقيل : الصَّنّاجة الضرَّابة بالدفوف والطنابير وعود الغناء ونحوه من آلات اللهو ، قال الهُذَلىُّ وهو ساعدة بن جُؤَيّة :

وعاودني دِيني فبتّ كأنّما خلال ضلوع الصدر شِرْعٌ ممدَّدُ[1]

بأوب يديْ صَنّاجةٍ عند مدمنٍ غويٍّ إذا ما يَنْتشِي يتغرّدُ

يصف ما في صدره من الحُرَق . ودينه : حالته التي تعتاده من الهمّ ، والشِّرْع : الوتر ، يقول : كأنّما في صدري عود ، لأوتاره رنّة مما أحدَث به نفسي من الهموم . وأوب يديْها : رجعهما بضرب الصّنج ، أي بتحريك يديها حين تمرّ أوتارها ، وينتشي : يسكر . ويتغرد : يتغنّى ، وفلان صنَّاجة قومه ، أي المقدّم عليهم في الفضل . وقيل : صَنّاجة الجيش هو البطل المعروف ، ويقال : ليلة قَمْراء صَنّاجة وصَيّاجة ، إذا كانت مضيئة ، وصنَج فلان بفلان إذا صَرَعه . وكان أعشى قيس يُدْعَى صنّاجة العرب لفصاحته . وقيل : لرقة شعره ، وقيل : الصَّنّاجة الغناء ، ويريد بالجيش الصبية الذين جيّشوا حوله ، فُنَغَيْش صنّاجتهم ، أي أنبلهم وأحذقهم أو كالصنجة في خلقته وقصره . ثب : اقفز . عنبسة : اسم أسد . والشبل : ولده . مُثَار : مفزَّع ، وقد أُثير : استخرج من مكانه بالبحث عليه . قبصت : أخذت بأطراف أصابعي ، والقبصة أقل من القبضة . أصخ : استمع . الصِّماخ : ثقب الأذن . صَنْجة ، هي التي يوزن بها . والمقلة : شحمة العين . بخصْتُها : فقأْتُها . واستلبتها فرصة : نهزة وغنيمة . والفريصة : بُضعة عند الكتِف تُرْعَد عند الفزع . الخَوَر : الضّعف . قرصته : عضضته بظفري . حذَت اللسانَ : قرصته بحدَّتها . مُسْتَطِر : مكتوب .

* * *

فقال له : رَعياً لك يا بنيّ ، فقد أقررتَ عينيّ . ثمّ استنهض ذا جُثَّةٍ كالبيذَق ، ونفْشةٍ كالسّوذَق ، وأمره أن يقف بالمرصاد ، ويسرُدَ ما يجرى على السين والصاد ، فنهض يَسْحَبُ بُرْدَيْه ، ثمّ أنشد مشيراً بيديه :

(١) ديوان الهذليين ١ : ٢٣٦

إن شئتَ بالسّين فاكتُبْ ماأبيّنُه ... وإن تشأ فهو بالصادات يُكتَتَبُ

مَغْسٌ وفقس ومُسْطارٌ ومُمَّلِسٌ ... وسالغٌ وسراط الحق والسَّقَبُ

والسامِغان وسَقْرٌ والسوبق ومسْـــلاقٌ وعن كلّ هذا تُفصِحُ الكتب

فقال له : أحسنْتَ يا حبَقّة ، يا عَيْنَ بقّة ، ثم نادى : يا دَغْفل ، يا أبا زنْفل ، فلبّاه فتًى أحسنُ من بَيْضَة، فى روضة؛ فقال له : ما عَقْد هجاء الأفعال ، التى آخرها حرف اعتلال ، فقال : اسمع ، لا صَمَّ صداك ، ولا سمعت عِداك . ثم أنشد ، وما استرشد :

إذا الفِعْـل يوماً غُمَّ عنك هجاؤه ... فأَلحِقْ به تاءَ الخطاب ولا تقِفْ

فإن تَرَ قبْـــل التاء ياءً فكَتْبُهُ ... بياءٍ وإلاّ فهو يُكْتَبُ بالألفْ

ولا تحسب الفعل الثلاثىَّ والّذى ... تعدّاه والمهموزَ فى ذاك يختلفْ

* * *

رَعْياً : حفظاً ، أى رعاك الله رعياً . استنهض : أمره بالنهوض . جُثّة : جسد . وبيذق الشطرنج ، معروف ؛ يشبَّه به الخفيف الروح الحاذق . نَغْشة : حركة . والسَّوْذق ، هو السَّذانق من الطّير التى يُصطاد بها . بالمرصاد ، أى قريب منه حيث ينظره . يَسرد : يقرؤها بسُرْعة . يسحب برديه : يجرُّ ثوبيه .

وقال الحسن يصف مثل هذا الغلام :

يأيها المبطلونَ مَعْذِرَتِى ... أراكم الله وجه تحقيقِ(١)

نمَّ بما كنتُ لا أبوح به ... على لسان بالدمع مِنْطيقِ

(١) ديوانه ٨٩ ؛ وفيه : «وجه تصديق» والقصيدة يمدح فيها العباس بن الفضل بن الربيع

شوقاً إلى حسن صورة ظفرت ... من سلسبيل الجنان بالرِّيقِ (١)

وصيفُ كأسٍ محدَّثٌ مَلِكٌ ... تيه مغنٍّ وظَرْف زنديقِ

يشوبُ عِـــزًّا بذلَّةٍ فله ... ذلُّ محبٍّ وزهو معشوقِ

أمشى إلى جنبـه أزاحمه ... عَمْداً وما بالطريق من ضيقِ

ومن مدحها :

وإن عبَّاساً مثل والده ... ليس إلى غاية بمسبُوقِ

تأنّق الحسن حين زانكما ... ففقتما النَّاس أىّ تأنيقِ (٢)

فصُوِّر الفضل من حجاً وندًى ... وأنت من حكمةٍ وتوفيقِ

وله أيضاً :

ترى للحسنِ والحركات فيه ... سَواماً لا تُذَاد عن القلوبِ

فيا مَنْ صِيغ من حسنٍ وطيبٍ ... جَلّ عن المُشاكل والضَّريبِ

أصبنى منك يا أملى بذنبٍ ... تتيه على الذُّنوب به ذنوبى

قوله: سراط ، أى طريق . والسَّقْر من الجوارح : التى يُصْطاد بها . السَّوِيق: الشعير إذا قُلِىَ وطُحِن . حَبْقة : ضَرْطة . عين بقّة ، يقال : ذلك للصغير . دَغْفل : اسم رجل كان نسَّابة، والدَّغفل. ولد الفيل ، والدَّغفل :الزمن الخصيب، فسُمِّىَ الصبىّ بأحدها . والزَّنْفل ، من أسماء الداهية . والبَيْضة : بَيْضة النَّعام، وجعلها فى رَوْضَـة ، يريد أنها مصونة منعّمة ، وتشبيههم للنساء بهذه البَيْضة مشهور فى شعر امرئ القيس وغيره . وقيل للأوسيَّة — وهى امرأة حكيمة من العرب — بحضرة عمر بن الخطاب رضى الله عنه: أىّ منظر أحسن ؟ فقالت: قُصُورٌ بيض فى حدائق خضر ، فأنشد رضى الله تعالى عنه لعدىّ بن زيد :

---

(١) الديوان : « أثرت » .

(٢) رواية الديوان :

تأنّق اللهُ حينَ صاغكما ... لأن تفُوقا فأَىُّ تأْنيق

كدُمَى العاج فى المحارِب أو كالـــبيض فى الرَّوضْ زهْرُه مستنير[(١)]

قوله : لاصَمّ صَداك ، أى لاهلكتَ ، فلا يكون لك صوت .

وقال امرؤ القيس فى الدار الخالية :

صمّ صَدَاها وَعَفــا رسْمهـا واستعجمتْ عن منطقِ السَّائلِ[(٢)]

والصَّدى : الصوت الذى يجيبك من الجبل ، أو من الموضع الخالى ، والصَّدى : طائر يخرج من رأس المقتول ، فلا يزال يصيح : اسقونى اسقونى ، حتى يُقتَل قاتله على زعمهم . ولاصمّ صداك ، دعاء بطول العمر ، لأن الصدى تابع للصوت ، فإذا مات الإنسان انقطع صوتُه ، فلا يُسمع له صدى ، فكأنَّ صداه بعد موته أصمّ لا يسمع ولا يجيب . ما استرشد ، أى ما طلب مَنْ يرشده ويدلّه .

* * *

فطرب الشيخُ لما أدّاه ، ثمّ عَوّذَهُ وفَدّاه ، ثمّ قال : هلمّ يا قَعْقاع ، يا بَاقِعةَ البِقاع . فأقبل فتىً أحْسَنُ من نارِ القِرَى ، فى عينِ ابن السُّرَى ، فقال له : اصْدَعْ بتمْييزِ الظّاء من الضّاد ، لتصدَع به أكْبَادَ الأضْدَاد ؛ فاهتزّ لقوله واهتشّ ، ثم أنشد بصوتٍ أجشّ :

أيّهـا السّائلى عن الضّاد والظّا ء لـكيلاَ تَضِـلَّه الألفاظُ

إن حفظ الظاءاتِ يُغْنيك فاسْمَعْـــها اسْتِمَاعَ امرئٍ له استيقاظُ

هى ظَمياءُ والمظالمُ والإظْـــلاَمُ والظَّلْمُ والظُّبَى واللّحاظُ

والعظا والظَّليمُ والظَّبْىُ والشَّيْـ ظَمُ والظِّلُّ واللَّظى والشُّوَاظُ

والتَّظنّى واللّفظ والنَّظْم والتّقْــرِيظُ والقَيْظُ والظَّمَا واللَّماظُ

(١) شعراء النصرانية ٤٥٥ (٢) ديوانه ١١٩

والحُظَا والنَّظِيرُ والظِّئر والحا حظَ والناظرُون والأَيْقاظُ

والتَّشَظِّي والظِّلْفُ والْعَظْمِ والظُّنْبُوبُ والظَّهْر والشَّظَا والشِّظاظُ

والأظافيرُ والمظفر والمحْظُورُ والحافِظُون والإحفاظَ

والحِظِيراتُ والمِظَنّة والظِّنَّة والْكَاظِمُون والْمُغْتَاظُ

والوظيفات والمواظب والكِظّةُ والإنتظارُ والإلظاظ

ووظيفٌ وظالعٌ وعظيمٌ وظهيرٌ والفَظّ والإغلاظَ

ونظيفٌ والظّرف والظّلَف الظاهر ثم الْفِظيع والوُعّاظَ

وعكاظ والظَّعْن والمظّ والحَنْظل والْقارِظانِ والأوْشَاظُ

وظرابُ الظِّرّان والسَّظَفُ الْبَاهِظُ والجَعْظَرِيّ والجوّاظَ

والظَّرَابينُ والحَنَاظِبُ والْعُنْظُبُ ثمّ الظَّيّانُ والأرْعَاظَ

والشَّنَاظِي والدَّلْظ والظَّأْبُ والظِّبْظَابُ والْعُنْظُوانُ والجِنعاظَ

والشّنَاظِيرُ والتَّعاظَل والْعِظْلِمُ والْبَظْرُ بَعْدُ والإنعاظَ

هى هذى سوى النّوادِر فاحْفَظْها لتقْفُو آثارَك الحفّاظُ

واقضِ فيما صرفت منها كما تَقْضِيهِ فى أصله كقيْظٍ وقاظُوا

* * *

أدّاه : أبلغه ، تقول : أدّيتُ الأمانة ، إذا بلّغتَها صاحبَها . عوّذه : قرأ عليه المعوّذتين . وفدّاه : قال : نفسى فداؤك . قعقاع : شديد الصوت ، والقعقعة ، صوت متتابع . والبَاقعة : الداهية . والبِقاع : جمع بُقْعة ، قطعة من الأرض

لقِرَى : طعام الضيف . ابن السُّرى ، هو الطارق بالليل ، وقد تقدّم ذكر هذه النار عند قوله:

فلم أزل أنصّ عنسى وأقول : طوبى لك ولنفسى

وهم يضربون المثل بها وحدها فى الحسْن فيقولون : هو أحسن من النّار ، فكيف إذا كان إنسان مع ظلام الليل فى ريح وبَرْد وجوع ، لا يدرى أين يتوجّه ، فرأى ناراً قد أُوقِدَتْ لقِرى الأضياف ، فلا يقدِر قَدْرَ حسنها إلا مَنْ جرّبها .

وقالت أعرابية : كنت فى شبيبتى أحسنَ من النار .

وأنشد التوّزى ملغزاً فى النار :

وشعثاء غبراءَ الفروع كأنّما بها تُوصَفُ الحسناء بل هى أجملُ
دعوتُ بها صحبى بليلٍ كأنّهمْ وقد أبصروها يعطشون فأنهلوا

فهذا مثل الّذى ذكره الحريرى .

وقال الآخر يصف ناراً :

ومشبوبةٍ لا يَقْبِس الجار ريّهَا ولا طارق الظلماء منها يؤنَّسُ
متى ما يزرها زائر يُلْفِ دُونها عَقيلة دارىّ من المسك تغرَسُ

وأنشد أبو زيد فيها ملغزاً :

وزهراء إن كفَّنْتَهَا فهو عيشُهَا وإن لم تكفِّنْهَا فموتٌ معجَّلُ

وكان الحسن بن وهب أشدَّ الناس عشقاً لنبات جارية محمد بن حماد ، وكانت تغنّى فى مجلسه ، وبين يديها كانون فحم ، فتأذَّت بالنار ، وأَمرت بإبعادها ، فقال الحسن مرتجلا :

بأبى كرهت النَّارَ لمَّا أُوقِدَتْ   فعرفتُ ما معناكِ فى إبعادها
هى ضُرَّةٌ لك بالتِماع ضِيائها   وبحسن صورتها لَدَى إيقادها
وأرى صنيعَك فى القلوب صنيعَها   بأَرَاكها وسَيَالها وقَتَادِها
شركتْك فى تلك الجهات بحسْنها   وضيائها وصلاحِها وفسادِها

وكان مع أصحابه يوماً ، فقال : لو ساعدنا الزمان لجاءتنا نبات ، فما تكلَّموا بشىء حتى دخلت ، فقال : إنى وإياكِ لكما قال علىّ بن أمية :

وفاجأتِنى والقلبُ نحوكِ شاخصٌ   وذكراك مابين اللِّسان إلى الْقَلْبِ
فيافرحةً جاءت على إثْرِ ترحة   ويَا غَفْلَتِى عنها وقد نزلت قربِى

ودخلت عليه يوماً وهو محموم ، فسلّمتْ وقبَّلت يده ، فأراد تقبيل يدها فأُرْعِش وقال :

أقول وقد حاولتُ تقبيلَ كفِّهَا   ولى رعدةٌ أهتزُّ منها وأسكنُ
فديتكِ إنّى أَشجع الناس كلِّهِمْ   لدَى الحرب إلَّا أننى عنك أجبُنُ

قوله : اصدع ، أى بيِّنْ وأظهر . تصدع : تشق . الأضداد : الأعداء . أجشّ : أبح . تضلُّه : تضيِّعه وتتلفه . استيقاظ : انتباه . ظمياء : عطشى .

الأزهرى : شفة ظمياء ، ليست بوارمة كثيرة الدم ويحمد ظمؤها ، ولِثّة ظمياء ، ورجل أظمى ، وامرأة ظمياء ، وقيل : شفة ظمياء ، إذا كانت فيها سُمْرة . وساق ظَمْياء : قليلة اللحم . والظَّلْم ، بالفتح : ماء الأسنان ، وقيل : بريقها وصفاؤها ، والجمع ظلوم . واللَّحاظ : طرف العين الّذى يلى الصُّدغ . العَظَاء : جمع عَظَاية ، وهى دويبّة حمراء إلى الغبرة ، ذات قوائم أربع . الظَّلِيم : ذكر النعام . الشَّيظم : الطويل . اللَّظى : النار . والشُّوَاظ : لهبها بغير دخان . التّظنِّى : مصدر تظنَّيت أى حسبت ، والأصل تظنّنت بالنون ، فأبدلت ياء . والتقريظ : مدح الرجل

حيًّا . والقيظ : فصل الحرّ . والظَّمأ : العطش . واللَّماظ : الشيء اليسير من الطعام وقد تلمَّظت ، إذا تتبعت بلسانك بقيَّة الطعام بعد الأكل ، واسم تلك البقية اللُّماظة ، وقيل : التَّلمظ هو لَعْق الشفتين باللسان من عطشٍ أو غيظٍ . الحظا : انتفاخ اللحم . النَّظير : المثل . الظِّئر : المرضع بالأجرة . الجاحظ : الذى برَزَتْ عيناه . الأيقاظ : ضدُّ النّيام ، الواحدَ يقُظ بضم القاف وكسرها . قوله : القَشَظِّى : أن تصيِّر العودَ فلقاً ، والشَّظية : الفِلْقَة منه . والشَّظى : عظم لاصق بالركبة ، وقيل هو تشقّق عصب الذراع . والظِّلْف للغنم والبقر بمنزلة الحافر للدَّواب ، وكل حافر مشقوق ظِلْف . الظُّنبوب : مقدّم عظم الساق . والشَّظاظ : عود الشّداد ، الذى يشدّ به المتاع ، وقيل : هو عود يدخل فى عُرَا الغِرَارتين فيحملان به على ظهر البعير . المظفر : المؤيد . المحظور : الممنوع . الإحفاظ : الإغضاب . الحظيرات: جمع حظيرة ، وهى الزَّرْب يُعمل منه شبه الدار، تسكنها الغنم والإبل ، وقد يكون من حائط ، وأصل الحظْر المنع ، وكلّ مانع بين شيئين حَظِير . والمظنّة : الموضع تَرْمى فيه بظنّك ، وفلان مظنّة خير ، أى يُظنّ فيه الخير . والظنّة : التهمة . الـكاظمون : المتجرِّعون غيظَهم ، وقد كَظَم غيظَه ، تجرَّعه وردّه . الوظيفات : جمع وظيفة وهى ما يلزمك من المغرَم . المواظب : الملازم ، وقد واظبت على الشىء ، داومت عليه . الـكِظّة : الامتلاء من الطعام ، والإلظاظ : اللزوم . الوظيف لـكل ذى أربع : ما فَوْق الرُّسغ إلى الساق . والظَّالع: الأعرج . والظَّهير : القوىّ الظهر ، وهو أيضاً المُعين .والفَظّ : الغليظ ، والفظاظة: الجفاء والغِلْظة . والإغلاظ: الجفاء . والنّظيف: النَّقيُّ الحَسَن . والظَّلَف: المنع والردّ ، وقد ظلفتَ أثرى ظلَفاً ، إذا مشيتَ فى حُزونة الأرضِ وصلابتِها فمنعتَ أثركَ أن يؤثر فيها . والفظيع : الـكريه المطعم ، وقد فَظُع الشىء ، اشتدت كراهيتُه ومرارته . عُـكَاظ : موسم للعرب . الظعن: السفر . الحنظل : شجر مرّ ،والباهظ : الغالب . والبَظْر : زيادة فى فَرْج المرأة، ورجل أبظَر: فى

شفته العليا نتوء ، وامرأة بظراء ، والأول راجع إلى هذا المعنى . الإنعاظ : قيام الذكر . النوادر : الغرائب والشواذ . تقفو : تتبع . قيظ : شدّة الحرّ ، وقاظوا: دخلوا فى زمن القَيْظ .

* * *

فقال له الشيخ : أحسنْتَ لا فُضَّ فُوك ، ولا بُرَّ مَنْ يجفوك ، فوالله إنَّك مع الصِّبا الغضّ ، لأحفظُ من الأرض ، وأجمعُ من يوم العرض ، ولقد أوردتُكَ ورفقتك زُلالى ، وثقَّفْتُكُمْ تثقيفَ العوالى ، فاذكرونى أذكرْكُمْ ، واشكُرُوا لى ولا تكفُرُون .

قال الحارث بن همام : فعجبتُ لما أبْدَى من براعَهْ ، معجونةٍ برقاعة ، وأظهر من حَذَاقة ، ممزوجةٍ بحماقة ؛ ولم يزل بصرى يصعّد فيه ويصوّب ، وينقّر عنه وينقِّب ، وكنت ، كمن ينظر فى ظَلْمَاء ، أو يسرى فى بهماء ؛ فلمّا استراثَ تنبُّهى ، واستبان تَدَلُّهى ، حملق إلىّ وتبسّم ، وقال : لم يبق من يتوسَّم . فبُهِتُ لِفَحْوَى كلامِه ، ووجدتُه أبا زيدٍ عند ابتسامِه ، فأخذت ألومه على تديُّرِ بقعة النوكى ، وتخيّر حِرفة الحمقى ، فكأنَّ وجهه أُسِفَّ رماداً ، أو أُشْرِبَ سواداً ، إلا أنه أنشد وما تمادَى :

تخيرّت حِمْص وهذى الصِّناعَهْ لِأُرزَق حُظْوَةً أهل الرَّقاعَهْ

فما يصطفى الدهرُ غير الرقيع ولا يوطِن المالَ إلَّا بقاعَهْ

ولا لأخى اللُّبِّ من دهره سوى ما العيْرِ ربيطِ بقاعَهْ

* * *

فضّ : كسر . يجفوك : يغلظ لك فى الكلام . الغَضّ : الطرىّ . يوم العرض : يوم القيامة ، ولما أشار مِنْ أوّل على أكبرهم ، انحطّ فى أسنانهم إلى أصغرهم ، نختم به كما بدأ بأكبرهم ، فلذلك قال : مع الصبا الغضّ .

مما قيل فى الصغار]

ومما قيل فى الصغار من الشعر المستحسَن ، قال أبو الفضل الدرامى وقد سأله الثعالبى أن يصفَ له غلاماً صغيراً ، بديع الحسن ليثبت ذلك فى كتابه المترجم بألف غلام ، فأنشد :

إنّى عشقتُ صغيراً ... قد دبّ فيه الجمالُ
وكاد يفشى حديثَ الـ ... ـفُضول فيه الدّلالُ
لو مرّ فى طرق الوصْـ ... ـلِ ما اعتراه الضّلالُ
يريك بدراً منيراً ... فى الحُسْن وهو هِلالُ

قال الحسن :

حين أوفى على ثلاث وعشرٍ ... يَطُلْ عهد أذنه بالشُّنُوفِ
غنة فيه للصبا تعتليه ... بحّةُ الاحتلام للتشريفِ
حين رام النّساء منه بمينٍ ... وطوى أختها على التخويفِ

وقال آخر :

لئن يزيد على عشرٍ بواحدة ... وزاد أخرَى وشاب الحبّ بالجَزَعِ
وجاوب اللّحظ منه لحظَ عاشقه ... وجوّز الوعد بين اليأس والطمعِ
قد كان غِرًّا بقتلى ليس يُحْسِنهُ ... فاليوم يبدع فى قتلى على الْبِدَعِ

وقال آخر :

قالوا أتبكى على صغيرٍ ... خصصتَه بالوداد طِفْلَا
فقلت إن البنان خمس ... أصغر ما بينها يُحْلَى

ولابن إدريس اليمانى :

عشقته شادناً صـــغيراً وكنت لا أعشق الصِّغارَا
أعارنى سقمَ ناظـــريه فاستشرفَتْ نفسُه حذارَا
يُسفر عن وجه مستنير يردّ جُنْحَ الدُّجى نَهـارَا
لم أر من قبـل ذاك نُوراً أضرمَ فيـــه الحياء نارَا

ولابن شهيد[1] :

راقنى من شيمه برقٌ بدا أمسنا المحبوب أوْرَىأزْنُدَا
هبَّ من نَعْسَتِه منكسراً مُسبَل الكُمّين مُرْخٍ للرِّدَا
يمسح النَّعسة من عَيْنَىْ رشاً صائدٍ فى كلّ يوم أســدَا
قلت هب لى يا حَبيبِى قبلةً تَشْفِ من حبّك تبريح الصدَى
فانثنَى يهتز من منكبه قائلا : لا ، ثم أعطانى اليَدَا
قال لى يلعب : صِدْ لِى طائراً فترانى الدّهر أجرى بالكُدَى
وإذا استنجزتُ يوماً وعدَه قال لى يمطل : ذكِّرنى غدَا
شربتْ أعطافه خمْرَ الصبـا وسقاه الحسن حتّى عَرْبَدَا

ورأى الحْسَن غلاماً فى المكتب فأشار إلى تقبيل يده فقبّله فقال :

ظفرت بقبْــلةٍ منه على عيــنى معلِّمهْ
أشرتُ بها إلى يده فأوصلهــا إلى فَمِهْ

وقال الحُلْوانى :

تمرَّضْتُ مَنْ شَفَّنِى هجرُه ببــــدء سلام عليه شِفَاهَا

---

(١) ديوانه ١٠٣ .

وقلت عساه يردّ السّلام فتبلغ نفسي منـــه مُناهَا
فجاد عليّ بتقبيـــلةٍ وقد كان أعرض عنّي وَتاهَا
وكنت كموسى أتى للضياء لقبس نارٍ فناجى إلهـــاَ

وكتب الحسن لغلام كاتب يستعطفه ، فوقّع الغلام فى كتابه : « تزاد هجراً إلى يوم الحساب » فقال الحسن :

كتبت إلى الحبيب ببيت شعرٍ أعاتبه فأغضبه كتابِي
أجبني يا ملولُ على كتابِي فإنّ النّفْس تسكن بالجوابِ
فوقّع فى الكتابِ : يزاد هجراً وإبعـــاداً إلى يوم الحسابِ

وقال ابن رشيق فى محبوبه الصائغ :

وظبيٍ من بنى الكتّاب يَسْبِي قـــلوبَ العاشقين بمقلتيْهِ[(١)]
رفعت إليـه أستقضى رضَاه وأسأله خلاصاً من يديْهِ
فوقّع : قد رددت فؤاد هذا مسامحةً فلا يُعْدَى عليْـــه

وناوله يوماً تفاحة فقال :

وتفاحةٍ من كفّ ظبيٍ أخـذتُها جَناها من الغصن الّذى مثلُ قَدِّهِ[(٢)]
لهـا لمسُ ردفيْه وطيبُ نسيمه وطعم ثناياه وحُمْرَة خـــدِّه

ولابن فرج :

ومن ينظر إلى خـدّيك يحكمْ على ورد الحـــدائق للخدودِ
وما اهتزّتْ غصون الرّوض إلا تمنّتْ حُسْنَ قدِّك فى القُـدُودِ

---

(١) النتف ٨٦
(٢) النتف ٢٨

وقال مسلم بن الوليد :

تفاحـــــة شاميّةٌ من كفِّ ظَبْىٍ غَزِلِ
ما خلقت مذ خلقتْ تلك لغير القبَـــلِ
كأنّما حمرتها حُمرة خـــدٍّ خَجِلِ

وقال آخر فى ضدّ ما تقدّم :

فديتك لا تخِفْ منّى سُلُوًّا إذا ما غـيّر الشعر الصِّغَارَا
أدين بدنّ خـلٍّ كان خمراً وأهوى لحيةً كانت عِذَارَا

وقال ابن المعتز فى مثله :

مَنْ مُعِينى على السَّهرْ وعلى الحبِّ والفِـكَرْ
ويل ما بى من شادنٍ كِبرَ الحبُّ إذ كَبرْ

قوله: زُلالى ، أى خالص علىّ ، والزُّلال : الماء العذب الصافى . ثقَّفتكم : قوَّمتكم. العوالى : صدور الرِّماح . براعة : فصاحة . الحِذاقة : المهارةُ فى كلِّ عمل ، وهى الحِذْق ، وأصله القَطْع ، كأنّ الحاذق يقطع الأمور المشكلة بعقله ، وحذق الصبيُّ القرآن : قَطَعه حفظاً . الرَّقاعة : الحماقة ، رَقُعَ رقاعة فهو رقيع . يصعِّد : يرفع نظره . يصوِّب : ينظر فى اعتدال واستواء . ينقِّر : وَ ينقِّب : يفتش . بَهْماء : أرض مجهولة . استراث : استبطأ . تَدَلَّهى : تحيرى ، ودلَّهه الحب : حيَّره وأدهشه . تحْلق : نظر بحملاقه ، وهو باطن جفنه ، وهو نظر المغضَب . يتوسَّم : يحسن النَّظر والميز . بُهِتُ : فطنت ، وفى الحديث « ربَّ ذى طِمْرين لا يؤبه له» ، أى لا يفطَن له لذلَّتِه ، وتأبّه فلان : تـكبّر ، وإنه لذو أبّهة ، أى ذو كِبْر ونحوه . الفنجديهى : رأيت بخط الحريرىّ : يقال : أبَهْتُ له وأبهت ووبَّهت له بمعنى ،

قال يعقوب . تقول : ما بهت له ، وما بهت به وما أو بهتُ له ، وما بهأت له : ما فطنت له . فَحْوَى : معنى . عند ابتسامته ، قد تقدّم وصفه بالقَلَح ، يريد لمّا ابتسم ورأى قَلَحه عرفه . تديّر بُقْعة النوكى ، أى اتّخاذه حمص داراً ، وجعلهم نَوْكى لرقاعتهم ، والنَّوْك : الحمق . حِرْفة : صنعة . أُسِفّ رماداً ، أى تغيّر فكأنه ذرّ عليه الرماد . وأسفّ الجرحَ الدواء أى حشاه به . ما تمادى ، أى مادام ولا بقى على غضبِه ، وتمادى فى الشىء : لَجَّ فيه . حظوة ، أى منزلة . يصطفى : يختار . يوطن : يسكن . بقاعه : منازله ، وهى جمع بُقْعة . أخى اللّب : صاحب العقل . عَيْر : حمار . قاعة : انخفاض ، أى ليس للإنسان من دهره إلاّ ما أكله .

* * *

ثمّ قال : أمَا إنّ التعليم أشرفُ صناعة ، وَأَرْبَحُ بِضاعة ، وأنجح شَفَاعة وأفْضَلُ بَراعة ، وربُّه ذو إمْرَةٍ مطاعة ، وهيبةٍ مُشاعة ، ورِعْيَةٍ مِطْواعة ، يَتَسيْطر تسيْطُرَ أمير ، ويرتّبُ ترتيبَ وَزِير ، ويتحكّم تحكُّمَ قَدير ، ويتشبّه بذى مُلْكٍ كبير ، إلّا أنه يَخْرَفُ فى أَمَدٍ يسير ، وَيتّسِمُ بحُمْقٍ شَهير ، ويتقلّب بعقلٍ صَغير ؛ ولا ينبّئك مثلُ خَبير ؛ فقلت له : تَاللهِ إنّك لابنُ الأيّام ، وعَلَمُ الأعلام ، والسَّاحِرُ اللّاعبُ بالأفْهام ، المذلَّلُ له سبُلُ الْكلام . ثمّ لم أزل مُعْتكفاً بنادِيه ، ومُغْترِفاً من سَيْلِ وَادِيه ، إلى أنْ غابت الأيّام الغُرّ ، ونَابَتِ الأحداثُ الْغبْر ، ففارقته ولعينى الْعُبْر .

* * *

قوله أنجح ، أى أنفع وأسرع لقضاء الحاجة . أمْرَةٌ مطاعة ، العرب تقول: لك علىّ أمرة مطاعة ، بفتح الألف ، أى أمرةٌ أطيعك فيها ، وحكى الفرّاء كسرها على ضَعْف ، والفتح أفصح ، والأمرة بالفتح : المرة الواحدة من الأمر ، وبالكسر الإمارة والولاية . مُشاعة : فاشية . يتسيطر : يتسلّط . يَخْرَف : يَهْرَم . يتّسِم : يجعل لنفسه سِمة ، أى علامة الحمق .

ومما قيل فى المعلم وتفضيله على الوالد ، أنشد الماوردى :

يا فاخراً للسَّفاه بالسَّلف ... وتاركاً للعلاء والشرفِ
آباء أجسادنا همُ سببٌ ... لأن جُعِلنا عوارض التلفِ
مَنْ علَّم الناس كان خير أبٍ ... ذاك أبو الروح لا أبو النُّطَفِ

أخذه من قول الإسكندر ، وقيل له : ما بال تعظيمك لمعلمك أشدُّ من تعظيمك لوالدك ؟ فقال : إن أبى سبب حياتى الفانية ، ومعلّمى سبب حياتى الباقية .

ولبعضهم :

إنَّ المعلم والطبيبَ كلاهما ... لا يَنْصحان إذا هما لم يُكْرَما
فاصبر لدائك إن جفوتَ طبيبَه ... واصبر لجهلك إن جفوتَ معلمًا

جاء فى الحديث « يُجاء بالمعلم يوم القيامة ووجهه عَظْم لا لحم عليه » . قال عطاء : الذين يأخذون على القرآن أجْراً . ابن الأيام : الخبير بها والبصير بحوادثها . علم الأعلام : أشهر المشاهير . الأفهام . جمع فَهْمْ ، أراد اللّاعب بالأذهان والعقول . سُبُل : طرق . معتكفاً بناديه : ملازماً لمجلسه . مغترفاً من سيل واديه : آخذاً من بَحرْ علمه . الغرُّ : البيض الحسان . نابت الأحداث الغُبْر : رجعت النوازل الشداد الّتى تغبِّر الأرض من شدّة قحطها . لعينى العَبْر ، أى سخنة الدمع لحزنه . واستعبر : بكى . والله تعالى أعلم .

المقامة السابعة والأربعون وهي الحَجْرِيَّة

حكى الحارثُ بن همّام ؛ قال : احتجتُ إلى الحِجامَةِ ، وأنا بِحَجْرِ اليمامة ، فأُرْشِدْتُ إلى شَيْخٍ يَحجُمُ بلطافة ، ويُسْفِرُ عن نَظافة ؛ فبعثتُ غلامِي لإحضاره ، وأرْصَدْتُ نَفْسِي لانْتِظارِه . فأبْطأَ بَعْد ما انْطَلَق . حتى خِلتُه قد أَبَق ، أو رَكِبَ طَبقاً عَنْ طَبَق . ثم عَاد عَوْد المُخفِق ،مَسْعاه . الـكَلُّ على مَوْلاه ، فقلتُ له : ويلك ! أَبُطْءٌ فَنْد . وصُلود زَنْد ! فزعَم أنّ الشَّيْخَ أَشْغَلُ من ذاتِ النِّحيَين ، وفي حَرْبٍ كحَربِ حُنَيْن ، فعفتُ المَمْشَى إلى حَجّام ، وحِرتُ بين إقدامٍ وإحْجَام ؛ ثمّ رأَيْتُ ألاّ تَعْنيف ، على مَنْ يأتى الـكَنيف .

* * *

قوله : احتجتُ للحِجامة ، وأنا بِحَجْرِ اليمامَة . أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « خير ما تداويتم به الحجامة والشُّونيز والقُسط » .

القسْط : عودٌ يجاء به من الهند ، يُجعل في الدّواء والبخور .

وروى ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « خيرُ يوم يُحْتَجَم فيه سبعة عشر وتسعة عشر وأحد وعشرون ، وما مررتُ بملأ من الملائكة ليلة أُسْرِيَ بى إلاّ قالوا : عليك بالحِجامة يا محمد » .

وقال عبدُ الله بن عمر رضى الله عنهما : لقد تبيَّغ[1] بى الدّم يا نافع ، ادْعُ لى حجّاماً ، ولا جعله شيخاً كبيراً ، ولا صبيًّا . ثم قال : سمعت رسول الله صلى الله

(١) البيغ : ثوران الدم .

عليه وسلم يقول : « الحجامة على الرّيق أمْثَلُ ، فيها شفاء وبَرَكة ، تزيد فى العقل والحفظ ، وتزيد الحافِظَ حفظاً ، فمن احتجم فيومَ الخميس والأحـــــد والاثنين والثلاثاء ، فإنه يومٌ رفع الله فيه البلاء » .

عن أيوب عليه السلام ، وأصابه [مرض] يوم الأربعاء : لا يبدأ جذام أو برص إلا فى يوم الأربعاء أو ليلته .

حَجْر : قصبة . اليمامة : يأتى ذكرها فى الخمسين إن شاء الله تعالى ، وهى بلدة كبيرة كثيرة النخل ، وسكنتْها حَنيفة ، وهى بلدة مسيلمة الكذاب الحنفىّ ، وبها تنبّأ وآمن به أهلُها ، وهى « فَعالَة » من اليَمَم ، وهو طائر ، أو من يَمَّمتُ الشىء إذا تعمّدتَه . من الأمام ، بمعنى قدّام ، وأبدلت الهمزة ياء لمّا دخلْتها الهاء ، وأقرب المدن منها البصرة .

يُسفر : يكشف . نظافة : صقالة وحسن . أرصدت : أعددت . أبَق : هرب . طبقاً عن طبق : حالاً عن حال ، وأمراً عن أمر . المخفق : الخائب . مسعاه : سعيه . الكَلّ على مولاه : الذى لا ينفعه بشىء ، ولا يكفيه أمرَ نفسِه ، والكَلّ : الثقيل الروح . قوله : صُلود زَنْد ، هو ألّا يسمح الزَّند بالنار . حُنَين : موضع وقعة مشهورة ، كانتْ بين النبى صلى الله عليه وسلم وبين هوازن ، هُزِمت فيها هوازن ، وسُبِيَتْ أموالهمُ وعيالُهم ، وقُتِل فيها دُرَيد بن الصّمة كافراً . عِفْت : كرهت . الإقدامِ : الجرأة والترامِى . والإحجام : الرجوع إلى خَلْف ، أراد أنه ردّد رأيه : هل يأتيه أم لا ؟ والتَّعنيف : العتب . والكنيف : المرحاض .

[حكاية ظريفة تجْمع أسماءَ المرحاض]

ونذكر هنا حكاية ظريفة تجمع أسماءه . رحَل رجلٌ من الكوفة إلى ابن عمٍّ له من بنى هاشم بالمدينة ، فأقام حوْلاً عنده ، لا يدخل مُستراحًا ، فلما أراد

الرجوع إلى الكوفة ، قال ابنُ عمّه لقينتين له : أما رأيتما ظَرْفَ ابن عمّى ، أقام حولاً عندنا لم يدخل الخلاء ، قالتا : فعلينا أن نصنع له شيئاً لا يجد معهُ بُدّاً من الخلاء ، قال : شأنكما ، فعمدتا إلى خشب العُشَر ، وطرحتاه فى شرابه وهو مسّهل ؛ فلما حضر وقت شرابهما قرّبتاه له وسقتا مولاهما من غيره ، فلما أخذ الشراب منهما تناوم مولاهما ، ومَغَص الفتى من بعده ، فقال لإحداهما : يا سيدتى ، أين الخلاء ؟ فقالت لها صاحبتها : ما يقول لك ؟ قالت : يسألك أنْ تُغنِّيه :

عَفَا من آل فاطمة الجِوَاءُ فيمن أهلها منها خَلَاءُ

فغنّته ، فقال : أظنّهما كوفيتين ، فقال للأخرى : يا سيدتى أين الحُشّ ؟ فقالت لها صاحبتها : ما يقول لك ؟ قالت : يسألك أن تغنّيه :

* لقد أوحش الرّيانُ فالدّيْر منهما *

فغنّته ، فقال الفتى : أظنّهما عراقيّتين ، وما فهمتا عنى ، فقال للأخرى : يا سيدتى ، أين المتوضّأ ؟ فقالت لها صاحبتها : ما يقول لك ؟ قالت : يسأل أنْ تغنّيه :

توضّأْ للصّلاة وصَلِّ خمساً وأذِّن بالصّلاة على النبيِّ

فقال : أظنّهما حجازيّتين ، وما فهمتا عنى ، فقال لإحداهما : يا سيدتى ، أين الكنيف ؟ فقالت لها صاحبتها : مايقول لك ؟ قالت : إنه يسألك أن تغنّيه :

تَكنّفنى الواشُونَ من كلِّ جانبٍ ولو كان واشٍ واحدٌ لكَفَانِى

فغنّته ، فقال : أظنّهما تِهاميّين ، فقال للأخرى : يا سيدتى أين المستراح ؟ فقالت لصاحبتها : ما يقول لك ؟ قالت : يسألك أن تغنّيه :

تَرَكَ الفُكَاهة والمُزاحَا وقلَى الصّبابة فاستراحَا

فغنّته ، والمولى يسمع ، فلما كَرَبه الأمر أنشأ يقول :

تكنّفنى المِلاحُ وأَضجَرُونِى   على ما بى بتكْرِير الأغانِى
فلمّا ضاقَ عن ذاك اصطبارِى   ذرقْتُ به على وجْه الزوانِى

ثم حلّ سراويله ، وسلَح عليهما ، فتركهما آية للناظرين . وانتبه مولاهما ، فلمّا رأى ما نزل بهما ، قال له : يا أخِى ما حملك على هذا ؟ قال له : يا بن الزانية ، لك جوارٍ يرين المخرجَ صراطاً مستقيماً فلا بدَّ للْمُنَى عليه ، فلم يكن لهنَّ جزاء عندى غير هذا ، ثم رحَل عنه .

يقول أبو محمد : لا بأس للإنسان أن يأتىَ المواضع الخسيسة عند الضرورة ، وأصل الكنيف الساتر .

* * *

فلمّا شهدتُ موسِمَه ، وشاهدْتُ مِيسَمَهُ ، رأيتُ شيخاً هيئتُه نظيفة ، وحركتُه خفيفة . وعليه من النَّظارة أطْوَاق ، ومن الزِّحامِ طِبَاق ، وبين يديه فتًى كالصَّمْصَامة ، مُسْتَهْدِفٌ للحجامة ، والشيخ يقول له : أراك قد أبرزتَ راسَك ، قبل أن تُبرِزَ قِرْطاسَك ، وولّيتَنِى قَذَالك ، ولم تقل : لى ذَا لَكَ ، ولستُ ممّن يبيع نَقْداً بدَيْن ، ولا يَطْلُب أثراً بعد عَيْن ، فإنْ أنتَ رَضَخْتَ بالعَيْن ، حُجِمتَ فى الأخْدَعَيْن . وإنْ كُنْتَ تَرَى الشّحّ أوْلَى ، وخَزْنَ الفَلْسِ فى النَّفْس أحْلَى ، فاقْرأ عَبَسَ وتولّى ، واغْرُبْ عَنّى وإلّا ؛ فقال الفتَى : والّذى حَرَّم صَوْغَ المَيْن ؛ كما حرَّم صَيْد الحَرَمَيْن ؛ إنى لأفلَسُ من ابن يومين ، فثِقْ بسيْلِ تَلْعِتى ، وأنظِرْنى إلى سعَتِي .

* * *

موسِمه : مجتمَعه وسوقه . مِيسَمَه : علامته . النظارة : الناس الناظرون . أطواق : أى حلقةٌ خلف حلقة ، قد استداروا حوله . والطِّباق : الذى طُوِيق ، فجُعِل بعضُه على بعض ، شبَّه به ركوبَ بعضِ النَّاس بعضاً .

[الصمصامة]

والصَّمصامة : سيف عمرو بن معد يكرب ، وكانت تقطَع الحديد كما يَقطَع الحديدُ الخشبَ . وبعث مَلكُ الهند إلى الرَّشيد بسيوفٍ قَلْعِيَّة ، وكلاب سَلُوقيَّة ، وثياب هندية ، فأمر الأتراك فصُفُّوا بين يديه صَفَّيْن ، قد لبسوا الحديد ، ودخل الرشيد فقال لهم : ما جئتم به ؟ قالوا : هذه أشرفُ كُسْوة بلادنا ، فأمرَ فقُطِّعت جِلالاً وبراقع لخيله ، فكُبُّوا على وجوههم ، وتذمَّموا ، ثم قال : ما عندكم ؟ قالوا : هذه سيوف قَلْعية ، لا نظيرَ لها ؛ فدعا بالصَّمصامة ، فقُطِعت بها السيوفُ سيفاً سيفاً ، كما يُقطَع الفُجْل من غير أن تنثنى لها شَفرة . ثم عرض عليهم حَدَّ السَّيف فإذا هو لا فَلَّ فيه ، ثم قال : ما عندكم ؟ قالوا : كلاب سَلوقيَّة ، لا يبقى لها كلبٌ ولا سَبُع إلاّ عقرتْه ، فأمر بالأسد فأُخْرِج إليهم ، فلما نظروا إليه هالهم ، وقالوا : ليس عندنا مثل سَبُعكم ، ثم أرسلوا عليه الأكلب — وكانت ثلاثة — فمزَّقته ، فقال : تمنَّوا فى هذه الأكلب ماشئتم ، قالوا : السَّيف الذى قطع سيوفنا ، قال : لا يجوز فى ديننا أن نُهادِيَكم بالسلاح . فانقلبوا خائبين .

وكانت الصمصامة عند الهادى ، فدعا بها يوماً وبمكتلٍ مملوء دنانير ، وأمر الشُّعراء أن يقولوا فيه ، فبدأهم ابن يامين فقال :

حازَ صَمْصامةَ الزُّبيدىّ عمرٍو من بيْن جميــــع الأنام موسى الأمينْ
سيف عمرو ، وكان فيما سمعنا خــيرَ ما أُغمِدَتْ عليه الجفونُ
أوقــــدت فوقه الصَّواعق ناراً ثم شابت به الزُّعافَ القُيُونُ

(١) الأبيات فى ابن خلـكان ٢ : ٢٠٤ ، ونسبها إلى ابن يامين البصرى ، وهى فى ثمار القلوب ٦٢١ ، ونسبها إلى أبى الهول ، وكذلك فى الحيوان ٥ : ٨٧

وإذا ما شهرته بهر الشمـــس ضياء فلم تكد تستبين
يستطير الأبصار كالقبس المشـــعل ما تستقر فيه العيون
وكأن الفرند والجوهر الجا ري على صفحتيه ماء معين
ما يبـــالى إذا الضريبة حانت أشمال سطت به أم يمين
وكأن المنون نيطت إليـــه فهو من كل جانبيه منون

فقال له : لك السيف والمكتل ، ففرق ، المكتل على الشعراء ، وقال : حرمتهم بسببي ، وأخذ من المهدي في السيف خمسين ألف دينار .

وممن أفرط في وصف قطع السيف النمر بن تولب حين قال :

أبقى الحوادث والأيام من نمر أسباد سيف كريم أثره بادي
تظل تحفر عنه الأرض مندفناً بعد الذراعين والساقين والهادي

ويروى :

* تظل تحفر عنه إن ضربت به *

والأسباد : البقايا ، واحدها سبد ، وقال أبو الهول :

حسام غداة الروع ماض كأنه من الله في قبض النفوس دليل[1]
كأن جنود الذر كسرن فوقه قرون جراد بينهن ذحـــول
كأن على إفرنده موج لجة تقاصر في ضحضاحه وتطـــول

وقال ابن الرومي :

يقول القـائلون إذا رأوه لأمر ما تغوليت الدروع

والشعر في وصف السيف كثير مشهور فلذلك اقتصرنا على هذه النبذة .

* * *

قوله : مستهدف ، أي منتصف ، والهدف : الغرض ، وأراد بالقرطاس قطعة من كاغد توضع فيها الدرهم . الفنجديهي : القرطاس : درهم من نحاس ،

(١) ثمار القلوب ٦٢٣ .

وفيه شيء من الفضّة ، يتعاملون به في الشأم . قذالك : مؤخّر عنقك وهو ما بين نُقْرة القفا إلى الأذن وجمعه قُذُل . ذا ، إشارة إلى الدرهم . نقداً : حاضراً .

أثراً بعد عين ، قد تقدّم ، والعين : نفس الشيء ، وقيل : العين المعاينة ، فمعناه لا أترك شيئا وأنا أعاينه ، وأطلب أثره إذا غاب . وقال الفنجديهيّ : سمعت بعضَ الفضلاء بفنجديهة ، يقول : حكى أنّ رجلاً سُرق منه شيء ، فخرج يطلب السّارق ، فلما ظفر به أخذ يضربه ويشدّ وثاقه ، فقال له أحد أهل البلد : خَلِّ سبيله ، حتى يخرج فإن هنا أثر قدميه ، فضحك الرجل منه وقال : لا أطلب أثراً بعد عين ، فصار مثلاً لمن ترك شيئاً حاصلاً ثم تبع أثره بعد فوت عَيْنه .

رضخت : أعطيت . والعين : الدراهم والدنانير . الأخدعان : عِرْقان يقع عليهما المحجمتان ، وقيل : هما في صفحتي العنق قد خفيا وبُطِنا فلخفائهما يَخْدَعان الحاجم . خَزْن : إمساك وحبس . اغرُب : غبْ . وإلاّ ، معناه وإلاّ صفعتُ عنقك . المَيْن : الكذب . الحرمين : مَكّة والمدينة ، حرم الله تعالى بمكة وحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة . التَّلْعة : مجرى الماء من أعلى الوادى . أنظِرْنى : أخِّرْنى . سَعَتِى : غِناى .

* * *

فقال له الشيخ : وَيْحك ! إن مَثَل الوُعود ، كغَرْسِ العُود ، هو بين أن يُدْرِكه العَطَبُ ، أو يُدْرَكَ منه الرُّطب ، فما يُدْرِينى : أيحصُلُ مِنْ عُودك جَنَى ، أمْ أَحْصُل منه على ضَنَى ، ثم ما الثِّقَةُ بأنَّكَ حِينَ تبْتعِد ، ستَفِي بما تعِد ! وقد صار الغدرُ كالتحجيل ، في حِلْيَةِ هذا الجيل ، فأرِحْنِي باللهِ من التَّعْذيب ، وارْحَل إلى حيث يَعْوِى الذّيب . فاسْتَوى الغلامُ إليه ، وقد استَوْلى الخجلُ عَلَيْه ، وقال : والله ما يخيسُ بالْعَهْد ، غيرُ

الْخسيسِ الوَغْد، ولا يَرِدُ غديرَ الْغَدْر، إلَّا الوضيعُ القَدْر؛ ولو عرفتَ مَنْ أنا، لما أسْمعتَنِي الخنا؛ لكنَّك جَهِلْتَ فقلت، وحيثُ وجب أن تسجدُ بلْت، وما أقبح الْغُرْبَة والإقْلالَ، وأحسنَ قَوْلَ مَنْ قال:

* * *

جَنَى: ما يُجْنى منه. ضَنًى: مَرَض. التَّحْجيل: بياض فى قوائم الفرس. حِلْيَة: صفة وزينة. الجِيل: أهل العَصْر. اسْتَوى: اعتدل قائماً. اسْتَوْلَى: غلب عليه الخجل. يَخِيس: يغدر، وخاس الشيء تغيّر. الوغد: الرّذْل الساقط الخسيس الدنىء. الخنا: الفُحْش.

* * *

إن الغريب الطَّويلَ الذَّيْلِ مُمْتَهَنٌ — فكيفَ حال غريبٍ مالَهُ قوتُ!

لكنَّه ما تشينُ الحرَّ مُوجِعَةٌ — فالمِسْكُ يُسْحَق والْكَافورُ مفتوتُ

وطالما أُصْلِيَ الْيَاقُوتُ جَمْرَ غَضًى — ثمّ انطفى الجَمْرُ والياقوتُ ياقوتُ

فقال له الشيخ: يا ويلةَ أبيك، وعوْلَةَ أهليك! أأنت فى موقف فخرٍ يَظْهر، وحَسَبٍ يُشْهَر، أمْ موقف جلْدٍ يُكْشَط، وقفاً يُشْرَط؛ وهبْ أنَّ لَكَ الْبَيْت، كما ادَّعيت، أيحصلُ بذلك، حَجْمُ قَذَالِك؛ لا والله ولو أنَّ أباكَ أناف، على عَبْد مناف، أو خالَكَ دَانَ، عَبْدُ المَدان.

* * *

الطويل الذيل: الكثير المال. تَشين: تعيب. أُصْلِي: أدخل النار. الياقوت: حجارة يتزين بها والنار لا تغيره.

ومما جاء فى معنى هذا الشعر:

إن الغريبَ ذليلٌ حيثُما سلكا ... لو أنه مُلِّكَ كلَّ الورى ملكا
إذا تغنَّى حمامُ الأيك فى غُصُنٍ ... حنَّ الغريبُ إلى أوطانه فبكى

آخر :

وإذا حللتَ بدار قومٍ دارَهمْ ... فلهم عليك تعزُّز الأوطان
فالشَّمس تُشْرِق فى مَحِلّة كَبْشِها ... وتكون منحطًّا مع الميزان

وقال الفقيه الحافظ أبو محمد بن حزم :

لا يشمتنْ حاسدٌ إن نكبةٌ عَرَضَتْ ... فالدّهر ليس على حالٍ بمُتَّرِكِ(١)
فالحرّ كالتِّبر يلفَى تحت منقعةٍ ... طوراً وطوراً يُرَى تاجاً على ملك

وقال البحترىّ فى سعيد وقد حبس :

وما هذه الأيّام إلّا مراحلٌ
فمِنْ منزلٍ رَحْبٍ ومن منزلٍ ضَنْكِ(٢)
وقد هذّبتك النائباتُ وإنّما ... صفا الذهبُ الإبريز قبلك بالسَّبْكِ

وقال أبو بكر بن دريد :

لا تحقرنْ عالمًا وأن خَلُقَتْ ... أثوابُه فى عيون رامقِهِ(٣)
وانظر إليه بعين ذى خَطَرٍ ... مهذّبِ الرأى فى طرائقِهِ
فالمسك إذْ ما تراه ممتهناً ... بِفِهْرِ عطّارِه وساحقِهِ
سوف تراه بعارضَىْ ملكٍ ... وموضع التّاج من مفارقِهِ

وقال ابن شماخ :

نوائبُ غالتْنِي فأبدت فَضَائلى ... فكانت وكنتُ النّارَ والعنبرَ الوَرْدَا

(١) نفح الطيب
(٢) ديوانه ١٥٦٨ وفيه : « إلا منازل »
(٣) ديوانه ٩٨

وعلى لسان عود الطيب :

إنَّ مسّتِ النّار جسمى أبديتُ طيبَ نسيمِى
كالدّهر إنْ عضّ يوماً أبانَ فَضْلَ كَرِيمِ

وسخِط المتوكل على عَلِىِّ بن الجهْم ، فنفاه إلى خراسان ، وكتب أن يُصْلَب إذا وردها يوماً إلى الليل ، فلمَّا وصل إلى الشاذياخ حبسه طاهر بن عبدالله ، ثم أخرجه فصلبه إلى الليل مجرّداً فقال[1] :

لم يصلبُوا بالشاذياخ عشية الإثنين مسبوقاً ولا مَجْهُولا[2]
نصبوا بحمد الله ملء عيونهم شرفاً وملء صدورهم تَبْجيلا
ما ازداد إلا رفعة وسعادةً وازدادت الأعداء عنه نكولا
هل كان إلا الليثَ فارق غِيلَه فرأيتَه فى مَحْمَلٍ محمولا
ما عابه أن بُزَّ عنه لباسُه كالسّيف أفضلُ ما يُرى مسلولا[3]

وقال فى الحبس :

قالت حُبِسْتَ فقلت ليس بضائرٍ حَبْسِى وأىّ مهنّدٍ لا يُغْمَدُ[4]
أو مَا رأَيت اللَّيث يألف غِيلَه كِبْراً وأوْباشُ السّباع تصيّدُ[5]
فالشمس لولا أنها محجوبةٌ عن ناظريك لما أضاء الفرقدُ
والنَّار فى أحجارها مخبوءة لا تُصْطَلَى إن لم تُثِرها الأزندُ
والحبس إن لم تَغْشَه لدنيّةٍ شنعاء نعم المنزل المتوردُ
بيت يُجَدِّد للكريم كرامةً ويُزار فيه ولا يزور ويُحْمَدُ
لو لم يكن فى الحبس إلا أنه لا تستذلك بالحجاب الأعبدُ

(١) ديوانه ١٧١ ، والشاذياخ ، من ضواحى نيسابور
(٢) الديوان : (صبيحة الاثنين)
(٣) ديوانه : « فالسيف »
(٤) ديوانه ٤١ ، ٤٢
(٥) الديوان : « تردد »

أخذ الأحوصَ أحدُ الأمراء بأمر الوليد بن عبد الملك لأنّه كان يراود غلمانه ، فضربه مائة سوط وصبّ عليه الزيت ، وأوقفه فى الشمس ، وهو مع ذلك يقول :

ما تعترينى من خطوبٍ مِلّمةٍ إلا تشرّفنى وترفَعُ شانِي[١]
إنّى على ما قدْ علمت مُحسَّدٌ أُنْمَى على الْبَغْضاء والشنآن
فإذا تَزُول تزول عن متخمِّطٍ تُخْشَى بوادرُ على الأقران
إنى إذا خفِىَ اللئيمُ وجدتنى كالشَّمْسِ لا تَخْفَى بكلِّ مكان

* * *

قوله : ياويلة أبيك . الويلة : الفضيحة، والْوَيْل : الحزن . والعَوْلة : البكاء الشديد ، وأَعْوَل يُعوِل إعوالاً ، إذا رفع صوته وصاح . أهليك : جمع أهل . يكشط : يحلق شعره . هب ، أى احسب . وذكر فى الدرة أن خواصّ العراق يقولون : هب أنى فعلت ، وهبه فعل ، كقول أبى دَهْبل[٢] :

هَبُونى امرأً منكمْ أضل بعيره له ذمّةٌ إنّ الذمام كبيرُ

قال : وهَبْنى ، أى عدّنى واحسبنى ، فكأنّ فيه معنى الأمر من وهب . انتهى ما قاله فى الدرة[٣] .

وقال هنا : وهب أن لك . . . البيت ، وبيت القبيلة : أشرف فِخْذٍ فيها . أناف : أشرف .

---

(١) ديوانه ٢٠٣ وروايته

ما مِنْ مصيبةِ نكبةٍ أمْنَى بها إلّا تعظِّمُنِى وترفع شانى

(٢) ط « ذهل » تحريف

(٣) درة الغواص ١٢١ (طبع ليدن)

[شرف عبد مناف]

عبد مناف بن قصيّ ،هو بيت قريش وشريفُها ، وهو جدّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ،واسمه المغيرة ، وكان يقال لعبد مناف : القمر لجماله وبهائه ورفعة منزلته ، وسُمِّيَ عبد مَناف لأنه شَرُف وعَلاَ ، وأناف على أشراف العرب ، وكانت الرّكاب تَضْرِب إليــه من أطراف الأرض يُتْحِفونه تحفَ الملوك ، فيكرمهم ، وكان عنده لواء نزار ، وقوس إسماعيل ، وسقاية الحاج والمفاتيح . ولمـا قسّم والدُه المجـدَ بَيْن أولاده جعل السّقاية والرّياسة لعبد مناف ، والدّار لعبد الدار ، والرفادة لعبد العُزّى ، وجانبي الوادى لعبد بن قصيّ . قال الشاعر :

كانتْ قريشٌ بيْضَةً فتفلَّقتْ   فالمحُّ خالِصُه لعبــد مناف[1]

ولمـا مات قُصَيّ رأس ابنه عبد مناف ، وجلّ قدرُه ، فأتته خُزاعة وبنو الحارث بن كنانة يسألونه الحِلْف ليعزّوا به ، فعقد معهم .

وأمّا شَرَفُ عقِبِهِ فلأن منه بنى هاشم ، الذين فيهم النبوّة والخلافة ، ومنه بنو أميّة القادة فى الجاهلية ، وأهل الخلافة فى صدر الإسلام ، وقد قدّمنا فى أخبار الشافعىّ أن عبد مناف ، يجتمع بنو هاشم وبنو أمية فيه ، فلهؤلاء انتهى شرف مُضر .

[ذكر بنى عبد المدان]

وأما بنو عبد المدان فأشراف اليمن ، وبهم يضرب المثل فى الشرف والعزة ، وهو عبد المدان بن الديان بن قَطَن بن زياد بن الحارث بن مالك بن ربيعة بن مالك بن كعب بن الحارث بن كعب بن خالد بن بجيلة بن مذحج .

(١) من مقطوعة فى أمالى المرتضى ٢ : ٢٦٨ ونسبها إلى مطرود بن كعب الخزاعى .

وقال لقيط بن زُرارة :

شربتُ الخمرَ حتى خِلتُ أني ... أبو قابوسَ أو عبدُ المَدَانِ
أمشي في بني عُدُس بن زيد ... رخيَّ البال منطلقَ اللسانِ

وَقال حسان رضي الله عنه :

وقد كنا نقول إذا رأينا ... لذى جسم يعدّ وذى بيانِ
كأنك أيُّها المعطى بياناً ... وجسماً من بنى عَبْد المدانِ

وقالوا لحسّان : كنّايا أبا الوليد ، ونحن نطُول بأجسامنا على العرب نَرى لأنفسنا بذلك فضلا ، حتى قلت :

دعوا التخاجؤ وامْشُوا مِشْيَةً سُجُحا ... إنّ الرجال أولو قدّ وتذكيرِ[1]
لا بأْس بالقوم من طُولٍ ومن عِظَمٍ ... جسمُ البغال وأحلام العصافير

فتركتَنا لا نرى لأجسامنا فضلا .

وحكى الأصمعيّ : أنه اجتمع يزيد بن عبد المدان وعامر بن الطُّفيل بسوق عُكاظ ، وقدم أميّة بن الأسكر الكنانى ومعه ابنة له ، من أجمل أهل زمانها ، فخطبها يزيد وعامر ، فقالت أمّ كلاب (امرأة أمية) : مَنْ هذان الرجلان ؟ فعرّفها أمية ، فقالتْ : أعرف بنى الديان ولا أعرف عامراً ، قال : هل سمعتِ بمُلاعب الأسنّة ؟ قالت : نعم ، فقال : هذا ابن أخته ، فقال يزيد : يا أمية أنا ابن الديان ، صاحب الكثيب ورئيسُ مَذْحج ومكلّم العُقاب ، ومَنْ كان يصوِّب أصابعَه فتنطُف دماً ، وراحته فتخرج ذهباً ، فقال أميَّة : بخ بخ ، فقال عامر : جدّى الأجذم ، وعمّى الأصم ، وخالى ملاعب الأسنة ، وأبى فارس قرزل ، فقال أمية : بخ بخ ، مرعًى ولا كالسَّعْدان ، فأرسلها مثلا ، فقال يزيد : يا عامر ،

---

(١) ديوانه ٢١٤ . والتخاجؤ : التباطؤ فى المشى . وفى الديوان « إن الرجال ذوو عصب وتذكير »

هل تعلم شاعراً من قومي رحل بمدحةٍ إلى رجل من قومك ؟ قال : لا ، قال : فهل تعلم أن شعراء قومك يرحلون بمدائحهم إلى قومي ؟ قال : اللهم نعم ، فنهض يزيد وهو يقول :

أميّ يا ابنَ الأسكرِ بن مدلجٍ — لا تجعلنْ هوزاناً كمذحجِ
لا النبع في مغرسه كالعوسجِ — ولا الصريحُ المحضُ كالممْزَجِ

* * *

فلا تضْرِبْ في حديدٍ بارد ، ولا تطلُبْ ما استَ له بواجد ، وباهِ إذا باهَيْتَ بموجودِك ؛ لا بجدودِك ، وبمحْصُولك ، لا بأُصُولك ، وبصفاتِك ، لا برُفاتِك ، وبأعْلاقِك ، لا بأعْراقِك ؛ ولا تُطِعِ الطَّمَع فيُذلّك ، ولا تتَّبِعِ الْهوَى فيُضِلّك ، ولله القائل لابنه :

بُنَيّ استقِمْ فالعودُ تَنْمِي عروقُه — قويماً ويَغْشاه إذ ما التوَى التَّوَى
ولا تُطِعِ الحِرْص المذِلَّ وكُنْ فتًى — إذا التهبتْ أحشاؤه بالطَّوى طَوَى
وعاصِ الْهوَى المُرْدِي فكم من مُحلِّق
إلى النَّجمْ لما أنْ أطاع الْهوَى هوَى
وأسْعِفْ ذوى الْقُرْبَى فيقبُح أن يُرَى
على مَنْ إلى الْحُرِّ اللّباب انْضوى ضَوى .
وحافظ على مَنْ لا يخون إذا نبَا
زَمانٌ ومَنْ يرْعَى إذا ما النَّوى نوى

وإن تقتدِرْ فاصفحْ فلا خيرَ فى امرئٍ
إذا اعتلقتْ أظفارُه بالشَّوَى شَوَى
وإياك والشَّكوى فلم تَرَ ذا نُهًى
شَكَا بل أخو الجَهْلِ الّذى ما ارْعَوَى عوَى

* * *

قوله : لا تضرب فى حديد بارد ، هو مَثَل لمن يحاول الانتفاع بمَنْ ليس عنده نفع ، وقال أبو الشمقمق[1] يهجو سعيدَ بن سَلْم :

هَيهاتَ تضرب فى حديدٍ باردٍ إن كُنْتَ تطمع فى نوال سعيدِ
تاللهِ لو مَلَك البحارَ بأسْرِها وأتاه سَلْمٌ فى زمانٍ مُدُودِ
يبغيه منها شَرْبةً لطَهوره لأبَى وقال : تيَمَّمًا بصَعِيدِ

وكذَب عليه ، كان سعيد بن سلم من أجودِ الناس . قوله : باه ، أى فاخر . موجودك ومحصولك : ما تجدُه من المال ويحْصُل لك . رفاتك : عِظَام أجدادك البالية . الأعلاق : جمع عِلْق ، وهو النَّفيس الرفيع من الذَّخائر . أعراقك : أصولك . قوله : ولا تطع الطَّمع فيذلّك ، ومن دعاء النبى صلى الله عليه وسلم : « اللَّهُمَّ إنى أعوذ بك من طمعٍ حيثُ لا طَمع ، وأعوذ بك من طَمعٍ يَهْدى إلى الطَّبَع » ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « خيار المؤمنين القانع ، وشِرارهم الطامع » . وقال الحسَنُ البَصْرِىّ لبعض ولد علىّ رضى الله عنهما : ما مِلاكُ الدِّين ؟ قال : الورع ، قال : ما آفتُه ؟ قال : الطمَع . قوله : ولاَ تتَّبع الْهوَى فيضلَّك ، ابنُ عباس رضى الله عنهما ، قال صلى الله عليه وسلم : « ثلاثٌ مهلكات ، شُحٌّ مُطاع ، وهوًى متَّبع ، وعجبُ كلّ ذى رأى برأيه » . وقال صلى الله عليه وسلم : « إنّ أخوَف ما أخاف على أمتى الهوى وطول الأمل ، أمَّا الهوى فيصدّ عن الحق ، وأما طول الأمل فيُنسى الآخرة » . وقال بعضُهم:

(١) هو أبو محمد مروان بن محمد ، وأبو الشمقمق لقبه والأبيات فى ديوانه ١٣٤ (شعراء عباسيون) .

أفضل النَّاس مَنْ عصى هواه ، وأفضلُ منه مَنْ رَفَض دنياه . تنمى : تزيد . التوى : اعوجّ . التَّوَى : الهلاك . القويم : المعتدل . التهبت : اشتعلت . الطَّوى : الجوع . طَوَى ، أي طوى عليه ضلوعَه وستره . وقال أبو فراس :

لا أرتضي وُدًّا إذا هو لم يَدُمْ ... عنــد الجفاء وقلة الإنصافِ(1)

تَعِسَ الحريصُ وقلّ ما يأتي به ... عِوَضاً من الإلحاح والإلحافِ

إنّ الغــنيّ هو الغنيُّ بنفْسِهِ ... ولوانه عاري المناكِبِ حافِي

ما كلُّ ما فوقَ الْبَسيطة كَافِياً ... فإذا قَنَعْت فكلُّ شيء كافِي

ويعافُ لي طمعَ الحريص فتُوّتي ... ومُرُوءتي وقَناعتي وَعفافِي

شِيَمٌ عُرِفْتُ بهنّ مذ أنا يافعٌ ... ولقد عُرِفتْ بمثلها أسلافِي

قوله : المردى ، أي المهلك . المحلِّق : الطائر يستديرُ في طَيَرانه . هوَى : سقط . أسْعِف : اقْضِ حوائجهم . اللُّباب : الخالص . الضوى ، انقطَع إلى جودك وتعلّق به . نبا : ارتفع ولم يوافق . يرْعَى : يحفظ . النّوى : البعد . نوَى : أراده وقَصده ، وقد قالوا : خيرُ الإخوان ، مَنْ أقبل عليك إذا أدْبَر الزمان . الشَّوَى : القوائم ، ويقال لجلدة الرأس : شوًى . وقوله : شوَى ، أي صنع شواء وأولاها النار . يقول : مَنِ اعتــذر إليك من الإخوان فاعذِرْه ، ولا تكن ممّن إذا وقع على ذنبٍ لصاحبه أخَذه به ، ونزع جلدةَ رأسِه فشواها .

[ما جاء في قبول الأعذار]

وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ لم يقبل من متنصِّلٍ عذراً ، صادقاً كان أو كاذباً ، لم يَرِدْ عليّ الحوض » .

وقالوا : المعترف بالذنب كمن لا ذنب له .

---

(١) ديوانه ٨١

واعتذر رجلٌ إلى إبراهيم بن المهديّ ، فقال : قد أغناكَ الله بالعذر عن الاعتذار، وأغنانا بحسن النية عن سوء الظن .

وقال الحسن بن وهب :

مَا أَحْسَنَ الْعَفْوَ من الْقادِرِ لا سيّما عن غير ذى ناصرِ[1]
إن كان لى ذنبٌ ولا ذنبَ لى فماله غـــيرُكَ من غافرِ
أعـــوذُ بالوُدّ الذى بيننَا أن تفسد الأوّل بالآخرِ

وقالوا : ليس من الْعَدْل ، سُرْعة العذْل .

وقال آخر :

اقْبَلْ معاذيرَ من وافاكَ معتذِراً أبرَّ فيما أتى من ذاكَ أو فَجَرَا[2]
فقد أطاعكَ مَنْ يُرْضيك ظاهرهُ وقد أجلَّكَ مَنْ يَعْصِيك مستترَا

آخر :

وهبْنى مسيئاً كالذى قلتَ ظالمًا فعفواً جميلاً كى يكون لكَ الفضلُ[3]
فإن لم أكن للعفو عندكَ للّذى أتيتُ به أهـــلاً فأنت له أهلُ

الأحنف : ربَّ ملوم لا ذنبَ له .

آخر :

* لعل له عذراً وأنت تلومُ *

آخر :

إذا اعتذر الجانى محَا العـذرُ ذنبَه وكلّ امرئٍ لا يقبل العذرَ مذْنبُ[4]

---

(١) العقد ٢ : ١٤٢ (٢) العقد ٢ : ١٤٢
(٣) العقد ٢ : ١٤٣ (٤) العقد ٢ : ١٤٣ .

وقال محمد بن سليم لابن السماك : بلغنى عنك شىء كرهته ، فقال : إذا لا أبالى ، قال : لم ؟ قال : لأنه إن كان حقًّا غفرته ، وإن كان باطلًا لم تقبله .

وقالوا فى ترك الاعتذار :

إذا كان وجه العذر ليس ببيّنٍ فإنّ اطّراحَ العذر خيراً من العُذْرِ[1]

قوله : الشكوى ، أى المشتكىَ إلى الناس بالضر . نُهًى : عقل . ارعوى : رجع . وارْعَوَى عن القبيح : كفّ عنه وحَسُن رجوعه ونزوعُه عنه من الرِّعوى ، وهى حسن المراجعة والنزوع عن الجهل .

الفراء وابن سيده : عوَى الفصيلُ والكلبُ ، إذا صاح فمدّ صوته ، قال الشاعر :

بها الذّئبُ محزوناً كأنّ عُواءه عُواء فصيلٍ آخر الليل مُحْثَلُ[2]

المحثل : السيء الغذاء[3] ، وإذا دعا الرّجُل النّاس إلى الفتنة فقد عوَى واسْتَغْوَى ، وسمعتْ عَوّة القوم ، أى أصواتهم وجلبتهم ، قاله الأصمعىّ وأبو زيد : بل أخو الجهل الّذى عَوَى بالشكاية وقت ارعوائه أى رجوعه عنك ، والمعنى كلما غاب عنك : تشكّى ، وما مع الفصل مصدرية وظرف الزمان محذوف ، أى وقت ارعوائه كقوله تعالى : ﴿ مَا دَامَت السَّموات والأَرْضُ ﴾ أى مدة دوامهما ، يريد أن العاقل يحتمل ضرّ الزمان ولا يشتكى والجاهل الّذى متى رجع عن التشكّى لم يرجع رجوعاً حسناً ، بل يَعْوِى بالتّشكى عُواء الذئب .

* * *

فقال الغلام للنَّظارة : يا لَلعجيبة ، والطرفة الغريبة ! أنفٌ فى السّماء ، واستٌ فى الماء ، ولفظٌ كالصّهباء ، وفِعْلٌ كالْحصْبَاء . ثمَّ أقبل على

(١) لابن عبد ربه ، العقد ٢ : ١٤٣

(٢) اللسان (حثل) وفى ط : (محتل) تحريف ، والمحثل : السيء الغذاء

(٣) ط : (الغدار) تحريف

الشَّيْخ بلسانٍ سَليط ، وغيظٍ مُسْتَشِيط ، وقال : أفٍّ لك مِنْ صوّاغٍ باللّسان ، رَوَّاغٍ عن الإحسان : تأمرُ بالبِرّ ، وتَعُقُّ عُقوق الهِرّ ، فإنْ يكنْ سبَبُ تعنُّتِك ، نَفاقَ صَنْعَتِك ، فرَمَاها اللهُ بالْكَسَاد ، وإفْسادِ الحُسّاد ؛ حتَّى تُرَى أَفْرَغَ من حجّامِ سَابَاط ، وأَضْيقَ رِزْقاً مِنْ سَمِّ الخياط. فقال له الشيخ : بلْ سلَّطَ الله عليك بَثْرَ الْفَم ، وَتَبَيُّغَ الدّم ؛ حتَّى تُلْجأ إلى حجّامٍ عظيمِ الاشْتِطاط . ثقيل الاشتراط . كَلِيلِ المِشْرَاط ، كثيرِ المُخَاط والضُّراط .

* * *

قوله : الطُّرْفَة الغريبة ، أى التى لم يُرَ مثلُها . الصَّهْبَاء : الخمر . الحصْباء : الحجارة . سليط ، أى متسلط . مستشيط : منتشر فى الشرّ ملتهب فى الغضب . صوّاغ : كذّاب ، وصاغَ الكذب : صنعه . راغ : مال إليه من حيث لا يعلم ، وراغ إلى أهله : رجع فى إخفاء . روّاغ : ميّال وفرّار فى خُفْية . تعقّ : تقطع . وعُقوق الهرة ، أنّها تأكل أولادها .

وحكى الأصمعى فى كتاب « أفعل من كذا » ، يقال : أعقّ من ضَبّ ، قال : أرادوا ضَبّة ، فكثر الكلام بها فقالوا : ضبّ ، وعقوقها أنها تأكل أولادها ، وذلك أن الضّبّة ، إذا باضتْ حَرَسَتْ بيضَتَها من كلّ ما قدرتْ عليه من وَرَلٍ وحيّة وغير ذلك ، فإذا خرجتْ أولادُها من بَيْضتها ظنتها شيئاً يريدُ بيضَها ، فوثبت عليه تقتله ، فلا ينجُو منها إلا الشديد . قال : وهذا موضوع قد وضعته العرب فى موضعه ، وأتتْ بعلّته ، ثم جاءت إلى ما هو فى العقوق مثل الضّبّة ، فضرَبت به المثل على الضدّ ، فقالوا : أبرُّ من هِرّة ، وهى أيضاً تأكل أولادها ، فحين سُئِلوا عن الفرْق وجّهوا أكْلَ الهرة أولادها إلى شدة الحبّ ، فلم يأتوا بحجّة مقنعة . وقال الشاعر :

أما ترى الدهر وهذا الورى كهرة تأكل أولادها

واختُصِم إلى شُريح ، في ولد هِرّة ، فقال شُريح : ألقه مع هذه ، فإن هي قرّتْ ودرّت واسبطرّت ، فهو لها ، وإن هي هرّتْ وفرّتْ واقشعرّتْ ، فليس لها . اسبطرّت : اضطجعت وهرّت كهرت ، من هرير الكلب ، واقشعرّ الجلد : قامت شُعوره .

قوله : تعنتك : طلب مشقّتك ، والتعنّت : طلب الزّلّة ، وتعنّته أدخل عليه الأذى إذا سأله عن شيء ، أراد به اللّبْس والمشقّة عليه . سمّ الخياط : ثُقْب الإبرة . بَثْر : خرّاج صغار ، ويقال بَثَر الجرح ، إذا خرجت به أورام صغار فيزيد به سيلان الدم عن الأكل وغيره . تبيّغ : هَيَجان وتَبَيّغ دمُه : هاج عليه . تاجأ : تموج . الاشتطاط : مجاوزة القدْر . كَلِيس : حافٍ .

* * *

قَالَ: فلمّا تبيّن الفتى أنه يَشْكو إلى غيرِ مُصمَت ، ويُراوِدُ استِفْتَاحَ بابٍ مُصْمَتٍ ، أضْرَبَ عن رَجْع الكلامِ . واحْتَفَزَ لِلْقيام ، وَعَلِمَ الشيخ أنه قد أَلَامَ ، بِمَا أَسْمَعَ الْغُلام ، فجنح إلى سِلْمِه ، وبذَل أنْ يُذْعِنَ لِحُكْمِهِ ، وَلا يبْغِي أَجْراً على حَجْمِهِ ، وأَبَى الْغُلامُ إلّا المشْيَ بِدَائِهِ ، والهربَ مِنْ لِقَائِهِ ، وَمَا زَالَا فِي حِجَاجٍ وَسِبَابٍ ، ولِزَازٍ وجِذَابٍ ، إِلَى أَنْ ضَجَّ الْفَتَى من الشِّقَاقِ ، وتَلَا رُدْنُه سُورَةَ الانْشِقَاق ، فأعْوَلَ حينئذٍ لِوفَارَةِ خُسْرِهِ ، وانعِطَاطِ عِرْضِهِ وطِمْرِهِ . وأَخَذَ الشَّيْخُ يعْتَذِرُ من فَرَطَاتِهِ ، ويُغيِّضُ من عَبَراته . وهوَ لا يُصْغِي إلى اعْتِذَارِهِ ، ولا يُقَصِّرُ عن استِعْبَارِهِ ، إلى أن قال لَهُ : فَدَاكَ عمُّك ، وعَدَاكَ ما يَغمُّك ،

أما تسأم الإعْوَال ، أما تعرفُ الاحْتِمَالَ ، أما سَمِعْتَ بمَنْ أَقَالَ ، وأَخَذَ بِقَوْلِ مَنْ قَالَ :

أَخْمِدْ بِحِلْمِكَ ما يُذْكِيه ذُو سَفَــهٍ
مِنْ نَارِ غَيْظِكَ واصْفَحْ إنْ جَــنَى جَانِي

فالحِلْمُ أفضلُ ما ازْدَانَ اللَّبِيبُ بِهِ والأَخْذُ بالعفو أحْلَى ما جَنَى جَانِي

* * *

يُراود : يُعالج . مصمّت: مغلق . احتفز : تهيّأ وتشمّر . ألام : أتى بما يلام عليه. قال الشاعر:

* ومنْ يَخْذُلْ أخاه فقدْ ألاما *

جَنَحَ : مال . سِلْمه : صلحه . بذل أن يذعن ، أى أعطى الانقياد من نفسه . يبغى أجراً : يطلب أجرة . فى حِجاج وسِباب ، أى فى لجٍّ وشتم . لزاز : ملازمة للخصومة . وخصم لزّاز ملزّ ، أى لا يفارق الخصومة . جذاب : مضاربة وجذب كلّ واحد منهما بثوب صاحبه . ضجّ : صاح . وتلا ردُنه ، أى قرأ كمّه ، وجعل صوب التّخريق كأنه قراءة . أعول : بكى . وفارة خسره ، أى كال خسرانه . انعطاط عِرْضِه وطِمْره ، أى تمزيق عِرْضه بالشّتم ، وثوبه بالتخريق ، والطِّمر : الثوب الخلَق . فَرَطاته : بوادره ، وما سبق من إذايته . يغيض : يذهب وينقص . عبراته : دموعه . يُصغى : يستمع . يقصّر : يكفّ . استعباره : بكائه . عَدَاك : تجاوزك . يغمّك : يغطّى قلبك بالهمّ . تسأم : تملّ . الإعوال : البكاء . الاحتمال : التسامح والصّبر على الأذيّة . أقال : غفر الذنب . أخمِدْ : أطفِئ وسكّن . يذكيه : يوقده . سَفَه : جهـل . اصفح : أظهر كَرَمك . جَنَى : أوقع بك جناية . والجانى : فاعلها . الحلم : العقل والصّبر على المضرّات . ازدان :

افتعل من الزَّيْن ، أى تزيّن به . اللبيب : العاقل . العفو : غفر الذنب . جَنَى : قطف الثمر . وهذان البيتان من بدائع مزدوجاته التى نبّهنا على أنها من فائق شعره ، وسبقه سابق البربرىّ إلى معناها بقوله :

لا تُظْهِرَنّ لذِى جهلٍ معاتبةً فرُبّما هَيّجتْ بالشىء أشياء
فالماء يخمد حرّ النار يُطفئها وليس للجهل غير حلم إطفاء
تَرَى السَّفيه له عن كلّ محلمةٍ زيغ ، وفيه إلى السفه إصغاء

وقال أبو فراس :

ما كنتُ مذ كنتُ إلّا طوعَ إخوانى ليست مؤاخذةُ الأخوان مِنْ شَانِي (١)
يجنى الصَّديقُ فأستحلى جنايتَهُ حتى أدلّ على عفوى وإحسانى
ويُتْبِع الذنب ذنباً حين يعرفُنى عمداً فأتبع غفراناً بغُفْرَانِ
يجنى علىّ فأعفو صافحاً أبدا لا شىء أحسنُ من حانٍ على جانى

وذكر الحريرى هذين البيتين والمقطوعة قبلهما ، وجنّس فيهما بين لفظ القافية واللفظ قبله .

ومما جاء من ذلك وهو أضبط مما ذكر قول الشاعر :

قدِّم لنفسك زاداً وأنت مالكُ مالِكْ
من قبل أن تتفانى ولونُ حالِك حالِكْ
ولستَ تعلم يومًا أىّ المسالك سالِكْ
إمّا لجنّة عدنٍ أو فى المهالك هالِكْ

وقال آخر :

مالك من مالك إلّا الذى قدّمْتَ فابذُلْ طائعاً مالَكا
تقول أعمالى ولو فتّشوا وجدت أعمالك أعمى لَكا

(١) ديوانه ١١٤

وقالت للمعتمد جارية له : لقد هُنَّا هنا ، فقال :

قالت لقد هُنَّا هنا مولاى أين جاهُنَا
قلت لها إلى هنا صيَّرنا إلا هُنَا

* * *

فقال له الغلام : أما إنك لَوْ ظَهَرْتَ عَلَى عَيْشِي المُنْكَدِرِ ، لَعَذَرْتَ فى دَمْعِي الْمُنْهَمِرِ ، ولكن هانَ على الأَمْلَس ما لاقَى الدَّبِرِ . ثمَّ كأنه نَزَع إلى الاسْتِحْيَاءِ ، فَأَقْلَعَ عن الْبُكَاء ، وفاءَ إلى الارْعِوَاء ، وقال للشيخ : قَدْ صِرْتَ إلى اشْتَهَيْتَ ، فارْقَعْ مَا أَوْهَيْتَ ، فقال : هَيْهَاتَ شغلتْ شِعَابِى جَدْوَاىَ ، فشِمْ بَارِقَ سِوَاىَ .

ثمَّ إنَّه نَهَضَ يَسْتَقْرِى الصُّفُوفَ ، وَيَسْتَجْدِى الْوُقُوفَ ، وَيُنْشِد فى ضِمْنِ ما هُوَ يَطُوف :

أُقْسِمُ بِالْبَيْتِ الْحَرَامِ الَّذِى تَهْوِى إليه الزُّمَرُ المحرِمَهْ
لَوْ أَنَّ عِنْدِى قُوتَ يَوْمٍ لَمَا مَسَّتْ يَدِى المِشْرَاط وَالمِحْجَمَهْ
ولا ارتضتْ نفسى الّتى لَمْ تَزَلْ تَسْمو إلى المجدِ بِهذِى السِّمَهْ
ولا اشْتَكَى هَذَا الْفَتَى غِلْظَةً مِنّى ولَا شَاكَتْهُ مِنِّى حُمَهْ
لَكِنْ صُرُوفُ الدَّهْرِ غَادَرْنَنِي كخابطٍ فى اللَّيْلَةِ الْمُظْلِمَهْ
واضْطرنى الْفَقْرُ إلى مَوْقِفٍ من دونِهِ خَوْضُ اللَّظَى الْمُضْرَمَهْ
فهل فتًى تدركُهُ رقّةٌ علىّ أو تَعْطِفُهُ مَرْحَمَهْ !

* * *

قوله : المنكدر ، أى المتغيّر ، والكَدْرَة ضدّ الصفاء . المنهمر : السائل . أقلع : ارتفع وزالَ . فاء : رجع . الارعواء : الاستحياء والرّجوع الحسن . أوهيت : أفسدت . شِمْ : انظر . يَسْتَقْرِى : يتتبع . يستجدى : يطلب الجَدَاء وهو العطّية . فى ضمن : فى أثناء وفى خلال . تهوى : تُسْرِع المشى وتتساقط إليه . الزُّمَر : الجماعات . المحرِمة : الداخلة فى الحَرَم . تسمو : ترتفع . المجد : الشرف . السِّمة : العلامة . غلظة : جفاء . شاكته : ضربته . حُمَة : شوكة العقرب التى تَلْسَع بها ، والحُمَة : السّمّ ، فسمى ما يخرج عنه السّمّ باسمه . صروف : نوائب . غادرنِي : تركَتْنِي . خابط : ماش على جهالة . اضطرنى : ألجانى . خوض اللّظَى : دخول النار . المُضْرَمة : الموقدة . رقّة : شفقة . تَعَطّفه : تليينه . مرحمة : رحمة .

* * *

قال الحارث بن همام : فكنت أوّلَ من أَوَى لبلْوَاه ، ورقّ لشكواه ، فنفحتُه بدرهمين ، وقلت : لا كَانَا ولو كان ذامَيْن ، فابتهج بيا كُورَة جَنَاه وتَفَاءَل بهما لِغِنَاه ، ولم تزل الدَّراهم تنهال عليْه ، وَتَنْثال لَدَيْه ؛ حتى آل ذَا عيشةٍ خَضْرَاء ، وحقِيبةٍ بَجْرَاء ، فازدهاه الفرحُ عند ذلك ، وهنَّأ نفسَه بما هنالك ، وقال للغلام : هــذا رَيْعٌ أنْتَ بَذْرُه ، وحَلَبٌ لك شَطْرُه ؛ فهَلُمّ لنَقْتَسِم ، ولا نَحْتَشِم ، فَتَقَاسَمَاهُ بينهما شِقَّ الأُبْلمة ، ونَهَضا مُتَّفِقِي الكلمة . ولَمّا انْتَظَمَ بَيْنَهُما عَقْد الاصْطِلاَح ، وهَمَّ الشيخ بالرّواح ، قلت له : قد تَبَوَّعَ دَمِي ، وتَقَلْتُ إليكَ قَدَمِي ، فهل لك أن تَحْجُمَنِي ، وتُكَفْكِفَ ما دَهَمَنِي ، فصوَّب طَرْفَهُ فىّ وصعّد ، ثم ازْدَلَف إلىّ وأنشد :

* * *

أوى : أشفق . نَفَحْتُه : رميته ونبذته . ذامِن : صاحب كذب . ابتهج : فرح . باكورة : أول ما يَطيب من الشجر ، فجعل الدرهمين باكورة لأنهما أول ما أخذ . تفاءل : جعلهما فألا ، أى لمـا كان أوّل ما حصَل بأيديهما درهمين ، استكثرها فرجا أن تتمشى عطايا الحاضرين على هذا المثال ، وقد كررت ذِكْرَ الفأل .

[مما قيل فى الفأل]

ونذكر هنا منه فصلا على ما أجرينا العادة فى غيره .

كان صلى الله عليه وسلم يكره الطِّيَرة ويُعْجِبه الفأل الحسن .

ولما قدم المدينَة نزل على رجلٍ من الأنصار ، فصاح الرجل بغلمانه : يا سالم يا يسار ، فقال صلى الله عليه وسلم : سَلِمتْ لنا الدار فى يسر .

وقيل لرجلٍ من العرب : ما لكم تسمُّون أبناءكم بأسماء السباع والكلاب ، وتسمون مواليكم بأسماء حسان ، مثل عطاء ونجاح ؟ فقال : لأنّا أعددنا أبناءنا لأعدائنا ، وموالينا لأنفسنا .

وسأل عمرُ رضى الله عنه رجلاً عن اسمه واسم أبيه ، فقال : ظالم بن سرّاق ، قال : تظلم أنت ويسرق أبوك !

وجاءه رجل فقال له : ما اسمك ؟ قال : جمرة ، قال : ابن من ؟ قال : ابن شهاب ، قال : ممّن ؟ قال : من الحرَقة ، قال : وأيًّا تسكن ؟ قال : بحرّة النار . قال : بأيِّها ؟ قال : بذات لظًى ، قال : أدرِكْ أهلَك ، فقد احترقوا ، فرجع فوجدهم قد احترقوا ، فكان كما قال .

الفنجديهى بسنده ، حدثنى أحمد بن علىّ ، حدثنى أبو مسعود ، قال : قال لى أبو داود السِّنْجِى : ما اسمك ؟ قلت : سعد ، قال : ابن من ؟ قلت :

ابن مسعدة ، قال : أبو من ؟ قلت : أبو مسعود ، قال لى : مسألتك مثل أعرابى لقى آخر ، فقال : ما اسمك ؟ قال : فَيْض ، فقال : ابن من ؟ قال : ابن الفرات ، قال : أبو مَنْ ؟ قال : أبو بحر ، قال : ليس لنا أن نكلِّمك إلا فى زَوْرق .

وقال علىّ بن الجهْم : دخلتُ يوماً على المتوكل ، وهو جالس فى صحن داره، وبيده غصن آسٍ ، وهو يتمثل بهذا الشعر :

بالشَّطِّ لى سَكَنٌ أفديه مَنْ سَكَنِ

أهدى من الآس لى غصنين فى غُصُنِ (١) .

فقلت إذ نُظِمَا إلفَيْن وانتسقا سقياً ورعياً لفألٍ منكما حَسَنِ

فالآسُ لا شكَّ آسٍ من تشوّقنا شافٍ وآسٍ تبقَى لِى عَلَى الزَّمَنِ

بشَّرْتُمانى بأسباب ستجمعُنا إن شاء ربِّى وَمَهْمَا يَقْضِهِ يَكُنِ

ثم قال لى — وكدتُ أنشقُّ حسداً : لمن هذا الشعر يا علىّ ؟ فقلت : لحسين بن الضحَّاك يا سيِّدى ، فقال : هو والله عندى أشعرُهم وأحسنُهم مذهباً وأظرفهم نمطاً ، فقلت : وقد زاد غيظى : فى هذا النمط يا سيدى ؟ قال : وفى غيره ، وإنْ رغِم أنفك ومتَّ حسداً ، وأردت إنشاده قصيدةً ، فقلت : إنى لا أنتفع بها مع ما جرى ، فأخّرتها إلى وقت آخر .

قوله : تنهال ، أى تنصَبُّ متفرقة . آلَ : رجع . خضراء : ناعمة لكثرة الرزق . حقيبة بجراء ، أى وعاء ممتلىء ، والأبجر : الذى خرجتْ سُرَّته . ازدهاه : هزَّه وأعجبه . الرّيع : الزيادة والفضل والبَذْر : ما يُزْرَع من الحبوب . حَلَب : لبن . شطره : نصفه . نحتشم : نستحى أو نغضب . الابلمة : الدّومة تشق ورقتها فتخرج أبداً معتدلة . تكفكف : تدفع وتكفّ . دهمنى : أصابنى . ازدلف : قَرُب .

* * *

(١) ديوان الحسين بن الضحاك ١١٥

كَيْفَ رأيتَ خُــدْعَتِي وخَتْلِي ... وما جَرَى بيني وبين سَخْــلِي

حتّى انثنيتُ فائزاً بالْخَصْــــلِ ... أرْعَى رياضَ الخِصْبِ بَعْدَ المَحْلِ

بالله يا مهجة قلـــــبي قُلْ لى ... هل أبصرتْ عيناكَ قطّ مثــلِي

يفتَحُ بالرُّقيــــة كُلَّ قُفْلِ ... ويَسْتَبِي بالسِّحْرِ كُلَّ عَقْــلِي

ويَعْجِنُ الجِــــدَّ بماء الهزلِ ... إن يكن الإسكندرىّ قَبْلِي

فالطَّلُّ قَدْ يَبْدُو أمام الوبْلِ ... والفضــــلُ للوابل لا لِلطَّلِّ

قال : فَنَبَّهَتْنِي أُرْجُوزتُه عَلَيْه ، وأَرَتْنِي أنَّه شيخُنا المشارُ إليه ، فقَرّعتُه على الابْتِذال ، والالتحاقِ بالأَرْذَال ، فأعْرَض عَمَّا سَمِع ، ولم يُبَلْ بما قُرِع ، وقال : كلُّ الحِذاء يَحْتَذى الحافِى الْوَقِع . ثم قاصانى مُقَاصَةَ المُهَان ، وانطلقَ هُوَ وابنُه كفرسَىْ رِهَان .

* * *

ختْلِي : مكرى . سخْلِي : ولدى . الخصْل : الغَلَب فى القمار ، وفى مسابقة الخيل ، وفى مراماة السهام . يستبي : يأخذ ويسبي ، وقد تقدّم فى شرح الصدر التنبيه على هـذا الموضع . الطّلّ : أضعف المطر . والوبل : أشدّه . قرّعته : أقلقته بكثرة اللّوم ، وبأَخْذِى له بلسانى . الابتذال : امتهان نفسه فى الصّنعة الهجينة . الأرْذَال : الأدنياء ، فأراد عنَّفته ولمْتُه أشدّ اللوم على حِرْفَة الحجامة ، فإنّها صَنْعَةُ أرذال الناس وسِفْلَتِهم .

ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « العرب بعضُها لبعض أكفاء ، قبيلة لقبيلة ، وحىّ لحىّ ، ورجل لرجل . والموالى أكفاء إلا حائكاً أو حجّاماً » .

وقال عليّ بن الحسين : أربعة أعمالٍ كانت فى سُفْلِ بنى إسرائيل ، وصارت فى سُفْلِ العبيد وستكون فى سُفْلِ الأحرار : الحياكة ، والحجامة ، والدِّباغة والكِناسة .

رفاعة بن موسى : سمعت الصادق يقول : ستٌّ لا يُنْجِبُون : الملاّح ، والمكارى ، والحمامى ، والحجام ، والبيطار ، والحائك .

وممّن شهر من الأدباء بصنعة هينة نصر بن محمد الخابزرزىّ ، كانتْ صنعتُه خَبْز خُبْزِ الأرزّ فى دكانه بمِرْبَد البصرة ، فكان ينشد أشعاره على الغزل ، والنّاس يزدحمون عليه ، وأحداثُ البصرة يتنافسون فى ميله إليهم .

وكان ابن لَنْكك على ارتفاع قَدْره ينتاب دكانه ، فحضره يوماً وعليه ثياب بِيض فاخرة ، فتأذّى بالدكان من الدخان وسوء أثره على ثيابه ، فانصرف وكتب إليه :

لنصرٍ فى فؤادى فَرْطُ حبٍّ ... يُنيف به على كلِّ الصِّحَاب[1]

أتيناه فبخّرَنا بخوراً ... من السَّعف المدخّن بالتهاب

فقمت مبادراً وحسبتُ نصراً ... يريد بذاك طَرْدِى أوْ ذَهابى

وقال: متى أراك أبا حسينٍ؟ ... فقلت له إذا اتسخت ثيابى

فلما قُرِئت عليه أمْلَى على مَنْ قرأها ، وكتب على ظاهرها :

مَنَحْتُ أبا الحسين صَمِيمَ ودّى ... فخاطبنى بألفاظٍ عِذَابِ

أتى وثيابُه كالشيب لوناً[2] ... فعُدْنَ له كريْعَان[3] الشَّبابِ

وبغضى للمشيب أعدّ عندى ... سواداً لونُه لون الخِضَابِ

فإن يكن المعطّر فيه فخراً ... فلِمْ يَكُنِ الوصىّ أبا ترابِ

---

(١) يتيمة الدهر ٢ : ٢٣٧ ، ٢٣٧

(٢) كذا فى اليتيمة ، وفى ط : « كبياض شيب »

(٣) ط : « كغربان » .

ومن شعره :

خليليّ هل أبصرتُمَا أو سَمِعْتُمَا ... بأحْسَنِ مِنْ مَوْلًى تمَشّى إلى العَبْدِ

أتى زائراً من غير وعدٍ وقال لى : ... أصونك عن تعذيب قلبك بالوعْدِ

فما زالَ نجمُ الكأس بيني وبينه ... يدور بأفلاك السعادة والسَّعْدِ

وله :

وَرْدُ الخدود ورُمّان النهود وأغـ ... ـصان القدودِ تَصِيدُ السَّادَةَ الصِّيدا

مَنْ لى إذا ما رأيت الخَصْرَ مختصراً ... والرّدف مرتدفاً والقَدَّ مقدُودا

وكان يحيي السَّرَقُسْطِي أديباً فرجع إلى الجزّارين ، فأمر الحاجب بن هود أبا الفضل بن حُميد أن يوبّخه على ذلك فكتب إليه :

تركتَ الشِّعْر من عدم الإصابَهْ ... وملتَ إلى الجزارة والقصابَهْ

فأجابه يحيي :

تَعِيبُ علىّ مألوفَ القِصَابَهْ ... ومَنْ لم يدرِ قَدْرَ الشيء عَابَهْ

ولو أحكمتَ منها بعض فنّ ... لما استبْدَلْتَ عنها بالحجابَهْ

وإنَّكَ لوْ طَلَعْتَ علىّ يوماً ... وحَوْلِي مِنْ بنى كَلْبٍ عِصَابَهْ

لهالك ما رأيتَ وقلتَ هذا ... هزبرٌ صيّر الأوضام غابَهْ

فتكْنَا فى بنى العَنَزِىّ فتكاً ... أقرّ الذُّعْرَ فيهم والمهابَهْ

ولم نُقْلِع عن الثَّوْرِىّ حتّى ... مَزَجْنَا بالدَّمِ القانِي لُعَابَهْ

ومَنْ يعتزّ منهمْ بامتناعٍ ... فإنّ إلى صوارمنَا إيابَهْ

ويبرز واحدٌ منّا لألفٍ ... فيغلبُهم وتلك من الغرابَهْ

وحَقِّكَ ما تركتُ الشِّعْرَ حتَّى ... رأيتُ البخلَ قد أمْضَى شِهَابَهْ

وحتَّى زُرْتُ مشتاقاً حميمى ... فأبْدَى لى التجهّمَ والكآبَهْ

وظنَّ زيارتى لطلاب شىء ... فأقصانى وأغلظ لى حجابَهْ .

قوله : ولم يُبَلْ : أصله يبالى ، حذفت ياؤه للجزم ، فصار يبال ، فلما كثر استعماله صار بمنزلة ما لم يحذف منه شيء فقدّرُوا تكريرَ الجازم عليه مرة أخرى فحذفتْ حركةُ اللاّم للجزم ، فسكنت اللاّم ، وقبلها ألف ساكنة فحذفتْ الألف لالتقاء الساكنين .

ولأبى علىّ فى هذه المسألة عبارة استوحش منها أكثر العلماء ، فمن مخطّيء ومن مُصوّب ، وتحقيقها غائب إلا عَنْ أهل التحقيق ، وقد أوضحناها فى شرحنا لكتاب الإيضاح ، والإكثارُ من مسائل الإعراب فى كتب الآداب مما يُسْتَبْرد ويعاب .

أعرض ، أى نحىّ وجهه لجهة . قاصانى : فارقنى ، وقال الفرّاء : كل شيء أبنته من شيء فقد قَصّيْته منه ، وتقصّى الرجل من الرجل : بان عنه ، وكلُّ رجلٍ بايَنَ شيئاً فقد تقصّى عنه . الليث رحمه الله : كلُّ شيء لازم خلّصته فقد تقصّى ، وتقصّيْت من الديون : خرجتُ منها . فرسى رهان : هما اللذان يجريان ويُجْعل معهما جُعْل ، فمن سبق أخذه .

ومما أستحسن من أبيات اللغز فى هذا الباب قولهم فى المشارط :

وخضراء لا من بنات الهديلِ يُلَفّف بالسَّيْر مِنْقَارُها

كأنّ مشق عيون القطا إذا هنّ هوّمن آثارُها

آخر :

وكان جَدّى هراش فى كتابته من أكتب الناس ياهرون بالألِف

يعنى آثار التشريط تبقى كصور الألفات .

وقال آخر :

يابنَ مَنْ يكتب فى الأرْ قاب من غير دَوَاةِ

لم يكن يكتب فيها غير خطّ الألِفات

وقال ابن كناسة يخاطب إبراهيم بن سيابة :

يابن الذى عاش غير مضطهدٍ ... يرحمه الله أيّما رَجُــلِ

له رقاب الملوك خاضعةٌ ... من بين حافٍ منهمُ ومنتعلِ

أبوك أوْ هى النَّجادَ كاهلَه ... كم من كَمِيٍّ أدمى ومن بَطَلِ

يأخذ من مالهِ ومنْ دَمِهِ ... لَمْ يُمسِ من ثأرِه على وَجَلِ

فى كفِّه صارمٌ يقلِّبه ... يقدُّ أعناق سادةٍ نُبُلِ

وأخذ صاحبُ الشرطة رجلاً فى ريبة ، فقال : أصلحك الله : احفظ فىَّ الأبوَّة ، وقال:

أنا الذى لا تنزل الدهرَ قِدْره ... وإن نزلت يوماً فسوف تعودُ

ترى الناس أفواجاً إلى ضوء ناره ... فمنهم قيامٌ حولها وقُعُــودُ

فأمر بتركه ، ثم أُخبر أنَّ أباه باقلانىّ ، فقال: لو لم نتركه إلّا لأدبه وحسن تخلُّصه من الكذب لكان فعلنا سداداً .

وكان بالمدينة فتًى أبوه مغنٍّ وأمُّه نائحة ، فأغضبه إنسان ، فقال : أتُغضِبنى وأنا ابن الطَّرب والحرَب !

وقال ابن عباس المصرى يذكر غلاماً جميلاً ، والحجام يأْخذ من شعره فى الحمام:

مزينٌ انبرى لظــبيٍ ... كأنه البدر فى سُجُوفِهِ

كأنَّ موساه وهولمَّا ... نَضَى بها الشَّعر فى وقوفِهِ

كيوان فى كفِّه حسام ... يخلِّص البدر من كسوفِهِ

ولبعضهم يمدح حجاماً :

إن المزين إنسانٌ صناعتــه ... تعلو الصَّنَائع إذ ما مثلها صُنِعَتْ

ألا ترى أنه لا يُسْــتراب به ... وآله الموت فى صندوقِهِ جُمِعَتْ

يخلو مع الملك المرهوب جانبهُ ... فيما إليه ضرورات الأمور دعتْ
تعلو أناملُه فى حين خلوته ... مواضعاً لو عَلَتْها غيرها قطِعت

وقال السَّرى فى مزين محسن :

هل الحِذْقُ إلا لعبد الكريم ... حَوَى فضلَه حادثاً عن قديمِ (١)
إذا لمع البرق فى كفِّه ... أفاض على الرأس ماءَ النَّعيمِ
جهولُ الحُسَامِ ولكنَّهُ ... يروح ويَغْدُو بكفَّىْ عَليمِ
له راحةٌ سيرها راحةٌ ... تمرّ على الرأس مرَّ النسيمِ
نعِمْنَا بخدمتِهِ مُذ نشا ... فنحن به فى نعيمٍ مقيم

وله فى طبيب :

أوضح نهج الطبِّ فى معشر ... ما زال فيهم دارس الرَّسْمِ (٢)
كأنّه من لُطْف أفكاره ... يجول بين الدَّمِ واللَّحْمِ
إن غضبت روحٌ على جسمها ... ألّف بَيْنَ الرُّوح والجسمِ

وفى ضده لأبى نصر كشاجم :

عيسى الطبيب تَرَفَّقْ ... فأنت طوفان نوحِ
يأبى علاجك إلا ... فراق جسمى وروحِي
شتان ما بين عيسى ... وبين عيسى المسيحِ
فذاك محيى مماتٍ ... وذا مميت الصحيح

وللخوارزمى :

أبو سعيد راحل للكرام ... ومنسف ينسف عمر الأنامْ
لم أره إلا خشيتُ الردى ... وقات : يا روحى عليك السلامْ

---

(١) ديوانه ٢٤٧

(٢) ديوانه ٢٥٥

يبقى ويفنى النـاس من شؤمه قوموا انظروا كيف نجاة اللئامْ

ثم تراه آمناً سـالماً يا مالك المـوت إلى كم تنامْ

وللسَّرِيّ :

هل للعليل سِوَى ابن قُرَّة شاف بعد الإله وهـل له من كافِ[1]

فكأنه عيسى بن مريم ناطقاً يهب الحيـاة بأيسَرِ الأوْصافِ

مثلت له قارورتى فرأى بهـا ما اكتنَّ بين جوانحى وشغافى

يبـدو له الدواء الخفىُّ كما بدَا للعين رضراض الغـدير الصافى

وكثرةُ الكلامِ وَقْفٌ على أهل الحجامة ، ولذلك شرف الحريرىُّ بين الشيخ وابنه ما تقدَّم فى هذه المقامة . وكان الفقيه الأعمش أكثَرَ الناس تبرُّماً إن أعاد أحد عليه سؤالا انتهره ، وأخطأ يوماً على قوم ، فقالت لهم امرأته من وراء الستر : احملوا عنه فوالله ما يمنعه من الحج منذ ثلاثين سنة إلا مخافة أن يظلم كريّه أو يشتم رفيقه ، وكثر عليه الشَّعر فقال له تلامذته : لو أخذت من شَعْرك ؟ فقال : لا نجد حجاماً يسْكُت . قالوا له : نأتيك به ، ونأخذ عليه أن يسكُت حتى يفرغ ، قال : افعلوا . فأتِيَ بحجام ووُصِّيَ ألّا يكلمه ، فبدأ بحلقه ، فلما أمعن سأله فى مسألة فنفض ثيابه ، وقام بنصف رأسه محلوقاً ، حتى دخل بيته ، فأُخرِج الحجّام ، وأُتِيَ بغيره ، فقال : والله لا أخرج إليه حتى توثّقوه ، وتحلّفوه ، فحلف ألّا يسأله فى شىء ، وحينئذ خرج إليه .

ومقامة الحجام فى البديعية ، منها قال عيسى بن هشام : فطلبت حجاماً فجاءوا برجل نظيف ، ظريف لطيف ، فارتحت إليه ، وسلّمت عليه ، فقال لى : السلام عليك ، مِنْ أىِّ بلد أنت ؟ فقلت : من مصر ، فقال لى : حيّاكَ الله ، من أرض

(١) ديوانه ١٧٤

النعمة والرفاهة ، وبلد السنة والجماعة ، ولقد حضرت فى رمضان جامعها ، وقد اشتعلت المصابيح ، وأقيمت التراويح، فما شعرنا إلا بمدِّ النيل ، قد أتى على تلك القناديل ، ولكن صنع الله لى بخف ، كنت لبسته رطباً فلم يحصل طرازه على كمّه ، وَعاد الصبىُّ إلى أمِّه ، بعد أنْ صلَّيت العتمة ، واعتدل الظلُّ ، ولكن كيف كان حجُّك ، هل قضيت مناسكه كما وجب ، وصاح الصبيان : العجب العجب، فنظرت إلى المنارة،وما أهون الحرب عند النَّظَّارة ووجدت الهريسة على حالها ، فعلمت أنَّ الأمر بقضاء من الله وقدر ، وإلى متى هذا الضجر ، واليوم وغد ، والسبت والأحد ، ولم أكثر وأطيل ، وما أكثر القال والقيل ، وإن أردت أن تعلم المبرِّد حديد الموسَى فى النَّحو فلا تشتغل بقول العامة ، فلو كانت الاستطاعة قبل الفعل لحلقت رأسك ، فهل ترى يا سيدى أن ابتدئ؟

قال عيسى : فبقيت والله متعجِّباً من هَذَيانه ، وسألت عنه فإذا هو أبو الفتح قد غلب السَّواد عليه ، فتركته وانصرفت فهذه غرارة حجام على الحقيقة .

---

(١) من المقامة الحلوانية ص ٢٣٢ مع تغيير فى العبارة .

قال الشيخ الإمام الرئيس أبو محمد القاسم بن على رضى الله عنه :

قد أوْدَعْتُ هذه المقامةَ بضعةَ عشرَ مثلا من أمثال العرب ، وها أنا أفسّر منها ما إخاله يلتَبِس ، على مَنْ يقتبس .

أما قوله : بُطْء فِنْد ، فهو مولًى عائشة بنت سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ، وكانت بعثته بالمدينة ليقتبس لها ناراً ، فقصد من فَوْره مصر ، وأقام بها سنة ، ثم جاءها بعد السَّنة وهو يشتدّ ومعه جَمْر ، فتبدّدَ منه فقال : تَعِسَت الْعَجَلة !

وأمّا ذات النِّحيين فهى امرأة من تَيْمِ الله بن ثعلبة، حضرت سوق عُكَاظ ومعها نِحْيَا سمنْ ، فاستخْلَى بها خَوَّات بن جُبَيْرٍ الأنصارى ليبتاعهما منها ، ففتح أحدَهما وذاقه ودفعه إليها ، فأخذته بإحدى يديها ، ثم فتح الآخر وذاقه ودفعه إليها ، فأمْسَكَتْه بيدها الأخرى ثم غَشِيَها ، وهى لا تقدر على الدَّفْع عن نَفْسها لحفظها فَمَ النِّحيين وشُحّها على السمن . فلما قام عنها قالت له : لا هَنَأَك ، فضُرِب بها المثل فيمن شُغِل ، وهى فى هذا المثل مفعولة ، لأنها شُغِلت . وأكثر الأفعال التى على أفعل تأتى من فعل الفاعل .

وأما قولُه : أَنفٌ فى السَّماء واستٌ فى الماء ، فيُضْرَب هذا المثل لمن يكبُر مقالا ، ويَصْغُر فَعالا .

وأما قوله : أفْرَغُ من حجّام ساباط، فَذُكِر أنّهُ كان حَجّاماً ملازماً ساباط المدائن يحجمُ الجندىّ بدانقٍ نسيئة ، وربّما مَرّتْ عليه بُرْهة لا يقربه فيها أحدٌ فكان يُبْرِزُ أمّه عند تمادى عُطْلَتِه ، فيحجمها لكيلا يقرّع بالبطالة ، فما زال يحجُمها حتى نَزِف دمُها وماتت .

وأما قوله : يشكو إلى غير مصمت، فهو مثل يضرب لمن لا يكترث بشأن

صاحبه ، ولا يعبأ باستمرار شكايته ، لأنه لو أشكاه لصَمتَ . وأمسك عن الكلام ، ومنه قول الراجز يخاطب جملا له :

إنك لا تشكو إلى مصمتْ

فاصبر على الحمل الثقيل أو متْ

ونحو هذا المثل : هانَ على الأملس ما لاقى الدَّبر .

وأمّا قوله : شغلت شِعابى جَدْوَاى ، فالمراد به أنه ليس يفضل عنّى ما أصرِفُه إلى غيرى . والشِّعاب : هى النَّواحى ، واحدها شِعْب .

وقوله : كلّ الحذاء يحتذى الحافى الوقع ، معناه أن المجهود يقنع بما يجد ، والواقع أن نصيب الحجارةُ القدم فتُوهنها . فأما البعير الموقَّع فهو الذى يكثر آثار الدّبر بظَهْره .

المقامة الثامنة والأربعون - وتعرف بالحرامية

روى الحارث بن همام عن أبي زيد السَّروجيّ قال : ما زلتُ مذ رَحَلْتُ عَنْسِي ، وارتحلت عن عِرْسي وغَرْسي ، أحِنّ إلى عِيانِ الْبَصْرة ، حَنِينَ المظلوم إلى النُّصْرة ، لِما أجمع عليه أرباب الدِّراية ، وأصحاب الرِّواية : من خصائص معالمها ، وعلمائها ، ومآثِر مشاهِدِها وشُهدائها ، واسألُ الله أن يوطِئني ثَراها ، لأفوزَ بمَرْآها ، وأن يُمْطِيَني قَراها ، لأفترِيَ قُراها . فلمَّا أحلَّنيها الحظّ ، وسَرَّح لي فيها اللَّحْظ ، رأيتُ بها مايملأُ الْعَيْنَ قُرّةً ، ويُسْلِي عن الأوطان كلَّ غَرِيبٍ ، فغلَسْتُ في بعضِ الأيام ، حين نَصَل خِضابُ الظَّلام ، وهتف أبو المنذِر بالنُّوَّام لأخْطوَ في خِطَطِها ، وأقْضِيَ الْوَطَرَ من توسُّطِها ، فأدَّانِي الاختراق في مَسالِكِها ، والانْصِلاَت في سِكَكِها ، إلى مَحِلَّةٍ مَوْسُومَة بالاحْتِرَام ، منسوبةٍ إلى بني حَرَام ، ذاتِ مساجِدَ مشهودة ، وحياضٍ مَوْرُوْدَة ، ومَبَانٍ وَثيقة ، ومغانٍ أنيقة ، وخصائصَ أثيرة ، ومزايا كثيرة .

* * *

رَحَلْت ، أي شددتُ عليها الرَّحْل ، والرَّحْلُ : سَرْج النّاقة ، والْعَنْس : الناقة القوية ، شُبِّهت بالعنس وهى الصَّخرة لصلابتها ، قال الليث : إذا تمّ سنُّ الناقة ، واشتدّت قوّتُها وصَلُبَتْ عِظَامها وأعضاؤها فهى عَنْس. عِرْسى : زَوْجَتى. غَرْسِي : أوْلاَدِي . أحِنُّ : اشتاق . عِيان : معاينة ومشاهدة . خصائص :

ما يختصّ به من الفضائل . معالمها : مواضعها المشهورة . والمآثر : الفضائل والمكارم ، والمأثُرة : الفَضِيلة يخصّ بها . مشاهدها : مواضع اجتماع أهلها . يوطِئني ثَراها : يجعلني أطؤها وأمشي عليها ، وأوطأه الشيء : أمكنه من أن يطأه . الثرى : التراب النديّ . ومرآها : منظرها . يُمْطِيني قَراها : يُرْكِبني ظهرها . أقترى : أتتَبّع . أحلّنيها : أنزلنيها . الحظّ : السعد . اللّحظ : العين . قُرة : سُرُور . يسلي : يُشْغل . غَلّسْت : خَرَجْتُ في الغَلَس ، وهي ظلمة آخر الليل . نَصَل : زال . هَتف : صاح . أبو المنذر : كُنية الديك ، ويكنى أبا سليمان . أبو هريرة : إنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : « لا تسبُّوا الديك فإنّه يوقظ للصلاة » .

أبو هريرة أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : « إذا سمعتم الدِّيَكة تصيح بأنها رأتْ ملَكاً فاسألوا الله من فضله ، وإذا سمعتم نهيق الحمير ، فإنها رأت شيطاناً فاستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم » .

قال صلى الله عليه وسلم : الديك الأبيض صديقي وإنه يحرس دار صاحبِه وسبع دور وكأنّ مستمعه في البيت » .

وقال ابن المعتز ويصف ديكاً :

بشّر بالصبح طـــائر هَتَفا ... هاج من اللّيل بعد ما انْتَصَفا

مذكِّرٌ بالصباح صـــاح بنا ... كخاطبٍ فوق مِنْبـــرٍ وقفا

صفق إمّا ارتيـاحه لسنا الفـــجرِ ... وإما على الدّجا أسَفَا

وله :

وصاح فوق الجدار مشترفاً ... كمثل طرف علاه أسوارُ

ثم غدا يسأل الفرات عن الـــأرزاق ... منه ثغر ومِنْقَارُ

رافع رأسـه طوراً وخافضهُ ... كأنّما العُرْف منـه مِنْشَارُ

وقال الأسعد بن بليط :

وقامَ بهـا ينْعَى الدُّجى ذو شقشقةٍ … يدير الينابين أجفـــانه سقطا
إذا صاح أصغى سمعــــهُ لأذانه … وبادر ضرباً من قوادمه الإبطا
ومهما اطمأنت نفسه قام صارخاً … على خيرازنٍ نيط من صُفْرَه خِرَطا
كأن أنو شروان أعـــلاه تاجَهُ … وناطت عليه كفُّ مارية القرطاَ
سَبَى حُـــلّةَ الطاوس حسن لباسِهِ … ولم يكفه حتى سَبَىَ مشية البطاَ

قوله : أخطو ، أى أمشي . خططها : طرقها . الوطر : الحاجة . توسّطها : المشي في وسطها . أدّاني : أوصلني . الاختراق : المشي ، واخترقت البلدة ، إذا قطعت أرضَها بالمشي . والاختراق : المرور والسلوك . والمسالك : الطرق . والانصلات : الخروج بسرعة من زُقَاقٍ إلى آخر ، وانصلت السيف : خرج بسرعة . سككها : أزقتها الواحدة سِكّة ، وسمِّيت سِكّة لاصطفاف الدور فيها ، ويقال للطريق المستوية المصطفة من النَّخل : سِكّة . مَحِلّة : منزلة . موسومة : مُعْلَمة . الاحترام : الامتناع . حياض : جَمْـع حَوْض . موروودة : مقصودة للشُّرب . مغانٍ : منازل . أنيقَة : مُعْجبة حَسَنة . أثيرة : منتشرة لكثرتها . مزايا : جمع مزيّة وهى الْفَضِيلَةَ يختصّ بها الشيء .

* * *

بِهاَ ما شِئْتَ مِنْ دينٍ ودُنْياَ … وجــيرانٍ تنافَوْا في المعاني
فمشغوفٌ بآياتِ المثـــــانِي … ومَفْتــــونٌ بِرَنَّاتِ الْمَثاَنِي
ومضطَّلعٌ بتلخيصِ المعـــانِي … ومطَّلعٌ إلى تَلْخِيص عانِي
وكم من قارِىءٍ فيهـــاَ وقارٍ … أَضَرَّا بالجُفُـــــون وبالجِفَانِ
وكَمْ من مُعْـــلِمٍ للعلِم فيهاَ … ونادٍ للنّـــــدَى حُلْوِ المجانِي

ومغـــنًى لا تزالُ تُغَنّ فيهِ ... أَغَارِيدُ الْغَــوانِي والأَغَانِي

فصِلْ إنْ شِئْتَ فيها بُصَـــلٍّ ... وإمَّا شئتَ فاذْن من الدِّنانِ

ودونَك صُحْبَةَ الأكْياسِ فيها ... أو الكاساتِ منطلِقَ الْعِنَانِ

* * *

تنافَوْا : تباعَدُوا . مشغوف : مولع شديد الحبّ . المثانى : أمّ القرآن ، وقيل السَّبْع الطوال من أوّل القرآن . ورنات : أصوات . المثانى : أوتار عود الغناء . مضطلع : قوىّ . التلخيص : تهذيب الشىء وتخليص فوائده ، وكأنه مقلوب التّخليص . وتخليص عان : افتكاك أسير . قارئ : عابد مكثِر لقراءة القرآن ، قار : مطعم للضيف . الجفون : العيون . الجفان : صحاف الطَّعام ، يريد أن هذا أضرّ بجفونه بكثرة النّظر فى الورق قارئاً ما فيها وهذا بجفانه لإطعام ما فيها . مغنى : منزل . تغنّ : تصوّت . أغاريد : أصوات . الغوانى : جمع غانية ، وهى المرأة الجميلة . الأغانى : جمع أغنيّة ، وهى ما يتغنَّى به . الدّنان : خوابى الخمر . دونك ، أى الزم . الأكياس : أهل الفِطْنة والتدبير . منطلق العنان : مسيب مسرّح .

* * *

قال : فبينما أنا أَنفضُ طُرَقَها ، وأستشِفّ رَوْنقها ؛ إذْ لمحتُ عند دُلُوكِ بَرَاحِ ، وإظلالِ الرّواح ، مسجداً مشتهِراً بطرائفه ، مُزْدَهِراً بطوائِفِه ، وقَدْ أجْرَى أهلُه ذِكرَ حُروف الْبَدَل ، وجَرَوْا فى حَلْبَةِ الْجَدَل ، فعُجْتُ نحوهم ، لِأَسْتَمْطِر نَوْءَهم ، لا لأقتبِسَ نَحْوَهم ، فلم يَكُ إلاّ كَقَبْسَةِ الْعَجْلَان ، حتّى ارتفعَتِ الْأَصْوَاتُ بالأَذان ، ثم رَدِفَ التأذينَ بروزُ الإمام ، فأُغْمِدَتْ ظُبَى الكلام ، وحُلَّت الحُبَى للقيام ، وشُغِلْنَا

بالقنوت ، عن استِمْدَادِ القُوت ، وبالسُّجُود ، عن استنزالِ الجُود . ولمّا قُضِيَ الفَرْض ، وكَادَ الجَمْعُ ينْفَضّ ، انبرَى من الجماعة ، كَهْلٌ حُلْوُ البَرَاعة ، له مع السَّمْتِ الحَسَن ، ذلاقةُ اللَّسَن ، وفصاحةُ الحسن . وقال : يا جيرتى ، الذين اصْطَفَيتهُمْ على أغصان شَجرَتى ، وجَعلتُ خِطَّتَهم دارَ هِجْرَتى ، واتَّخذْتُهم كَرِشِي وعَيْبَتِي ، وأعْدَدْتُهُمْ لحضَرِي وغَيْبَتى ، أما تعلمون أنَّ لَبوس الصّدق أبهى الملابس الفاخرة ، وأنَّ فُضوحَ الدنيا أهونُ من فضُوحِ الآخرة ، وأنّ الدِّين إمحاضُ النّصيحة ، والإرشادَ عُنوانُ العقيدة الصحيحة ، وأن المستشار مؤتمن ، والمسترشِد بالنُّصح قَمِن .

* * *

انفضُ طرقَها ، أى أمشى بها وحدى ، يقال : جاء فلان ينفضُ الطَّريق . إذا جاء وحده وقالت الجهنّية :

يرد المياه حضيرةً ونفيضةً ورْدَ القطاة إذا اسمألّ التُّبّعُ

الحضيرة : الذى يحضر معه غيرُه ، وجمعه الحضائر . والتّبّع : الظلّ . واسْمَألّ : نقص ، ويقال أيضاً : نفضَ المكانَ واستنفضه ، إذا نظر جميعَ ما فيه حتى يعرفه . استشف : استقصَى النظر . رونقها : حسنها . لمحت : نظرت . دُلُوك بَرَاح : زوال الشمس ، وبَرَاح من أسمائها مبنى على الكسر . عبد الله بن مسعود . دُلُوكها : غروبها . أبو عبيدة : دلوك الشمس زوالُها ومَيْلُها ، وهو قول ابن عباس . الأزهرىّ هذا القول أصحّ عندى ، وقيل : دُلُوكها ، من زوالها إلى غروبها .

ويدلّك هذا الوصفُ على أنّ البصرة من نهاية العظم والكِبَر على جانب عظيم ، لأنه زعم أنّه خرج فى الغلَس ، وبقِيَ يمشى فى أزقتها إلى الظهر . ويقال

إنها فى آخر الدولة الأموية كسِرَت فوجد فى طولها فرسخان ، وفى عَرْضها فرسخ وخمسة أسداس فرسخ .

قوله : إظلال ، أى دنوّ وقُرْب . طرائفه : عجائبه وغرائبه . مزدهراً : مضيئاً بحلَق الفضلاء والعلماء . طوائفه : جماعاته ، وحروف الإبدال يجمعها طال يوم أنجدته . والحَلْبة : جماعة الخيل فى الطَّلَق تجرَى ليُختبر عتيقُها من هَجِنها . الجدل : الخصام . مجت : ملت . أستمطر نوءهم : أطلب معروفَهم ، والنَّوْء طلوع نجم من المنَازل وسقوط آخر يقابله . أقتبس : آخذ ، وقبسة العجلان . أخذَه القبس ،وهو شعلة من نار يقتبسها من مُعْظَم النار .رَدِف : تبع وجاء بعده ، قال تعالى : ﴿ رَدِفَ لَكُمْ ﴾[1] ، أى جاء بعدكم ، وأردفت الرجل جئت بعدَه . ابن الأعرابى : ردفت الرجل وأردفته ولحقته وألحقته بمعنًى واحد . القُنُوت : الطاعة ، وهو أيضاً طول القيام فى الصلاة. ابن الأنبارى: القنوت أربعة أقسام : الصّلاة وطول القيام وإقامة الطاعة والسكوت . استمداد : طلب أن يمدّوه بالقُوت وهو الاستنزال. ينفض : يتفرق . انبرى : ظَهَر وقام بسرعة . كهل : تامّ الخلْق . السَّمْت : الوقار . ذلاقة : حدّه . اللَّسَن : حدّة اللسان ، وتقدم الحسن فى الأربعين . اصطفيتهم : اخترتهم . أغصان شجرتى : بنى عَمّى وقَرابتى وأولادى . خُطَّتهم : بلدتهم ، والمهاجِر عند العرب : المستقبل من البادية إلى الحاضرة . ودار هجرتى : موضع سكناى الذى هاجرتُ إليه . كَرِشى : أهلى . عيبتى : خاصّتى الذين أنفرد بهم. وعيْبة الرجل : موضع سرّه. وكَرِشه : عياله . والعيبة : وعاء يجعل فيه المتاع ، والكرش مثلها ، والكرِش الجماعة من النّاس ، والكرش أيضاً لكل مجترّ من البهائم بمنزلة المعدة من الإنسان ، فساق الكرِشَ والعيبة على جهة المثل وإنهم موضع سرّه ، وقال صلى الله عليه وسلم : « الأنصار كرِشى وعيبتى » ،قيل : موضع سرّى ، وقيل مدادى لأنّ ذات الكرش تستمد

(١) سورة النمل ٧٢

من كَرِشها . الفضوح والفضيحة : الشّهرة . إمحاض : إخلاص . الإرشاد : الهداية . عنوان العقيدة : دليل البواطن والمعتقدات . والمستشار : الذى تستشيره فى رأيك. مؤتمن : قد أمن على الأسرار والنفوس ، لايخون فيها ، وقال صلى الله عليه وسلم : « ما ندم مَنِ استشار ، ولا شِقِىَ مَن استخار » وقال بشار :

إذَا بلَغ الرأىُ المشورةَ فاستعنْ برأى نصيحٍ أو مشورةِ حازمِ[١]
ولا تجعل الشُّورى عليك غضاضةً فإنّ الخــوافى رافداتُ القوادِمِ
وما خير كَفٍّ أمسك الغلّ أختها وما خــير سيفٍ لم يؤيَّدْ بقائم
وخلّ الهوينَى للضعيف ولا تـكُنْ نئوماً فإنّ الدهرَ ليس بنائمٍ
وحارب إذا لم تُعْطَ إلاّ ظُــلاَمةً شَبَا الحرب خيرٌ من قبول المظالم

وهى قصيدة طويلة ، قالها فى إبراهيم بن عبد الله ، فلمَّا قُتِل صرفها إلى المنصور فى أبى مسلم ، وكان بشّار يقول: المشاور على إحدى الحسنيين : صواب يفوز بثمرته ، وخطأ يشارِكُ فى مكروهه وقال الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿وشَاوِرْهُمْ فِى الأَمْرِ﴾[٢]، لما فى ذلك من الائتلاف ، وهو أغنى الناس عن المشورة وقال ابن المعتز :

تجاوز عن إساءة كلِ دَهْرِ وصاحب يوم حادثةٍ بصَبْرِ
وإن نابتك نائبةٌ فشاور فـكم حمِد المشاورُ غِبَّ أمرِ
وقسِّم همّ نفسك فى نفوسٍ ولا تنفردَنْ بطول فِـكْرِ
إذا كظّ الفرات بمـاء مدّ أغصّ به حلاقِمَ كلِّ نَهْرِ

قال عيسى بن علىّ : ما زال المنصور يشاور فى أمرِه ، حتى قال فيه ابنُ هَرْمة :

إذا ما أراد الأمر ناجَى ضمــيرَه فناجى ضميراً غير مختلف العقْلِ[٣]

(١) مختارات البارودى ٤ : ٤ (٢) سورة آل عمران ١٥٩
(٣) ديوانه ١٧٩

ولم يترك الأدنين فى كلّ أمره   إذا اختلفت بالأضعفيْن قُوَى الحَبْلِ

وأنشد الجاحظ :

لَيْتَ هِنْداً أنجزتنا ما تَعِدْ   وشفت أنفسنا ممّا تَجِدْ[1]

واستبدّتَ مرّةً واحدةً   إنّما العاجزُ مَنْ لا يستبدّ

ثم قال : ولا أعلم الموصوفَ بالاستبداد إلا مجهّلا مذموماً ، والمثل السائر على الأفواه :

وما العجزُ إلاّ أن تشاور عاجزاً   وما العزم إلّا أن تهمّ وَتَفْعَلا

وقال سعد بن ناشب :

إذا همّ ألْقَى بين عَيْنَيْه عَزْمَهُ   ونكّبَ عن ذِكْرِ العواقبَ جانبا[2]

ولم يستشر فى رأيه غير نفسِه   ولم يرض إلا قائم السّيْفِ صاحِبا

وقال ابن رشيق فى أدب قوله تعالى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فى الأمْرِ ﴾ :

أشاور أقواماً لآخذ رأيهم   فليوون عنّى أعيناً وخُدُودَا[3]

وليس برأيى حاجة غَيْرَ أننى   أؤنّسه كىْ لا يكونَ وَحيدَا

ولا أنا ممن يبعث السّهمْ رَامياً   إلى غرض حتى يكون سدَيدَا

فلا يتّهِمْ عقلى الرّجال فإننى   أعرّفهم أنّى خُلِقْتُ وَدودا

وأنشد الحريرى بيتى بشار فى درّة الغواص[4] على أن قول الخواص مشْوَرَة بوزن مفعله خطأ وإنما هى مَشُورة بوزن مَعُونة ومَثُوبة مثل مكرمة من الصّحيح ، فنُقلت حركة الواو إلى ما قبلها فسكنتْ ، واختلف فى اشتقاقها فقيل : هو من شُرْتُ العسل أشُوره إذا جنيتَه، فكأن المستشير يجنى الرأى من

---

(١) لعمر بن أبى ربيعة، ديوانه ٣٠

(٢) لسعد بن ناشب ، ديوان الحماسة — بشرح المرزوقى ٦٧

(٣) نقله اليمنى فى النتف ٢٤   (٤) درة الغواص ٢٨

المشير ، وقيل من شُرْت الدابّة إذا أجريتَها مقبلة ومدبرة لتختبرها ، والاشتقاقان متقاربان . المسترشد : السّائل أن يُرْشَدَ . قِمِن : حَقِيق .

* * *

وأنّ أخاكَ هُوَ الّذِي عَذَلكَ ، لا الّذِي عَذَركَ ، وصديقَك مَنْ صَدَقَكَ ، لا مَنْ صَدّقَك ، فقال له الحاضرون : أيُّها الخِلُّ الوَدُود ، والخِدْنُ المَوْدُود ، مَا سِرُّ كلامِكَ الْمُلْغَز ، ومَا شرحُ خطابك الموجَز؟ وما الّذى نبغيه منَّا ليُنْجَزَ ، فوالّذى حبانا بمحبَّتِك ، وجَعَلَنَا من صَفْوةِ أحبّتكِ ، مَا نألوكَ نُصْحاً ، وَلا نَدَّخِر عنك نَضْحاً ، فقال : جُزِيتُم خيراً ، ووُقيتم ضيرًا ، فإنّكُمْ مِمَّنْ لا يَشْقَى بِهِمْ جليس ، وَلا يَصْدرُ عَنْهُمْ تَلْبِيس ، ولاَ يخيِّب فيهم مَظنُون ، ولا يُطْوَى دونَهُمْ مَكْنُون ، وسأبثُّكُمْ ما حاكَ فى صَدْرِى ، واسْتَفْتِيكم فِيمَا عِيلَ فِيهِ صَبْرِى .

* * *

عَذَلك : لامَك . صدَقك : قال الصدق ، كأنه أراد أن الصديق إنما سُمِّيَ صَدِيقاً لصدقه لصاحبه ، يريد أنّ أخاكَ هو الذى يلومُك ويقبِّح لك سوءَ فعلك ومَنْ حسَّن عذرك فى ذلك ، فليس بصديقٍ ولا أخ ، مثل ما حَكَى الأصمعىّ ، قال : سمعتُ أعرابيًّا يقول لأخٍ له : اعلم أنّ الناصح لك المشفِق عليك ، مَنْ طالع لك ما وراء العواقب برويّته ونظره ، ومثَّل لك الأحوال المخوفة ، وخلَط لك الوعْر بالسّهل من كلامه ومشورته ، ليكون خوفُك كفاءَ رجائك ، وشكرك إزاء النعمة عليك ، وأنّ الغاشّ لهواك والحاطب عليك من مَدّلك فى الاغترار ، ووطّأ لك مهاد الظلم ، تابعاً لمرضاتك منقاداً لهواك ، وقال الشاعر فيمن لا يقبل النصح :

إذا ما هديت امرأً مخطئاً أضل السَّبيلَ إلى قَصْدِهِ
فلم تلفه سامعاً قابلًا تحسّ له المشىَ فى ضِـدّه

الخِلّ : الخليل . الودود : الصاحب الـكثير الودّ . الخدن الودود : الصديق المحبوب . اللغز : المبهم الخفىّ . الموجَز : المختصر . تبغيه : تطلبه . ليُنْجَز : ليفعل فى الحين . حبانا : اختصّنا . صفوة : خيار . نألوك نصحاً : نقصّر فى نصيحتك . ندخر : نرفع ونخبأ . نضحاً : عطية ندفعها لك ، مأخوذ من النّضح وهو الشرب القليل دون الرىّ . والنَّضح أيضاً : الرشّ بالماء . وقيتُم ضيراً : كفيتم الضّر . يَصْدر : يرجع . تَلْبيس : التباس وتخليط . لا يخيّب فيهم مظنون ، أى ما ظن فيهم من النّصح والمعاونة موجودة فيهم غير مفقودة . مكنون : مستور . يُطْوَى : يُحجَب ويستتر . أبثّكم : أنشر لكم وأظهر . حاك فى صدرى : أثّر فيه واحتكّ به . عيل : غلَب ، وعالنى الشىء عَوْلًا : غلبنى وثقُلَ علىّ .

* * *

اعلموا أنّى كنتُ عِنْد صُلود الزَّنْد ، وصُدود الجَدّ ، أخلصتُ مع الله نيّة العَقْد ، وأعطيتُه صَفْقَة العَهْد ، على ألّا أسبأ مُداماً ، ولا أُعاقِر نَدَامَى . ولا أحْتَسِي قَهْوَة ، ولَا أكْتَسِي نَشْوَة ، فسوّلتْ لى النَّفسُ المُضِلّه ، والشَّهوة المُذِلّه المَزِلّة ، أنْ نادَمْتُ الأَبطالَ ، وعَاطَيْتُ الأَرْطَالَ ، وأَضعْتُ الوَقار ، وارْتَضَعْتُ العُقَار ، وامْتَطَيْتُ مَطَا الـكُمَيْت ، وتَنَاسَيْتُ التَّوْبَة تناسِيَ المَيْتِ ، ثم لمْ أَقْنَعْ بِهاَ تِيكُمُ المَرّة ، فى طاعة أبى مُرّة ، حتى عكفتُ على الخَنْدَريس ، فى يوم الخميس ، وبتُّ صَريع الصَّهباَء ، فى اللّيلة الغرّاء ، وهاَ أَناَ بادِي الـكَآبة ، لِرَفْضِ الإِنَابة ، نامِي

النَّدَامَة ، لِوَصْلِ المُدَامة ، شديدُ الإشْفاق ، من نقضِ الميثاق . معترفٌ بالإسْرَاف ، فى عَبِّ السُّلَاف :

فيا قومِ هل كفّارةٌ تعرِفُونهَا ... تُباعِدُ مِنْ ذَنْبِي وتُدْنِى إِلَى رَبِّى

* * *

قوله : صُلُود الزّنْد ، هو ألّا يسمح بالنّار ، صُدود الجـدّ : إعراض السعد ، يريد الأيام التى كنت فيها فقيراً . والعَقْد ، كانت العرب إذا عاهد الرجل صاحبَه عَقَد أصابعه ، ثم صارت المعاهدة باللسان تسمّى عقْداً ، وكان أحدُهم يربطُ رَسَن بعـيره بخباء مَنْ يستجير به أو يرسل حَبْلَه فى البئر مع حبله ، فيشبكه به ، وكان هذا كله عندهم عَقْداً لا يسلِّم المستجارُ به المستجيرَ إلا لما يسلم ولَده ، وقال حبيب :

بلَى لقـد سلفت فى جاهليتِهمْ ... للحق ليس كحقّ حرمة تجبُ

أن يعلق الدّلو بالدّلو الغريبة أوْ ... يلامس الطنبَ المستحصدَ الطُّنُبُ

الصَّفْقة : ضربة يد المشترى على يد البائع . أسبأ : أشترى . مُداماً : خمراً . أكتسِي نَشْوة : أُظهر سَكْرة . سوّلت : زيّنت وحسّنت . المضِلّة : الحيْرة . الأبطال : فرسان الخلاعة للسنّ . الأرطال : وهى أربعة ، وقال فى ذلك :

سألتُ أخى أبَا عيسى ... وجبريل له فَضْـلُ

فقلتُ : الخمرُ تُعجبنِي ... فقال كثيرُها قَتْلُ

فقلت له فقـدِّ رْلِي ... فقال وقوله فَصْـلُ

وجـدت طبائع الإنسا ... ن أربعةً هى الأصْلُ

فأربعة لأربعـة ... لكلِّ طبيعةٍ رطـلُ

يذكر هذا الرجل أنه تاب من شرب المسكر ، وعاهد الله ، ألاّ يشربه خمراً ، ثم ارتدّ ورجع لخلاعته .

ومثل حالته هذه حالة أبي محمد البصريّ ، كان تاب وحجّ ، فلما قفل راجعاً بدا له في شرب الخمر ، فقال :

أَلا يا هِنْدُ قد قضَّيت حَجِّى ... فهاتِ شرابكِ الْعَطِرَ العجيبا
فقد ذهبتْ ذنوبي بالليالى ... فقومِى الآن نَقْتَرِفُ الذّنوبا
خَلَطْنا ماء زمزم فِي حَشانا ... بماء المزْنِ فامتزجا قريبا

وكان أبو القاسم المغربي قد نسك زماناً ، ولبس الصُّوف وترهّب وحجّ ، فعشق غلاماً تركيًّا وهام به ، وتقلّد الوزارة ببغداد وغيرها ، وانتهى في الجاه إلى الغاية وتملّك الأحرار ، واشترى الغلام التركىّ وقال :

تبدّل من مَرَقّعةٍ ونُسْكِ ... بأنواع المسك والشُّفوفِ
وعنّ له غلام ليس يحوِى ... هواه ولا رضاه بلبس صُوفِ
فعاد أشدّ ما كان انتهاكا ... كذاك الدهر مختلفُ الصُّروفِ

وقال أيضاً :

يا أهلَ مصر قد عاد ناسككمْ ... بالكرخ بعد التُّقى إلى الفَتْكِ
خَمّشَ قلبي مقرطق غَنِجٌ ... قد بدّ قلبي به من النّسْكِ
رمى فؤادى بسهم مُقْلَتِهِ ... وكيف يُخطِي مولد التُّرْكِ !

وقال كشاجم :

يقولون تُبْ والكأس في كفّ شادنٍ ... وصوتُ المثانى والمثالث عالى[1]
فقلت لهم : لو كنت أزمعت[2] توبةً ... وأبصرت هذا كلّه لبَدَالِي

(١) ديوانه ١٤١
(٢) الديوان : « أضمرت »

وقال الحسن :

كيف النُّزوع عن الصِّبا والـكأس قس ذا لنا يا صاحِـبِى بقياسِ[1]
قالوا كَبِرْتَ فقلت ما كبرتْ يدِى عن أن تسير إلى فمى بالـكأسِ
والرّاح طيِّبـــة وليس تمامها إلا بطيب خلائقِ الجُلّاسِ
وكأنَّ شاربهــا لفرط شَعاعها بالليـــل يكرع فى سَنَا مِقْبَاسِ
وإذا نَزَعْتَ من الغواية فليكنْ لله ذاك النَّزْعُ لا للنَّـــاسِ

قوله : أضعت الوقار ، يريد أنه ضيَّع وقاره فى مجلس اللَّهو ، وقد تقدّم قوله :

وأصفى السرورَ إذا ما الوقورُ أماط ستور الحيـا واطَّرَحْ

العُقَار : الخمر ، لأنها عاقرت الدنّ ، أى لازمته ، أو لأنَّها تعقر شاربها بثقل السُّكْر . امتطيت : ركبت . مَطَا الكُمَيْت : ظهر الخمر ، وورّى بفرس ، أراد أنّه اعتكف على شربها ، وسُمِّيَت كميتاً لأنها حمراء إلى الكُمْتَة ، وأبو مرة كنية إبليس ، وقد تقدَّم ، وقال الحسن :

نِمْتُ وإبليس إلى الصّبح فى كلّ الّذى يؤتمنِى خَصْمُ
رأيته فى الجـــوّ مستعلياً ثم هوى يتبعـــه نَجْمُ
فقال لى لمّا هَوَى مرحباً بتائب يتبعـــه وَهْمُ
هـــل لك فى غَيْدَاء ممكورةٍ يرتجُّ منها كَفَلٌ ضَخْمُ !
فقلت : لا ، قال : ففى أغْيَدٍ ذى غُنَّـــة يجرحُه اللَّثْمُ
لستَ أبا مرّة إن لم تعُدْ فإن ذا من فعلك الْغَشْمُ

وقال فيه وذكر أنه قاد له غلاماً :

دبّ له إبليس فاقتادَه والشيخ نَفّاعٌ على لمتِهْ

(١) ديوانه ٢٩٥

عجبت من إبليس فى كبره وخُبْثِ ما أظهر من نيَّتِهْ
تاه على آدم فى سجدةٍ وصار قوّادًا لذرّيتِهْ

وقال سليمان بن الأعمى فى الوليد ، أخو صريع الغوانى :

يأبى السجود له مِنْ فرط نخوته وقد تحوّل فى مِسْلَاخِ قوّادِ

وقال ابن رشيق يشكر إبليس :

رأيتُ إبليس مِنْ مُرُوءَته لكلِّ ما لا يُطاقُ محتمِلاَ(1)
إذا هويتُ أمراً وأعجزنى جاء به فى الظلام معتمِلاَ
تبذُّلاً منه فى حوائجنا ولا يزال الكريم مبتذلاَ

وقال أيضاً يلعنه :

أرَى الشَّيْخ إبليسَ ذا عِلَّةٍ فلا برئ الشيخ من عِلَّتِهِ(2)
يقود على الحب مستيقظاً ويأتيك فى الليل فى صُورتِهِ
فيُؤتيك ما شاء من نفسِهِ ويُبلِغ ما شاء من لَذَّتِهِ
ومن كان ذا حيلةٍ هكذا تمثَّل للمرء فى يَقْظَتِهِ
فلا تدَّخروا دونه لعنةً لأنَّ رضا الله فى لَعْنَتِهِ

قوله : عكفت ، أى أقمت ولازمت : الخَنَدْريس : الخمر القديمة ، وإنما ذكر يوم الخميس لأنه يومُ تعرَض فيه الأعمال على الله تعالى وإقدام العبد على الذنوب وقت العرْض على الله تعالى أكبر خطراً . الصّهباء : التى عُصِرَتْ من عنب أبيض . الأصمعىّ : هى التى تضرب إلى البياض ، من أبيضَ عُصِرَتْ أو من غيره . صريعها : الذى صرعته بالسُّكر ، يريد أنه بات سكران مطروحاً .

وقال أبو العلاء بن زهر فى سَكارى :

---

(1) النتف ٥٩
(2) النتف ١٥

وموسَّدِينَ على الأكفِّ خدودَهمْ قد غالَهمْ شُرْبُ الصَّبُوح وغالنِي

مازالت أسقيهمْ وأشربُ فضلهمْ حتى سكرت ونالهمْ ما نالنِي

والخمرُ تعرف كيف تأخذ ثأرها إنى أملْتُ إناءها فأمالنى

الغرّاء : ليلة الجمعة . رفض الإنابة : طرح التَّوْبة والرجوع . نامى الندامة : كثير الندم . بادى الكآبة : ظاهر الانكسار والحُزْن وسوء الحال . المُدام والمُدامة : الخمر ، سُمِّيتْ بذلك لأنها أديمت فى ظَرْفِها . الإشفاق : الخوف . نَقْض الميثاق : حلّ العهد . الإسراف : الإكثار . عَبّ : حَسْو ، والعبّ أن يتابع الرجل الجرْعة بعد الجرْعة بغير تنفّس . السُّلاف : الخمر العتيقة ، والسُّلاف والسُّلافة : ما سال منها من غير أن تُعصر ، وهى أفضل الخمر قال الأعشى :

ببابلَ لم تُعْصَر فجاءت سُلافةً تخالط قنديدا ومسكا مُخَتَّما[1]

القِنْديد : الخمر تطبخ ويجعل فيها أفاويه طيب .

[مقاطيع خمرية]

ونذكر هنا جملة من المقاطيع الخمريّات ، نجعلها خاتمة ما قيل فى الخمر .

عزم الواثق على الصَّبوح فقال للحسين بن الضحاك : اكتب إلى الفتح ابن خاقان تدعُوه إلى الصَّبوح ، وكان قد بَرِئَ من مرض ، فكتب إليه :

لمَّا اصطبحتُ وعينُ اللَّهو تَرْمُقُنِي قد لاحَ لى باكراً فى ثَوْبِ لَذَّتهِ[2]

ناديت « فتحاً » وبشرَّت المُدام به لمَّا تخلَّص من مكروه عِلَّتِهِ

ذَبُّ الفتى عن حَرِيم الرَّاحِ مكرمةٌ إذا رآها امرؤ ضِدًّا لخلقتِهِ[3]

فاعْجَلْ إلينا وعجّل بالسرور لنا وخالس الدهر فى أوقات غفلتِهِ

فسار وأصطبح معه .

(١) ديوانه ٢٩٣ (٢) ديوانه ٣٣
(٣) الديوان : « لنحلته »

وقال الحسين بن الضحاك : دخلتُ على الحسَن بن سهل ، فى فصل الخريف وقد جاد الوسمىّ من المطر برشٍّ حسن ، واليوم فى أحسن منظر وأطيبه ، وهو جالس على سرير أبنوس ، وعليه قبّة فوقها طارفة ديباج أصفر ، تشرِفُ على بستان ، وعلى رأسه غلام كالدينار ، فسلّمت عليه فردّ علىّ السلام ، ونظر إلىّ كالمستنطِق ، فقلت :

ألستَ تَرَى ديمــةً تهطُلُ　　وهــذا صباحُك مستقبَلُ[(١)]

وهــــذا المدام وقدْ راعنا　　بطلعته الشّادن الأكحلُ

فعادَ بنـــــا وبه سَكْرَةٌ　　تهوّن مكروه ما تسألُ

فإنّى رأيتُ له طُرّةً　　تخبرنى أنّه يَفْعَـــــلُ

وقد أشكل العيشُ فى يومنا　　فياحبــذا عيشنا المُشْكِلُ

فقال : العيش مشكل ، فما ترى ؟ قلت : مبادرة القَصْف ، وتقريب الإلْف ، قال : على شرط أن تبيت ، قلت : لك الوفاء على أن يكون هــذا الواقف على رأسِك يسقينى ، فضحك ، وقال : ذلك لك على ما فيــه ، ثم دعا بالطّعام والشراب ، ففقدت الغلام ساعة ثم جاء من الحمّام ، فقلت :

جرّده الحمــــام عن درّة　　تلوح فيها عُكَنٌ بَضَّهْ[(٢)]

كأنّما الرّشُّ على خــدّه　　طلٌّ على تفّاحةٍ غَضَّهْ

يا ليتَه زوّدنى قُبْــــلةً　　أولا فمن وجنته عَضَّهْ

فقال الحسن : قد عمل فيك النبيذ ، فقلت :

اسْـــــقيانى وصرّفَا　　بنت حَوْلين قَرْقفَا[(٣)]

---

(١) ديوانه ٩١ ، ٩٢

(٢) ديوانه ٧٠، ٧١

(٣) ديوانه ٨١

واسْقِيا الأهْيَفُ الْغَرِيــــر سَقَى اللهُ أهْيَفا
بأبى ماجن السريــــرة يبـــدى تَعطُّفا
فإذا رمت منه ذا ك تأبَّى وَعنَّفا
فإذا همّ للمنــــا م فقـــوماً وخَفِّفا

فتغاضب الغلام فذهب ، ثم عاد وقال : أقبل على شرابك ، ثم ناولنى قدحاً ، والحسَن قد خرج ، فشربت وأعطانى نقلا ، فقلت : اجعل بدله قُبلة ، فأَبى ، فقال له فرج غُلام الحسن : بحياتى يابنىّ ، أسعفه بما طلب ، فضحك ثم دنا منّى كأنه يعطينى نُقْلا وتغافل ، فاختلست منه قُبْله ، فقال : هى حرام ، فقلت :

هوّنَ الأمْرَ عليـه لى فَرَجْ بتَأتِّيهِ فَسَقْياً لِفَرَجْ[1]
وبنفسى نفس مَنْ قال وقدْ كان ما كان: حرامٌ وحَرَجْ

ثم اشتهر الصبح ، فخرجت ثم عدت للحسن من غدٍ ، فقال : كيف كان مبيتُك يا حسين ؟ فقلت :

تألفتُ طيفَ غزالِ الحَرَمْ فواصلنى بعد ما قد صرَمْ[2]
فغضّ الجفون على خجْلةٍ وأعرض إعراضةَ المحتشمْ
فمـــا زلتُ أبسُطه مازحاً وأُفرط فى اللّهْوِ حتّى ابتسمْ
وحكَّمنى الرِّيم فى نفسه بشىء ولـكنّه مُـكْتتَمْ

فقال : يا فاسق ، أظنّ ما ادّعيتَه فى النوم وكان فى اليقظة ؟ وأصلَحُ الأشياء بنا أن نَرْحَضَ العار عن أنفسنا بهبتِه لك ، فخذه لا بارك الله لك فيه ، فأخذته وانصرفت .

---

(١) ديوانه ٨١ ، ٨٢

(٢) ديوانه ٩٤

وقد تقدّم فى هـذا الكتاب من كلام الحسين ما يفوق به كلّ شاعر ، وهو القائل :

أجرْنِى فإنّى قد ظمئتُ إلى الوعدِ ... متى يُنجز الوعد المؤكّد بالعَهْدِ ![1]

أعيذك من خُلْفِ الملوك وقد ترَى ... تقطّع أنفاسى عليك من الوجْدِ

أيبخلُ فَرْدُ الحسن عنّى بنائلٍ ... قليل وقد أفردته بهوًى فَرْدِ !

وهذا منتهى ما أوردته للحسين من العجائب .

دخل علىّ بن الجهم على عبد الله بن طاهر فى غَدْوة الربيع ، وفى السماء غيم رقيق ، والمطر يجىء قليلا ، ويسكن قليلا ، فغاضبَتْه جارية له ، فانتقض عزمه فخبّر ابنَ الجهم بذلك ، فأراد تنشيطه فدخل عليه فأنشده :

أما ترى الْيومْ ما أحلَى شمائلَه ... صحوٌ وغيمٌ وإبراق وإرعادُ[2]

كأنه أنت يا مَنْ لا شبيهَ له ... وصلٌ وهجرٌ وتقْريبٌ وإبعادُ

فباكِرِ الرّاح واشربْها مُعَتّقَةً ... لم يدّخر مثلها كسرى ولا عادُ

واشرب على الرّوْضِ إذْ لاحتْ زخارفه ... زَهْرٌ ونوْرٌ وأوراق وأورادُ

كأنما يومنا فعل الحبيب بنا ... بذل وبُخلٌ وإبعاد وميعادُ

وليس يذهب عنى كلّ فعلِكمُ ... غىّ ورشد وإصلاح وإفسادُ

فاستحسنها وأمر له بثلثمائة دينار وحمله وخلع عليه .

وقال على أيضاً :

الوردُ يَضْحَكُ والأوْتارُ تصطخب ... والناى ينـدب أحياناً وينتحِبُ[3]

---

(١) ديوانه ٤٦

(٢) ديوانه ١٢٢

(٣) ديوانه ١٠٥

والراح تُعرَض فى يوم الربيـــع كما تُجْلَى العروسُ عليها الدرّ والذهب
وكلما انسكبت فى الكأس آونةً حسبت أن شُعاع الشَّمْسِ ينسكبُ

وقد مرّ من كلام ابن الجهم كلُّ بديعٍ ، فى نظمه رفيع ، وآخر شعر قاله وهو أحسن ما قيل فى معناه :

يا رحمةً للغريب فى البلد النّـــازح ماذَا بنفْسِهِ صَنعَا[1]
فارق أحبابه فمـــا انتفعوا بالعيْش من بعده ولا انتفَعَا
يقولُ فى نأيه وغربتِه : عَدْلٌ منَ الله كل ما صَنعَ

وكان هجاء لعلى بن أبى طالب ، وسمعه يوماً أبو العيناء يطعَن على علىّ فقال له : أنا أدرِى لم تطعَن على أمير المؤمنين ، قال : أتعنى قصَّةَ بيعة أهلى ، قال : لا ، أنت أوضع من ذلك ولكن لأنه قتل الفاعل [فعل] قوم لوط وأنت أسفلهما . وقال البحترى فيه :

إذا ما حُصِّلتْ عُليْـــا قريشٍ فلا فى العــيرِ أنتَ ولا النفيرِ[2]
ولو أعطاكَ ربّك ما تمـــنَّى لزاد الخلــق فى عِظَمِ الأيورِ
علام هجوت مجتهـــداً عليًّا بما لفّقتْ من كذبٍ وزورِ
أما لك فى استك الوجْعاء شغلٌ يكفّ أذاكَ عن أهلِ القبورِ

وقال ابن القناص كاتب سيف الدولة :

قُمْ فاسقِنى بين خفْق النّاىِ والعُودِ ولا تَبِعْ طيبَ موجود بمفقودِ
كأساً إذا أبصرتْ فى القوم محتشمًا قال السرور له قُمْ غــيرَ مطرودِ
نحنُ الشهّود وخفْق النّـاى خاطبنا يزوّج ابْن سحابٍ بنتَ عنقودِ

(١) ديوانه ١٥٤
(٢) ديوانه ١٠٣٨

وقال المصحفى :

صَفْراء تطرقُ فى الزُّجاج فإن سَرَتْ ... فى الجسم دبّتْ مثل صلّ اللَّادغِ
خفيتْ على شرّابها فكأنّهم ... يجدُون ريًّا فى إناءٍ فارغِ

إدريس بن اليمانى :

ثقلَتْ زجاجاتٌ أتتْنا فُرَّغاً ... حتى إذا مُلِئَتْ بصرْف الرَّاحِ
خفّتْ فكادت أن تطير بمَا حَوتْ ... إنّ الجسُوم تخِفُّ بالأرْواحِ

ابن المعتز :

ونَدْمانٍ سُقِينَ الرَّاحَ صِرْفاً ... وأُفْقُ اللَّيْلِ مُرْتفِعُ السُّجُوفِ
صَفَتْ وصَفَتْ زجاجتها فأضْحتْ ... كمعنًى دقَّ فى ذهنٍ لطيفِ

وله ، وهو مما يتصل بأبيات الديك المتقدمة :

فاشرب عُقَاراً كأنّها قَبَسٌ ... قد سَبَكَ الدَّهْرُ تبرَها فَصَفَا
ترَى النّدامى الإبريقَ من دَمِهَا ... كأنه راعِفٌ ومَا رعُفَا

ولبعضهم :

ما زال يشربُها وتشرب عقلَه ... خَبْلًا وتُؤْذِنُ رُوحَهُ برواحِ
حتى انثَنَى متوسِّداً بيمينه ... سكراً وأسلم رُوحَه للراحِ

وقال النظام :

ما زلت آخذ رُوح الزِّق فى لطفٍ ... وأستبيح دماً من غير مجْرُوحِ
حتى انثنيتُ ولى روحان فى جَسَدِى ... والزِّقّ مطّرح ، جِسمٌ بلَا رُوحِ

أخذه أحسن أخذ من بَشّار حيث قال :

شربْنَا من فؤادِ الزِّق حَتّى ... تركنا الزِّق ليسَ له فؤادُ

وقال ديك الجن :

وقم أنت فاحثث كأسنا غير صاغر ... ولا تسق إلّا خمرَها وعُقارَها[١]
فقام تكاد الكأس تخضب كفّهُ ... وتحسبه من وجنتيه استعارَها
موردةً من كفّ ظبيٍ كأنما ... تناولها من خدّه فأدارَها
ظللنا بأيدينا نتعتع روحَها ... فتأخذ من أقدامنا الرّاحُ ثارَها

وقال حبيب :

وكأسٍ كمعسول اللماء شربتُها ... ولكنّها أجلَتْ وقد شربتْ عقلي[٢]
إذا عُوتبت بالماء كان اعتذارُها ... لهيباً كوقع النّار بالحطبِ الجزلِ
إذا اليدُ نالتْها بوتر توقّرتْ ... على ضِغْنِها ثم استقادت من الرّجل

وقال الحسن :

وصفراء قبل المزج بيضاء بعدَهُ ... كأنّ شُعاع الشّمسِ يلقاكَ دُونَها[٣]
ترى العينَ تستعفيك من لمعانِها ... وتحمرّ حتى ما تقلّ جفونَها
كأن يواقيتا رواكدَ حولَها ... وزُرْقَ سنانيرٍ تُديرُ عُيونَها

وللخوارزمي :

وصفراء كالدّينار بنت ثلاثة ... شمال وأنهارٌ ودهر محرّمُ
مسرة محزونٍ ، ورعْدُ معربدٍ ... وكنز مجوسيٍّ وفتنة مُسْلِمِ
يطوف بها ظبي يريدُ عيوننا ... على عينه ، من شَرْطِ يحيى بن أكْثَمِ

وقال مسلم بن الوليد :

إبريقُنا سلب الغزالة جيدَها ... وحكى المدير بمقلتيه غزالاَ[٤]
يسقيك من عينيه كأس صبابةٍ ... ويعيدُها من كفّه جِرْيالاَ

(١) ديوانه ١٠٧
(٢) ديوانه ٤١٩
(٣) نهاية الأرب ٤ : ١١٥
(٤) ديوانه ٢٠٤

وقال أبو دُلامة :

سقانى أبو بشرٍ من الرَّاح شَربَةً لهـــا لذَّةٌ ما ذقتُها بشراب
وما طَبخُوها غـــير أنَّ غلامهم مَشَى فى نواحى كَرْمِها بشهاب

ولما أنشدها على بن الخليل صاح : أحرقها العبد أحرقه الله !

كان ابن لنـكك أسرعَ الناس سكراً ، فقال فى ذلك :

فَدَيْتُكَ لو عِلْمتَ ببعض مَا بِى لمـــا جرّعْتَنِى إلّا بمُسْعِطْ
فحسبك أن كرماً فى جوارى أمرُّ ببابه فأكاد أسقُطْ

قوله : فياقوم هل كفارة تعرفونها ، إنما غَيَّر بيت أعرابىّ ، أنشد أبو العباس أبياته ، وهى :

فياقوم هـــل كفارة تعرفونها تُبَاعِدُ من ذنبى وتُدْنى إلى رَبِّى
شكوت فقالتْ كلّ هـــذا تبرُّماً بحبّى أراح الله قلبك من حُبِّى
فلما كتمت الحبَّ قالت : لَشدّ ما صبرت وما هذا بفعلِ شَجِى الْقَلْبِ
وأدنو فتُقْصِينى وأبعـــدُ طالباً رضاها فتعتدّ التّباعد من ذَنْبِى
فشكوايَ يُؤْذِيها وصبرى يَسُوءها وتجزع من بُعْدِى وتنفر من قُرْبِى
فيا قوم هل من حيـــلةٍ تعرفونها
أشيروا بهــا واستوجبوا الشكَّر مِنْ رَبِّى !

وقال أبو العبر الهاشمى المتحامق :

أبكى إذا غضبت حتى إذا رضيت بكيت عند الرضا خوفاً من الْغَضَبِ
فالموتُ إنْ غَضِبَتْ والمـــوت إنْ رَضِيَتْ
إن لم يُرِحْنِى سُـــلُوٌّ عِشْت فى تعبِ

وأبو العبر على تحامقه جيّد الشعر ، ومن ذلك قوله :

وفى ساعدى ممن تعلقت عَضّةٌ ... تذكّرنى ذاك الشُّنيب المفلّجَا

وآثار خدشٍ فى يدىّ مليحةٍ ... أقام عليها القلب منى وعرّجا

أما والذى أمسيتُ أرجُو ثوابه ... لقدحلّ ما أخشاه وانقطع الرجا

وله :

داء دافينٌ وهــوًى بادِى ... أظــلِم مُجازيك بمرصادِ

يا واحــد الأمة فى حسنِه ... أشْمَتَّ فى صدّك حُسّادِى

عبدُك تُحْيِى موتَه قبلةٌ ... يجعلهــا خاتمة الزّادِ

ولأعرابى فى نحو ما أنشده أبو العباس :

سكتُّ فقالت : لِمْ سَكَتَّ عن الحقِّ ... ونُهتُ فقالت : ما دَعاك إلى النُّطْقِ

فأومأتُ هل من حالةٍ بينَ ذا وذا ... فقالتْ وذا الإيماء أيضاً من الحُمْقِ

فلم أرَلِى إذ حَلّتِ الغرب مخلَصاً ... من الشرّ إلا فى المسير إلى الشرقِ

فلمّا أتيتُ الشّرْقَ ألفيتُهـا به ... وقد قعدتْ لى منه فى أضيَق الطُّرْقِ

* * *

وعلى ما تقدّم فى وصف الخمر من النظم المستحسن المرغب فى شربها ، فإنه جاء من التحذير فيها ما يوجب تركها على أهل التخصيص والفضل .

من حديث أنس رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: « مَنْ شَرِبَ الخمر لم تقبل له صلاةٌ أربعين ليلة فإن تاب تاب الله عليه ، فإن عاد الثانية لم تقبل له صلاةٌ أربعين ليلة ، فإن تاب تاب الله عليه ، فإن عاد الثالثة لم تقبل له صلاةٌ أربعين ليلة ، فإن تاب تاب الله عليه ، فإن عاد الرابعة كان حقًّا على الله أن يسقيَه من طينة الخبال » .

ابن الأعرابى : طينة الخبال عُصارة أهل النار فى النار .

وعن ابن عمر أنّ النبى صلى الله عليه وسلم قال: « مدمِنُ الخمر كعابد وثن » .

قال أبو زيد : فلمّا حلّ أنشوطةَ نَفْثِه ، وقضى الوَطرَ من اشتكاء بَثِّه ، ناجتْنِي نفسي : يا أبا زَيْد ، هذه نُهزةُ صَيْد ، فشمِّرْ عن يدٍ وأيْد . فانتهضتُ مِنْ مَجْثَمِي انتهاضَ الشَّهْم ، وانخرطْت من الصّفّ انخراط السَّهْم ، وقلت :

أيُّهـــا الأرْوعُ الّذى ... فَاقَ مَجـــدًا وسُودُدَا

والّذى يبتغِى الرّشاَ ... دَ لِيَنْجُو بهِ غَـــدَا

إنَّ عِنْـــدى عِلاجَ ما ... بتَّ منــــه مُسَهَّدَا

فاستمِعْها عجيبـــةً ... غادرتْـنِي مُــــلَدَّدا

أنا مِنْ ساكِنِي سَرُو ... جَ ذَوِى الدِّين والهُدَى

* * *

قوله : أنشوطة : عُقْدة سهلة تسمِّيها العامة اللّجّ . نفثه : لفظه . الوطر : الحاجة . بثّه : حزنه . ناجتْني : حدّثتني . النُّهزْة : الفرصة وما أُخِذ بلا تعب أيْد : قُوّة : انتهضت : تقدّمت . مجْثَمى : موضع قُعودى . الشَّهمْ : الشّديد النفس . انخرطت : اندفعت بسرعة والانخراط التصميم وركوب الرأس . الأرْوع : السَّيد . فاق : زاد على غيره فى الفضل . عِلاج : معاناة وطبّ . مسهّداً : ممتنع النوم . ملدّداً : ملتفتاً يميناً وشمالا من شدة الخوف .

* * *

كنتُ ذا ثروةٍ بهـــا ... ومُطـــاعاً مسوّدا

مربَعى مألف الضُّيو ... ف ومالِي لَهمْ سُدَى

أَشترى الْحَمْدَ باللَّهاَ وأَقِى العِرْض باَجْدَا

لَا أُباَلِى بِنَفسٍ طاحَ فى البذْلِ والنَّدى

أُوقِدُ النَّار باليَفاَ عِ إذا النِّكسُ أَخْمَدا

ويرانى المؤمِّلُو نَ مَلاَذًا ومَقْصِدَا

لَمْ يَشِمْ بارِقِى صدٍ فانْثَنَى يَشْتَكِى الصَّدَى

لاَ ولاَ رَامَ قَابسٌ قَدْحَ زَنْدِى فأصْلَدا

طَالَما ساَعَدَ الزَّماَ نَ فأصبَحْتُ مُسْعَدَا

فقضى اللهُ إن يُغَيِّر ما كان عَوَّدَا

بوَّأَ الرُّومَ أَرْضَناَ بعد ضِغْنٍ تولَّدَا

فاستباحوا حَرِيمَ مَنْ صادَفوه موحَّدَا

وحوَوْا كل ما اسْتَسرَّ بهاَ لِى ومَا بَدَا

* * *

ثروة : غنى . مسوَّداً : مقدَّماً للسِّيادة . مربعى : منزلى . مألف : موضع الاجتماع . سُدًى: مهمل . اللّها : العطايا . اليَفَاع : ماارتفع من الأرض . النِّكس: الدنىء . أخمد : أطفأ . المؤمِّلون : الرّاجون . ملاذ : ملجأ . المقصد: الموضع تقصده يشِمْ بارقى : ينظر برقى . صَدٍ : عطش . انثنى : رجع . رام : طلب . قابس : طالب النّار . قدح زندى : استخراج ناره . أصلد : وجده صَلْداً أى شحيحاً . ساعد : وافق . بوّأ : أى أنزل. ضغن : حقد وعداوة . استباحوا: صيّروه مُبَاحاً حريم : عِيال . موحّد : مُسْلِم . حووا : ضموا . استسرّ : خفى . بدا : ظهر .

تَطوّحت : ترامِيتُ على جهالة وألقيتُ بنفسي للهلاك . طريداً: منفيًّا . مشرّداً مفزّعاً عند الهرب فاراً .

* * *

أَجْتَدِي النَّاسَ بَعْدَما كنتُ من قبلُ مُجْتَدَى

وتُرى بِي خصاصةٌ أَتَمَنَّى لها الرَّدى

والبلاءُ الذي بِهِ شَمْلُ أُنْسِي تَبَدَّدا

اسْتِباءُ ابنتي الَّتي أَسَرُوها لتُفْتَدى

فاستبِنْ مِحْنتي ومُدَّ إلى نصرتي يداً

وأَجِرْني من الزما نِ فقد جارَ واعْتَدَى

وأَعِنِّي على فَكا كِ ابنتي من يد العِدَى

فبذا تَنْمَحِي المآ ثِمُ عمّن تمرّدا

وبه تُقْبَلُ الإنا بَةُ مِمَّن تَزَهّدا

وهو كفّارة لِمَنْ زاغَ من بَعْدِ ما اهْتَدَى

ولئن قمتُ مُنْشِداً فلقد فهتُ مُرْشِدا

فاقبَلِ النُّصْح والهِدَا يَةَ واشْكُرْ لمن هَدَى

واسْمَح الآن بالّذي يتسَنَّى لتُحْمَدَا

* * *

أجتدى : أسأل . خَصاصة : فقر . الرَّدَى : الهلاك . شَمْل : مجتمع . تبدّد : تفرّق . استباء ابنتي : أخذها أسيرة . اسْتَبِن : تحقّق وتبين . محنتي :

بالّيتى . جار واعتدى : مال وظلم . وفكّ الرقبة وفكاكها : تخليصها من أسر الرّق وكذلك الرهن ، وفى الحديث « اعتق النَّسَمة وفكّ الرَّقبة » قيل : أو ليسا واحداً ؟ قال : لا ، عتق النسَمة : أن تنفرد فى عِتْقها ، وفكّ الرقبة : أن تعين فى عِتْقها ، ابن عباس رضى الله عنهما قال النبى صلى الله عليه وسلم : «مَنْ فَدَى أسيراً من أيدى العدوّ ، فأنا ذلك الأسير». تنمحى ، أى تذهب . تمرّد : أكثر الفساد . الإنابة : الرجوع إلى الله تعالى . تزهّد : ترك الرّغبة فى الدنيا زاغ : مال . فُهتْ : نطقت . مرشِداً : دالاًّ على الخير . اسمح : جُدْ . يتسنّى : يتيسرّ . الفنجديهى : كان ابن قَطَرِىّ قاضى ناحية المزار ، بلد عند البصرة قد تاب من الشرب ، ثم نقض التوبة ، وعاد يشرب ، ثم بعد المعاودة حضر مسجد بنى حَرام يوماً بالبصرة ، وتاب ورجع إلى الله تعالى بصِدْق النّية ، وسأل عن كفارة ذنبه ، وكان فى المسجد رجلٌ يزعم أنّه من أهل سَرُوج ، وله بنت مأسورة فى أيدى الكفّار ، فقال لابن قَطَرِىّ : كفارة ذنبك أن تتصدّق علىّ بشىء أفكّها به ، فأعطاه عشرة دنانير ، فلمّا أخذها منه دخل الحانة .

ثم إن الحريرى أنشأ هذه المقامة الحراميّة فى ذلك فقيل له : هى أحسن من مقامات البديع ، فأنشأ أربعين مقامة ، ثم استزادُوه فكمَّلها خمسين .

* * *

قال أبو زيد : فلمَّا أتممتُ هذْرَمتِي ، وأُوهِمَ المسئولُ صِدْقَ كلمتي أَغْرَاه القَرَمُ إلى الكرَمِ بِمُوَاساتِي ، ورغَّبه الكَلَفُ بحملِ الكُلَف فى مُقَاساتى ، فرضَخَ لى على الْحَافِرَة ، ونَضَحَ لى بالْعِدَةِ الْوَافِرة . فانقلبتُ إلى وكْرِى ، فِرحاً بنُجْحِ مَكْرِى ، وقَد حَصَلْتُ مِن صَوْغِ الْمَكِيدَة ، عَلَى سَوْغِ الثَّرِيدة ، ووصَلْتُ مِنْ حَوْكِ الْقَصِيدَة ، إلى لَوْكِ الْعَصِيدة .

قوله: هذرمتى ، أى كثْرة كلامى . أُوهِم :أى خُيِّل له . كلمتى ، أى قصيدتى. أغراه ، أى حرّضه . القرَم : الشّهوة . مواساتى: إعطائى . الْكَلَف : الحُبّ. والكُلَف : جمع كُلفة وهى ما يُتَكَلَّف من العمل . رضخ : أعطى . على الحافرة ، أى عندما أكملت كلامى ، والحافرة : أوّل الأمر ، وقيل أنّ أصلها فى بيع الفرس، ولرفعة الخيل عندهم كان لايفارق البائع حافرَ فرسه ، حتى يأخذ ثمنه . نضخ : رفع، ونَضْخُ الماء فورانه من منبعه . الوافرة : الكثيرة. وكْرِى : بيتى ، وأصْلُه للطائر . صَوْغ المكيدة : صنعة الكيد . سوّغ : بلَع بسهولة . لَوْك : مضغ .

* * *

قال الحارث بن همام : فقلت له : سبحانَ مَنْ أبْدَعَك ، فما أَعظمَ خُدَعك ، وأَخْبَث بِدَعَك ! فاستغربَ فى الضّحك ، ثم أَنشد غير مرْتَبِكٍ :

عِشْ بالخِداعِ فأنت فى ... دهرٍ بنوه كأُسْدِ بِيشَهْ
وأدِرْ قَنَاة المكْرِ حتّى تَسْتَدِير رَحَا المعيشَهْ
وصِدِ النُّسور فإنْ تعذَّر صَيْدُها فاقنعْ برِيشَهْ
واجْنِ الثمار فإنْ تَفُتْك فرضِّ نَفْسَكَ بالحشيشَهْ
وأَرِحْ فؤادَك إن نبَا دهرٌ من الفِكَرِ الُمطِيشَهْ
فتغايرُ الأحْدَاث يُؤْذِن باستحالة كلِّ عيشَهْ

* * *

أبدعك، أى أوجدك وخلقك. استغرب : أكثر الضحك. مرتبك: مختلط فى كلامه. بيشة : موضع كثير الأسْد . المكر : الخديعة . نبا :ارتفع . المطيشة : المدهشة للعقل. تغاير :اختلاف .الأحداث :النوازل. يؤذن: يعلم . استحالة: تغيّر.

المقامة التاسعة والأربعون - وهي الساسانية

حكى الحارث بن همامٍ قال : بَلغَني أنّ أبا زيد حينَ ناهزَ الْقَبْضَة ، وابتزّه قَيْدُ الْهرَمِ النَّهضَة ، أحضر ابْنَه ، بعد ما استجاشَ ذهنَه ، وقال له : يا بنيّ إنّهُ قد دَنَا ارْتحَالِي من الفِناء ، واكْتحالى بِمرْوَد الفَنَاء، وأنت بحَمْدِ اللهِ وليُّ عَهْدِي ، وكَبْشُ الْكَتِيبَة السَّاسانيّة مِنْ بَعْدِي ، ومثلُك لَا تقْرَع لَهُ الْعَصاَ ، ولا يُنَبَّهُ بِطَرْق الْحصا ؛ ولكن قد نُدِبَ إلى الإذكار ، وجُعِل صَيْقَلًا للأفكار . وإنّى أُوصِيك بما لم يوصِ به شِيثُ الأنباط ، ولا يعقوبُ الأسباط ؛ فاحفَظْ وصيّتِي ، وجانب معصيتي ، واحْذُ مِثَالى ، وافقَهْ أمثالِي ، فإنَّك إن استَرْشَدْتَ بِنُصْحِي ، واستَصْبَحْتَ بِصُبْحِي ، أمْرَعَ خَانُك ، وارتفع دُخَانُك ، وإنْ تَنَاسَيْتَ سُورَتِي ، ونبذْتَ مَشُورتى ، قَلَّ رمادُ أثَافِيك ، وزَهِدَ أهْلُكَ ورَهْطُكَ فيك .

* * *

نَاهَز : قارب. الْقَبْضَة ، أراد بها ثلاثاً وتسعين سنة ، لأنك إذا قيل لك: اعقد فى يديك ثلاثاً وتسعين قبضْتَ أصابعك كلها وشدَدْتَ عليها الإبهام ، والمعنى أنه قارب المائة الّتى ليس فى العيش بعدها منفعة ، والشعراء يضمّنونها أشعارهم إذا وصفوا البخيل بقبْض الكف ، قال الخليل بن أحمد :

وكفٍّ عن الخير مقبوضةٌ   كما قبضت مائة سَبْعَهْ

وقال :

فما تِسْعُون تحفزها ثلاث ... يضمُّ حسابَها رجل شديدُ

بكفّ خرقةٍ جُمِعَتْ لوَجْءٍ ... بأنكدَ مَن عطائك يا يزيدُ

وابتزّه : سَلَبَه. الهرَم : كِبَرُ السّن . النّهضة : القيام إلى ما يريد .

ودخل هشام بن عبد مناف وقد أسنّ على فتية من قومه فقاموا إليه إجلالا، وأجلسُوه فى أرفع موضع ، فقال : بارك الله فيكم ، إن بنى مرّة كانوا إذا شاخ عندهم الرجل قيّدُوه وقالوا له : ثبْ ، فإن وَثب أحبّوه ، وقالوا : فيك بقية ، وإن لم يَثِبْ قالوا : ليس فى هذا منفعة فقتلوه ، وقال ابن الرومى :

لو أنّ عمرى مائةٌ هَدّنِى ... تذكُّرى أنِّى تنصّفْتُها[1]

لهفى على خمسينَ عاماً مضت ... كانت أمامى ثم خلّفتُها

استجاش : استجمع وحَشد . الفِناء : ما حول الدار . والفَناء بالفتح : الموت . الكتيبة : الجيش . وكَبْشُها : رئيسها وحاميها . والّذِى كانت العصا تُقْرَع له عامر بن الظَّرِب العَدْوانىّ حكيم العرب فى الجاهليّة ، ولما أسنّ كان يَزِلّ فى حكمه ، وكانت له بنت حكيمة ، فأمرها أن تقعد وراء سِتْر لتنظر حكمه، فإذا أنكرتْ منه شيئاً قرعَتْ له العصا ، فمتى سمع صوت قَرْعِها علم أنه زلّ ، فرجع . وقيل : قُرِعت لأكثم بن صيْفىّ ، وقيل لسعد بن مالك الكنانىّ ، وقيل لعمرو بن حُمَمَة الدَّوسى .

وخطَب صعصعه بن معاوية إلى عامر بن الظَّرِب بنتَه عَمْرة ، وهى أم عامر ابن صعصعة ، فقال : يا صعصعة إنك تشترى منِّى كبِدى ، فارحم ولدى ؛ قبلتُك أو رددتُك . والحسيب : الرجل الصالح أباً بعد أب ، وقد أنكحتك خشية ألّا أجد مثلك ، أفرّ من السرّ إلى العلانية ، يا معشر عَدْوَان أخرجت من بين أظهركم كريمتكم من غير رهْبَة ، لُقسِم لولا قسمة الحظوظ على الجدود ما ترك الأوّل للآخر ما يعيش به ، وفيه يقول المتلمس :

---

(١) ديوانه ١ : ٣٦١

لِذِى الحِلْمِ قَبْلَ اليوم ما تُقْرَعَ العصا   وما عُـــلِّمَ الإنسان إلا ليَعْلَمَا[١]

وهو أوّل مَنْ جلس على المنبر وتكلّم ، وفيه يقول الأسود بن يعفُر :

ولقد علمتُ لو أنَّ علمى نافعٌ   أنَّ السبيل سبيل ذى الأعواد[٢]

قال الأصمعىّ : نزلت عَدْوان ماء، فأحصى عليه سبعون ألف غلام أغرل[٣]، سوى مَنْ كان مختونًا لكثرتهم ، ثم وقع بأسُهم بينهم ، فتفانوْا ، فقال ذو الإصبع العَدْوَانِىّ :

عذير الحىّ من عَدْوَا   نَ كانُوا حيَّةَ الأرْضِ[٤]

بغى بعضٌ على بعضٍ   فلم يُبْقوا على بَعْضِ

ومنهم مَنْ يجـيز النا   س بالسُّنّة والفرْضِ

ومنهم حَـكَمٌ يقضِى   فلا يُنْقَض ما يقضِى

الحكم: عامر بن الظرب ، والذى كان يجيز النّاس فى الحجّ منهم رجل كان يسمى أبا سيارة ، أجاز الناس على حمارٍ له أسود ، من المزدَلِفة إلى مِنى أربعين عاماً، فقيل فى المثل: أصحّ من عير أبى سيارة[٥]، وكانت إجازته أن يقول : اللهم حَبِّب بين نسائنا وبغِّض بين رعائنا ، واجعل المال فى سُمَحائنا ، أوفُوا بعهدكم، وأكرموا جارَكُمْ واقرُوا ضيفكم ، ثم يدفع فيقول :

خَلّوا الطريقَ عن أبى سَيَّارَهْ   وعن مواليـــه بنى فَزَارَهْ

* حتى يجيز سالمًا حماره *

ثم يقف فيقول : أشرق ثبير ، كيما نغُير . وكانت الإجازة قبلَهم فى خُزاعة، فغلبتْهم عليها عَدْوان. ولا تقرع له العصا مثل، يُضْرب لمن وافق صاحبَه وساوَاه .

(١) ديوانه ٢٦
(٢) المفضليات ٢١٦
(٣) الأغرل : الأقلف .
(٤) الأغانى ٣ : ٧٩   (٥) مجمع الأمثال ١ : ٤١٠

ولما خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم خديجة رضى الله عنها قال عمُّها : مثل محمد لاتقرَع له العصا ، وأصل ذلك أن الناقة الكريمة إذا أتاها فحل غير كريم منعوه عنها ، وقرَعوه بالعصا على أنفه . وفى المثل: إن العصا قُرعت لذى الحلم .

قوله : ولا ينبَّه بطَرْق الحصا ، كانت العرب إذا أرادت اختبار الرجل : هل يصلح للسفر والغارة ؟ ترك الرجل صاحبَه حتى ينام ، فيأخذ حصاة فيرمى بها إلى جانبه ، فإن انتبه توثّق به .

وخرج أبو كبير الهذلى ومعه تأبّط شرًّا للغارة ، فلما جَنّ الليل أووْا إلى موضعٍ ليناموا فيه ، فتركه أبو كبير حتى نام ، فرمى إلى جانبه بحصاة ، فساعة مَسّت الأرض وثَب ثم عاد إلى نومه ، ففعلها ثلاثاً فكان ينتبه لوقوعها ويثب ويجول يطلب لها رامياً، فلا يجد إلا أبا كبير نائماً ، فقال له عند الثالثة: والله لئن عُدْتَ لأقتلنّك ، فإنه ليس هنا مَنْ يفعل هذا غيرك ، فضحك أبو كبير وقال : أردت اختبارَك ، ثم ذكر القصّة فى قصيدته التى يقول فيها :

وإذا رمَيْتَ له الحصاة رأيتَه ينزُو لوقعتها طُمُورَ الأخيلِ (١)

يريد أن ابنه كان فوق هذا فى ذكاء القلب فهو كأنه منتبه أبدا .

وطَرْق الحصا أيضاً من فِعْل الكُهّان يأخذ الكاهن حصياتٍ ، فيضرب بها الأرض وينظر فيها فيخبِر بالمغيّبات .

قوله : نُدِب ، أى دعى وحُرِّضَ . الإذكار : التذكير بما يفعل . الأفكار : الأذهان .

شيث هو ولد آدم عليه السلام، وكان أجملَ بنيه وأحبَّهم إليه ، وهو وصىُّ أبيه وإليه ترجع الأنساب ، وقال صلى الله عليه وسلم : أربعة من الأنبياء سريانيون : آدم وشيث وإدريس ــ وهو أخنوخ ــ ونوح ، وأنزل الله تعالى على شيث خمسين صحيفة . وقال بقية بن أرطأة : بلغنى أن حوّاء حملتْ بشيث الرّضا حتى

---

(١) ديوان الحماسة — بشرح التبريزى ١ : ٨٧

نبتتْ أسنانُه ، وكانت تنظر إلى وجهه من صفائه فى بطنها . وهو الثالث من ولد آدم ، وإنه لمّا حَضَرها الطَّلْق أخذها عليه شدّة ، فانتبذتْ به ، فلما وضعته أخذته الملائكة ، فمكث معهم أربعين يوماً ، فعلّموه المِهن ، ثم ردُّوه إليها معلّما . والمهن جمع مِهْنة ، وهى الخدمة .

الأنباط ، قيل : سمُّوا أنباطاً لاستنباطهم البناء ، واستخراجهم المياه ، والنسابون يزعمون أنهم ولد يافث بن نوح ، ولا يصحّ على هذا أن يوصيَهم شيث ، لأنّ بين زمن شيث وزمن يافث آلافاً من السنين . الجوهرىّ : النبيط والنَّبَط : قوم كانوا ينزلون بين البَصْرة والكوفة والجمع أنباط ، والرّجل نبَطِىّ . ابن دريد : النَّبَط . جيلٌ من الناس معروف ، وهم النَّبط والأنباط . والأسباط : بنو يعقوب عليه السلام ، ومنهم تشعَّبَتْ قبائل بنى إسرائيل ، والأسباط فى ولد يعقوب كالقبائل فى ولد إسماعيل .

احذُ مثالى ، أى امش على طريقى وافعل بفعلى . استرشدْت : استدللت . استصبحت : استضأت . أمرع : أخصب . الخان : الفندق ، وهذا مثل لرفاهة العيش . نَبذْت : طرحت . الأثافىّ : أحجار القِدْر . زهِد : لم يرغَبْ .

* * *

يابنىّ ؛ إنّى جَرّبتُ حقائق الأمور ، وبَلَوْتُ تصارِيفَ الدُّهور ؛ فرأيتُ المرء بنَشبِه ، لا بِنَسَبِه ، والفَحْصَ عن مَكْسَبِه ، لا عَنْ حَسَبِه . وكنتُ سَمِعْتُ أن المَعَايش : إمَارَة ، وتِجارة ، وزِراعة ، وصِناعَة ، فمارَسْتُ هذه الأرْبَع ، لأنظُرَ أيُّها أَوْفقُ وأنْفَع ، فما أحْمَدْتُ مِنْهاَ مَعيشة ، ولا استَرْغَدْتُ فيها عِيشة ، أما فُرَصُ الوِلَايات ، وخُلَسُ الإمَارَاتِ ؛ فَكأَضْغاثِ أحْلَامٍ ، والفَىْء المُنْتَسَخِ بالظَّلَام ؛ وناهِيكَ غُصَّةً بمرارة الفِطَام . وأما بَضائع التِّجارات ، فعُرْضَةٌ للمخاطَرَاتِ ، وطُعْمة لِلْغارَاتِ ،

وما أشبَهَهَا بالطُّيور الطَّيارات. وأما اتخاذُ الضِّياع، والتَّصدّى للازْدِرَاع، فمَنْهَكَةٌ للأعراض، وقُيودٌ عائقة عن الارْتِكَاض، وقلّما خَلاَ رَبُّها عن إذْلَال، أو رُزِق رَوْحَ بالٍ، وأما حِرَفُ أُولِي الصِّنَاعات، فغَيرُ فاضِلَةٍ عن الأَقْوَات، ولا نافقةٍ فى جميع الأَوقَات، ومُعْظَمُها معصوبٌ بشبيبة الحَياة. ولم أَرَ ما هُو بارِدُ المغنَم، لذيذُ المطعم، وافى المَكْسب، صافى المَشْرب، إلّا الحِرْفَةَ التى وَضَع ساسانُ أساسَها، ونَوَّعَ أجناسَها

* * *

بلوت: اختبرتُ. نَشَبه: ماله. الفحص: البحث، والأربع التى ذكر نسبها الثعالبى للمأمون قال: قال لى المأمون: النَّاس أربع طَبقَات بين إمارة وتجارة، وزراعة، وصناعة، فمن لم يكن منهم كان كلاًّ علينا. مارست: خالطت. أحمدت: صادفتها محمودة. استرغدت: استكثرت. فُرَص: نُهز، والنُّهزة والفرصة ما يحضرك من الفوائد من غير أن تتعنّى فى طلبها، فإن فوّتّها ولم تغتنم أخذها ففاتتك، فربما تتعنّى غاية التعنّى فى طلبها، فلا تظفرْ بها.
الجوهرى: الفرصة. النّوْبة والشِّرب، يقال: وجد فلان فرصةً، أى نُهْزَة، وجاءت فرصتُك من الشىء، أى نوبتك. خُلَس: جمع خُلْسة، وهى كالخطف وشِبْهه، يريد أن الأمير كأنه اختلس أيامه، أى اختطفها لقصر مدّتها، ويقال: الخلسة. فرصة. وأضغاث الأحلام: أباطيلها التى لا يصحّ تأويلها لاختلاطها. والضِّغث: كلّ ما كان مختلطاً لاحقيقة له، والحُلم: الرؤيا والجمع أحلام. ويقال: هذا رجل ناهيك من رجل! ونَهيُك من رجل، أى إنه نجدة وعناية ينهاك عن تطلّب غيره، فناهيك: كافيك. الغُصّة: مايختنق به. الفِطام: قطعُ الرّضاعة عن

الصبيّ ، وفي الـكلام معنى التعجّب كأنه قال : ما أنـكد غصة العزْل على أهل الولايات ، والعزل للولاة كالحيض للنساء . والبضائع : الأموالُ يتّجر فيها . عرضة للمخاطرات ، أي معرضة للضّرر والسلْب ، وفلان عُرْضة لـكذا ، أي نُصبٌ ، وهو له عُرْضة ، أي يتعرَّض له دونه ، وهذا عُرْضة لك ، أي عُدّة . وقال النقاش في قوله تعالى : ﴿ عرْضَةً لِأَيْمَانِـكُمْ ﴾ أي علة لها وسبباً ومتَّخذاً لذلك ، وأصل العُرْضة : الدابة تتَّخذ للسفر لقوّتها ، ثم جعل كل ما صلح لشيء عرضة له ، حتى قيل : المرأة عُرْضة للزوج . والطُّعمة : المأكلة ، وهذه الضَّيْعة طعمة لفلان ، والطعمة أيضاً : وجه المـكتسب ، فطعمة للغارات ، يريد أن قُطّاع الطرق يسلبون أموالَ التّجار أبدا فأرزاقهم معرّضة للتلف . التصدّى : التّعرّض . منهكة : مذلّة وسبب نَهْك ، وهو الجهد والضَّعف ، ونهكته الحمى وأنهكته ، إذا جهدته وأضنتْه ونقصَتْ لحمه ، ونَهَـكه السلطانُ عقوبةً : بالغ في عقوبته . رَوْح بال : راحة قلب . عائقة : حابسة . الارتـكاض : الجرْى والتصرّف وهذه مشاهدة من أحوال أهل الحرْث وقال صلى الله عليه وسلم حين رأى السّـكة : «مادخلتْ قطّ دارَ قوم إلا ذَلّوا» . وقال صلى الله عليه وسلم في الإمارة : «ستحرصون على الإمارة ثم تـكون حسرة وندامة ، فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة » .

والحِرْفة : الصنعة : فاضلة : زائدة . معصوب : مربوط ، والعصْب الفتْل الشديد ، يريد أنّ الصنعة يُنْتَفَعُ بها ما دام صاحبها شابًّا قويًّا فإذا شاخ لم يقدر على الانتفاع بها . قوله : بارد المغنم ، أي السهل منه ، وهو الذى يؤخذ بغير قتال .

ساسان : شيخ المـكدين والغرباء ، وهم بنو غَبْراء . والغبراء : الأرض ، وسُمُّوا بنى غَبْراء لقطعهم جهات الأرض وجَولانهم في البلدان ، فـكأنهم ليس لهم أصلٌ يُنْسَبون إليه إلا الأرض . وقيل : سُمُّوا بذلك للزومهم لغبراء الأرض وهو وجْهها وترابها والرقاد فيها فيُغَيرُّون بذلك ويتغيَّرُون .

وكان الأحنف العكبرىّ[(١)] ، وهو أبو الحسن عقيل بن العكبرىّ ، كان فصيحاً شاعراً ، وذكر الصاحب فيه فصلا وهو : ولو أنشدتُك ما أنشدَنيه الأحنف العكبرىّ ، وهو فردُ بنى ساسان اليوم فى مدينة السلام فى الفصاحة وحسن الطريقة فى الشعر لامتلأتَ تعجُّباً من ظَرْفِهِ وإعجاباً بنظمه ، ومن افتخاره قوله :

على أنى بحمـــد الله فى بيتٍ من المجـــدِ
وإخـــوانى بنو ساسا ن أهل الجدّ والجِدِّ
لهم أرض خُراسا ن فقَسَّان مـــع اللّدِّ
إذا ما أعوز الطّرق على الطُّرّاق والجُنْدِ
حذاراً من أعاديهمْ من الأعْراب والكُردِ
قطعنـــا ذلك النهجَ بلا سَيْفٍ ولا غِمْـــدِ
ومَنْ خاف أعاديه بنا فى الرَّوْع يَسْتَعْدِى

ففى هـذا البيت معنى بديع ، يريد أن ذوى الثروة وأهل الفضل إذا وقع أحدهُم فى أيدى العداة وأراد التخلّص قال : أنا مكدٍ ، فبنى الحريرى هذا الموضع من مقامته على شعر الأحنف ، وأكثر هذه المقامة مأخوذ من مُلَحِهِ ، ومن هذا الشعر :

وقالوا قد سلا عَنْـــكَ وقد حالَ عن العَهْدِ
ولا والله ما حُلْتُ ولكنْ قلّ ما عِنْدى

ومن شعره :

عشت فى ذلة وقـــلّة مالِ واغترابٍ فى معشرٍ أنذالِ
بالأمانى أقول لا بالمعـــانى فغذائى حـــلاوةُ الآمالِ
لى رزق يقول بالوقف فى الـــرَّأى ورجْلٌ تقول بالاعتزال

(١) الأحنف العكبرى ، له ترجمة فى اليتيمة ٣ : ١٠٤ — ١٠٦ ، أورد فيها كثيراً من شعره .

وله :

العنكبوت بنتْ بيتاً على وَهنْ تأوى إليه ومالى مثله وَطَنْ

والخنفساء لها من جنسها سكَنْ وليس لى مثلها إلفٌ ولا سكنْ

وله :

نرى العقبان كالذهب المصفَّى يركب فوق أثفار الدّواب

وكيسى منه خلوٌ مثل كفّى أمَا هذا من العجب العجابِ !

وله :

رأيت فى النَّوم دنيانا مزخرفةً مثل العروس تراءتْ فى المقاصير

فقلت جُودى فقالت لى على عجلٍ إذا تخلَّصْتَ من أيدِى الخنازيرِ

* * *

وأضْرم فى الخافِقيْن نارَها ، وأوْضَح لبنى غَبْراءَ مَنَارَها ، فشهدتُ وقائعَهــــا مُعْلِماً ، وَاختَرتُ سِيمَاها لِي مِيسَمَا ؛ إذ كانت المتْجرَ الَّذِى لَا يَبُورُ ، والمنْهَلَ الَّذى لا يَغُورُ ، والمصباحَ الذى يَعْشُو إليه الجمهور ، ويَسْتَصْبِحُ به العُمْىُ والْعُور . وكان أهْلُها أعزَّ قبيلٍ ، وأسْعَدَ جِيلٍ ، لا يَرْهقُهم مسُّ حَيْف ، ولا يُقْلِقهم سلُّ سَيْف ، ولا يخشَوْن حُمَةَ لَاسِع ، ولا يَدِينُون لدانٍ وَلَا شَاسِع ولا يَرْهَبُونَ مِمَّنْ بَرَق ورَعَد ، ولا يحْفِلون بمنْ قام وقَعَد ؛ أنديتُهُمْ منزَّهَة ، وقُلوبهم مُرَفَّهَة ، وطُعَمُهُمْ مُعَجّلة ، وأوقاتُهم غُرٌّ مُحجّلة ، أينمَا سَقَطُوا لَقَطُوا ، وحيثما انْخَرطُوا خَرَطوا ، لا يتَّخِذُون أوْطَانًا ، ولا يَتَّقُون سُلْطانًا ، ولا يمتازون عمّا تَغْدُو خِماصاً ، وتَرُوح بِطانًا .

* * *

قوله : أضْرَم ، أى أوقد . الخافقين : المشرق والمغرب . أوضح : بَيّن . مَنَارها : سِرَاجَها . مُعلَماً : مشهوراً . سماها : علامتها ، يريد أنه اختار علامَتَهُم لنَفْسِه . يَبُور : يَكْسَد ويهلِك أهلَه . المَنهل : موضع الماء . يغور : يغوص فى الأرض . يعشو : ينظر . الجمهور : معظم الشيء . العُور : جمع أعور . الجيل : أهل العصر . يُرْهقهم : يدركهم ويغشاهم . حيْف : جَوْر وظلم . حُمَة : سم . لاسع : ضارب . واللّسع : الضرب بمؤخره ، مثل العقرب ، واللَّدغ لما كان بالفم ، ولَسَعه بلسانه : عابه وآذاه ، ورجل لُسَعة ولسَّاعة ولَسّاع ، أى عيّابٌ مؤذٍ . يدينون : يطيعون . دانٍ وشاسع : قريب وبعيد . يرهبون : يخافون . بَرَق ورعد : هدّد وخوّف . يحفلون : يبالون . مَنْقام وقعد : من غيظه وشره . انخرطوا : ركبوا رءوسهم ، واندفعوا بشدّة ، وخرطت الغصنَ ، إذا وضعتَ يدك عليه ثم تجرّه عليك فيسقط ما فيه من وَرَقٍ وثمر . أنديتهم : مجالسهم . مرفّهة : الرفاهية : العيش اللّين . غُرّ : بيض . محجّلة : مشهورة . سقطوا : وقعوا . لقطوا : جمعوا الرزق ، وأصله للطّير . يمتازون : يفترقون . خِماصاً : جياعاً . بِطاناً : شباعاً وهى للطير ، وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لو أنكم توكّلتم على الله حقّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير تَغْدُو خِماصاً وتَرُوح بِطَاناً » .

* * *

فقال له ابنه : يا أبتِ لَقَدْ صَدَقْتَ ، فيما نَطَقْتَ ؛ وَلَكِنَّكَ رَتَقْتَ ، وَمَا فَتَقْتَ ؛ فبيّن لِي كَيْفَ أَقْتَطِف ، ومِنْ أَيْنَ تُؤْكَلُ الْكَتِف ، فَقَالَ : يا بَنَيّ إنّ الارْتِكَاضَ بَابُهَا ، والنَّشَاطَ جِلْبَابُهَا ، والْفِطْنَةُ مِصْبَاحُهَا ، والْقِحَةَ سِلَاحُهَا ، فَكُنْ أَجْوَلَ من قُطْرُب ،

وأسْرَى من جُنْدُب، وأنْشَطَ من ظَبْيٍ مُقمِر، وأسْلَط من ذئبٍ مُتَنَمِّر، واقْدَحْ زَنْدَ جَدّك بجدّك، واقرعْ باب رَعْيك بِسَعْيك، وجُبْ كُلَّ فَجٍّ، ولِجْ كلَّ لُجّ، وانْتَجِعْ كُلَّ رَوْض، وألقِ دَلْوَكَ فى كلِّ حَوْض، وَلَا تَسْأَمِ الطَّلَبَ، ولا تَمَلَّ الدَّأْبَ، فقد كان مكتوباً على عَصَا شيخِنا سَاسَانَ: مَنْ طلَب، جَلَبَ، ومَنْ جَالَ، نَالَ. وإيّاكَ والكسلَ، فإنه عُنْوان النُّحوس، ولَبُوسُ ذَوِى البُوس، ومِفْتَاحُ المَتْرَبَة، ولِقَاحُ المَتْعَبة، وشِيَمةُ الْعَجَزَةِ الجَهَلة، وشِنْشِنَةُ الوُكَلَة التُّكَلَة، وما اشتار الْعَسل، من اختار الكسل، ولا ملأَ الرَّاحة؛ مَن اسْتَوْطَأَ الرّاحة.

* * *

قوله: رتَقْت، أى ألحمت وسدّيت، وهو ضدّ فتقْت، تقول: رتقت الشيء، إذا ضممتَ بعضَه إلى بعض، وفتقتُه: نقضْتَه. أقتطف: أجنى الثمر، وهذا مثل قوله: مِنْ أينَ تُؤكَل الكتف، قالوا: تؤكل من أسْفَلِها، لأن المرقةَ تدخلُ بيْنَ عِظَامها ولحمها، فمن أكلها من أعلاها جرت المرقةُ عليه، ولفظ المثل على ما ذكره أبو عبيد: فلان أعلم من حيثُ تؤْكل الكتف، يُضْرَب مثلا لمن جرّب الأمور ودَرَى تصرّفها، قال البكرى: إن لحم الكتِف إذا أُكِل من أعلاه تناثر، وإذا أُكل من قبَل الغُضروف، لم يتأتّ لآكله. والغُضْرُوف: اللحم الرَّخص المتَّصل بأسفل الكتف المتّسع، وقيلَ: أكل الكتِف، إذا أمسك فيها بطرف الغُضْرُوف ربما سقطت فترِبَتْ، وإذا أمسكها بالطرف الآخر أمِن من ذلك.

الفنجديهى: لحم الكتف إذا جُذب من الجانب الأسفل انقطع بكليته، وإذا جذب من الجانب الأعلى تقطّع اللحم ولم ينقطع، لأنَّ المرقة تجرى بين لحـ

الكتف والعظم ، فإذا أخذتَه من أعلاه تصببت المرقة عليك بسرعة ، وإذا أخذت اللحم من أسفله تقشّر من عظمها فلم تنصبّ المرَقة بالسرعة ، وهو مثَل يُضرب للبصير بالأمور ، وقال أوس بن حجر :

أم دلّكمْ بعضُ مَنْ يرتاد مشتمِى ... بأىّ أكلة لحم تُؤْكلُ الكتِفُ[1]

يقول : أنا أعلم كيف أنالكم .

وقال آخر :

إنّى على ما ترون من كِبَرِى ... أعلم من أين تُؤْكَلُ الكتفُ

قطرب : دويبّة تجول اللّيْلَ كلّه ولا تنام ، ويقال فيه أيضاً : أسهر من قُطْرب ، وهذا قول أبى عمرو ، وغيرهُ يرويه : أسْعَى من قُطْرب ، لا أسهر ، ويقول: هو دويبة لا تستقرّ بالنهار، ويحتجّ بقول ابن مسعود: لاأعرفنّ أحدَكم جيفةَ ليلٍ قُطْرُبَ نهار . وقُطْرُب اسم رجل مشهور ، وهو ابن المستنير صاحب المثلّث ، وكان من أهل العربية فجلس لسيبويه يناظره ، فلما رآه سيبويه قد احتدّ بالسؤال قال : إنك لقطرب ليلٍ ، فسمِّىَ بذلك ، والقُطْربُ أيضاً ذكر الغيلان . ابن ظفر ذكر مَنْ يعوّل عليه أنه حيوان يكون بالصعيد من أرض مصر ، يظهر للمنفرد من الناس ، فربما صدّه عن نفسه إذا كان شجاعاً وإلّا لم ينته حتى ينكحه ، فإذا أنكحه تدوّد دُبرُه وهلك . قال : وهم إذا رأوْا من ظَهَر له القطرب قالوا : أمنكوح أم مروّع ، فإن قال : منكوح يئسوا منه . وإن قال : مروّع سكّنوه وعالجوه . قال : فقد رأيتُ أهلَ مصر وما بين يديها وما خلفها، وتحقّقت أهل صعيدها والعربان، وهم مستوون فى الجهل بهذا الحيوان ، ومختلفون الاختلاف الشديد فى فعله وصورته ، إلّا أن أهل مصر أكثر لَهجاً به ، والقطارب أيضاً : صغار الكلاب .

---

(١) ديوانه ٧٦

قوله: أسْرَى ،أى أمشى بالليل . الجندب :ذكر الجراد ، وقيل: هى دويبّة تشبه الجراد ذات جناحين ، فلا تزال ترمح ، ولفظ المثل : أسْرَى من جراد . مقمر : لاعب فى القمَر . وأنشط : أخفّ ، والظبى يأخذه النشاط فى الليلة المقمرة فيلعب. متنمِّر : متشبه بالنَّمِر وهو سَبُعٌ مؤذ. جَدّك : حظّك. اقرع: اضرب. رَعيك : أكلاك ، وأراد بباب رعيك الذى يجيئك منه الرزق . ألق دلوك إلى كل حوض: لفظ المثل « ألق دلوك فى الدلاء » ، يضرب فى بذل الجهد فى اكتساب المال والبحث عليه ، وهو كما قال الشاعر :

وليس الرزق عن طلب حثيث ولكن ألقِ دلوك فى الدلاء[1]

تجئك بملئها طوراً وطوراً تجئك بحمأةٍ وقليل ماء

قوله : فقد كان مكتوباً على عصا شيخنا ساسان . الفنجديهى قرأت فى بعض الفوائد أنه كان مكتوباً على عصاساسان. المكدِى: الكسل شؤم، والتمييز مذموم، والحركة بركة، والتوانى هَلَكة. وكلبٌ طائف: خير من أسد رابض. ومَنْ لم يغترف : لم يعتلف . جال : تصرّف ومشى فى البلاد . نال : أدرك حاجته . عنوان : دليل . النحوس : جمع نَحْس ، وهو ضدّ السّعد . ذوى البؤْس : أهل الفقر . لقاح المتعبة ، أى أصلها وسببها . شيمة : طبيعة ، وكذلك الشنشنة . الوكُلَة التُّكَلَة : هو العاجز الذى يَكلُ أمره لغيره ويتّكل عليه فيه . اشتار : حرّك واستخرج . الراحة الأولى : الكفّ ، والثانية ضدُّ التَعب .

وعليك بالإقدام ، ولَوْ على الضِّرعام ، فإنَّ جَراءَة الْجنان ، تُنْطِق اللّسان ، وتُطْلِق العِنَان ، وبها تُدرك الحُظوة ، وتُملَك الثَّرْوة ، كما أن الخَوَر صِنْوُ الكسل ، وسَبَبُ الفشل ، ومَبْطأةٌ للعمل ، ومَخْيبةٌ للأمَل ، ولهذا قيل فى المثل : مَنْ جَسَرَ ، أَيْسر ، ومَنْ هابَ ، خاب .

(١) لأبى الأسود الدؤلى ، جمهرة الأمثال ١ : ٧٤ ، وديوان أبى الأسود ٥٣

ثمّ ابرُز يا بنىّ فى بكورِ أبى زاجرٍ، وجراءة أبى الحارث، وحَزَامَةِ أبى قُرَّة، وخَتْلِ أبى جَعْدة، وحِرْصِ أبى عُقْبة، ونَشاطِ أبى وَثّاب، ومَكر أبى الحُصَيْن، وصَبْرِ أبى أيّوب، وتَلَطُّف أبى غَزْوان، وتَلوُّن أبى بَرَاقش، وحِيلَةِ قَصِير، ودَهاءِ عمرو، ولُطْف الشعبىّ، واحتمال الأحنف، وفِطْنَةِ إياس، ومَجَانةِ أبى نُوَاس، وطَمَع أشْعَب، وعَارِضَة أَبى الْعَيْنَاء.

* * *

الإقدام: الجراءة. الضرغام: الأسد. والجراءة: الشجاعة. والجنان: القلب. والحُظْوة: المنزلة الرفيعة، والثروة: الغنى. صنو: أخ. الفشل: الضعف والحيرة، يريد أن فَزَع النفس وضعفَها يخيّب الأمل والرجاء، وقال معاوية: الهيبة مقرونٌ بها الخيبة.

أبو زاجر: هو الغراب، سُمّى بذلك، لأن العرب تَزْجُر به وتتشاءم، وتقدَّم ذلك، ومن وصيته لولده على ألسنتهم، قالوا: قال الغراب لابنه: يا بنىّ إذا رميت فتلوّص أى تلوّ، قال: يا أبت أنا أتلوّص قبل أن أرمى. وقال لابنه وقد رأى رجلا فوّق سهماً: يا بنىّ اتّئد، حتى تعلم مايريد الرّجُل، فقال: يا أبت، الحذَر قبل إرسال السهم.

وأبو الحارث: الأسد كنّى بذلك لاحترائه، أى لاكتسابه بقوّته.

وأبو قرّة: الحرباء كنّى بذلك لأنّ البرد لايفارقه، فالحرباء تدور لذلك مع الشمس حيثما دارت، وتقدّم حزامتُها، ومرّ أنها لاتفارق ساقَ الشجرة حتى تمسك ساق الأخرى.

وأبو جعدة : كنية الذئب ، وهى كنية بالضدّ لأنّ جعدة عندهم الشّاة ، ولما كان الذئب يقتلها حيث وجدَها جعلوه أباها بضدّ ما يفعل الأب الذى لا يقال له أب إلا لوجود الرحمة عنده على بنيه ، ونحوها قولهم للأسود : أبو البيضاء . والختل : المكْر .

وأبو عقبة الخنزير، زمن حرصه أنه يمشى بالليل وبالأسحار لطلب ما يأكل، ويستتر بالنهار حرصاً على السّلامة .

وأبو وثاب : الظّبْى ، وكنِّى بذلك لسرعة وثبه .

وأبو الحصين : الثّعلب ، وهو أكثر الحيوان مكراً ، ومن بعض مكره أنّه إذا رأى الغلَبة تماوت فلا تشكّ فى أنه ميّت ، فإذا وقع له غير عارف تركه فما يمرّ يسيراً حتى يقوم فارًّا أو تحصينه يبصل العنصل من الذئب ، لأن الذئب لا يطؤه فى زعم قوم ، وقالوا : إنّ الضبُع صادت ثعلباً ، فقالت : أخيّرك يا ثعلب بين خصلتين ، فقال : ما هما ؟ فقالت : إما أن آكلك وأما أن أكلك، فقال لها الثعلب : أما تذكرين يوم نكاحتُك ؟ فقالت : متَى؟ فانفتح فوها وانفلت الثعلب ، فذكروا ذلك مثلا، وقالوا : ضرب عليه خصلتى الثعلب ، وقالوا : إن الثعلب اطّلع فى بئر وهو عاطش وعليها رشاء فى طرفيه دلوان ، فقعد فى الدلو العليا فانحدرت ، فشرب ، فجاء الضبُع فاطلعت فى البئر ، فأبصرت القمر فى الماء منتصفاً والثعلب قاعد فى قعر البئر فقالت له : ما تصنع هنا؟ فقال لها: إنى أكلت نصف هذه الجبنة وبقى نصفها لك فانزلى فكليها ، فقالت : وكيف أنزل ؟ قال : تقعدين فى الدّلْو فقعدت فيها ، فانحدرت وارتفع الثعلب فى الدلو الأخرى فلّما التقيا فى وسط البئر قالت له : ماهذا ؟ قال : كذا التّجار ، نختلف ، فضربت بهما العرب المثل فى المختلفين ، وأوصاف مكْره كثيرة .

وأبو أيوب : الجمل مُسمَّى بذلك لأنه أصبر الدوابّ على العطش والجوع

وقطع الأشهر بالسير المتصل ونقل الأوقار، ومهما كان به شيء من قوّة تجلّد، فإذا وقف، عُلِم أنه ليس فيه بقية ينتفع بها.

وأبو غزوان الهرّ لغزوه الفئران وخشاش الأرض وتلطّفه يظهر فى محاولاته لتصيد الفأر فإذا قدمت المائدة: قرُبَ منها وأخذ يتلطّف فى صياحه ويتضرّع ويحتكّ بالمائدة أو بالأكل حتى يعطَى.

وأبو براقش: طائر أغبر أوسطه أحمر، وإذا انتفض تلوّن ألواناً.

أخذ الحريرىّ هذا الفصل من كلام العلماء،قالوا: ابن آدم هو العالم الكبير الذى جَمَع الله تعالى العالم كلّه فيه فكان فيه بَسالة الأسد وصبر الجمل وحرْص الخنزير وحَذَر الغراب ورَوَغان الثعلب؛ وضرع السِّنّور، وحكاية القرد وجُبْن الصقر.

قيل لرجل من كبار العلماء وكان بليداً سريع النّسيان فى ابتداء تعلّمه: بم أدركتَ العلم مع بلادتك وكلل خاطرك؟ قال: ببكورٍ كبكور الغراب وصَبْرٍ كصبر الجمل وحِرْصٍ كحرص الخنزير.

* * *

واخْلُبْ بِصَوْغِ اللّسان، واخْدَعْ بِسِحْرِ البيان، وارْتَدِ السُّوقَ قَبْلَ الجَلَب، وامْتَرِ الضَّرْعَ قَبْلَ الحَلَب، وسَائِلِ الرُّكْبان قَبْلَ المُنْتَجَع، ودمِّثْ لِجَنْبِكَ قَبْلَ المُضْطَجَع، واشْحَذْ بصيرتَك للعيافِة، وأَنْعِمْ نَظَرَكَ لِلقِيافَة،فإنّ مَنْ صَدَقَ توسُّمُه،طال تَبَسُّمُهُ،وَمنْ أخطأتْ فِراستُه أبطأتْ فَريستُه.

وكُنْ يا بُنىّ خفيف الكلّ، قَليل الدّلّ، رَاغِباً عن العَلّ، قانعاً من الوَبْل بالطّلّ. وعظِّمْ وَقْعَ الحقِير، واشْكُرْ على النَّقير، ولا تَقْنَطْ عِنْد الردّ، ولا تَسْتَبْعِد رَشْحَ الصَّلْد، ولا تيْئَسْ مِنْ رَوْحِ اللهِ، إنه لَا يَيْئَسُ من رَوْحِ اللهِ إلّا القومُ الكافِرُونَ.

وإذا خيِّرتَ بَيْنَ ذَرَّةٍ مَنْقودة، ودُرّةٍ مَوْعودة، فملْ إلى النّقد، وفضِّلِ اليومَ على الْغد، فإنَّ للتأخيرِ آفاتٍ، وللعزائم بَدَوات، وللعِداتِ مُعَقّبات، وَبَيْنَها وبين النَّجازِ عَقَبات وأيّ عقبات.

* * *

قوله: اخلُب بصوْغ اللسان، أى بعذوبة الكلام، قال ابن كناسة الشاعر: كنت أتكلم بكلام فلو لم يجدْ سامعُه إلا القطن الذى فى وجه أمه فى القبْر، لتغلغل إليه حتى يخرجَه ويهديه إلىّ. وأنا اليوم أتحدّث بذلك الحديث بعينه فما أفرغ منه حتى أُهَيِّئَ له اعتذارى. وارْتَدْ، أى اطلب. والجلَب: ما يجلب إلى السوق للبيْع. امترِ: امسح، ويفعل ذلك بالضَّرْع لأنّه يُدرّ لبنه. المنتجَع: موضع العشب، أراد به موضع طلب الرزق. دَمِث: ليّن. اشْحَذْ: اجْلُ واصْقُل. وقال فى الدّرة: ويقولون: شَحّات بالتاء، وصوابه، بالذال لأن اشتقاقه من شحذْت السيف، إذا بالغتَ فى إحداده فكأنّ الشحاذ هو المُلِحّ فى المسألة المبالغ فى طلب الصّدقة. بصيرتك: ذهنك. العِيافة: زَجْر الطير. أنعم: بالغ. القيافة: الاستدلال على الولَد، وذلك أن ينظر خِلْقته وصفته، فيشبّهه بأبيه. توسّمه: نظره. الفِراسة: الحكم بحالات الشىء على ما يكون منه فى المستقبل. الكلّ: الثقيل. والدّلّ والدلال بمعنًى واحد. العَلّ: الشُّرب بعد الشُّرب وراغباً عنه: تاركاً له. النقير: حفرة فى ظَهْر نوى التّمر، ومنها تنبت النخلة. تقنط: تيأس. روح الله: رزقه، ولبعضهم فى هذا المعنى:

سَيُفْتَح بابٌ إذا سُدَّ بَابُ … نعم وتلين الأمور الصِّعَابُ
ويتّسع الحال من بعدمَا … تضيق المذاهب فيه الرِّحَابُ
مع العسر يُسْرَان هوّن عليك … فلا اليسر دامٍ ولا الاكتئابُ
إذا احتجبَ الناس من سائل … فما دون سائل ربِّى حجابُ

آخر :

عَسَى فرجٌ يأتى به الله إنه ... له كلَّ يومٍ فى خليقته أمْرُ
إذا اشتدّ عسرٌ فارج يُسْراً فإنه ... قضى الله أن العسر يتبعه يسرُ

آخر :

فلا تجزَعْ إذا أعْسَرْت يوماً ... فقد أيسَرْتَ فى الزَّمن الطويل
ولا تيأس فإن اليأس كفر ... لعل الله يُغنِى عن قليل
وإن العسرَ يتْبَعهُ يسارٌ ... وقول الله أصْدَقُ كلِّ قيلِ
ولا تظننْ بربّك ظنَّ سوء ... فإن الله أوْلَى بالجميل

قوله : ذَرّه، كناية عن الشىء القليل : دُرّة : جوهرة . آفات : جوائح . وللعزائم بدوات ، يريد أنّ الإنسان يعزم على فعل الشىء فى وقت ثم يبدو له ألّا يفعله . النَّجْز : تعجيل قضاء الحاجة، وقد قدّم مثل هذا المعنى عند قوله :

وبع آجلا منك بالعاجل .

* * *

وَعَلَيْك بصبْرِ أُولِى الْعَزْم ، ورِفقِ ذَوِى الْحَزْم ، وجَانِبْ خُرْقَ الْمشْطّ ، وتخلّق بالْخُلُقِ السَّبْط ، وقيّد الدِّرْهم بالرَّبط ، وشُبِ البذْل بالضَّبط ، ولا تجعل يَدَكَ مغلولةً إلى عُنُقِك ولا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْط ، ومَتَى نَبَا بِكَ بلد ، أو نابَكَ فيه كَمَد ، فبُتَّ منه أمَلَك ، واسْرَحْ عَنْهُ جملَك ، فخَيْرُ البلادِ ما حَمَلَك ، ولا تَسْتثْقِلَنَّ الرِّحْلَة ، ولا تَكْرَهَنَّ النُّقْلَة ، فإنّ أعْلَامَ شريعتِنا ، وأشياخَ عشيرتنا ، أَجْمَعُوا على أنّ الحركة بَرَكه، والطرَّاوة سُفْتَجه ، وزَرَوْا علَى مَنْ زعَم أنّ الغُرْبة كُرْبة، والنُّقْلَةَ مُثْلة ، وقالوا : هى تَعِلَّةُ من افتنع بالرَّذِيلة ، ورَضِيَ بالْحَشَفِ وسُوءِ الكِيلَة . وإذا أزْمَعْتَ على الاغْتِرَاب ، وأعْدَدْتَ له الْعَصا والجِراب ،

فتخيرّ الرّفيق المُسْعِد ،من قبل أن تُصْعِد ؛ فإن الجارَ قبْلَ الدار،والرّفيقَ قبل الطريق .

خُــذْها إليك وصيّةً   لم يُوصِها قبْــلي أحَدْ

غَرّاءَ حاويةً خَــلا   صاتِ المعــانى والزُّبَدْ

نقّحتُهــا تنقيحَ مَنْ   مَحَضَ النَّصِيحَةَ واجْتَهَدْ

فاعْمَــلْ بما مثّلْتُهُ   عملَ اللّبيبِ أخِي الرّشَدْ

حتَّى يقولَ الناس هَــذَا الشِّبْلُ من ذَاكَ الأسَدْ

* * *

المشتطّ : المتجاوز القدر فى محاولته . والخُرْق ضدّ الرتق . السَّبْط : السهل. شُبْ : أخاط . البَذْل : العطـاء . والضّبط : الحبس . قال أبو حاتم الدارى : دخلت مع أبى مدينة السلام فرأيت رجلًا واقفاً على الطريق يلعب بحيّة ويقول: مَنْ يهب لِى درهماً حتى أبتلع هـذه الحية ؟ فالتفت إلىّ أبى وقال : يا بنى احفظ دراهمك فمن أجلها تُبْلَع الحيات . مغلولة : محبوسة، أى لا تـكن شحيحاً ممسِكاً ولا كريماً متلفاً . نابَك : نزل بك . كمــــد : حزن . بتّ : اقطع . أملك ، أى رجاءك : أسرح عنه ، أى أزله وسرحه بالمشْيِ إلى غيره . الرّحلة: الارتحال. النّقلة : الانتقال . أعلام شريعتنا : مشايخ طريقتنا . الطّراوة : أن يطرأ على بلد لم يره . السّفتجة : ما أتاك بغير تـكلّف ولا مشقّة ، وهى عند أهل المشرق أن يأخذَ الرجلُ الدراهمَ والدّنانير ، فيعطيها صاحبه ، ويقول : احملها لى معك لأمْن طريقِك ، ولمنعتك إلى بلد كذا فادفعها إلىّ ، ثم فإن طريقى غير آمن من اللصوص . قال مالك رضى الله تعالى عنه : إن قَصَد بها المنفعة لَم يُجزْ لأنه سَلَفٌ جرّ منفعة ، فيقول : الطراوة على الناس كالسَّفْتَجة، ترغب لك فى أخذ

الدراهم ، وقد يكون منك تمنّع عن أخذها . زرَوْا : عابوا . كربة : همّ ، وقال:
مَنْ ذمّ السفر : الغربة كربة والنّقلة مُثلة ، والغريب كالغرس الّذى زايل أصله
وفقد شربه ، فهو ذاوٍ لا يثمر وذابلٌ لا ينضر. إذا كنت فى غير بلدك فلا تَنْسَ
نصيبك من الذل . تعلّة : عذر. الرذيلة : الدون من كلّ شىء. الحَشَف : الردىء
من التمر . الـكِيلة الهيئة، ومعناه أنه اجْتمع عليه عيبان: تمر فاسد وكيل ناقص.
أزمعت : عزمت . الاغتراب : الجــوَلان والغربة . الجُراب : الوعاء للزاد .
المسعد : الموافق القليل الخلاف . تُصعد : ترتفع وتخرج ، الجار قبل الدار، يقول:
لا تشتر داراً حتى تعلم مَنْ جيرانُك ، وكفى الجار أن قال صلى الله عليه وسلم
فى حقه : « مازال جبريل يُوصينى بالجـــار حتى خفت أن يورّثه » ، وقال
الزاهد ابن عمران :

لِتَعْنَ بالجار قبل الدارِ تسكنُها ... لا خيرَ فى الدار مالم يحمَــد الجارُ
الجار إن غبت عن أهلٍ وعن وطنٍ ... نعم الخليفَةُ هم أهـــلٌ وأنصارُ

والجار المساعد أحسن من القرابة . ويروى أن رجلا كان جاراً لأبى دلف
ببغداد، فأدركته حاجة، وركبه دَيْن فادح حتى احتاج إلى بيع داره، فساوموه
فيها ، فسمّى لهم ألف دينـار ، فقالوا له : إنّ دارك تساوى خمسمائة دينار ، فقال:
أبيع دارى بخمسمائة وجوار أبى دلف بخمسمائة ، فبلغ أبا دلف الخبر، فأمر بقضاء
دَيْنه ووصلَه ، وقال : لا تنتقل من جِوارنا ، فانظر كيف صار الجــوار يُباع
كما يباع العقار ، وقال الشاعر :

يلومونى أن بعت بالرّخص منزلِى ... ولم يعلموا جاراً هنـاك ينغِّصُ
فقلت لهم كفّوا المــــلام فإنما ... بجيرانها تغــلُو الديارُ وترخُصُ

غراء : ظاهرة حسنة . حاوية : جامعة . خلاصات : جمع خلاصة ، وهو
الذى يتخلّص من الشىء ويصفو منـــه ، والزُّبد : جمع زبدة اللبن . نقّحتُها :

هذَّبتها . مَحْضَ : أخلص . اللبيب : العاقل . أخى الرّشـد : صاحبُ الرّشد
الشِّبل : ولد الأسد .

* * *

ثم قال : يابنىّ ، قد أوصيتُ واستقصيْتُ ، فإن اقتديتَ فواهاً لك، وإن اعْتدَيت فَآهاً منك ، والله خليفتى عَلَيْك ، وأرجو ألّا تُخلف ظنِّى فيك .

فقال له ابنه : ياأبتِ لا وُضِـع عَرْشُكَ ، ولا رُفِع نعشُك ، فلقد قلتَ سَدداً ، وعلَّمتَ رَشَداً ، ونَحلْتَ ما لم يَنْحَلْ والدٌ ولَداً ، ولئن أُمْهِلتُ بَعْدكَ — لا ذقتُ فقْدَكَ — فلأَ تأدَّبَنَّ بآدابك الصَّالحة ، ولأقتديَنّ بآثارِكَ الْواضحة ؛حتى يقال: ما أشْبَه اللَّيلَة بالبارحة والغادية بالرّائحة!فاهتزّ أبو زيد لجوا بِهِ وابْتَسَم ، وقال: مَنْ أشبه أباه فما ظَلَم .

قال الحارث بن همام: فأُخْبِرتُ بأن بَنِى ساسَان،حينَ سمعوا هذِى الوصايا الحسَان، فضَّلوها علىوَصايا لقمان ، وحفظوها كما تُحفَظُ أُمُّ القرآن ؛حتَّى إنَّهُمْ ليرونَها إلى الآن، أوْلَى مالقَنّوه الصّبيان،وَأَنْفعلهم من نحلةِالعِقْيان.

* * *

غرّاء : ظاهرة حسنة . حاوية : جامعه . خلاصات : جمع خلاصة وهو الذى يصفو منه . والزبد : جمع زبدة اللبن اقتديت : اتبعتَ وصيتى . واهاً : عجباً . اعتديت : ظلمت . آها : كلمة معناها التوجّع. عرشك: سريرك، والمعنى أنه يدعو له بالبقاء. سَدَداً : صوابا . نحلت : أعطيت . الواضحة : البينة . الغادية: السحابة تأتى بالغدو . والرّائحة بالعشىّ ، قال الفراء النحوىّ : مَنْ أشبه أباه فما ظلم مثل أخذه الناس من قول كعب بن زهير :

أنا ابنُ الذى لم يخزنى فى حياته قـــديماً ومَنْ يشبِهْ أباه فماظلم

لقّنوه : علّموه . أوْلىَ . أحق . نِحْلة : عطية. العِقْيان : الذّهب .

المقامة الخمسون وهي البصرية

حكى الحارث بن همام قال : أشعِرْتُ في بعض الأيام همًّا برّح به استعارُه ، ولاحَ عليّ شعارُه ، وكنتُ سمعت أن غِشيان مجالِسِ الذّكر ، يَسرُو غواشِيَ الفِكر ، فلم أر لإطفاء ما بي من الجمْرَة ، إلّا قَصْد الجامع بالبَصْرة ، وكان إذ ذاك مأهولَ المساند ، مَشْفوه الموارد ، يُجتنَى من رياضِه أزاهيرُ الكلام، ويُسمع في أرجائه صَريرُ الأقلام، فانطلقْتُ إليه غير وَانٍ ، ولا لاوٍ على شان ، فلمّا وطئتُ حصاه ، واستشرفتُ أقْصاه ، تراءى لي ذو أطمارٍ بالية ، فوق صخرة عالِية ، وقد عَصَبَتْ به عُصَبٌ لا يحْصَى عديدُهم ، ولا يُنادَى وليدُهم ، فابتدرْتُ قَصْدَهُ ، وتورّدْت وِرْدَه ، ورجوتُ أَنْ أجِدَ شِفائي عنده ، فلم أزل أتنقّل في المراكز ، وأغْضِي للاّكز والواكِزِ ، إلى أن جلستُ تُجاهَه ، بحيثُ أمِنْت اشتباهَه ،فإذا هو شيخنا السَّرُوجيّ لا ريْبَ فيه،ولا لَبْس يُخفِيه، فانسَرَى بمرْآه همِّي ، وارْفضَّتْ كتيبة غمّي .

* * *

أشعرت : أُلبِسْت . برّح : شق واشتد . استعارُه : توقّده في القلب . لاح : ظهر ، يريد أنه لبس الهمّ كالشِّعار . والشِّعار : ثوب يلي الجسد ، والشّعار علامة القوم في الحرْب ، فمعناه عَبَس وجْهُه من شدة الهم . يسرو : يزيل. غواشي الفكر : مايغشاه ويدخل عليه من الهمّ. مأهول : كثير الأهل . المساند : جمع مُسْنَد ، وهو مايسند إليه ظهره ، أراد مواضع العلماء المتصدّرين لِلإقراء. والموارد: مواضع المياه . مشفوه : كثيرة الشفاه عليه للشّرب، وأراد

ازدحامَ الطلبة على الأشياخ لأخذ العلم . أزاهير : أنوار . أرجائه : نواحيه . صرير : أصوات . وانٍ : مقصّر . لاوٍ على شان : معرّج على أمر . استشرفت أقصاه : اطّلعت بنظرى عليه كلّه . تراءى : ظهر . أطمار : ثياب خَلَقة . عصبت : أحدقت وحلّقت . عُصَب : جماعات . لاينادَى وليدهم ، هذا مثل يستعمل فى الأمر المعجب المبالغ فى وصفه المعَجب منه ، وقد يؤوّل على تأويلات ، وهو يستعمل فى الخير والشر . والرخاوة والشدة . ابتدرت قصده ، أى عجلت المشى إلى جهته . توردت ورْده ، أى طلبتُ منفعتَه . والمراكز : مواضع الجلوس ، ومركز الرجل : موضعه ، وركزت الشىء غرستُه . أغضِى : أغمض على المكروه . اللاكز : الضارب فى الصدر. الواكز : الضارب فى ناحية الفم ، والوكز واللّكز بجُمْع اليد . تُجاهه : قبالة وجهه . اشتباهه : التباسه بغيره . يخفيه : يستره . انسَرَى : زال وانكشف . ارفضّتْ : تفرّقت . كتيبة غمى ، أى عسكره .

* * *

وحِينَ رَآنى ، وبَصُرَ بِمَكانى، قال : يا أهلَ البصرة ، رَعاكم الله ووقاكم ، وقوّى تُقاكم ، فما أضْوعَ ريّاكم ، وأفْضلَ مَزَاياكم ، بلدُكم أوفَى البِلادِ طُهْرَة ، وأزْكاها فِطْرَة ، وأَفْسَحها رُقعة ، وأمْرَعها نُجْعة ، وأقومُها قِبْلة ، وأوسعُها دِجْلة ، وأكثرُها نهراً ونخْلة ، وأحسنُها تفصيلًا وجملة ، دِهْليزُ البلد الحرام وقُبالة الباب والمقام ، وأَحَدُ جَناحِىَ الدُّنْيا ، والمِصْرُ المؤسّسُ على التَّقْوى ، لم يتَدَنّس ببيُوت النِّيران ، ولا طِيف فيه بالأَوْثان ، ولا سُجِد على أَدِيمه لغيرِ الرَّحْمن ، ذُو المشاهد المشهودة ، والمساجِد المقصودة ، والمعالِم المشهورة ، والمقابرِ المَزُورة ،

والآثارِ المحمودة، والخِططِ المحدودة، به تَلْتقي الفُلْكُ والرِّكاب، والحيتانُ والضِّباب، والحادِي والملّاح، والقانص والفَلّاح، والنّاشب والرّامح، والسّارح والسّابح، وله آيةُ المدّ الفائض، والجزْرُ الغائض.

* * *

وقوله: وحين رآني، يريد أنّ السّروجي علم أنّ ابن هَمّامٍ يَعرِف مكره الناس في كل بلد، نخشي ألّا يُسمح له بخداع أهل بلده، فأخذ يمدح البصرة وأهلَها ليرضية بذلك. رعاكم الله: حَفَظكم. وقاكم: كفاكم ما يحذر. تقاكم: خَوفكم لله. أضوَعَ رَيّاكم: أفْوَح رائحتكم. مزاياكم: فضائلكم الّتي خُصِصتم بها. أوْفَى: أكمل. أفسحها: أوسعها. الرقعة: القطعة من الأرض. أمْرَعها: أخصبها. النُّجعة: موضع العشب ينتجعه النّاس. دِجْلة: نهر البصرة. تفصيلا وجملة، يقول: إن جزئت مواضعها وتناظر كل جزء منها مع كل جزء من غيرها كان لها الفضلُ، فإن قيل: أيّ البلاد أحسن على الجملة؟ قيل البصرة. الدّهليز: أسطوان الدار ومدخله، والمقَام: موضع قيام إبراهيم عليه السلام عند الكعبة للدّعاء. أحد جناحي الدنيا: من قول أبي هريرة: «الدنيا على مثال الطائر، فالبصرة ومصر الجناحان فإذا خربا وقع الأمر». المؤسس على التقوى: الذي بُنِي أساسُه في الإسلام. يتدنس: يتوسّخ. الأوثان: الأصنام. أدِيمه: جلده، أراد به أرضه. الخِطَط: الدور والأزقّة. المختطة: الموسومة ليبنى فيها. الفُلْك: السفن. الرِكَاب: الإبل، يريد أنها بحرية برية. الضِّباب: جمع ضَبّ. الحادى: سائق الإبل فإذا كان الحادى حسنَ الصوت بلغت الإبل جهدَها في المشي. الملاح: خادم السفينة. القانص: صائد الحوت. الفلاح: الحرّاث. الناشب: الرامى النشّاب. الرامح: الطّاعن بالرمح، أراد الإغزاز لأنهم رماة والعرب لأنهم أصحاب رماح. والسّارح: راعى الإبل. والسابح:

العائم فى الماء . آية : علامة . المدّ والجزر ، أى زيادة البحر ونقصانه وهما الملء والحصر ، ونهر البصرة يركض فيه البحر .

* * *

وأمّا أنتم فمّن لا يَخْتَلِفُ فى خصائصهم اثنان ، ولا يُنْكِرُها ذُو شنآن ؛ دَهْماؤكم أَطْوَعُ رعيَّةً لِسُلطَان ، وأَشْكَرُهم لإحسان ، وزاهدكُمْ أَوْرَعُ الخليقة ، وأَحْسَنُهُمْ طريقَةً على الحقيقة ، وعَالمكم علامة كُلّ زمان ، والحجّةُ البالِغَةَ فى كلّ أوانٍ ، ومنكمْ من اسْتَنْبَطَ عِلْمَ النّحْو ووضَعه ، والّذى ابتَدَعَ مِيزَان الشّعْرِ واخْتَرَعَه ، وما مِنْ فَخْرٍ إلّا ولَكُمْ فِيهِ الْيَدُ الطُولَى ، والقِدْحُ المعلَّى ، ولَا صِيتٍ إلّا وأنتم أَحقُّ به وَأَوْلَى . ثمّ إنّكمْ أَكْثَرُ أَهِل مِصْرٍ مؤذّنين ، وأَحْسَنُهُمْ فى النُسْكِ قَوانينَ ، وبِكُمْ اقتُدِىَ فى التَّعريف ، وعُرِفَ التّسْحِيرُ فى الشَّهْرِ الشَّريف ، ولكم إذا قرّتِ المضاجِعُ ، وهَجَعَ الهاجع ، تَذْكارٌ يُوقظُ النَّائم ، ويُؤْنِسُ القائم ، وما ابتسم ثَغْرُ فَجْر ، وَلَا بزغَ نورُهُ فى بَرْدٍ ولا حرّ ، إلّا ولتأذِينكُمْ بالأسحار ، دَوِىٌّ كدَوِىّ الرّيح فى البحار . وبهذا صَدَع عنكم النّقل ، وأَخبر النبىّ عليه السلام مِنْ قَبْل ، وبَيّنَ أَنّ دَوِيَّكمُ بالأسحار ، كَدَوِىّ النّحْلِ فى القِفار ، فشرفًا لكم ببِشارة المصطفى وواهاً لِمصْرِكم وإنْ كان قَدْ عفا ، ولم يَبْقَ منه إلّا شفا .

* * *

خصائصهم : مايختصون به من الفضائل ، أراد أن البصرة اجتمعت فيها

الأشياء المتنافرة والمتضادة التى لاتجتمع ببلد ، فهى أجمع بلاد الله فائدة ، قال ابن أبى عيينة فى نحوه :

زُرْ وادىَ القصر نعم القصر والوادى ... لابدّ من زَوْرة من غير ميعادِ
زُرْه فليس له شبه يقاربه ... مِن منزلٍ حاضر إن شئت أو بادِ
تَرى قراقره والعيس واقفةٌ ... والضَّبُّ والنون والملاّح والحادِى

[ذكر البصرة]

والبصرة اختطّها عُتْبة بن غَزْوان صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وعُتبة بدرىّ مهاجرىّ ، بناها سنة أربع عشرة من الهجرة فمرّ بموضع منها فوجد الكذّان ، وهى الحجارة الرّخوة فقال: هذه البصرة ، انزلوها بسم الله ، فسمِّيت لذلك البَصْرة ، واختُطَّت الكوفة سنة سبع عشرة من الهجرة فى المحرّم ، وكُسِرت البصرة فى أيام خالد القسرى فوجد طولها فرسخين فى مثلهما والكوفة ثلثاها . وأمّا فى أيام المنصور فقسَم على مَنْ يستوجب العطاء من أهل البصرة ألْف ألْف درهم ، فأصاب كلَّ رأس درهمين .

ولأهل البصرة ثلاثة أشياء ليس لأحد من أهل البلدان أن يدّعيَهَا عليهم : النّخل والشّاء والحمام ، أما النخل فهم أعلم خلق الله به وأحذقهم بإصلاحه ، وفيها من أصناف النخل ماليس فى بلد من البلدان ، وأما الشاء المعبدية فقد وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من عبدالقيس ، فقال: يارسولَ الله إنى رجل أحبّ الشاء ، فدفع له فحلا من المعز فقبض بيده على أصل أذنه ، حتى استدارتْ أصابعه ، فصار فى أذنه كالسِّمة فسار إلى بلده فأطرقه شاءه ، فحُملت إلى البحرين ، فتناسلت هناك فليس فى البحرين شاة كريمة إلاوفى أذنها سمة كالحلْقة ، فيغالَى بها لتلك العلامة حتى تبلغ الشاة منها خمسين ديناراً ، وتعقد بالبصرة عقودها ، وفيها شاة لبنى فلان أمّها فلانة ، وأبوها تيس بنى

فلان ، مقدار حلبها بالغداة والعشىّ كذا . وحمامهم بلغت فى الهداية أن جاءتْ من أقاصى بلاد الروم ومن مصر إلى البصرة وينتهى ثمنُ الطائر منها إلى تسعمائة دينار ، وتباع بيضتها بعشرين ديناراً ، وكلّ ما وصف فى المقامة موجود فى البصرة ، ولمّا صعد علىّ بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه منبرها خطب وقال فى آخر خطبته : يا أهلَ البصرة ، يا بقايا ثمود ويا جند المرأة ، ويا أتباع البهيمة ، دعا فاتّبعتم ، وعقر فانهزمتم ، أما إنى أقول لا رغبةً فيكم ولا رهبة منكم ، غير أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أرض يقال لها البصرة ، أقْوَم الأرضين قبلة ، قارئها أقرأ الناس ، وعابدها أعبد الناس ، ومتصدقها أكثر الناس صدقة ، وتاجرها أعظم الناس تجارة منها إلى قرية يقال لها الأبلّة أربع فراسخ ، يستشهد عند مسجدها سبعون ألفا ، الشهيد منهم كالشهيد فى يوم بدْر . فبنى الحريرى فى مدح البصرة على هـذا الحديث ، وإنما ختم كتابه بذكر البصرة وأهلها لقوى مفاخرهم ، ومفاخر بلدهم فى البـلدان فيلهجون بالمقامات ويقدمونها على غيرها .

قوله : شنآن ، أى عداوة . دهماؤكم : جماعاتكم ، والدهماء معظمُ النـاس وأكثرهم . والدّهم : العدد الكثير . عابدكم : زاهدكُمْ كالحسن البصرى ومحمد ابن سيرين وغيرهما . الخليقة ، أى أخوف النّاس من الله تعالى . علّامة : كثير العلم .

[ذكر أبى الأسود]

ومستنبط علم النحو هو أبو الأسود الدؤلى ، واسمه ظالم بن عمرو بن جندل ابن سفيان أحد بنى الديل من كنانة ، وهو يعدّ فى التابعين والمحدّثين والشعراء والبخلاء والنّحويين ، ويُعدُّ فى العُرْج والمفاليج والبُخْر ، شهد مع على رضى الله عنه صِفّين ، وولى البصرة لابن عباس رضى الله عنهما ، وكان من شيعة علىّ

وكانت امرأته عثمانية ، وكان أصهاره لا يزالون يردّون عليه قوله فى علىّ ، فقال فيهم :

يقولُ الأرذلون بنو قُشَيْرٍ	طَوالَ الدَّهرِ لا تنسى عليّا
فقلت لهم وكيف يكون تركِى	من الأعمال ما يعصى عَلَيّا
أحبّ محمداً حباً شديداً	وعباساً وحمزة والوصيّا
بنو عمّ النبي وأقربُوه	أحبُّ النّاس كلّهمُ إليّاً
فإن يك حبهمْ رَشَداً أصبه	ولست بمخطىء إن كان غيّاً

ولم يشكّ أبو الأسود أنه رشد، وعلى هذا تأويل قوله تعالى :(وإنَّا أو إياكُمْ لعلَى هدًى أو فى ضلال مبين) .

ومن بخله أنه كان يقول : لا تجاودوا الله فإن الله أجود وأمجد ، ولو شاء الله أن يوسِّع على خَلْقه حتى لا يكون فيهم محتاج لفَعل . وكان يقول لولده : إذا بسط الله لك فى الرزق فابسطْ ، وإن قبضه فانقبضْ .

ومرّ برجل وهو يقول : مَنْ يعشّى هذا الجائع؟ فأدخله وعشَّاه حتى شبع ، ثم ذهب السائل ليخرج ، فقال له : أين تذهب ؟ فقال : لأهلى فقال : لا أدعك تؤذى المسلمين بسؤلك ، اطرحوه فى الأدهْم ، فبات عنده مكبولاً حتى أصبح .

وكتب إلى رجل يستسلفه فكتب إليه الرجل : المؤنة كثيرة ، والفائدة قليلة ، والمال مكذوب، فراجعه أبو الأسود: إن كنت كاذباً فجعلك الله صادقاً ، وإن كنت صادقاً فجعلك الله كاذباً .

وقال الخليل : كان أبو الأسود ضنيناً بما أخذه من علىّ رضى الله عنه ، وذلك أنه سمع لحناً فقال لأبى الأسود : اجعل للناس حروفاً ، فأشار إلى الرفع والنصب والخفض .

وقال له زياد : قد فَسَدت ألسنة الناس ، لأنه سمع رجلا يقول : سَقَطت عصاتى ، فدافعه أبو الأسود .

وسمع رجلا يقرأ (أن الله برىء من المشركين ورَسَولِه) نخفص ، فقال : ما بعد هذا شىء ، فقال له : ابغنى كاتبا يفهم ، فجىء برجل من عبد القيس ، فلم يرضه فَهْمُه ، فأُتِىَ بآخر من قريش ، فقال له : إذا رأيتَنى قـــد فتحتُ فىّ بالحرف فانقط نقطة على أعلاه ، وإذا ضممتُ فىّ فانقط نقطة بين يديه ، وإذا كسرتُ فىّ ، فاجعل النقطة تحت الحرْف ، فإذا أُشْرِبت ذلك غُنّة ، فاجعل النقطة نقطتين ، فهذا نقط أبى الأسود .

واختلف الناس إليه يتعلمون العربية ، وفرّع لهم ما أصّله فأخذه جماعة كان أبرعَهم عنبسةُ بن معدان المهرى يقال له الفيل ، فأقبل الناس عليه بعد موت أَبى الأسود ، فبرع من أصحابه ميمون الأقرن ، فرأس فى الناس وزاد فى الشرح ، فبرع من أصحابه عبـدُ الله بن أبى إسحاق الحضرمى ، فبرع فى النّحو وتكلم فى الهمز ، وأملى فيه كتابا ، وأخذ أبو عمرو بن العلاء عمّن أخذ عنه ، ثم نجم من أصحاب أبى عمرو عيسى بن عُمر ، ويونس بن حبيب وأبو الخطاب الأَخفش ، فألّف عيسى كتابيْن سمى أحدهما الكامل والآخر الجامع ، قال المبرد : فأخذ الخليل عن عيسى ، فلم يكن قبله ولا بعده مثله ، وهو القائل يمدح كتابى عيسى :

بطل النحـــو الّذى جَمَّعتُم ... غير ما أحدث عيسى بن عُمَرْ
ذاكَ إكمالٌ وهــذا جامعٌ ... وهُمَا للنّاس شمسٌ وقمــرْ

قال أبو العباس : وقد قرأت أوراقاً من أحدهما فكان كالإشارة إلى الأصول ، ثم أخذ عن الخليل جماعة لم يكن فيهم مثل عمرو بن قنبر سيبويه ، ويكنى أبا بشر وأبا الحسن ، وهو من موالى بنى الحارث بن كعب فألف كتابه الذى سماه قرآن النحو ، وعقد أبوابه بلفظه ولفظ الخليل .

وأبو الأسود من سكان البصرة .

[الخليل مخترع علم العروض]

ومستنبط : مستخرج ، والذى استنبط العروض هـو الخليل ، وذكره بعض العروضيين فقال : للخليل فى العروض حكمة مخترعة ،وسابقة مبتدعـة ، تبيَّن بذلك فضله ، وظهر تقدمه لأنه لم يتَّبع فيما وضعه أثراً موجوداً ، ولا اقتفى فيه رسماً مرسوماً، واهتدى إلى مالم يهتدِ إليه المتقدمون ولا أوجد مزيداً عليه المتأخرون . ولولا الخليل لم يُعْلَم صحيح الشعر من كَسِيره، ولاسقيمه من عليله ، وفى حَصْره لجميع أوزان العرب فى خمس دوائر أعظم العَجب لمن تدبر ماصنع وفَهِم .

وكان الخليل يحب أن يرى عبدَ الله بن المقفع، وكان ابنُ المقفع يحب ذلك ، فجمعهما عبَّاد المهابى ، فتحادثا ثلاثة أيام ولياليهن ثم افـترقا ، فقيل للخليل : كيف رأيتَ عبد الله ؟ فقال : مارأيت مثلَه قطّ وعلمه أكثر من عقله . وقيل لابن المقفع : كيف رأيتَ الخليل ؟ فقال : مارأيتُ مثله قطّ وعقله أكثر من علمه ، وصدقا فى ذلك، أدَّى عقل الخليل إلى أن مات وهو أزهد الناس، وجَهْل ابن المقفع أرداه ، فكتب كتاباً لعبد الله بن علىّ على المنصور ، فقال فيه ما كان مستغنياً أن يقوله ، ولايحتمل الأمراء دون الخلفاء مثلَه، فقال فيه : ومتَى غَدَر أمير المؤمنين بعمّه عبد الله بن علىّ ، فنساؤه طوالق ودوابة حَوابس ، وعبيده أحرار ، والمسلمون فى حلٍّ من بيعتـه ، فاشتد ذلك على المنصور وكتب إلى أمير البصرة أن اقتل عبد الله بن المقفع فقتله .

وقال ابن المقفعَ إنْ أكرمك الناس لمالٍ أو لسلطانٍ فَلا يعجبنّك ذلك ، فإن زوال الكرامة بزوالهما ، ولكن ليعجبك إن أكرموك لأدبٍ أو دين .
واتخذ عباد المهابى أرضاً فأراد غرسها ، فلامه أصحابُه وقالوا : هى سَبِخة

فأشار عليه الخيل بغرْسها فغرسها ، فجاءت بكل شىء حسن ، فحمل إليها الخيل فاستحسنها ، وقال :

ترفعتْ عن ندى الأعماق وانخفضتْ عن المعاطِش واستغنت بسُقْياها
فمال بالخوخ والرمان أسفلُها واعتمّ بالنخل والزيتون أعلاها
وصار يغبطه مَنْ كان يعذِلُهُ ولائم لامه فيها تمنّاها
أبا معاوية اشكر فضل واهِبها وكلما جئتها فاعمرْ مُصلّاها

وله :

عش مابدالك قصرُك الموتُ لامهربٌ منه ولا فوْتُ
بينا غنى بيت وبهجتُه زالَ الغنى وتقوّض البيت

وتوفى الخليل سنة سبعين ومائة وهو ابن خمس وسبعين سنة وتقدمت أخباره فى الأربعين فلتنظر هناك .

قوله: اخترعه ، أى أوجده قبل أن يكون . مصر ، أى بلد . وقوانين : طرق مستقيمة . التعريف : حلْق الرأس بعد يوم عَرَفة . قرت المضاجع : نام الناس فيها . هجع : نام . ثغر : سنّ وأراد به بياض الصبح . بَزَغ : صَدَع وظهر . النّقْل : الحديث: المنقول عن النبى صلى الله عليه وسلم . واهاً : عجباً . عفا : دَرس . شَفا : طَرْف وشىء قليل ، وشفا كلّ شىء حدُّه وطَرْفه .

* * *

ثمّ إنّه خزن لسانه ، وخَطَم بيانَه ؛ حتّى خُدِج بالأبصار ، وقرِف بالإقْصار ، ووُسِم بالاستقصار ، فتنفَّس تنفُّسَ مَنْ قِيدَ لِقوَد ، أو ضَبَثَتْ به براثِنُ أسَد ، ثم قال : أمّا أنتم يا أهلَ البصرة ، فما منكم إلاّ الْعَلَمُ المعروف ، ومَنْ له المعْرِفة والمعروف . وأمّا أنا فمَنْ عرَفنى

فأنَا ذَاكَ ، وشرُّ المعارف مَنْ آذاكَ ، ومَنْ لم يُثْبِتْ عِرْفَتِي ، فَسَأصْدُقُه صِفَتِي .

أنا الذى أنْجَدَ وأتْهم ، وأَيْمَنَ وأشأم ، وأَصْحَرَ وأَبْحَرَ ، وأدْلج وأسْحَر ، نَشَأْتُ بسَرُوج ، ورُبِيتُ على السُّرُوج .

ثم وَلَجْتُ المْضايق ، وفتحْتُ المغالق ، وشَهِدْت المعارك وألنتُ الْعَرَائك ، واقْتَدْتُ الشَّوامِس ، وأَرْغَمْتُ المعاطس ، وأَذَبْتُ الْجَوامِد ، وأَمَعْتُ الْجَلاَمِد .

* * *

خزن : حبس . خَطَم : زمَّ ، والخِطام حبلٌ يشد على أنف البعير . حَدَج : نظر إليه بحدّة . قُرِف : اتُّهم ، وقَرَفته بشرّ . رميته به : الإقصار العجْز . قَوَد : قتل نفس بنفس . ضَبَثَتْ : عَلِقَتْ . براثن : أظافير . العلم . المشهور بالفضائل ، والمعروف الثانى : العطاء . أنجدوأتهم : أتَى نجداً وتهامة . أيمن وأشام : أتى اليمنَ والشأم . أصحر وأبحر : مشَى فى الصحراء والبحر . أدلج وأسحر : مشى بالليل والسَّحَر . نشأت : كَبِرت . ولَجْتُ : دخلت . المعارك : مواضع القتال . العرائك : الطبائع الصعبة . الشوامس : الشَّوارد التى تأبَى الانقياد . أرغمت المعاطس : أذلات الأنوف أمعت الجلامد : أسلْت المياه من الجنادل الصمّ .

* * *

سلُوا عنّى الْمَشَارِق والمَغَارب ، والْمَنَاسِمَ والْغَوَارِب ، والمحافلَ والجحافل ، والقبائِلَ والْقنَابِلَ ، واستَوْضِحُونِى من نَقَلَةِ الأَخْبَار ، ورُوَاةِ الأسْمَار ، وحُدَاة الرُّكْبَان ، وحُذَّاق الكُهّان ، لتعلموا كَمْ فجٍّ

سَلَكْتُ، وحِجابٍ هَتَكْتُ، ومَهْلكةٍ اقْتَحَمْتُ، ومَلْحَمَةٍ أَلحمْتُ، وكمْ أَلْبابٍ خَدَعْت، وبِدَعٍ ابْتَدَعْت، وفُرَصٍ اخْتَلسْت، وأُسْدٍ افْتَرَسْت؛ وكم مُحلِّقٍ غادرتُه لَقىً، وكامِنٍ استخرجْتُه بالرُّقى، وحَجَرٍ شَحَذْتُه حَتَّى انْصَدَع، واسْتَنْبَطْتُ زُلالَه بالْخُدَع، ولكن فَرَط مافَرَط، والغُصنُ رَطيب، والفَوْدُ غِرْبيب، وبُرْدُ الشَّبَابِ قَشِيب؛ فأمَّا الآن وقد اسْتَشَنَّ الأديم، وتأوّد القويمُ، واسْتَنَارَ اللَّيْلُ الْبَهِيم؛ فَلَيْس إلَّا الندم إن نَفَع، وتَرْقيع الخرْق الَّذي قَدْ اتَّسَع.

* * *

المَنَاسِم: أخفاف الإبل. الغَوَارب: مَقَادِم ظهورها. المحافل: الجموع. الجحافل: الجيوش. القنابل: جماعة الخيل واحدها قُنْبلة. استوضحونى: اطلبوا بيانَ أمرى. الأسمار: الأحاديث باللّيل يُسْمَرُ عليها. الْحُداة: خدام الإبل. فجّ: طريق فى الجبل. سلكت: دخلت. هتكت: خرقت. مهلَكة: موضع خوف يَهْلِك فيه الناس. اقتحمتُه: تراميت فيه. ملحمة: مواضع الحرْب الشديدة يلتحم فيها أهلُ العسكرين ويلتصِق بعضُهم ببعض. ألحمت، أى أوقدت النار بينهم حتى التصقوا وصاروا لحمةً واحدة، وذلك أشدّ مايكون الحرب. ألباب: عقول. بِدَع: جمع بِدْعة، وهو الشيء المبدع. اختلستُها: أخذتها بسرعة واختطفتُها. محلّق: طائر فى الهواء. لقىً: مطروحاً على الأرض. وكامن: مستور. شحذتُه: صقلته. انصدع: انشق، وأراد بالحجر بخيلاً لايرشح بشيء كالحجر، فتحيّل عليه حتى أخذ ماله. استنبطت: استخرجت. زلاله: ماءه العذْب الصافى، أراد أخذت ماله. فرَط مافرط، أى سبق ماسَبق. رطيب: ناعم، وغصنه: قامته. والفَوْد: ناحية الرأس. غربيب: أسود. بُرْد: ثوب. قَشيب: جديد. استشنَّ الأديم: يبس الجلد،

والشنّ : القِرْبة البالية اليابسة . تأوّد القويم : اعوجّ المعتدل . استنار : أضاء وشاب . الليل البهيم : الشعر الأسود . وقال الشاعر فى معنى استشنّ الأديم :

يامَنْ لشيخٍ قد تخدّد لحمُهُ ... أفنى ثلاث عمائم ألْواناَ
سَوْداء حالكةٌ وسحق مفوّفٌ ... وأجدّلونا بعد ذاك هجانا
قصر الليالى خطوَه فتدانى ... وحَنَوْن قائمَ صُلْبه فتحانى
والموت يأتى بعد هذا كلِّه ... وكأنما يعنِي بذاك سوانا

وقال ابنُ الرومى فى استنارة الليل :

لجار على ليل الشباب فضامَه ... نهارُ مشيبٍ سرمدٌ ليس ينفد
وعَزّاك عن ليل الشباب معاشرٌ ... وقالوا نهار الشيب أهدَى وأرْشَدُ
وكان نهارُ المرء أهْدَى لرشْدِه ... ولكنّ ظلّ الليل أندى وأبرد

وأنشد الزاهد ابن عمران قول الشاعر :

لم أقل للشباب فى كنف الله ولا حفظه غَدَاة استقلاّ

فزاد بعد استقلا :

لاولا للمشيّب لمّاً بدالى ... مرحّباً بالمشيب أهلاً وسهلا
مؤذن بالحمام هذا وذاكم ... سوّدالصحفبالذنوب وولّى

وأحسن ماقيل فى ذم خضابه قول ابن الرومى :

رأيتُ خضاب المرء بعد مشيبه ... حداداً على فَقْد الشبيبة يلبس[(١)]
وإلا فما يغرى الفتى بخضابه ... أيطمع أن يخفى شبابٌ مدلّس
وكيف بأن يَخْفَى المشيب لناظر ... وكلّ ثلاث صُبْحه يتنفس
وَهبهُ يوارى شيبَه أين ماؤه ... وأين أديمٌ للشبيبة أملس

(١) ديوانه

وقال محمود الوراق :

ياخاضبَ الشيبةِ نحّ فقدها	فإنما تدرُجُها فى كَفَنِ
أما تراها منـــذ عاينتَها	تزيد فى الرأس بنقص البدنِ

قوله : ليس إلّا النّدم . ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أذنَبَ ذنباً أو أخطأ خطيئة فندم كانَ كَفّارةً لما صنع » .

وقال صلى الله عليه وسلم: « الدعاء سلاح المؤمن، وعماد الدين ونور السموات والأرض وإن لـكم من الله نَظِرة » .

كتب عبد الملك إلى الحجاج يتوعّد علىّ بن الحسين ويكتب إليه بما يقول فقعل ، فقال : إن لله لوحاً محفوظاً يلحظُه فى كلّ يوم مائة لحظة ، ليس منها لحظة إلا يُحْيِي فيها ويُميت ، ويُعِزّ ويُذِلّ ويفعل مايشاء ، وإنى لأرجو أن يكفيَك الله منها بلحظةٍ واحدة ، فكتب بها الحجاج إلى عبد الملك .

وكتب ملك الروم إلى عبد الملك : أكلت الجمل الذى ركب عليه أبوك من المدينة لأغزينّك جنودا مائة ألف ومائة ألف ، فكتب إليه عبد الملك بكلام علىّ فقال ملك الروم : ماخرج هذا إلا من كَلام النّبوة .

* * *

وكنتُ رُوِّيتُ من الأخبار المسنَدة ، والآثار المعتمدة ، أنَّ لـكم من الله تعالى فى كلّ يوم نَظْرة ، وأنَّ سلاح النّاس كلّهم الحْـديد ، وسلاحَـكم الأَدْعِية والتَّوْحيد ، فقصدْتُـكم أُنْضِي الرّواحل ، وأطوِي المراحِل ؛ حتى قمت هذا المقام لديْكم ، ولا مَنَّ لى عليكم ؛ إذ ماسعيتُ إلّا فى حاجتى ، ولا تعبْتُ إلّا لِراحتى ، ولستُ أبغى أعطيتَـكم ، بل أستدعى أَدْعِيتَـكُم ، ولا أسأَلُكم أموالَـكم ؛ بل أستَنْزِل سؤالَـكم ،

فادعوا اللهَ بتوفيق للمتاب ، والإعـداد للمآب ، فإنّه رفيع الدَّرجات ، مُجيب الدعوات ، وهو الذى يَقْبَل التّوبة عن عبـــاده ويعْفُو عن السيئات . ثم أنشد :

أستغفرُ اللهَ من ذنوبٍ أفرطتُ فيهنّ واعْتـدَيتُ
كم خُضْتُ بحرَ الضَّلالِ جَهْلاً ورحتُ فى الغىّ واغْتَدَيْتُ
وكم أطعتُ الْهوَى اغتراراً واختلْتُ واغتلتُ وافتريتُ
وكم خَلَعْت العِذارَ رَكْضاً إلى المعـــاصى وما وَنيتُ
وكم تنـاهيتُ فى التخطِّى إلى الْخطَايا ومَا انْتَهَيتُ
فليتَنِى كنتُ قبل هــذا نسْياً ولم أجْـــنِ ماجنيتُ
فالموت للمجرمينَ خـــيرٌ من المساعى التى سعيتُ
يارِبِّ عفواً فأنت أهــلٌ للعفْـــوِ عَنّى وإن عَصَيْتُ

* * *

أنضى الرواحل : أهزل الإبل . أطوى المراحل : أقطع الأرض مجتهداً ، وأردّ المرحلتين والثلاث مرحلةً واحدة . منّ : إحسان . أبغى : أطلب . الأعطية والأدعية : اسم لما يعطَى ولما يدعىَ . استنزل : أطلب بتلطّف . سؤالكم : طلبكم التوبة لى من الله تعالى . والمآب : الرجوع . يعفو : يمحو ، وعفا الله عنك : درس ذنوبك ومحاها ، من عفا المنزل : درس وانمحَتْ آثاره . وقال ابن المعتز :

كنت فى سفـــرة البطالة والغىّ زماناً فحان منى قـدوم
تُبْتُ عن كلِّ مأثمٍ فعسى يُمحى بهذا الحديثِ ذاك القديمُ

وله :

الله يعلم ما إثمٌ هممتُ به ... إلاّ ونغّصه خوفى من النّارِ
وإنّ نفسىَ ماهمَّتْ بمعصيةٍ ... إلا وقلبى عليها عائبٌ زارى

آخر :

تطالبنى نفسى بما فيه صونُها ... نأغضى ويسطو توقُها فأطيعُها
ووالله مايخفى علىّ ضلالُهـا ... ولـكنّها تأبَى فلا أستطيعُها

قوله : أفرطت ، أى ضيّعت . اعتديت : ظلمت نفسى ، قال داود الطائى : ما أخرج الله عبداً من ذُل المعصية إلى عز الطاعة إلا وأغناه بغير مالٍ ، وآنسه بغير أهلٍ ، وأعزّه بلا عشـيرة . خضت : جُزْتُ الغىَّ الضلال . اغترار : انخداع . اختَلْت : تـكبرت ومشيت تخيُّلاً ، واغتلت : أهلـكت ، والغِيـلة : القتل بالخداع ، وغالهم : قتلهم غِيلةً . افتريت : كذبت . خلعت العِــذار : أزلت لجامَ الدّين الذى يمسكنى ، وتسيَّبْتُ فى المعاصى . ركضا : جرياً ووثباً . ونيت : فترت وقصَّرت فى الجرى إليها . تناهيت : أى بلغت النّهاية ، وهى آخرُ الشىء : التخطى . الجواز والقطع ، وتخطَّيت الشىء : جزته ، والخطايا : الذنوب ، وهى من الخطأ لأنّ فاعلها مخطىء بفعلها . والنسىّ : الشىء المنسىّ لحقارته لايخطر ببالك فتنسْاه . أجْنِ : أكـتسب . المساعى : جمع مسعاة ، وهى السعى والمشى الـكديد ، والمساعى أيضاً : المواضع التى يُسْعَى فيها ، أى يُمْشىَ بكدّ ، وقال حبيب :

أخاف إلهى ثم أرجو نوالَه ... ولـكنّ خوفِى غالبٌ لرجائيا
ولولا رجائى واتـكالى على الذى ... تـكفّل لى بالصنع كهلاً وناشياَ
لـما ساغ لىعذبٌ من الماء بارد ... ولا لذّلى نوم ولازلت باكياَ
على أنه قــد كان منى جَهالةٌ ... ليـالىَ فيها كنتُ لله عاصيـا

أخذه من قول الحسن البصريّ : ينبغي أن يكون الخوف أغلبَ من الرجاء فإن الرّجاء إذا غلب الخوف فسد القلب .

* * *

قال الرّاوي : فطفقتِ الجماعةُ تُمِدُّه بالدُّعاء ، وهُوَ يُقلّبُ وجْهَهُ في السَّماء إلى أنْ دَمَعتْ أجْفانُهُ ، وبَدَا رَجفانُه ، فصاحَ : اللهُ أكبرُ بانَتْ أمارَةُ الاستِجابة ، وانجابَتْ غِشاوةُ الاستِرابة . فجُزِيتُمْ يا أهْلَ البُصَيْرَة ، جزَاء مَنْ هَدَى مِنَ الحَيْرَة .

فلم يبقَ من القَوْمِ إلَّا مَنْ سُرَّ لِسُرُورِه ؛ ورَضَخَ لَهُ بِمَيْسُورِهِ فقَبِلَ عفْوَ بِرِّهِمْ ، وأقْبَلَ يُغرِقُ في شُكْرِهِمْ .

ثمَّ انْحَدَرَ منَ الصَّخْرَةِ ، يَؤُمُّ شاطِئَ البَصْرَة ، واعْتَقَبْتهُ إلى حيثُ تخالَيْنا ، وأمِنَّا التَجسُّسَ والتَّحَسُّسَ عَلَيْنا ، فقلْتُ لهُ : لَقَدْ أغْرَبْتَ في هذهِ النَّوْبَةِ ، فما رأيُكَ في التَّوْبَةِ ، فقال : أُقسِمُ بعلَّامِ الخفيَّاتِ ، وغَفَّارِ الخطِيّاتِ ، إن شَأني لَعُجابٌ ، وإنَّ دعاءَ قومِكَ لَمُجابٌ ، فقلْتُ زِدْنِي إفصاحاً ، زادَكَ اللهُ صلاحاً فقال : وأَبِيكَ لقدْ قمْتُ فيهِمْ مقام المرِيب الخادِع ، ثمّ انقلبْتُ منْهمْ بقَلْبِ المُنِيب الخاشِع ، فطُوبَى لمنْ صَغَتْ قلوبُهُمْ إليه وويلٌ لمن باتَ يَدْعُونَ عَلَيْهِ . ثُمَّ ودَّعَنِي وانطَلَقَ ، وأَودَعَنِي القَلَقَ .

قوله : فطفقت ، أى أخذت وجعلت . تمدّه بالدعاء ، أى تَصل دعاءها بدعائه، وتقول: امددته بالمال، إذا قوّيتَه به، ومددتَه بالجيش. رَجَفانه: اهتزازه، ورجف الشيء : تحرّك، والرجفة : اهتزازُ الأرض. بانت : ظهرت . انجابت : انكشفت وزالَتْ . غشاوة الاستر ابة: غطاء الشكّ. رَضَخ : أعطى. ميسوره : ما تيسر له . وعفو برهم : فضل إحسانهم . يهرف : يكثر الكلام ويُطْنِب فى الشكر . انحدر : انصبّ . يؤمّ : يقصد . شاطىء : ساحل . اعتقبته : تبعته . تخاليْنا : صِرْنا فى خلوة من الناس . التّجسّس : طلب الشيء باليد ، وقيل : التجسّس: طلب الشيء بالكلام . والتّحسس : طلبه باليد، ثم قد يقع كلّ واحد منهما موقع صاحبه . ابن الأنباريّ : تجسس الرجل وتحسّس بمعنى واحد ، هذا إجماع أهل اللغة . وفرّق بينهما يحيى بن أبى كثير ، فقال : التحسّس البحث عن عورات الناس والتجسّس الاستماع لحديث القوم . ابن الأنبارى : الجاسوس : الباحث على أمور الناس . النّوْبة : الدولة . إيضاحاً : بياناً . المريب : صاحب الريبة . المنيب : الرّاجع إلى الله بتوبته . الخاشع : هو الخاضع . صغت : مالت .

* * *

فلمْ أَزَلْ أعانِى لأجْلِه الفِكَر ، وأتشوّفُ إلى خِبْرةِ ما ذَكر . وكلّما استنشيْتُ خَبَره مِنَ الرّكبان ، وجَوّابةِ البُلْدَان ، كنتُ كمن حَاوَر عجْمَاء ، أو نادَى صَخْرةً صَمّاء ، إلى أن لقيتُ بعد تَرَاخِى الأمَد ، وتَرَاقِى الكَمَدَ ركباً قافِلِين مِنْ سَفر ، فقلتُ : هَلْ من مغَرِّبةِ خَبَر ؟ فقالوا. إنّ عندنا لخبراً أَغْربَ مِنَ العَنْقَاء ، وأَعْجبَ مِنْ نَظَرِ الزّرْقَاء .

* * *

أعانى : أقاسى. أتشوف: أتطلع . خِبْرة: اختبار . استَنْشَيْت : استطلعت، وأصل معناه شممت . جوّابة : قطّاعة . وجَوّالة أى الذين عادتهم الجوَلان فى

البلاد . حاور : كلّم. عَجْماء : بهيمة، والمحاورة : المراجعة فى الـكلام. تراخى : طُول المدة . الـكمَد : مُصاحبة الهمّ والحزَن . ركباً : أصحاب الإبل . قافلين : راجعين من سفر . مغرّبة ، أى هل عندكم من حديث غريب . والعنقاء ، قال ابن عباس رضى الله عنه : هو طائرٌ فُضّل به بنو إسرائيل ، فانتقل بعد يوشع إلى بلاد قيس عيلان بنجدْ والحجاز ، فآذى الولدان، فشكوْا ذلك إلى خالد ابن سنان ـ وكان نبيًّا بين عيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام ـ فدعا الله أن يَقْطع نَسْلها فبقيت صورتها تصوَّر فى البسط ، وكان أَجمل طائر وأعظمه ، ووجْهه على هيئة وجوه النـاس . وقال أهل الرواية : عنقاء مُغْرِب ، إنما هو الأمر العجيب . والعَنَق : السرعة ، وذكرتْ عجائبَ البلدان بمجلس الراضى، فقال قائل : أَعجَبُ ما فى الدنيا طائر بأرضَ طبرِستان على شاطىء الأنهار شبيه بالباشق ، يسمّى الـكلم ، وهو يصيح فى فصل الربيع فتجتمع إليه العصافير ، وصغار الطير ، فتزقّه ، فإذا كان آخر النهار أخذ واحداً مما قرب من الطير فيأكله ، فذلك فعلُه إلى أن ينقضى فصل الربيع، فتجتمع إليه العصافير وصغار الطّير فتطرده وتضربه، فيفرّ منها فلا يسمع له صوت إلى الفصل الربيعى . وهو طائر حسن ، موشّى العينين .

وذكر الجاحظ أنه من عجائب الدنيا ، وذلك أنّه لا يَطَأْ الأرض بقدميه ، بل بإحداهما خوفاً على الأرض أَن تنخسف من تحته ، والثانى دودة تُضِيء بالليل كالشمع ، وتصير بالنّهار لها أجنحة خُضْر ،وبالليل لا جناحين لها ، غذاؤها التراب ، لم تشبع قط منه خوفاً أن يفنى التّراب فتموت جوعاً ، والثالث أعجب من الطائر ،والدّودة من يكرى نفسه للقتال،يعنى المسترزقة من الجند ، فاستحسن الخبرَ مَنْ حضر ، فقال الرّاضى معارضاً لما ذكر الجاحظ أنّ أعجب ما فى الدنيا ثلاث : البوم ، لا تظهر بالنهار خوفاً أن تصيبها العين لحسنها وجمالهـا ، فتظهر بالليل ، الثـانى الـكركىّ لا يطأ الأرض بقدميه معاً بل بإحداهما فإذا وطئها

لم يعتمد عليها اعتماداً قوياً خوفاً من أن تنخسف الأرض بثقله ، الثالث الطائر الذى يقعد فى مشارق الماء من الأنهار الذى يُعْرَف بمالك الحزين ، يشبه الكركىّ لا يشبع من الماء خشية أن يفنَى فيموت عطشاً . فافترق أهلُ المجلس والكلّ متعجبون من الرّاضى كيف تأتِى منه مثل هذه المذاكرة مع مَنْ حضر من أهل السنّ والمعرفة مع صِغَر سنه . والحكاية بكمالها فى كتاب المسعودى .

[الزرقاء]

وأما الزرقاء فكانت تُبْصِر على مسيرة ثلاث ليال ، وكانت من جَدِيس ابن عامر بن إرَم بن سام بن نوح ، وكان مع جَدِيس طَسْم بن لاوذ بن إرَم ، وكانت مملكتُهم فى طسْم ، وكانوا يَسْكنون اليمامة ، وهما من العرب العاربة فأقاموا بُرْهة ، وبلادهم أفضلُ البلاد ، حدائق ملتفّة ، وقصور مصطفّة ، فكفروا بأنعم الله فأهلكهم ، وذلك لأنهم ملَكَهم عِمْلوق بن طسْم ، وكان غشوماً لا يملك نفسَه فى هواه ،فاختصمت إليه امرأة من جَدِيس اسمها هزيلة مع زوجها فى ابن لهَا ،فأمر بالولد فجعلَ فى غلمانه،وأمر بالزوج أن يُباع وتُعْطَى المرأة عُشْر ثمنه ، وبالمرأة أن تَباع ويُعطَى الزوج خمس ثمنها ، فقالت هزَيلة :

أتينا أخا طسْمٍ ليحكم بيننا   فأبدع حُكْماً فى هزيلَة ظَالِما

وهى أبيات ، فبلغَه قولُها ،فأمر ألاّ تزوّج امرأة من جَدِيسٍ حتى تُحمَل إليه قبل زَوْجها فيمتذرها ، فلقوا منه ذلًّا طويلا إلى أن تزوّجت الشموس بنت غفَار أخت الأسود بن غفار ، وكان سيّدَ جَدِيس فلما كانت ليلَة إهدائها حُمِلت إليه ، والقيان معها يقُلْن :

ابدأْ بعملوقٍ إليه فاركبِ   وبادر الصّبْح بأمرٍ معجبِ

* فما لبكر بعدكم من مذهبِ *

فلما افتضّها ، خرجت على قومها فى دمائها شاقة جيبها من دُبر ومن قُبُل وهى تقول :

أيصلح ما يؤتى على فتياتكم ... وأنتم رجال فيكمُ عددُ الرَّمْلِ
فإن أنتمُ لم تغضبوا بعد هذه ... فكونوا نساء لا تفرّ من الفحْلِ
فلو أننا كنّا رجالًا وكُنْتمُ ... نساء لكنا لا نُقيم على الذلّ

فأنفت جديس عند ذلك ، واجتمعت إلى أخيها الأسود ، وأجمعوا على أن يصنعوا لها طعاماً ، فيدعو عملوقاً مع قومه فإذا جاءوا فى الخيل والبغال عمَّوهم بالقتل ، فقالت الشموس لأخيها : الغدر عار وعاقبته بوار،صبحّوا القوم فى ديارهم تظفرُوا أو تموتوا كراماً ، فقالوا لها :المكرُ أمكنُ من نواصيهم . ثم صنع لهم الطعام ودفنوا سيوفهم فى الرمل ، فلما استكملوا فى المدْعاة أتوا عليهم أجمعين ، وهرب من طسم رياح بن مرة،فأتى حسان بن تبع لينصره، فاستبعدوا أرضَهم ، وكان قد تُبّع لرياح كلبة ، فضربها فى رجْلها حتى عرجت ، فقال : أبعيدة أرض قطعتْها كلبة عرْجاء ! فتجهز معه بجيش فلما صاروا من جديس على ثلاثة أيام ، صعدت الزرقاء على منارٍ كان لها لتنظر الجيش، وكان رياح قد قال لهم : إنّ الزرقاء تُبْصِر على ثلاث ليال ، ولكنْ ليقطعْ كل رجلٍ منكم غصناً من شجر ، فيحمله للتشبّه عليها ، فلما رأتهم، قالت : يا قوم أتتكم الشجر أو أتتكم حِمْير ، فلم يصدقوها فقالت :

أُقسِمُ بالله لقد دبَّ الشَّجَرْ ... أو حمير قد أقبلت شيأ تجرّ

فكذّبوها ، وقالوا . كلَّ بصرُكِ وضَعُف ،فقالت:أقسِم بالله لقد أرى رجلا ينهش كَتِفاً ، أو يَخْصِفُ نعلا،فتهاونوا بحديثها ، حتى صبَّحهم حسان فاجتاحهم فأخِذت الزّرقاء ، فشق عيناها فإذا فيها عروق سود من الإثمد ، وكانت أول مَن اكتحل به ، وهرب الأسود ،.فنزل بطيّء ، فنسله فيهم ، وتسمى زرقاء

اليمامة ،واسم البلد جوّ، فلما صُلِبت على بابها ، سُمِّيت اليمامة ، وقيل: اليمامة اسم البلد ، واسم الزرقاء عَنْز ، وقيل إن حسّانًا لم يصلبها ، ولـكن حملها فى السَّبْيِ ، وقالت عندما قُرِّبَ لها البعير لتركبه ، ولم تـكن اعتادت ركوبه :

شرّ يوميها وأغواه لهـا   ركِبَتْ عَنْز بحِدْجٍ جَمَلًا

وقيل إن عنزا هى أخت الزرقاء ، وقال الشاعر :

ما نظرتْ ذات أجفان كنظرتها   حقًّا كما صدع الذّين الذّى صدعا

قالت أرى رجلًا فى كَفّه كتِفٌ   أو يخصف النَّعْل لَهفِى أيةً صنعا

فـكذّبوها فوافتْهَا على عَجَـلٍ   أقيال حمير تُزْجِى الموت والشّرعا

فاستنزلوا أهل جوٍّ من معاقلهم   وهَدّموا شامخ البنيان فاتَّضعا

* * *

فسألتُهُمْ إيضاحَ ما قالُوا ، وأنْ يكيلُو لِي بما اكْتالوا ، فحكَوْا أنَّهُمْ ألمُّوا بِسَرُوح، بعد أن فارقهاَ العُلوج،فرأَوْا أَبَا زَيْدِها المعروف، قدْ لبِسَ الصُّوفَ ، وأمَّ الصُّفُوفَ وَصارَ بِهاَ الزّاهِدَ الْمَوْصُوف ، فقلت: أتعنُونَ ذَا الْمقامات . فقَالُوا: إنّه الآن ذُو الـكَرامات،فحفزنى إليه النِّزَاع ، ورأيتُهاَ فُرْصة لا تُضاَع ، فارتحلْتُ رِحْلَةَ المُعِدّ ، وسِرْتُ نَحْوَهُ سَيْرَ الْمُجِدّ ، حتّى حَلَلْتُ بمسجدِه ، وقَرارَةِ مُتَعبَّدِه ، فإذا هو قد نَبَذَ صُحْبَةَ أصْحَابِهِ ،وانتصَبَ فى مِحْرَابِهِ ،وهُوَ ذُو عباءةٍ مخلولة ،وشَمْلَةٍ مَوْصولةٍ ؛ فهِبْتُهُ مَهاَبَةَ مَنْ وَلجَ على الأُسود ، وألفيتُهُ مِمَّنْ سِيماهُمْ فى وُجُوهِهم من أَثَرِ السُّجُود . ولمّا فرَغَ من سُبْحَتِه . حَيّانى بِمُسَبّحَتِه ، من غير أنْ نَغَمَ بحَديثٍ ، ولا استخْبَرَ عن قديم ولاحَديث ، ثمّ أقبل

على أَوْرَادِه ، وتَرَكَنِي أَعْجَبُ من اجْتِهَادِه ، وأَغْبِطُ مَنْ يَهْدِي اللّٰهُ من عباده. ولم يزل فى قُنوتٍ وخُشُوع ، وسُجُود ورُكُوع ، وإخْبَاتٍ وخُضُوع ، إلى أن أكْمَلَ إقامة الخمس ، وصار اليوم أَمْسِ ، فحينئذٍ انكفأ بِي إلى بيته ، وأسهمني فى قُرْصِهِ وزَيْتِهِ . ثم نهض إلى مُصَلَّاه ، وتخلَّى بمناجاة مَوْلَاه ؛ حتَّى إذا الْتَمَعَ الْفَجر ، وحقّ للمجتهد الأَجْر ، عقَّبَ تهجُّدَه بالتَّسْبيح ، ثم اضطجع ضِجْعَةَ الْمُسْتَرِيحِ ، وجَعَلَ يُرَجِّعُ بصوتٍ فصيح :

* * *

قوله : يكيلوا لى ما اكتالوا ، أى يعطونى ما أُعطوا من العلم . ألمُّوا : نزلوا . العلوج : الروم . أَمّ : صار إماما . حفزنى : عَجَّلَنِي . النزاع : الشوق . قرصة : غنيمة . المعدّ : الكامل العُدّة فى السفر . قرارة : الموضع الذى يقرّ فيه . متعبّده : موضع عبادته . نبذ : ترك . انتصب : قام ووقف . المحراب عند العرب : سيد المجالس ومقدَّمها وأشرفها ، وقيل للقبلة محراب لأنه أشرف موضع فى المسجد ، وقيل للقصر محراب لأنه سيّد المنازل . الأصمعيّ المحراب عندهم : الغُرْفة .

أحمد بن عبيد : المِحْراب : مجلس الملك ، سمى بذلك لانفراد الملك به لا يقرَبُه أحد ، وسُمِّيَ محراب المسجد لانفراد الإمام به ، ويقال فلان : حَرْب لفلان ، إذا كان بينهما مباعدة . عباءة : كِساء . مخلولة بالية مشدودة بالخلال والشَّمْلَة : الكِساء يُشْتَمل به . موصولة ، يريد أنها خلَقه قد تقطَّعت فوُصِلت وَلَجَ : دخل . ألفيته : وجدته . سيماهم : علامتهم حيّانى بمسبّحته ، أى بسبّابته وقد تقدّم ذكرها . نغم : تكلم بكلام خفىٍّ : والأَوْرَاد : جمع وِرْد ، وهو النصيب من القرآن يقوم به الإنسان كلّ ليلة . أغبط : أحسد وأتمنّى أن أكون مثله .

وسجود وركوع: سجد الرجل إذا انحنى ومال إلى الأرض ، من قول العرب: سجدت الدابة وأسجدت، إذا خفضت رأسها لتركيب، ويقال : قنت الرجل ، إذا أخذ فى التّعظيم والدعاء لله تعالى ، والقنوت على أربعة أقسام : الطاعة كقوله تعالى:(كُلٌّ لهُ قانِتُون) والصّلاة كقوله تعالى:(اقْنُتِي لرِّبكِ واسجُدِي)، وطول القيام ، كقوله صلى الله عليه وسلم وقد سئل : أىّ الصلاة أفضلُ؟ فقال: طول القنوت والسكوت، كقول زيد بن أرقم كنا نتكلم فى الصلاة يكلّمُ أحدُنا الذى يليه حتى نزلَ(وقُومُوا لله قَانِتِينَ) فأمسَكْنا عن الكلام، قال أبو عبيدة : نرى أنّ القنوت فى الصُّبْح سمِّيَ قنوتا لأن الإنسان قائمٌ فى الدُّعاء من غير أن يقرأ القرآن،فكأنه فى سكوت . إخبات، أى تذلل . انكفأ : انقلب . أسْهمنى ، أى أعطانى سهماً ، أى نصيباً . تهجّده : قيامه للصلاة .

* * *

خلِّ ادّكارَ الأرْبُعِ ... والمَعْهَدِ المرتبعِ
والظّاعِنِ المودِّعِ ... وَعَدِّ عنه وَدَعِ
واندُبْ زماناً سَلَفَا ... سَوَّدْتَ فيه الصُّحُفَا
ولم تَزَلْ مُعْتَكِفَا ... عَلَى الْقَبِيحِ الشَّنِعِ
كم ليلةٍ أَوْدَعْتَهَا ... مآثماً أبْدَعْتَها
لِشَهْوَةٍ أَطَعْتَهَا ... فى مَرْقَدٍ ومَضْجَعِ
وكم خُطاً حَثَثْتَهَا ... فى خَزْيةٍ أحْدَثتَها
وتوبةٍ نكثْتَهَا ... لملعبٍ ومَرْتَعِ
وكمْ تجرَّأتَ عَلَى ... ربِّ السَّموات العُلا
ولمْ تُراقِبْهُ وَلَا ... صَدَقْتَ فِيمَا تَدَّعِي

وكَمْ غمَضْتَ بِرَّهُ ... وكم أمِنْتَ مَكْرَهُ

وكم نَبَذْتَ أَمْرَه ... نَبْذ الحِذَا المُرَقَّعِ

ولَمْ رَكَضْتَ فى اللَّعِبْ ... وفُهْتَ عمداً بالكذبْ

ولَمْ تراعِ ما يَجِبْ ... من عَهْدِهِ المتَّبَعِ

فالْبَسْ شعارَ النَّدِمِ ... واسْكُبْ شآبيب الدَّمِ

قبْلَ زوالِ القَدَمِ ... وقَبْلَ سوءِ المَصْرَعِ

واخْضَعْ خُضُوعَ المعتَرِفْ ... ولُذْ ملاذَ المقترِفْ

واعْصِ هَوَاكَ وانْحَرِفْ ... عَنْهُ انحرافَ الْمُقْلِعِ

إلَامَ تَسْهُو وتَنِي ... ومُعْظَمُ العُمْرِ فَنِي!

فيما يضرُّ المقتني ... ولَسْتَ بالمُرْتَدِعِ

أما تَرَى الشَّيْبَ وخَطْ ... وخَطَّ فى الرَّأس خُطَطْ

ومَنْ يَلُحْ وَخْطُ الشَّمَطْ ... بِفَوْدِهِ فقَدْ نُعِى

* * *

ادّكار : تذكر . الأربع : المنازل . عدّ : كُفّ . دَع : اترك . اندب : ابك . سلف : ذهب وتقدّم . الصحف : الكتب . المعتكف : المقيم . الشنع : الذى يُتحدّث يقبحه . أودعتها : أى ضمنتها وجعلتها فيه . المآثم : الذّنوب . أَبدعتها : اخترعتها. خطاً : جمع خُطوة وهى الباع . حثثتها : عجلتها . خِزْى : هوان. ونكثتها : نقضتها . مرتع: أكل رغد . تجرأت : تشجّعت وأقدمت. تُراقبه : تحارسه وتخشى منه . غمضت : نقصت . بره : إحسانه . نبذت : تركت . الحذاء : النعل . ركضت : جريت . فُهْت : نطقت . تُراع : تحفظ .

والعهد : الميثاق . شِعار : ثوب يُلْصَق بالجسد . اسكب : اسكب : صبّ . شآبيب : دُفَع المطر ، واحدها شؤبوب ، فاستعارها للدم كما استعار الدم للدمع. المصرع : موضع السَّقطة وصرعت: أسقطت . لُذْ : الجأ. ملاذ : ملجأ. المقترف: المذنب . انحرف : مل . المقلع : الذى يقلع عن المعاصى ويفارقها . تسهو : تخطىء . تنى : تفتر . فنى : تمَّ ، سكَّن الياء ضرورة . المقتنى : المكتسب . المرتدع : المنتهى الكافّ عن شهواته. وَخَط : فشا وانتشر ، والوخط : مخالطة بياض شيب الرأس بسواده ، والوخط فى غير هذا الطَّعْن غير النافذ . خَطّ : كتب . خطط : طرائق . والشّمط : اختلاط بياض الشيب بسواد الشعر . بفوْده : بجانب رأسه . نعى : تحدّث بموته ، وقال الألبيرى :

الشَّيب نبّه ذَا النُّهى فتنبّها ... ونَهى الجهولَ فاستفاق ولاانْتَهَى

بل زاد غيًّا نفسه فتهافتتْ ... تبغى اللّهى وكأنّها بين اللّها

فإلى متى ألهو وأفرح بالمُنَى ... والشيخ أقبح ما يكون إذا لهَا

ماحسنه إلا التُّقى لا أن يرى ... صبًّا بألحاظ الجآذر والمهَا

أنّى يقاتِلُ وهو مغلول الظّبا ... كأبى الجرىّ إذا استقلّ تأوّها

محقَ الزمانُ هلالَهُ فكأنّما ... أبقى له منه على قدر السُّها

فغدا حسيراً يشتهى أن يشتهى ... ولكم جَرَى طلقَ الجمُوح كمااشتهى

إن أنّ أوّاه وأجهش بالبُكا ... لذنوبه ضحِك العدوّ وقهْقهَا

ليست تُنَهْنِهُهُ العِظاتُ ومثلُهُ ... فى سنّه قد آن أن يتَنَهْنَها

فقد اللّذاتِ وزاد غيًّا بعدهم ... هلاَّ تيقَّظ بعدهمْ وتَنَبَّها

فاويحه ما بالُه لايَنْتَهِى ... عن غيِّه والعمرُ منه قد انْتَهى !

* * *

وَيحكِ يا نفسُ احْرِصِي على ارتيـــادِ المَخْلَصِ
وطـاوِعِي وأَخْلِصِي واسْتَمِعِي النُّصْحَ وَعِي
واعْتَـبِرِى بِمَنْ مَضَى من القُرُونِ وانْقَضَى
واخْشَىْ مُفَـاجاةَ القَضاَ وحَاذِرِى أن تُخْدَعِي
وانتَهِجِى سُبْلَ الهُـدَى وادَّكِرِى وَشْكَ الرَّدَى
وأَنَّ مثواكِ غَـــدَا في قَعْرِ لَحْـــدٍ بَلْقَعِ
آهًا له بيتَ البِـــلَى والمنزلَ القفْرَ الخَـــلا
وموردَ السَّفْرِ الأولَى واللَّاحِقِ المتبِـــع
بَيْتٌ يُرَى مَنْ أُودِعَهْ قَدْ ضَمَّـهُ واسْتُودِعَهْ
بَعْدَ الفضـــاءِ والسَّعَهْ قِيـــدُ ثلاثِ أَذْرُعِ
لا فَرْقَ أن يَحُـــلَّهُ داهِيَـــةٌ أو أَبْلَهُ
أو مُعْسِرٌ أو مَنْ لَهُ مُلْكٌ كَمُلْكِ تُبَّعِ

* * *

قوله : ارتياد ، أى طلب . المخلص : المنْجَى . عى : احفظى ، وهـو أمر للمؤنث من وَعَى يَعِى . اعتبرى: اتعظى . القرون : الأمم السابقـة : انقضى : فرغ وتم . والقضاء هنا : الموت . ومفاجأته : إتيانه على غفلة . حاذِرى : خافى. انتهِجِى : اسلُكى وامشى فى نهج ، وهـو الطريق البين . سبل الهدى : طرق الرشاد . ادَّكرى : تذكّرى . وشك الردى : سرعة الموت . مثواكِ : موضع إقامتك، لأنّ المثوى والثّواء: الإقامة . والمثوى : الموضع الذِى تقيم فيه . لحد : شق فى جانب القبر . بلقع : خالٍ . آها : كلمة توجع . مورد : موضع المـاء .

السّفر: المسافرون . الأولى: الأولون المتقدّمون،والألى: مقلوب الأول، تقول : أولَى وأوَّلُ كَكُبْرى وكُبَر ،وأخرى وأُخَر ، ثم قلبوا الأول فقالوا: الأولى ، وتأتى الأولى فى كلامهم بمعنى الذين موصولة وهى كثيرة ، يريد أن القبر موردٌ للأولين والآخرين ،وسماهم سفراً، لأن الإنسان فى الدنيا مسافر لا يقيم ؛ إنما يقطعُ أيامه ، وقال التّهامى :

العيش نومٌ والمنيَّـة يقظة   والمرء بينهما خيالٌ سارِى
فاقضُوا مآربكمْ عجالاً إنما   أعماركمْ سفرٌ من الأسفارِ

قِيْد : قَدْر ، فإن قيل : كيف جعل القبر ثلاثة أذرع ، والذراع شبران ، والقدر قدره مابين تسعة أشبار إلى ثمانية؟ فأخبرنى الحاج ابن السقاط أن عندهم بالمشرق ذراعاً يسمونه المالكى ، يذرعُون به ثيابهم وغيرها فيه من ذراع اليد ذراع ونصف .

وقال أبو القاسم الزجاجى : الذّراع الهاشمى ذراع وثلث ، ففى ثلاثة أذرع بالهاشمى ثمانية ففى ثلاثة أذرع بالهاشمى ثمانية أشبار ،وبالمالكى تسعة أشبار ، فإحدى الذراعين أراد .

وإنما نقل لفظ ثلاثة أذرع من قول عطاء بن يسار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه: كيف بك إذا أنت مت ؟ فانطلق بك قومك ، فقاسوا لك ثلاثة أذرع فى ذراع وشبر ، ثم رجعوا بك فغسلوك وكفنوك وحنّطوك ثم حملوك حتى يضعوك فيه ،ثم يهيلوا عليك التراب ويدفنوك،فإذا انصرفوا عنك أتاك فتّانا القبر مُنكَر ونكير أصواتهما كالرعد القاصف، وأبصارهما كالبرق الخاطف، يجرّان أشعارهما ،ويحثيان التراب بأنيابهما فتلتلاك وتَرْتراك، كيف بك عند ذلك ياعمر؟ قال عمر :ويكون معى مثل عقلى هذا ؟ قال : نعم ، قال : فإذن أكفيكهما .

[ذكر تبع الأكبر]

داهية : مجرب للأمور حاذق بها . أبله : عى كثير الغفلة . مُعْسِر: فقير . تبع ، أراد به تُبَّعًا الأكبر ، وهو الذى ذكر الله فى كتابه .

قال صاحب التيجان . اسمه شمو رعش بن ناشر النعم ، وسمى أبوه ناشر النعم لأنه أحيا مُلْك حمير بعــد أربعين عاماً ، وهى أيام مُلْك سليمان وسمى شمفورش تبّعا الأكبر ، وإن كانت العرب لم تسمٍّ قبله تُبَّعًا لأن العرب لم يقم لها أحفظ منه ، وكان يتجاوز عن مسيئهم ويُحسن إلى محسنهم ، وكان جميع أهل الأرض شاكرين لأيامه، وكان أعقل مَنْ رأوا من الملوك وأعلاهم همة، وأبعدهم غَوْراً، وأشدهم مكراً لمن حارب ،وغزا جميع ملوك الآفاق ، وقطع بجيوشه الأرض كلَّها شرقاً وغرباً. ثم رجع إلى قصر غمدان يدير ملك الأرض وذلَّتْ له ملوكها وعمَّر زماناً طــويلا ، وهو أوَّلُ مَنْ أمر بصنعة الدروع السوابغ ، جعل على أهل فارس ألف درْع ، وعلى الروم ألفِ درْع ، وعلى اليمن كذلك ، وعلى ممالكه كلها مثل ذلك فكانوا يَغْدُون عليه كل سنة بذلك العدد ، ولذلك قال أبو ذؤيب :

وعليــه مسرودتان قَضَاهما داود أو صنع السوابغ تُبّعُ

وقال ابن الكلبي: لم يملك الأرض كلّها إلا ثلاثة أبرار ،وهم سليمان عليه السلام وذو القرنين وتُبّع ، وهو أســعد وأبو كرب . وثلاثة كُفّار ، وهم النمروذ وبختنصر والضّحاك. وأبو كرِب الذى ذكر هو تبع، وكان مَلِكاً عظيما ، فتح البلاد ، وملك العباد ، وأقبل من اليمن يريد العراق فنزل الحيرة وحفر لهم نهراً ، وهو نهر الحــيرة إلى سوقها ، وبعث إليه حسان فى جنده ليطوفَ الأرض،فمضى به حسان فى عسكر عظيم جرار، لا يمرّ بمدينة إلاافتحها ولا ملك إلا قهره . وقيل فى تسمية ملوك اليمن تبابعة أنه لكثرة مايقبع الملك منهم من الجنود . وقيل: سُمِّى تُبَّعًا لأنه تبع من قبله . ولابن سُكَّرة فى معنى بيت المقامة .

الجوع يطرَد بالرغيف اليابس ... فعلام تُكْثِر حسرتى ووساوسِى
والموت أنصف حين عدّل قسمة ... بين الخليفة والفقير البائس

* * *

وبَعدَهُ الْعَرض الَّذِى ... يَحْوِى الحَيِيَّ والْبَذِى
والمبتدِى والْمُحْتَذِى ... ومَنْ رَعَى ومَنْ رُعِى
فَيَا مفاز المتَّقِى ... وربْحَ عَبْدٍ قَدْ وُقِى
سُوءَ الحسابِ الْمُوبِقِ ... وهَوْلَ يوم ِ الْفَزَعِ
ويا خَسارَ مَنْ بَغَى ... ومَنْ تَعَدَّى وطَغَى
وشبَّ نيرانَ الْوَغَى ... لمطعَمٍ أو مَطْمَعِ
يا مَنْ عليه المتَّكلْ ... قَدْ زاد ما بِى من وَجَلْ
لما اجتَرَحْتُ مِنْ زَلَلْ ... فى عُمْرِىَ الْمُضَيَّعِ
فاغْفِرْ لعبدٍ مُجْتَرِمْ ... وارْحَمْ بُكَاءَ الْمُنْسَجِمْ
فأنْتَ أَوْلَى مَنْ رَحِمْ ... وخيرُ مَدْعُوٍّ دُعِى

* * *

قوله : وبعد العرض ، يريد عَرْض الناس للحساب . يحوى : يضُمّ . الحيى : المستحيى . البذِىّ : المتكلم بالفواحش. المحتذى : المتبع:الحاذى حذوه. رعى : ملك ، يريد أن العَرْض يعمّ الناس، فيحتوى على العفيف والبذى ،وعلى الأغنياء والفقراء والملوك ورعيتهم ولا يتميز فيه أحد ولايشرف إلا بعمل صالح . قوله : فيامفاز المتقى . المفاز : الخلاص . وقى : كُفى . الموبق : المهلك . هَوْل : خوف . بَغَى : ظلم . وتعدّى : جاوز الحد فى جوره . طغى : جاوز الحد فى تكبره . شبَّ : أوقد . الوغَى : الحرب . وجل . خَوْف . اجترحت :

اكتسبت . زلل : خطأ . زفـــير : نفخ . والشهيق : رد النَّفَس مع البكاء بصوت . ردْفه : خلفه .

* * *

قال الحارثُ بن همَّام : فلم يَزَلْ يُرَدّدُها بصوتٍ رقيق ، ويَصِلُها بزفـــيرٍ وشَهيقٍ ، حتّى بَـكيتُ لبـكاءِ عَيْنَيْه ، كما كنتُ من قبلُ أَبْـكِي عَلَيْه . ثم بَرَزَ إلى مسجده، بوُضُوءِ تهجّده ، فانطَقْتُ رِدْفَهُ ، وصَلَّيتُ مع مَنْ صلّى خلفه . ولما انْفضَّ مَنْ حَضَرَ ،وتَفرّقُوا شَغَرَ بَغَر، أَخَـذ يُهَيْنِمُ بِدَرْسِهِ ، ويَسْبِكُ يومَهُ في قالِبِ أَمْسِهِ ، وفي ضِمْنِ ذَلِكَ يُرِنُّ إرنانَ الرَّقُوب ، ويَبْـكِي ولا بكاءَ يَعْقوب ، حتّى استَبَنْتُ أنّه الْتَحق بالأَفْرَاد ، وأُشْرِبَ قلبهُ هـوى الانْفِرَاد ، فأَخْطَرْتُ بقَلْبِي عَزْمه الارْتحال، وتخليتَه والتَّخَلِّيَ بتلك الحال، فـكأنّه تَفَرَّسَ ما نوَيْت أو كوشِفَ بِمَا أَخْفَيْت ، فزَفَرَ زفيرَ الأوّاه ثم قرأ: «فإذا عَزَمتَ فتوكَّلْ على الله » ؛ فأَسْجَلْتُ عِنْدَ ذلك بصدْق المحدَّثين ، وأيقَنْتُ أنَّ في الأمّةِ محدَّثين . ثم دنوتُ إليه كما يَدْنُو المُصافح ، وقلت : أوْصِني أيُّهَا الْعَبْدُ الصَّالح . فقال : اجْعَلِ الموْتَ نُصْبَ عَيْنِكَ ، وهذافِرَاقُ بيني وبينِك . فودَّعتُه وعَبَرَاتي ، يتحدّرْن من المآقي ، وزفَراتي يتصعَّدن من التَّراقِي ، وكانت هذه خاتِمة التّلَاقي .

* * *

انفض : تفرق . شغَر بغَر ، أى فى كل طريق وعلى كل جهة . يهيم : يرد كلامه خفياً لا يفهم . يسبك يومه فى قالب أمسه : استعارة ، أى يفعل فى اليوم ما فعل فى الأمس . وفى ضمن ذلك ، أى فى أثنائه. يرنّ : يصوت . الرَّقُوب : المرأة التى لا يعيش لها ولد . ولا بكاء يعقوب : يجوز رفع بكاء ونصبه والرفع أكثر. وبكاء يعقوب على يوسف عليهما السلام حتى عَمِىَ ، وهو قوله تعالى : « وابيضَّتْ عيناه من الحزْن فهو كظيم » ، استبنت :تحققت. الأفراد: العباد ، يقال:فلان فرد فضله، أى ليس له نظير ، والأفراد سبعة من العباد لا تخلو الدنيا منهم حتى إذا مات واحد خلف الله تعالى فى موضعه آخر . أُشْرِب : خولط وغلب عليه . هوى الانفراد : حب الوحدة ، قال ابن الرومى :

إلى الزّهاد فى الدُّنيا جنان الخلد تشتاقُ
عبيد من خطاياهمْ إلى الرحمن أُبَّاقُ
حدَتهمْ نحوه الرَّغبة مع الرَّهبان فاستاقوا
عليهم حين تلقاهم سكينات وإطراقُ
يضجون إلى الله ودمع العينِ مهراقُ
مليك الملك هل مما تطوّقناه إطْلاَقُ
ففى أعناقنا طرًّا من الآثام أطواق

وللفقيه أبى العباس بن خليل :

فهموا إشارات الحبيب فهاموا وأقام أمْرَهمُ الرَّشاد فقامُوا
وتوسَّلوا بمدامعٍ منهلَّةٍ تحت الدياجى والأنام نيامُ
وتلوا من الذكر الحكيم جوامعاً جُمِعت لها الألباب والأفهام
ياصاح لو أبصرت ليلهم وقد صفت القلوبُ وصُفَّت الأقدام

لرأيت نورَ هداية قد حفَّهمْ فسرَى السُّرور وأشرق الإظلامُ
فهم العبيد الخادمون مليكهمْ نعم العبيد وأفلح الخدَّامُ
سلموا من الآفات لما استسلموا فعليهمُ حتى المماتِ سلامُ

وقالوا فى هوى الانفراد : الوحدة خير من القرين السوء ، وأنشدوا :

أنِسْتُ بالوحدة علماً بها فإنها خير من الجمعِ
ألا ترى الواحد أصْلاً لما يحسب من أصلٍ ومن فرعِ
أتركُ من لا أرتجى نفعَه رجاء ربِّ الضر والنفعِ

آخر :

أنست بوحدتى حتى لو انى أتانى الأنس لاستوحشت منه
ولم تدع التجارب لى صديقاً أميل إليه إلَّا مِلْتُ عنه

وقال آخر :

اهرب بنفسك تستأنسْ بوحدتها تلق الرَّشاد إذا ما كنت منفردا
إنَّ السِّباع لتهدأ فى مرابضها والناس ليس بهادٍ شرَّهمْ أبدا

قوله : تفرّس ، أى علم بفراسته وجوْدة نظره . نويت: أضمرت فى نيتى . كوشف : اطلِع عليه . زفر : نفخ . الأواه : الحزين الذى يصيح : آه آه . أسجلت : صدقت . المحدّثين : الذين حدثوه بتوبة السروجى . محدّثين ، هم المكاشفون من الزهاد الذين يحدثون بالغيوب ، كأن المكاشف قد حدث بما يقول . وقيل: المحدّثون الصَّادقون ظنًا وفراسة .

وقال صلى الله عليه وسلم: « قد كان فيمن قبلكم ،محدّثون ،فإن يكن من أمتى هذه فهو عمر بن الخطاب» . و كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه المعيًا وهو الصادق الظنِّ ، ودليله ماذكره صلى الله عليه وسلم فى عمر حديث سارية

ابن زُنَيم ، وكان عمر رضى الله تعالى عنه قد أرسله فى جيش المسلمين ، فألقى الله فى روح عمر رضى الله تعالى عنه وهو يخطُب الناس بالمدينة : إن العدوّ قد نهز المسلمين واشتد الخطب عليهم ، وكانوا بحضرة جبل ، فقطع عمر الخطبة وقال : ياسارية الجبل ، فأسمع الله تعالى سارية من مسافة شهر نداء عمر ، فانحاز بالمسلمين إلى الجبل، فتخلصوا . قوله : المصافح ،أى المعانق عند الوداع . نصب عينك ، أى غرضها وقدامها ، وأول مَنْ قال : اجعل الموت نصبَ عينك أمية بن أبى الصلت فى قوله :

كلُّ عيش وإن تطاول يوماً صائر أمره إلى أنْ يَزُولاَ
ليتنى كنت قبل ما قد بدا لِى فى رءوس الجبال أرْعَى الوُعولا
فاجعل الموت نُصب عينك واحذرْ غولة الموت إن للموت غولا

عبراتى : دموعى . يتصعدن : يترفعن . التراقى : العظام المعوجان أعلى الصدر . خاتمة التلاقى : آخر لقائه .

[شعر الوداع]

ونذكر هنا جملة من الشعر فى ذكر الوداع الذى كان بينهما ونجعلها كالتوديع لما سلف لها فى هذا الكتاب من رياض الآداب فإنها كانت أُنس الوحيد ، ومسلاة الطريد ، فمن ذلك قول بعضهم :

وداعك مثلُ وداع الرَّبيع وفقدك مثل افتقاد الدِّيَمْ
عليك سلام فكم من ندى فقدناه منك وكمْ من كرمْ

وقال آخر :

أقول له يوم ودّعته وكلٌّ بعبرتِه مُبْلِسُ
لئن رجعتْ عنك أجسامُنا لقد سافرت معك الأنفُسُ

وقال أبو سعيد الهمذانى : أنشدنى هلال بن الغلاء حين ودّعنى :

لأودعنّك ثم تدمع مقلتى   إن الدموع هى الوداع الثانى
وأصوم بعدك عن سواك فأغتدى   متقلداً صومين فى رَمَضَانِ
فى فرقة الأحباب شغل شاغلٌ   والموت صدقاً فرقة الإخوان

(وأنشدنى أبو محمد بن حزم)

لئن أَصبحتُ مرتحلاً بشخصى   فقلبى عندكم أبداً مقيمُ
ولكن للعيان لطيف معنًى   له سأل المعاينةَ الكليمُ

وكرر هذا المعنى فقال :

يقول أخى شَجَاكَ رحيلُ جسمٍ   وروحك ما لها عنه رحيلُ
فقلت له المعاينُ مطمئن   لذا طلب المعاينةَ الخليلُ

وقال آخر :

بَانُوا فأضحى الجسم من بعدهمْ   ما تبصر العين له فيّا
وواأسفى منه ومنْ قولِهِمْ   ما ضرّكَ الفقد لنا شيّا
بأى وجهٍ أتلقاهم   إن وجدونى بعدهُمْ حيّا

وقال آخر :

لا كان يوم الفراق يوماً   لم يُبْقِ للمقلتين نَوْما
شتّتَ منى ومنك شملا   فسر قوماً وساء قوما
يا قوم مَنْ لى بفقد خل   يسومنى فى العذاب سَوْما
ما لامنى الناس فيه إلا   بكيت كيما أُزاد لوما

وقال صاعد اللغوى :

قلت له والرقيب يعجله مستعجلاً للفراق : أين أنا
فمدّ كفا إلى ترائبه وقال : سر آمناً فأنت هنا

* * *

قال الشيخ الرئيس أبو محمد القاسم بن علىّ، بَرّد اللهُ مضجعه :هذا آخر المقامات التى أنشأتُها بالاغترار ، وأمْلَيْتُها بِلِسَان الاضطِرار ، وقد أُلْجِئتُ أنْ أَرْصُدَها للاستِعْرَاض ، وناديتُ عليها فى سُوقِ الاعْتِراض ، هذا مع معرفتى بأنَّها من سَقَط المتاع ، ومِمَّا يستوجب أن يُباعَ ولا يُبتاع ، ولو غَشِيَنِى نورُ التوفيق ، ونظرت لنَفْسِى نظر الشّفيق ، لسَتَرْتُ عَوارِى الّذى لم يَزَلْ مَسْتورًاً ، ولكن كان ذلك فى الكتاب مسطوراً . وأنا أستغفر اللهَ تعالَى مِمَّا أودَعْتُها من أباطيلِ اللّغو ، وأَضَالِيلِ اللَّهْو ، وأَسْتَرْشِده إلى ما يَعْصِم من السَّهو ، ويُحْظِى بالْعفوِ ، إنّه هو أهلُ التَّقْوى وأهلُ المغفِرة ، ووليُّ الخيرات فى الدّنيا والآخرة .

* * *

قوله : أنشأتها ، أى صنعتها . الاغترار : الجهل والانخداع . أمليتُها : ألقيتها لمن يكتبها . واضطر اضطراراً إذا لم يجدَ بُدًّا من فعله . أرصدتها : أعددتها . الاستعراض : أن تعرض على النّاسِ حَتَّى يروْها . سقَط المتاع : هجينة . يبتاع : يشترى . غَشِيَنِى : غطانى . أودعتها : ضمنتها . اللَّغْو : سَقَط الكلام . الأضاليل : جمع أضلولة ، وهى مايضل به مَنْ ركبه . أسترشده : أستهديه . يعصم : يمنع . السهو : الخطأ . يحظى : يسعد . العفو : المغفرة .

وقوله : هو أهل التقوى ، عن أنس رضى الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يقول ربُّكم عز وجل: أنا أهلُ التقوى فلا يشرك بى غيرى، وأنا أهل لمن اتقى أن يشرك بى أن أغفر له .

* * *

انتهى الشرح بحمد الله وتوفيقه وحسن عَوْنه،وكان من توفيق الله تعالى أن أوّل حرف شرحت من اللغة فى هـذا الكتاب حَمْد الله ، وآخر حرف ختمت به عَفْو الله ، وما وقع بين حمد الله سبحانه وتعالى ، والثناء عليه ، وبين عَفْوِه عن عبيده مرجوٌّ من جميل صنعه الامتنان بالصفح عن جميع هَذَرِه ، وملتَمَس من جلاله تعالى وكرمه جزيلُ الأجر على ما ضمنته من حكم الآداب وغيره .

[ذكر فى العفو عن المذنبين]

واذكر فصلاً أدبيًّا فى العفو عن المذنبين، أختم به الديوان ، فمن وَقَفَ عليه ، ووجد فى نفسه لذّته، واستشعر؟ لرجاء ، وطمع فى العفو ، فرغبتُنا إليه أن يسأل لنا العفو مع نفسه .

فمن ذلك أنه كان للمأمون خادم لوضوئه ، فبينما هو يصب الماء على يديه إذ سقط الإناء ، فغضب المأمون فقال له الخادم : ياأميرَ المؤمنين إن الله تعالى يقول:﴿والْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾،قال: كظمت غيظى،قال:﴿والعافين عن الناس﴾، قال : عفوت عنك ، قال : ﴿ الله يحبُّ المحسنينَ ﴾، قال : اذهب فأنتِ حرٌّ .

وأمر عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه بعقوبة رجل، فقال له رجاء بن حيوة: إن الله تعالى قد فَعَل ماتحبُّ من الظفر ، فافعل ما يحبُّ من العفو ، فعفا عنه .

العتبى:وقعت دماء بين حيَّيْن من قريش ، فأقبل أبو سفيان فما بقى أحد

واضع رأسه إلّا رفعه ، فقال : يامعشرَ قريش ، هل لكم فى الحق أو فيما هو أفضل من الحق ؟ قالوا ؟ وهل شىء أفضل من الحق ؟ قال : نعم العفو، فتبادر القوم فاصطلحوا .

قال المبارك بن فضالة : كنت جالساً فى السِّماط عند أبى جعفر إذ أمر برَجلٍ أن يُقْتَل فقلت: يا أمير المؤمنين ، قال صلى الله عليه وسلم: « إذا كَان يوم القيامة ينادِى منادٍ بين يدى الله عز وجل : مَنْ كَانت له يد عند الله فليقُمْ، فليتقدم فلاَ يتقدَّم إلا من عفا عن مذنب » . فأمر بإطلاقه .

وكَان رجل شرِّيب جمع قوماً من ندمائه ودفع إلى غلام له أربعة دراهم أن يشترىَ بها من الفواكه للمجلس ، فمرَّ الغلام بباب مجلس منصور بن عمار، وهو يسأل الفقير شيئاً ، ويقول : مَنْ دفع له أربعة دراهم دعوتُ له أربعَ دعوات ، فدفع له الغلام الدراهم، فقال له منصور : ما الذى تريدُ أن أدعو لك ؟ قال : أن يعتقنى الله من رقِّ العبودية ، فدعا له منصور وأمّن الناس . قال : والثانية ؟ قال: أن يخلف الله علىّ الدراهم ، فدعا له وأمّن الناس، قال : والثالثة ياغلام ؟ قال : أن يتوب الله على مَوْلاَى، فدعا له وأمّن الناس، قال : والرابعة ياغلامُ؟ قال : أن يغفر الله لى ولمولاى ولك يامنصور وللحاضرين ، فدعا منصور وأمّن الناس ، فرجع الغلام ، فقال له مولاهُ لمَ أبطأت ؟ فقص عليه القصة ، قال : وبمَ دعا ؟ قال : سألت لنفسى العِتْق ، قال : اذهب فأنت حرّ ، قال : والثانية ؟ قال: أن يخلف الله علىّ الدراهم، قال: لك أربعة آلاف درهم ، قال : والثالثة ؟ قال: أن يتوب الله عليك ، قال : تبت إلى الله عز وجل . قال : والرابعة ؟ قال : أن يغفر لى ولك ، وللواعظ وللحاضرين ، وقال : هذه الواحدة ليست إلىّ. فلما بات رأى فى المنام كأن قائلاً يقول : أنت فعلت ما كَان إليك، أترانى لا أفعل ما كَان إلى ! قد غفرت لك وللغلام ولمنصور وللحاضرين .

قال يحيى بن معاذ : يكاد رجائى لك مع الذنوب يغلبُ رجائى لك مع الإخلاص ،لأنى أعتمد فى الإخلاص على الأعمال ، وفى الذنوب أعتمد على عفوك ، وقال السّلامى .

تبسطنا على الآمال إنا رأينا العفو من ثمر الذنوب

وقال بكر بن سليمان الصواف : دخلنا على مالك بن أنس فى العشيَّة التى قُبض فيها ، فقلت: يا أبا عبد الله، كيف تجدك؟ قال : لاأدرى ما أقول لكم ، ستعاينون من عفو الله تعالى مالم يكن فى حسابكم . ثم ماخرجنا حتى أغمضنا عينيه .

وفى الحديث:«لو لم تذنبو الجاء الله بأمة يذنبون فيغفر لهم»،وقال أبو نواس:

يانوامى توقَّرْ وتعزى وتَصبَّرْ
ساءك الدهر بشيء ولَمَا سرك أكثرْ
يا كبير الذنب عفو الله من ذنبك أكبرْ
أكبر الأشياء فى أصغر عفو الله أصغرْ
ليس للإنسان إلاّ ماقضى الله وقَدّرْ
ليس لمخلوق تدبيرٌ بل الخالق دَبَّرْ

وقال أبو العتاهية :

إلهى لا تعذِّبْنِى فإنى مقربا بالذى قد كَان منِّى
فما لى حيلة إلا رجائى لعفوك إنعفوت وحُسْنظنى
يظن الناس بى خيراً وإنى لشَرُّ الناس إن لم تعف عنى

وكم من زلة في الخطايا ... وأنت عليّ ذو فضل ومنّ
إذا فكرت في ندمي عليها ... عَضَضْتُ أناملي وقرَعْتُ سِنّي

وهذا آخر شعر قاله أبو العتاهية ، وآخر شعر ختمت به هذا الشرح ، راجياً من ربى صفحه وعفوه ،والحمد لله أولاً وآخراً كما يجب لجلاله غفرانك. اللهم تباركت وتعاليت . والحمدلله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ، ورضى الله تعالى عن أصحاب رسول الله أجمعين وعن التابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين .

فهرس المقامات